المعرفة

AL - MARIFA

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٦٩ - السنة ٤٩ - صفر ١٤٣٢ هـ - شباط ٢٠١١م

الإبداع والاغتراب

افتتاحية العدد

الدكتور رياض عصمت

وزير الثقافة

كلمة العدد

الموسيقى التركية - العربية (القواسم المشتركة)

د. علي الديم رئيس التحرير

حقيقة الأكوان المتوازية
موسى ديب الخوري
المترجمون ناشرون للمعارف
ترجمة: د. ملكة أبيض
صراع البروتينات في داء الزهايمر
د. ماري شهرستان
سيكولوجية المال
د. محمد قاسم عبد الله
حلب الشهباء ومولد التاريخ
عبد الفتاح قلعه جي
الثقافة العربية والثقافة الافريقية
عبد الباقي يوسف
الممانعة الثقافية للتنمية في الوطن العربي
د. علي أسعد وطفة
حلب في سيرة الظاهر بيبرس
د. احمد فوزي الهيب

الإبداع

إثنا الخالدة (شعر) سليمان العيسى
وصايا الحب (شعر) نادر زين الدين
تشبهك تماما..! (قصة) غانم يوحمود
وردة ورماد (قصة) تيروز مالك

النسبية في الطبيعة

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

حوار العدد مع الفنانة جيانا عيد

المعرفة

AL - MARIFA

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٦٩ السنة ٤٩ - صفر ١٤٣٢ هـ - شباط ٢٠١١ م

الهيئة الاستشارية

د. طيب تيزيني

د. عبد الكريم الأشتر

د. حسام الخطيب

أ. شوقي بغدادي

أ. وليد إخلاصي

د. بدر الدين عرودكي

أ. محمد قجة

التصميم والإخراج:

أحمد إسماعيل

التدقيق اللغوي:

سمر الزركي

التنضيد:

ريما محمود - ابتسام عيسى

رئيس مجلس الإدارة

الدكتور رياض عصمت

وزير الثقافة

رئيس التحرير

د. علي القيّم

معاون وزير الثقافة

أمين التحرير

محمد سليمان حسن

الإشراف الفني والطباعي:

م. ماجد الزهر

دعوة إلى الكتّاب والمفكّرين العرب

- ترحب مجلّة المعرفة بإسهاماتِ الكُتّاب والمفكّرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية

- يفضّل أن تتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠ - ٤٠٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٤٠٠٠ - ٦٠٠٠ كلمة

- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:

اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققا، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً

ترجو المجلة من كتابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم

- ترجو المجلة أن ترد الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها

- تلتزم المجلة بإعلام الكتاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلمها. ولا تُعاد لأصحابها

- يُرجى توجيه المراسلات إلى المجلة على العنوان التالي:

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة - رئيس تحرير مجلة المعرفة - تلفاكس ٣٣٣٦٩٦٣

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

سعرُ النسخةِ ٢٥ ل.س أو ما يُعادِلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارجَ القطر

www.moc.gov.sy

الإشراف الطباعي: مطابع وزارة الثقافة

في هذا العدد

كلمة الوزارة

الإبداع والاتباع

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

كلمة العدد

الموسيقى التركية - العربية (القواسم المشتركة)

د. علي القيّم
رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

حلب الشهباء ومولد التاريخ ..... عبد الفتاح قلعه جي ١٩
مدن البنتابول ..... د. خليل المقداد ٤٠
الثقافة العربية والثقافة الأفريقية ..... عبد الباقي يوسف ٦٤
الممانعة الثقافية للتنمية في الوطن العربي ..... د. علي أسعد وطفة ٨٤
صراع البروتينات في داء الزهايمر ..... د. ماري شهرستان ١٠٠
المخطوطات العربية المترجمة ..... د. محمد ياسر زكور ١١٨
المترجمون ناشرون للمعارف ..... د. ملكة أبيض ١٣٣
حروف الجر من خلال معجم لسان العرب ..... أحمد بن عجمية ١٤٨
سيكولوجية المال ..... د. محمد قاسم عبد الله ١٦٥

الإبداع

شعر :

إرثُنا الخالد هذا ..... سليمان العيسى ١٧٧
وصايا الحب ..... د. ثائر زين الدين ١٨١

قصة :

ورد ورماد ..... نيروز مالك ١٨٥
تشبهك تماماً..! ..... غانم بو حمّود ١٩١

آفاق المعرفة

من جديد.. لغة الجسد وقديمها ..... د. خير الدين عبد الرحمن ٢٠١

الشبع والجوع النفسي ..... د. معمر نواف الهوارنة ٢١٢

من تاريخ الشعر في سورية ..... د. محمد رضوان الداية ٢٢١

أكثر من وجه واحد ..... د. عبد الكريم الأشتر ٢٣١

كائن أدبي حداثي.. هل يحمل هُويات القرن الجديد ..... د. بغداد عبد المنعم ٢٤٠

المركيزة مدام دو بامبادور ..... إبراهيم سلوم ٢٤٩

التوحيدي وسؤال الصداقة ..... رزاق كريمة ٢٦٥

النابغة الشيباني.. حياته وشعره ..... د. نزار عوني ٢٧٩

الذكرى الخامسة والسبعون لرحيل الموسيقار الأرمني كوميداس.. د. نورا أريسيان ٢٨٥

حلب في سيرة الملك الظاهر بيبرس ..... د. أحمد فوزي الهيب ٢٩٧

هل العلم يخدم العدالة ..... المحامي هائل منيب اليوسفي ٣١٢

الثورة المعرفية الكونية ..... د. منير سويداني ٣١٩

الإبداع الفني.. وبناء التاريخ ..... إسكندر نعمة ٣٢٧

حقيقة الأكوان المتوازية ..... موسى ديب الخوري ٣٣٢

حوار العدد

جيانا عيد ..... إعداد: عادل أبو شنب ٣٤٧

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي..... إعداد: أحمد الحسين ٣٥٧

كتاب الشهر

النسبيّة في الطبيعة ..... محمد سليمان حسن ٣٧٣

آخر الكلام

الثقافة الكونية ..... رئيس التحرير ٣٨١

كلمة الوزارة

الإبـــداع والاتبـــــاع

عندما كنّا شباباً، كنّا نحمل فكرة مضللة جعلت بعضنا مغرماً باستعراض عضلاتـه الثقافية ومعارفه النقديـة. خرج بيننا من أصحـاب المواهـب الأدبية أيـام الجامعة من يتبجـح بقدرته على كتابـة نصوص شديـدة الإبهام، بحيـث تتجاوز حـدود الغموض

الفنـي الـذي كنّـا نلمسـه في أشعـارت. سـ. إليـوت ومسرحيات صموئيـل بيكيت وقصص إدغـار ألن بو وروايات فرانز كافكا. لم يفهم أولئك الشباب بيننا أن المهارة الفنيـة هـي في الترميـز الذكي، وفي الـرؤى الموحية، وفي الأحـلام السيريالية التي تصـل إلى شكل الكوابيس. سرت موجـة التأثر بالحداثة إلى بعض الأدباء الشباب العـرب، إنّمـا بوعـي وموهبـة متأصلـين، فخرج مـا يسمى بجيل مجلـة «جاليري ٦٨» في مصـر، ومـا يسمى «جيل السبعينات» في سوريـة، وظهرت محاولات متعددة لمسرح اللامعقـول. والأغـرب من ذلك أن بعض كبار الأدبـاء العرب نهجوا منهج الحداثـة والتغريب والعبـث. يذكر جيل السبعينـات، مجموعتي نجيب محفوظ «تحت المظلة» و«خمارة القط الأسود»، ويذكر أشعار أدونيس وخليل حاوي ومحمود درويش، ويذكر مسرحيتي توفيق الحكيم «يا طالع الشجرة» و«مصير صرصار»، كما يذكـر مسرحية «الأميرة تنتظـر» لصلاح عبد الصبور، ويذكر قصة «تلك الرائحة» لصنـع الله إبراهيـم، ومجموعـة «خمس جرائد لم تقـرأ» لمجيد طوبيـا، كما يذكر «صهيـل الجواد الأبيض» و«ربيع في الرماد» و«الرعـد» و«دمشق الحرائق» و«النمور في اليـوم العاشـر» لزكريا تامـر. هناك أعمال أدبية حداثيـة رائعة لعبد الرحمن منيف وإبراهيم الكوني وحيدر حيدر. وهناك أفلام طليعية مهمة ليوسف شاهين، منهـا فيلمـه «الاختيار». كانت تلك أعمالاً رائعة ما زالـت حية ومؤثرة عربياً إلى اليـوم. ولكـن، بالمقابل، ظهرت أعمـال مقلدة كثيرة افتقـرت إلى الحد الأدنى من الموهبـة، متذرعـة بغموض يصل حد إبهـام فارغ من المعنى والإيحـاء. وقد ظلت تلـك الموجـة ساريـة، تحت رايـة التشبـه بألفريد جـاري أو بيكيـت أو يونيسكو أو آرابال أو آداموف، من دون هضم الأسس التي يقوم عليها المسرح الحديث. وتعرض

بعض الأدباء إلى مقالب ساخنة، فأحدهم نشر مسرحية زعم أنها مترجمة عن دورنمات، بحيث كيل لها التقريظ والثناء على أنها فتح جديد في مسرح العبث، ليكشف النقاب عن أنها من بنات أفكاره - علماً بأن من امتدحها آنذاك فاتهم أن دورنمات لا يصنف بين كتاب العبث أو اللامعقول. وهناك صحفي آخر جمع قصيدة من قصاصات جرائد بصورة اعتباطية، ثم عرضها على عدد من الأدباء والنقاد، فامتدحها أغلبهم، وذمها قلة منهم، وتجاهلها أحدهم، ليكشف فيما بعد على الملأ فضيحة كون القصيدة المذكورة تجميعاً عشوائياً لكلمات وجمل لا ترابط بينها من الصحف اليومية. في اعتقادي إنه في الحالتين لم تسرِ اللعبة على الأدباء والنقاد الحقيقيين، الذين لم يبهروا بالاسم الأوروبي الشهير، أو تنطلي عليهم خدعة الشاعر العظيم المجهول. لكن المخدوعين كانوا من أصحاب المواهب المتوسطة، الذين تغرهم الأضواء، وتغريهم الأسماء، فيتورطون من دون حكمة في القدح كما في الثناء.

نأتي على ذكر هذا ليس تنكراً منّا لأهمية الحداثة في الإبداع الفني، بل على العكس.. دفاعاً عن قيمة الحداثة المقترنة بموهبة مجددة حقيقية، وليس مجرد اتباع عشوائي هدفه مجاراة «صرعة» أو «موضة». الحداثة الحقيقية -كما صورها ذات مرة الناقد والأديب البريطاني الكبير الراحل مالكولم برادبري في مؤتمر أدبي في جامعة كيمبريدج- تشكل قيمة تجاوزية وطليعية بدأت منذ بدايات البشرية، واستمرت، وستبقى. في اعتقادي، ترتبط الحداثة بتعطش جمهور الشباب إلى الجديد، ولكن ليس كل جديد يحمل «حكم قيمة» لمجرد جدته، فالحداثة رؤية وتعبير من أجل تواصل وتأثير أعمق وأبقى، وهي ليست هذراً ولعباً مجاني الهدف.

لذا، أعود لأذكِّر أن الشباب ليس مسألة عمر فعلي للإنسان، بل هو تفاعل مع البيئة المحيطة. فنجيب محفوظ استطاع مجاراة الشباب في قصصه ومسرحياته وبعض رواياتـه منـذ «ميرامـار». وزكريا تامـر ظل شاباً في تعبيره القصصـي رغم تجاوزه السبعـين مـن العمـر. كذلك، بالطبـع، كتاب مـن وزن ماركيز وكويللـو وألليندي مـن أمريكا اللاتينية والجنوبية، كذلك تـوني موريسون وبول أوستر من الروائيين الأمريكيين المعاصرين. إذن، يستطيع أصحاب المواهب الأدبية من الشيوخ الارتقاء بذائقتهـم الجماليـة وأساليب تعبيرهم لتجاري تطور العصر وحاجات قرائهم في مجتمعاتهـم، ومـن ثـم في العالم، قافزين فـوق حواجز الزمن مـن حيث المضمون والشـكل. ومـا نقوله عـن الأدب ينطبق على المسـرح والسينمـا، فالحداثة ليست اغتراباً عن جميع شرائح الجمهور، بل توسيعاً للجمهور عن طريق إضافة شريحة جديدة تملأ الفراغ الناجم عن ملل شريحة تقليدية انفضت عن أساليب التعبير المحافظـة. ولا بـد أن نذكـر بين المبدعين الكبـار الذين استطاعوا مجـاراة أجيال الشباب الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب، الذي لحن لعبد الحليم حافظ بشكل نافس محمد الموجي وكمال الطويل وبليغ حمدي في صياغة ألحان شبابية رشيقة وحيوية، بل إنه جدد مسيرة نجمة الغناء العظيمة أم كلثوم، ليسير جنباً إلى جنب مـع بليـغ حمدي الشـاب آنذاك. كذلك فعـل المخرج الكبير يوسـف شاهين، الذي راوح بين سينما الغموض الفني الجدير بمسابقات المهرجانات، وبين إخراج أفلام جماهيريـة ذات قيمـة فنية مثل «الناصر صلاح الدين» و«الأرض» و«بياع الخواتم» و«بونابـرت» و«المصـير» و«سكوت حنصور»، مما جعلـه خالداً بعد رحيله عن الحياة في ذاكـرة الأجيال القادمـة. كذلك فعل الرحبانيان عاصـي ومنصور، ثم إلياس،

ثـم زيـاد، مع أغاني فيروز، فظلـوا أسطورة في الحداثة والتجديـد في ذاكرة جميع الأجيال. ولا أحد ينكر مقدار التجديد في أغاني جوليا بطرس أو ألحان مارسيل خليفة، ولكنهما يظلان قريبين من الجماهير العريضة من دون تنازلات.

يخلـق هوس الحداثة المبالغ بـه في بلادنا النامية صدمات للجمهور العريض تجعلـه أحيانـاً كثيرة ينفض تماماً عن الإقبال سـواء على المطالعة، أو على ارتياد المسـارح، أو مشاهـدة الأفلام الفنية الجادة. لذلـك، لا بد من التعامل بحذر لدى استقطـاب أعمـال أدبيـة وفنيـة لترجمتهـا أو عرضهـا، لأن دورهـا الحقيقي هو التحريض البناء، والإلهام الخلاق، وليس نبذ الجمهور أو تغريب العمل الإبداعي عن الثقافات الأخرى. من المؤسف أن نجد من يروج بإصرار لأعمال غير جماهيرية، منتجـة محليـاً أو مستوردة، في حين يُهمـل عمداً ويتعالى علـى كل إنتاج إبداعي يحمـل صفـة الجماهيرية، حتى لو اتسم بحداثة وتجريـب نسبيين، وكأن مقياس النجاح يقاس بمدى الاغتراب عن الثقافة العربية، وعن الجمهور العريض.

كثيراً ما أعجب شخصياً بأعمال أوروبية خلال جولاتي المسرحية إلى مهرجانات مثـل «أفينيـون» الفرنسـي و«أدنـبره» البريطاني و«أوروس» الدانماركـي و«القاهرة للمسرح التجريبي» وسواها، ولكنني لا أستطيع تعميم ذوقي وقسره على الجمهور العريـض، لأنني أعلم علم اليقين بأنها ستسبـب صدمة تسفر عن إضاعة الجهد والمـال. بالمقابـل، لا أنكر أن بعض الأعمال الحداثيـة العبقرية يمكنها تجاوز كل الحـدود المألوفـة والمتعـارف عليها، لتحدث أثـر صدمة خلاقـة وإيجابية ومبهرة لدى الجمهور العادي، كما حدث في مرات قليلة أطل على عواصمنا العربية فيها عمل فرنسي أو بولندي أو بريطاني أو ألماني طليعي عظيم، يحمل قيمة استثنائية

من حيث نجاحه في التجريب. أما الغالبية العظمى من الأعمال المستوردة، التي أصبح لها مريدون وأتباع مقلدون عندنا، فهي بلا أثر، سوى تنفير جماهيرنا من الحداثة، طالما تفتقر إلى الهوية والموهبة. ولكن أعظم الإبداعات تلك التي تجمع المجدين: مجد الحداثة الطليعية، ومجد الجماهيرية الواسعة.

كلمة العدد

الموسيقى التركية - العربية (القواسم المشتركة)

د. عـلي القـيّم
رئيس التحرير

الموسيقى العثمانية هي الشكل المتبلور للصوت، هي جمال علوي، وهي بشكل عام موسيقى إيمانية استهدفت بقالبها العسكري الظفر بالجهاد الأصغر، وبقالبها الديني الظفر بالجهاد الأكبر، الذي هو المعركة الكبرى مع النفس، وسمتها الأساسية الترنّم بالحقيقة التي يدركها الحس وحده.

الموسيقى التركية وضعت على الفواصل الخمس البنتاتونيه في شمال وشرق آسيا، وعلى الفواصل السبع الهيباتونيه في جنوب وغرب آسيا، وتعتمد

بوجه عام على ثمانيات صوتية (أوكتاف) تنزل خافتة من السريع إلى البطيء، وهي موسيقى يعزفها ويغنيها في الأصل (تاريخياً) شخص واحد (مثلما نرى في شخصية شاعر الربابة عند العرب) بأصول وأوزان إيقاعية أو بغير أصول، ولكن لا بد من مقام معين، وهي تركّز، مثلما هو الحال في الموسيقى العربية، على الصوت البشري، ولا تستخدم من الموسيقى إلا الإيقاع والنغم، وتنتقل من جيل إلى آخر عن طريق التعلّم والنقل المباشر، وليس عن طريق «النوتة» كما هو الحال في الموسيقى الغربية.

الأتراك في الماضي، كما هو الحال عند العرب، لم يهتموا كثيراً بالتدوين الكتابي لأعمالهم الموسيقية، وآثروا أن يودعوا أحاسيسهم وأساليبهم أمانة على آذان العازفين وأرواحهم وليس على الورق، وهم لم يكونوا يجهلون «النوتة» ولكنهم آثروا أن يحفظوا في ذاكرتهم وفي مشاعرهم، وهذا ما ساعد على تطوير الموسيقى التركية في الاتجاه اللفظي أي (الشعر) أكثر من التركيز على الآلية، مثلما هو الحال في الموسيقى العربية، وعندما يذكر الشعر لا يمكن أن نتصور الموسيقى خارج نطاق العروض (الوزن العروضي والوزن الإيقاعي) وهذه سمة أساسية من سمات الموسيقى العثمانية والتركية بشكل عام.

السمة المميزة للموسيقى التركية بشكل عام إنها ليست للأداء الجماعي إلا في موسيقى الجيش والتكايا والترفيه، ولم تؤدَّ أبداً عن طريق الكورس، أما الوصلات (أو موسيقى الفاصل) التي كانت تعزف في السراي والأوساط الراقية من الموسيقى الكلاسيكية أو الشعبية فهي بعيدة كل البعد عن «الكورس» الموجود حالياً، سواء من ناحية الكادر أو من ناحية المحفوظات، فالكورس تطبيق ينافي السمة الأصلية للموسيقى التركية.

❁ ❁ ❁

لقد حصل الاحتكاك والتفاعل بأشكال مختلفة بين الموسيقى التركية والعربية، وقد استعان الأتراك بالحضارات المجاورة في التّسميات وفي تطوير الآلات الموسيقية والمقامات، وبالمقابل انتقلت مصطلحات فنية تركية إلى الموسيقى العربية وموسيقى

الشعوب الإسلامية الأخرى، وتمّ تطوير قوالب موسيقية بمقامات وأصول أكثر تنوعاً وغنى، مما أثرى الموسيقى الشرقية بشكل عام وساهم في تطويرها وانتشارها في شتى أرجاء الوطن العربي، والدليل واضح في مئات البشارف والسماعيات التي وضعها الموسيقيون في استانبول بوجه خاص، واحتلت مكانة متميزة في التراث الموسيقي العربي.

لقد حافظت الموسيقى التركية على مكانتها وانتقلت من جيل إلى جيل عن طريق التلقين، المباشر، والتعليم في أماكن مختلفة أهمها: المهترخانة، والمولويخانة، والأندرون والمنتديات الخاصة بأرباب الطرب ودور التعليم الخاصة، وجميعها كانت بمثابة معاهد تعليم وتدريب أساسية ساعدت على ترغيب المجتمع في الموسيقى، والتعرّف عليها ثم نشرها بين الناس عن طريق الألحان والحفلات، ويمكن الإشارة إلى أشهر المؤسسات الموسيقية:

- المهترخانة: وهي مدرسة الموسيقى العسكرية التي عرفت في عهد السلطان الفاتح بهذا الاسم، بينما عرفت في زمن الأتراك باسم (طوغ) وكانت تستخدم آلات النقر والنفخ، وكانت الموسيقى العسكرية من أصول الحرب التركية، وقد عُرف هذا النوع من الموسيقى منذ العهد السلجوقي باسم (طبلخانة)، وتتألف من ست آلات موسيقية، اثنتان منها نفخية، وأربع (نقرّية)، وكانت هذه الموسيقى تعزف أيضاً في الاحتفالات والألعاب الرياضية.

وفي مقابل هذه الموسيقى، كانت هناك موسيقى الحياة اليومية، وهي موسيقى (النوبة) التي تُعرف خلال أوقات الصلاة وفي المناسبات الرسمية المهمة وإلى جانب وظيفتها الدينية فإن لها أيضاً صفة حفل شعبي ذي طابع عسكري، يقوم بالعزف فيها فريق يصطف وقوفاً على شكل هلال، وقد ازدهر هذا النوع من الموسيقى (المهترخانة) منذ القرن السادس عشر الميلادي، حتى عام ١٨٢٨م عندما قام السلطان محمود الثاني بإغلاق (المهترخانة) وتم تشكيل مدرسة (باندو) للسراي بدلاً عنها، وهي نسخة من الباندوهات الغربية التي عرفت باسم (موزيقة همايون).

- تكايا المولوية (مولويخانة): وهي المنتديات الروحية، التي يمرّ فيها المتعلم بمراحل (بدنية وفكرية وروحية) تهدف إلى الانضاج والوصول بالمتعلم إلى مرتبة الإنسان الكامل، وقد انتشرت وتطورت هذه التكايا منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وقد مهّدت لظهور طريقة في السماع والرقص في العديد من المناطق التركية والعربية، وكانت «قونية» أشهرها، وقد قام أتباع هذه الطريقة من الموسيقيين بإبداع مجموعة من الأعمال الموسيقية في غاية الجمال والروعة، مما ساهم في ذيوعها وانتشارها في شتى أرجاء العالم الإسلامي.

- مدرسة الأندرون: التي تخرج منها الصفوة من الموسيقيين، وكانت داخل سراي الحكومة، وقد توقف العمل فيها عام ١٨٣٣ على يد السلطان محمود الثاني مع تشكيل (الاندرون الهمايوني).

لقد ارتبط تطور الموسيقى التركية ومسارها على مدى التاريخ بالحياة الموسيقية في الحواضر التي أقامتها الدول التركية المختلفة، فالمرحلة من الفارابي الكبير الذي عاش في القرن العاشر الميلادي حتى العطري الاستانبولي، أكبر الموسيقيين في القرن السابع عشر، ليس صدفة أن تتم في مدن كانت تقوم بوظيفة المركز الثقافي، وتنتقل من مدينة إلى أخرى مثل: فاراب- قشعر- غزنة- بلخ- هرات- رومّية- بغداد- حلب- قونية- بورصة- أدرنة- استانبول، ومن المفيد الإشارة إلى أن الأتراك حملوا موسيقاهم إلى البلدان التي فتحوها، ورأوا أن هذه الموسيقى أرهبت بمعظمها العسكرية (المهتر) سكان تلك البلاد، فلم يلبثوا أن مالوا إليها مع جاذبية التشريفات (موسيقى النوبة)، ولم يلبث الموسيقيون هناك بعد فترة أن مالوا إليها وتأثروا بها مع بعض التغييرات، تبعاً لطبيعة لغاتهم وأذواقهم القومية وهذا ما حدث في البلدان العربية وغيرها من الدول في آسيا وأوروبة، لدرجة أن الموسيقى العسكرية التركية أثرت على مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية.

❁ ❁ ❁

لقد لعبت الطبقات الراقية وتكايا المولوية في البلدان العربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي، دوراً مهماً في التعرف على الموسيقى العثمانية التركية، واستمر التأثير التركي على الموسيقى العربية لفترة تقرب من خمسة قرون حتى أواخر القرن التاسع عشر، وظلت موسيقى العاصمة العثمانية مسموعة في حواضر العرب الكبرى لقرون عديدة، واستمر هذا حتى بداية القرن العشرين، عندما شعر الأتراك أن موسيقاهم «بدائية» فسعوا للاتجاه نحو الموسيقى الغربية، على عكس ما فعل العرب في هذه الفترة، حيث تمسكوا بموسيقاهم التي تحمل كثيراً من التأثيرات التركية

وباختصار يمكن القول: من يدقق في الإرث الحضاري الموسيقي التركي، يجد أنها توأم الموسيقى العربية، وقد تطورتا نظرياً وعملياً من بيئات شرقية إسلامية على مرحلتين:

- الأولى: تتسم بالأصالة العربية والتركيز النظري والعملي حتى العصر الذهبي العباسي.

- الثانية: تتسم بالتفتح والتثاقف والتداخل مع مختلف العناصر المكونة للعالم الإسلامي، تمكنت بعدها بدعم من السلطة العثمانية، من التألق ثانية في مجالات الخلق والإبداع.

المرحلة الأولى، مراجعها قليلة، ويوجد من الوثائق ما ذكره (أبو الفرج الأصفهاني) في كتابه (الأغاني) من أن أبا يحيى عبد الله بن سريج المغني الذي طوت شهرته أرجاء الحجاز ليعتبر من أصول الغناء العربي في العهد الأموي، مع ابن محرز ومعبد ومالك، وقد ولد بمكة المكرمة في السنة الثانية عشرة للهجرة من أب تركي، ولابد أنه قد تأثر بكلامه وبألحانه وتقاليده التركية.

ويروي لنا الكتاب نفسه أن مسلم بن محرز بن المكي، سافر إلى فارس وتعلم الغناء بها، ثم صار إلى الشام وتعلم بها غناء الروم، ليحدث بعد ذلك مدرسته الخاصة التي

أنتج بها غناء (الرمل) وطوّر بها الغناء العربي من الاعتماد على البيت الواحد من الشعر إلى البيتين، وتبعه المغنون بعده في أغلب الدول الإسلامية، ويعتبر إنتاج ابن محرز، أول تفاعل حقيقي بين الموسيقى العربية والتركية.

واشتهر في العصر العباسي زامر تركي يدعى (برسوم) كان على درجة من الفن، جعلت أكابر فناني عصره مثل (إسماعيل بن جامع) و(إبراهيم الموصلي) يتحاكمان لديه فيجيبهما بقوله: الموصلي بستان تجد فيه الحلو والحامض والطري والذي لم ينضج، فتأكل من هذا وذاك، وابن جامع زق عسل، إن فتحت فمه خرج عسل حلو تأكله.

أما الفترة الثانية، فقد كانت فترة تحول جذري تعانق فيها الشعبان العربي والتركي، تحت راية الدين الإسلامي، وامتزجت ثقافاتهما امتزاجاً كلياً، وظهر ذلك جلياً في نظم الأغاني والتأليف الموسيقي، وفي مستوى الترنيمات الموسيقية، فإخواننا الأتراك يستعملون الكلمة العربية (ياليل) وما تفرع عنها مثل (يالالّلي)، كما نستعمل في الغناء العربي حتى اليوم (جانم وأفندم) و(آمان) للاستعطاف، كما اشترك الشعبان مع الشعب الإيراني في توحيد أسماء درجات السلم الموسيقي أو أسماء المقامات الموسيقية أو المصطلحات الغنية.

ودخل الغناء التركي شتى أرجاء الوطن العربي عن طريق التهاليل المستعملة في المساجد، وقبيل صلاة العيدين، ومنهم من يترنم بها عند الإتيان بالإمام من بيته إلى الجامع، وحتى المآتم...

وكان للمعهد الموسيقي الرسمي باستانبول المعروف باسم (دار الألحان التركية) دوره الفعّال في خدمة الموسيقى التركية بشكل خاص والموسيقى الشرقية بشكل عام، حيث أنه كان قبلة الفنانين، وقد تخرج منه العديد، وأقيمت في رحابه أبحاث على غاية من الأهمية في شتى المجالات الموسيقية، ساهم بها خير إسهام في تطور ودراسة الموسيقى

العربية، وكانت أكثر اتجاهات هذه الأبحاث تتبنى وجهة النظر العربية المتوارثة، ونلاحظ أن هذا التثاقف بين الموسيقى التركية والعربية مكّن من ازدهار وتطور الموسيقى على يد عبده الحمولي ومحمد عثمان، وتم تهذيب التواشيح والقدود وتبادل ترجمتها بين الشعبين، وبفضل التثاقف الإيجابي بين الموسيقى السورية والتركية، فإن الموسيقى المصرية انطلقت في أواخر القرن التاسع عشر لتقدم بدورها أجلَّ الخدمات للتراث الموسيقي العربي.

❁ ❁ ❁

يبرز التأثير التركي في الموسيقى العربية في القوالب الآلية مثل: البشرف والسماعي واللونغا.. مما مكن تطوير التخت الشرقي الذي يشمل الموسيقى في شتى أرجاء الوطن العربي وما جاورها، وهذا التخت يتألف تقليدياً من الآلات التالية:

- عود كبير
- عود صغير، (مازال دوره أساسياً في إيران وتركيا).
- قانون صغير
- الناي (انتشر بفضل الطرق الصوفية وخاصة المولوية).
- البزق: آلة دخلت عن طريق الغجر الرحل، وتمتاز بنغماتها الوسط.
- الإيقاع: الدف- الدربكة- النقرات.

التخت الشرقي الذي يرافق الغناء ولاسيما ما يمكن تسميته بـ«الموشحات التركية» المأخوذة من الموشحات العربية، مازال على الصورة القديمة المعروفة عنه، ولم يسمح بدخول الآلات الغربية إليه، كما حافظوا على دور المجموعة كاملاً في الغناء باعتبار الموشح أغنية جماعية، وهذا بخلاف ما هو حاصل في الوطن العربي في وقتنا الراهن.

أما الإنتاج الغنائي فقد ظهرت منه التقاليد العربية الأندلسية في الغناء التركي التقليدي المعروف بكلمة (شرقي) وكان يقدم ضمن الفاصل، وارتبطت معزوفات

تركية بالتراث العربي، وبالمقابل فإن مدينة استانبول، كانت مقصد الأدباء والعلماء، والفنانين من جميع أنحاء الوطن العربي، كفترة زمنية طويلة، فيقدمون فيها إنتاجهم، ويقتبسون روائع ما يسمعون بها، ومن ذلك نتج وأثمر ما نلاحظه من تشابه كبير بين القطع والأغاني العربية والتركية، وكان من أبرز الزائرين من سورية الشيخ علي الدرويش، ومن مصر محمد عثمان وعبده الحمولي، وكان من ثمار هذه الزيارات موشحات وأدوار وبشارف عديدة أثرت الموسيقى العربية والتركية على حد سواء، نذكر من هذه الأعمال الشهيرة والتي مازالت تردد حتى اليوم موشح «اسقني الراح وافرح الأرواح» وموشح «زارني منيتي» و«ما كنت أدري» وغيرها من الأعمال التراثية الخالدة، التي تؤكد بما لا يقبل الشك عناصر عديدة مشتركة بين الموسيقى التركية والموسيقى العربية، مازالت موجودة وبقوة حتى اليوم، ومن يتجوّل في شوارع وأزقة مدينة استانبول وغيرها من المدن التركية، لابد وأن تلامس مسامعه أينما اتجه نغمات وألحان موسيقية شجيّة يجمعها معنا رباط أزلي متين، وعلاقات حضارية وثقافية وفنية قديمة، توجتّها الحضارة الإسلامية بكل أبعادها ومعانيها السامية النبيلة.

الدراسات والبحوث

- حلب الشهباء ومولد التاريخ ..... عبد الفتاح قلعه جي
- مدن البنتابول ..... د. خليل المقداد
- الثقافة العربية والثقافة الأفريقية ..... عبد الباقي يوسف
- الممانعة الثقافية للتنمية في الوطن العربي ..... د. علي أسعد وطفة
- صراع البروتينات في داء الزهايمر ..... د. ماري شهرستان
- المخطوطات العربية المترجمة ..... د. محمد ياسر زكور
- المترجمون ناشرون للمعارف ..... د. ملكة أبيض
- حروف الجر من خلال معجم لسان العرب ..... أحمد بن عجمية
- سيكولوجية المال ..... د. محمد قاسم عبد الله

الدراسات والبحوث

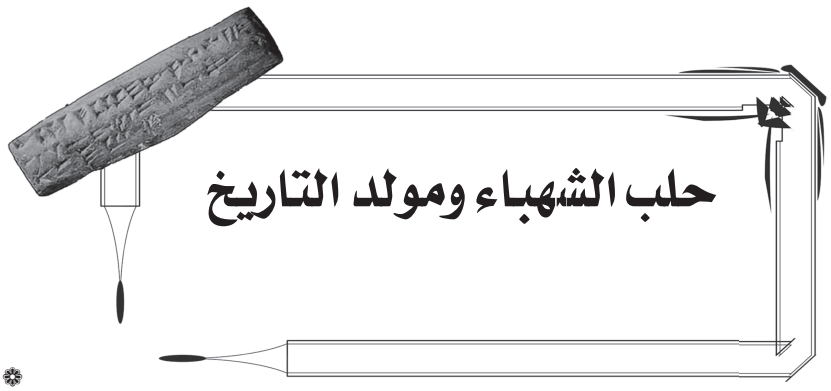

حلب الشهباء ومولد التاريخ

عبد الفتاح قلعه جي

في الأغـوار البعيدة من ليل الزمن تغيب حكاية الوجود الأول لمدينة هي إحـدى أقدم مـدن العالم، ما تزال تنبض بالحيـاة والحركة إلى اليوم. حلب هـذه المدينة الرابضة في شمال سورية علـى نهر كالوس «قويق» في الطريق بين قنسرين ويره بوليـس «منبج» وكركميش «جرابلس»، عرفت منذ الأغوار السحيقـة للزمن تتصـدى لعاديات السنين، وتبقى ماثلـة إلى اليوم، تسيل الحياة في شوارعها.

كاتب ومسرحي وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع.

تنفرد حلب عن غيرها من لداتها الداثرات والشاخصات والعامرات، بأن في موقعها الحالي على تلال: القلعة، الجبيلة، العقبة، تلة السودا ... يكمن ثلاث وجودات ما تزال تشخص إلى اليوم: تاريخاً، وعمراناً، وسكاناً.

١- حلب العصر الحجري: وهي حلب القابعة في ظلمات الأرض، على الثرى، مغاور، وكهوفاً وسراديب، وبيوتاً منقورة في الحوار، ماثلة إلى الآن، ولكنها غير مكتشفة.

٢- حلب الآثار: وهي حلب القلعة والسور والمساجد والقصور...

٣- حلب الحديثة: وهي المدينة الزاخرة بالحياة اليوم.

وقد حظيت حلب باهتمام الباحثين والمؤرخين، القدماء والمحدثين، فألفت حولها كتب عديدة ولابد للباحث من أن يعود إلى العديد من المصادر التاريخية المتفرقة ويستقرئ الرقم والآثار، وينقب عن المدلولات في جمهرة اللغات السامية، ليتاح له الوصول إلى شيء من الحقيقة التي تغيب في سنخ الزمن.

-١-

يحيط الغموض الزمني النشأة الأولى لمدينة حلب، فمن بلوكوش الموصلي إلى سلوقس اليوناني ينهض الباحثون متلمسين بانيها الأول. وأغلب الذين نقلوا عن ابن العديم من زبدة الحلب يقولون بأن بلوكوش «أو بلوكوس» الموصلي هو الذي بنى حلب، وهو أحد ملوك آشور، لكن ابن العديم ينقل عن كتاب الجامع للتاريخ لأبي نصر يحي بن جرير الطبيب التكريتي النصراني. ومثل ذلك يقول أبو الريحان أحمد بن محمد البيروني في كتاب القانون المسعودي مع تصحيف الاسم من بلوكوش إلى بلقورس: يقول ابن العديم في زبدة الحلب ج١، ص ١٤: (وقال: أي البيروني: بنيت حلب في أيام بلقورس من ملوك نينوى، وكان ملكه لمضي ٣٩٦٢ سنة لآدم عليه السلام، ومدة مقامه في الملك ثلاثون سنة، وعلق صاحب الأعلاق الخطيرة على اسم بلقورس قائلاً: وبلقورس هذا هو بلوكوس الذي قدمنا ذكره غير أن هذه الأسماء الأعجمية لا يكاد المسمون لها يتفقون فيها على صورة واحدة لاختلاف ألسنتهم).

ثمة رواية أخرى تقول إن بلوكوس حكم ٤٥ سنة بدءاً من ٣٩٨٩ لآدم عليه السلام، ومثل هذا التحديد الزمني الذي يأخذ به المؤرخون العرب حقيقة ثابتة وليس فرضاً، من ابن العديم إلى الطباخ، يستدعي الكثير من الشك التاريخي، والطباخ يستهويه حساب السنين، ويعتبرها على شكيتها حقيقة

نهائية. يقول في أعلام النبلاء ج١: (بين آدم والهجـرة -كما في أبي الفداء- ٦٢١٦ سنة، فـإذا أسقطنا منها المـدة التي بين بلوكوس وآدم وهي ٣٩٩٠ سنة يبقى ٢٢٢٦ سنة، فإذا اعتبرنا أنه عمرهـا بعد مضي ١٥ سنة من ملكه وأضفنا إلى ذلك من الهجرة إلى الآن، مع المسامحة بالفرق بـين السنين الشمسية والسنـين القمرية وهو ١٣٤٢ يكون المجموع ٣٦٨٣ سنـة: هـي المدة التـي مضت على بناء حلب للمـرة الأولى إلى الآن)، ويضيف الطباخ: (وكان بناها بعد ورود إبراهيم عليه السلام إلى الديار الشامية بـ«٥٤٩» سنة لأن إبراهيم ابتلي بما ابتلي به من نمرود زمانه واسمه «راميس» وهو الرابع من ملوك آثورا. وجاء في زبدة الحلب لابن العديم ج١ ص١١: وقيل إن إبراهيم لما قطع الفرات من حران أقام ينتظر ابن أخيه لوطاً في كثير ممن تبعه في سنة شديدة المحل، وكان الكنعانيون يأتون إبراهيم عليه السلام بأبنائهم فيهبونهم منه، ويتصدق عليهم بأقواتهم من الطعام والغنم، وصار إبراهيم عليه السلام إلى أرض حلب، فاتخذ الركايـا، وكرا الأعـين، ومنها عين إبراهيم وهي التي بنيت عليها مدينة حلب. وكان للكنعانيـين بتل القلعـة في رأسه بيت للصنـم فصار إليه إبراهيـم «ص» فأخرج الصنـم وقال لمـن حضره مـن الكنعانيين: ادعوا إلهكم هـذا أن يكشف عنكم الشدة، فقالـوا: وهل هـو إلا حجـر؟.. فقال لهم: فـإن أنا كشفت عنكم هـذه الشدة ما يكون جزائـي، فقالوا له: نعبـدك، فقال لهم: بل تعبدون الذي أعبد، فقالوا: نفعل)...

هـذه الرواية التي تعتمـد بناء بلوكوس لحلب تنفي بالطبع أسطورة «حلب الشهباء»، وعلاقتها بإبراهيم الخليل «ص».

لكـن ابن العديم نفسـه عندما يتحدث عمن بنى حلب فإنه لا يسوق الخبر على أساس أنه حقيقـة تاريخية لا يرقـى إليها الشك فهـو يقول: (وقيل إن الذي بنى مدينة حلب أول ملك من ملوك الموصل يقال له بلوكوس الموصلي ويسميـه اليونانيون «سردينبلوس» وكان أول ملكـه سنـة ٣٩٨٩ لآدم وملك ٤٥ سنة، وفي السنة التاسعة والعشرين من ملكه وهـي سنة ٤٠١٨ لآدم ملكـت ابنته المسماة «سميرم» مـع أبيها بلوكوسـ). وليس لدينا رقيـم أثري يؤكد هذا الرأي سوى ماجاء في الدر المنتخب: قال ابن شداد: أخبرني الرئيس بهـاء الدين أبو محمد الحسـن بن إبراهيم الخشـاب الحلبي قال: نقلت من ظهر كتاب عتيق ما هذه صورته: رأيته في القنطرة التي على باب إنطاكية من مدينة حلب سنة ٤١١ كتابة يونانية... وترجمتها: بنيت هذه المدينة والطالع العقرب والمشتري فيه وعطارد يليه،

والحمد لله كثيراً، بناها صاحب الموصل. قال ابن الشحنة المؤرخ: وصاحب الموصل والله أعلم هو بلوكوش الذي تسميه اليونانية سردانا بالوس.

❁ ❁ ❁

أما ما قيل عن بناء العمالقة لحلب، وهو ما يؤكده د. بيتشوف في تحف الأنباء بقوله:

«إن الذي تحقق عندي أن حلب من بناء العمالقة، بدليل الحجر الأسود في الحائط بظاهر جامع القيقان في داخل باب إنطاكية «محلة العقبة» فإنها مرسومة بقلم الهيروكليف بلغة الكيتا أو الحماتيين «أهل حماة» وهذه الكتابة كان اصطلاحهم عليها في أيامهم، وكان اسم حلب بلغتهم «هلبون وهلبة»، واستمرت بأيديهم إلى أن أتى الملوك المصريون وحاربوهم وملكوها».

لا ينتقض ذلك الرواية السابقة بل يدعمها، فالبيروني، وصاحب معجم البلدان، وابن العديم يقولون إن الذي نفذ أمر بنائها هو حلب بن مهر أحد بني الخاب بن مكنف من العمالقة، اختطها وسميت باسمه وذلك عام ٣٩٩٠ لآدم، ويقول ابن شداد نقلاً عن مختصر البلدان لابن عبد الحق: (قيل كان حلب وحمص وبردعة أخوة من بني عمليق، فبنى كل واحد مدينة باسمه). ويورد صاحب الدرر المنتخب هذه الرواية كما يلي: (وقيل بناها حلب بن المهر بن حمص بن عمليق من بني حام بن مكنف فسميت باسمه)، وقد بنيت أثر ما حل بالعماليق على يد قائد موسى عليه السلام، وخليفته يوشع بن نون الذي افتتح أريحا والغور وعمان، ودفع بالعماليق إلى شمال سورية، وكان العماليق قوماً جبارين: (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون). (المائدة - ٢٢). وقد استوطن العماليق مدينة قنسرين: «جنوب حلب» وكانت تسمى آنذاك سورية، وتسمى الآن (العيس) وكان اسمها قديماً (شاليس) وبنوا مدينة حلب حصناً لهم. وبانيها هو حلب بن مهر ملك قنسرين، وكان والياً من قبل بلوكوش الموصلي الآثوري.

سوابن فضل الله يقول عن حمص: اسمها القديم سورية: ويرد ابن الشحنة: إن اسم سورية يطلق على الشام كله وحلب، وعلى غيرها، وفي زبدة الحلب يقول ابن العديم: (وسورية هي الشام الأولى، وهي حلب وما حولها -على ما ذكره بعض الرواة- وفي طرف بلد حلب بناحية الأحص مدينة عظيمة دائرة وبها آثار قديمة يقال لها سورية، وإليها ينسب القلم السرياني...

كما أطلق على جميع الكورة اسم قنسرين). وفي التنبيه والإشراف للمسعودي تعتبر حلب من جند قنسرين، يقول: (ومما عرضه ست وثلاثون درجة مدينة حلب من جند قنسرين من أرض الشام)، ويعدد ابن خرداذبة في المسالك والممالك كور قنسرين فيذكر منها: (كورة حلب).

❁ ❁ ❁

وينفرد ابن العبري -وهو غريغوريوس أبو الفرج بن هرون الطبيب الملطي- في تاريخ مختصر الدول بالقول بأن الآثوريين هم الذين بنوا حلب وذلك بأمر بتحوس ملك آثور في عهد الدولة الثانية: دولة قضاة بني إسرائيل. يقول: (وفي هذا الزمان - يقصد فترة حكم أهور بن جارا الذي اغتال عجلون ملك موآب، وعجلون هذا استعبد بني إسرائيل ١٨ سنة حتى خلصهم أهور من العبودية- بنيت مدينة حلب بأمر بتحوس ملك آثور).

وينفي ذلك أن ذكر حلب كان موجوداً في عهود سابقة لهذا العهد، وجاء في تحف الأنباء: (أما اليهود فإنهم يقولون أن أول من بنى هذه المدينة بنو آرام ويسمونها: آرام صوبا). وسنعود إلى ذلك في الحديث عن هذه التسمية لحلب.

❁ ❁ ❁

وتشير آراء أخرى إلى أن الحثيين هم بناة حلب، بدليل الكتابة الهيروغليفية الحثية الموجودة على حجر جامع القيقان، وبدليل آخر هو ما كشفته الحفريات الحديثة في قلعة حلب عن وجود معبد حثي يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد هو معبد حدد، وإلى هذا الرأي يميل محمد كرد علي في كتابه خطط الشام إذ يقول: (وربما كانت حلب من بناء الحثيين)، وكذلك المطران الدبس في كتابه تاريخ سورية، ويرجح هذا الرأي أيضاً صاحب أعلام النبلاء، وينقل قول بولس جوون اليسوعي في مجلة المشرق مجلد ٢ ص١٤: (ومما لا سبيل إلى إنكاره أن حلب كانت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد مدينة عامرة تشهد بذلك كتابات مصرية ترتقي إلى زمن رعمسيس الثاني، وصف فيها سفر المصريين إلى شمال سورية، جاء فيها مراراً ذكر «حلبو»، أي «حلب»، وورد أيضاً في رقيم هيكل رعمسيس المذكور أن هذا الفرعون انتصر على أمير حلب وكان أتى في ١٨٠٠٠ لنصرة ملوك الخطيين أو الحثيين في معركة قادش، فغلبه رعمسيس ورماه في نهر العاصي فنجا منه، وصورته على هذه البناية تمثله معلقاً برجليه يتقيأ ما تجرعه من الماء). ومعركة قادش جرت عام ١٢٨٨ ق.م.

ويضيف الطباخ: (وما نراه الأرجح في أصل مدينة حلب أن بناتها هم الحثيون من سلالة حام بن نوح وكانوا شعباً قوياً تملكوا على سورية الشمالية قبل فتوحات ملوك مصر من القرن ٧- ١٤ ق.م. وقد أبقوا آثاراً جليلة من ملكهم في جهات حمص وحماة وحلب، ونظن أن أسماء هذه المدن نفسها مشتقة من اللغة الحثية).

ولكن التاريخ يؤكد أن الحثيين لم يبنوا مدينة حلب وإنما غزوها، وقد حاول الملك الحثي حاتوسيل بن لابرناس ملك مدينة خطي أو «خاطوزا» احتلالها بعد علاقات سلمية سابقة، لكنه ارتد مقهوراً أمام أسوارها، وحاصرها من بعده مورسيل الأول فاستولى عليها عام ١٨٢٠ق.م، فدمرها، ونهبها، وساق إلى مدينة خاطوزا أسرى حلب وثروتها. وقد بقيت تحت الاحتلال الحثي حتى عام ١٦٥٠ ق.م. ومما يؤكد ذلك أن لوحات ماري تذكر أن تجاراً ماريين زاروا حلب عام ٢٢٠٠ق.م. في بحثهم عن الأخشاب من كركميش. وهكذا فحلب كانت مدينة عامرة قبل تأسيس الإمبراطورية الحثية، وكانت دولة قوية إبان التوسع الحثي.

وموريث في كتابه Histoire de L'orient ancien يقول: إن المؤسس الأول للإمبراطورية

الحثية، هــو حاتوسيل الأول Khatousil وكانــت له صلات سلميــة بحلب Khalpa المدينــة المعمورة الكــبرى). والعموريون هم أقــدم شعب سامي سكــن حلب نعرفه حتى الآن. ولا نــدري ما تفيدنا بــه مكتبة إيبلا المكتشفة حديثــاً، والتي تحوي أكثر من ١٥ ألف رقيم، ولربما تخبرنا عن شعب أقدم من العموريين سكن حلب.

❁ ❁ ❁

يبــدو أن حلب بنيت مرتين، فقد خربت بعد بناء بلوكوش لها، فجدد بناءها سلوقس اليونــاني، يقول أبو النصــر يحيى بن جرير الطبيب التكريتي النصراني في كتابه الجامع للتاريخ والمتضمن ذكر مبــدأ الدول ومنشأ الممالــك ومواليد الأنبياء وأوقات بناء المدن وذكــر الحوادث، وعنــه ينقل ابــن العديم وصاحــب المعجم: (كان الملــك على سورية وبابل والبلاد العليــا سلوقس نيقطور، وهو سرياني، وملــك في السنة الثالثة لبطليموس ابن لاغوســ بعد ممــات الإسكنــدر، وفي السنة الثالثة عشرة من مملكته بنى سلوقس اللاذقية وسلوقية وأفامية وباروا وهي حلب، وأراسا وهي الرها، وكمل بناء إنطاكية).

وفي تحف الأنباء: لما استولى على إنطاكية سلوقســ وهو أحد الملــوك الرومانيين سنة ٢١ من جلوســه ٣١٢ ق.م. جدد بناء مقدار النصف من مدينة حلــب الذي كان انهدم، وهو الذي بنى القلعة على التل المشهور عند العرب أنه لإبراهيم الخليل، وأمر اليهود أن يترددوا إلى هذه البلدة للتجارة فكثروا فيها. لذلــك كانت حلب تسمى بمدينــة الأحبار، حتــى إن أحــد أبوابها اسمه بــاب اليهود، واستمر ذلك الاسم إلى أن أتت الملوك الأيوبية فغيرت اسمه وسمته باب النصر.وهذا الباب قائم إلى يومنا هذا، وهو أحد الأبواب التي ما تزال ماثلة: باب الحديد (أو القناة)، باب المقام، باب قنسرين، باب انطاكية.

وينقــل ابن العديم عــن بعض المؤرخين من المسيحيــة: إن الذي ملك بعد الاسكندر بطليموس الأريب وهو الذي بنى مدينة حلب وسماهــا اشمونيت. وذلك أنــه اختار بناء المدينــة في موضــع وأراد أن يكون بها الماء. فرأى الأعين التي بحيلان فأمر المهندس أن يبني عليهن بنــاء ويحكمه وأن يجريهن إلى المكان المرسوم، وجمع الناس للعمل في عمارة المدينة، وآخر مابناه باب إنطاكية وعين فيها ابنتــه اشمونيت وسمى المدينــة باسمها.ثم ملك حلب بطليموس بن اشمونيت، مع أمه، وعمر على صخرتها قلعة وحصنها، ثم غزا انطاخوس ملك الروم حلب فأسر اشمونيت وابنها، وماتا في الأسر، وراح يهدم حلب، ثم

كلَّ عن هدمها وتوعد من يسكنها فارتحل عنها الناس.

ولا يضاهي فعل انطياخوس هذا سوى ما فعله أوغسطوس قيصر بن ميخوس، فقد مرّ بحلب ولم يرضَ بسكناها وتجاوزها إلى موضع مدينة قنسرين، فأمر جنده أن يعسكروا فيها وبناها، وسماها مدينة العسكر، يقول ابن العديم: (ونقل الأسواق من حلب إليها: ولم يبق بحلب إلا من لا حاجة للعسكر به، وكانت هذه أعظم من فعل انطياخوس)، بل إنه ساق إلى قنسرين عين المباركة التي كانت تسقي حلب.

لقد سقنا أغلب النصوص التي تنسب بناء حلب إلى بطليموس لاغوس «أو الأريب» أو سلوقس نيكاتور، لنبين أن الملكين المذكورين هما حديثا عهد بالنسبة لمن تقدمهما، وأن علم الآثار يؤكد وجود حلب باسمها الحالي قبل هذا التاريخ، ولابد أن سلوقس وهو الأرجح هو الذي أعاد بناءها وحركة الحياة إليها.

وسوفاجيه يقف طويلاً عند هذا العهد الهيلينستي، وهو يعدد في تاريخ حلب ثلاث مراحل حضارية وثقافية مرت على المدينة: ١-الحضارة الغابرة. ٢- الحضارة الهيلينستية. ٣-الإسلام. وإلى المرحلة الثانية يعيد سوفاجيه النصيب الأوفى في تشكيل المدينة. يقول: (إن عهد السلوقيين يمكن أن يعتبر بجدارة وحق العهد الحاسم في تاريخ حلب). ذلك لأنه في رأيه هو الذي أوصل حلب إلى الوظيفة المدينية بشكل قطعي، ورسخ مصيرها بصورة حاسمة. وعلى الرغم من أن سوفاجيه يؤكد أن لحلب ماضياً طويلاً قبل أن تدخل التاريخ، وأن آثار التجمع السكاني الأول لأهل حلب يجب أن يفتش عنه في تل العقبة الذي يقوم على حافة وادي قويق، فإن سوفاجيه ينفي بتعصب غريب للحضارة الهيلينستية أي أثر لما قبل أو بعد هذه الفترة: يقول: (إن حلب لم تحتفظ بشيء من حضارات العصور العظيمة الآسيوية، أو أنها احتفظت على الأقل بأشياء بسيطة مثل اسمها، ولا شيء غير ذلك). أما العهود التي تلت «الزمن اليوناني»، أي الإسلام-حسب زعم سوفاجيه- فإنها لم تقدم شيئاً حضارياً لهذه المدينة. يقول: (إن الإسلام في تاريخ حلب الطويل لم يكن إلا حادثاً عرضياً).. ويبلغ به التعصب والتحامل أقصاهما حين يقول: (إن العصر الإسلامي لم يقم بأي إسهام إيجابي، إنه سارع في انحطاط هذه المدينة... إن العصر الإسلامي لم يفعل شيئاً سوى تفكيك كل ما كان حتى ذلك الوقت مبنياً بصورة متجانسة).

من الغريب أن يسوق التعصب سوفاجيه

إلى تجاهل تأثير الحقب الطويلة العربية والإسلامية الممتدة إلى اليوم، وإلى رد النظام المعماري في المدينة إلى الإطار المادي للحضارة الهيلينستية والرومانية، يقول: (فليست أجهزة التجمع السكاني العربي المسلم الحياتية إلا نسخاً للأجهزة الحياتية للمدينة الهيلينستية، وهكذا يكون إنشاء مدينة Bérée وكأنه الحدث الرئيسي في تاريخ حلب).

لكن ما جاء به سوفاجية لا يلبث أن يتداعى أمام الفرضيات الأكثر صحة، والآثار، والواقع الذي لا يمكن تجاهله. فليس ثمة ما يؤكد أن تل العقبة هو مكان التجمع الأول للحلبيين، والفرضية الأكثر قبولاً وصحة هي أن المغائر في حلب هي الموقع الأول لسكناهم، بل لسكنى الإنسان الحلبي في العصر الحجري. وفي حلب حي خاص يعرف بالمغاير لكثرة المغاور فيه. وهذه المغاور المنتشرة في تلة السودا «المغارة الجديدة»، والمعادي، والخناقية «السريان» و«الشيخومير، وسراديب القلعة... ربما كانت متصلة مع بعضها.

يقول خير الدين الأسدي: (أما مغاير حلب فبلدة تحت بلدة، وبلدة كبيرة لا يعلم العلم حتى يومنا هذا مدى امتدادها، ومدى اتصالها. وبقربها حي الكلاسة ورد ذكره في لوحات ماري سنة ٢٨٥٠ق.م. بلفظ «كلاسو» ولقد تيسر لي الدخول إلى كبراها، أعني المسماة المغارة الجديدة المسدودة الباب الآن)، وقد حاول الأسدي مع لفيف من أساتذة المعهد العربي الفرنسي اكتشاف إحداها.

ويضيف العلامة الأسدي جوف المغائر -وكان قد ربط نفسه بحبل وأنزله طلابه إلى المغارة، وسار فيها ما سارت به الحبال- فيقول: (هذه الدهاليز المتشعبة تشعب العروق في الجسد، وكل شعب يتشعب، وفروع الشعوب تتشعب، وأثر كل مسافة غير منظمة غرفة منقورة بالحجر، وآثار نقرها ماثلة في جدرانها الحورية وفي سقوفها، نعم تمتعوا أيضاً بما في كل غرفة أو مخدع من دكة أو مصطبة كان ينام عليها سكان حلب في عهدهم السحيق، عهد العصور الحجرية، ثم رأينا في السقوف قوافع على نحو ما في «سوق الزرب» على مسافات بعيدة، ومعظمها مردوم، كانت مهمتها أن تأذن للهواء والنور بالدخول كما أن مهمتها الدخول إلى المغاير والخروج منها، وهذه الدواسات الباقية حتى اليوم تتحدث أن المداخل والمخارج من الباب الأصلي البعيد). وهنا تنتهي الحبال بالأسدي فينتهي الوصف، ويعود أدراجه مهتدياً في ظلمة ليل المغاير بالحبال.

كتب سوفاجية: (تدخل حلب سجل التاريخ منذ القرن العشرين قبل الميلاد باسمها الراهن، ولما كانت في ذلك العهد عاصمة استلزم هذا أن يكون لها ماض قديم، على أن منبتها يضيع في دياجير الزمن، فنحن أمام إحدى أقدم مدن العالم).

لكن حلب تدخل التاريخ قبل هذا الزمن، وما كتبه سوفاجيه كان قبل أن تجري حفريات ماري قرب البوكمال، وآلالاخ قرب إنطاكية، وأور جنوبي العراق، وقبل اكتشاف مدينة ايبلا في تل مرديخ قرب حلب.

ففي لارسا Larsa واسمها الآن سنكرة أثران يرجع عهدهما إلى ٢٠٣٦ ـ ٢٠٤٧ ق.م. جاء في الأول: (إلى عشتار Ishtar الحلبية أنا وردسين Ward – sin ملك لارسا). وجاء في الثاني: (إلى عشتار الحلبية: ابنة البكر).

وفي الرقم المارية أن زميريليم ملك ماري زار حلب وأهدى تمثاله البرونزي إلى حدّد إله حلب وكتب عليه:

Muzi – Im – Ri– Li– Im– Salam – Svan– Nail – Addad– Ha – La – Abki – U– Se – Lu – U.

وكذلك يرد اسم حلب في رقم تل العمارنة. ومن الواضح أن اسمها في رقم ماري: حا ـ لا ـ اب «حلب» Ha – La – ab.

أما «كي أو كو» فملحق خاص بالعلمية على معنى المحل أو البلد، وآثار ماري تذكر حلب في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، وكثيراً ماكان ملوك ماري وملوك حلب يتبادلون الهدايا، منها أن ملك ماري أرسل أسطوانة ختم كبيرة من اللازورد الأزرق كتب عليها: (إلى ياريليم ملك حلب). وياريليم هو أقدم من عرفنا من ملوك حلب ومعنى اسمه: «غوث الإله الجليل».

والرقم الأثرية المختلفة تذكر حلب بأسماء متقاربة في اللفظ:

ففي الآثار المصرية تذكر باسم «حلبُو»، و«خالوبو» و«حلب كو»، و«حيلبون» و«حرب».

وفي الآثار الحثية تذكر باسم «حلب» و«حلباس» و«حلبا» و«حالاب».

وفي الآثار الأكدية تذكر باسم «حلاّبكي».

وفي الآثار الأشورية تذكر باسم «خلمان» أو «حلوان».

وفي الآثار الآرامية تذكر باسم «حلب» وقد ورد اسمها في المعاهدة التي عقدها أشور نيراري مع موتوايلو ملك أراباد الآرامي «تل رفعت» سنة ٧٥٠ ق.م. تقريباً.

وفي الآثار السومرية تذكر باسم «حلب» و«حلّابا».

وثمة أشكال متقاربة في اللفظ في رقم أثرية أخرى، لكنها كلها تصدر عن الاسم الذي تعرف به المدينة الآن وهو «حلب».

إن أول ذكر لحلب- نعرفه حتى الآن. كان قبل الفتح الحثي بـ٣٨٠ سنة، أي نحو ٢٢٠٠ ق.م. وذلك في لوحات ماري، وفيها نجد أن تجاراً ماريين ساروا إلى كركميش «جرابلس» ومنها إلى حلب فأوغاريت «رأس شمرا»، فكانس في الأناضول، وذلك يعني أن حلب في هذه الفترة كانت مركزاً تجارياً عامراً، ومما لاشك فيه أن وجودها يرجع إلى أبعد من ذلك.

وهذا يؤكد أن مدينة حلب نشأت سامية، ومما لا شك فيه أن لوحات ايبلا تلقي ضوءاً أقوى على نشأة حلب.

هكذا تغرق حكاية حلب ونشأتها الأولى في دياجير ماقبل التاريخ.

لقد دثرت أترابها: بابل وماري وأوغاريت وإيبلا، ودثرت مدن بنيت بعدها... وبقيت حلب وحدها تمد جذورها في ليل الزمن، وترفع رأسها نحو الشمس في كل صباح.

أخنى الزمان على لداتها، وما تزال الدماء تجري في عروقها، والحياة في أماسيها، عصية على النكبات والخطوب، منيعة على الغزاة والطغاة.

-٢-

وكما تغرق حلب في ليل الزمن فإنها تغرق في ليل اللغة. ولا بد قبل التعرض إلى تحليل كلمة حلب أن نستعرض أسماءها الأخرى التي عرفت بها، ولم يبق منها غير الشهباء تقرن غالباً بالاسم الأصلي «حلب»، فيقال: حلب الشهباء.

«الشهباء» وصف انتقل على مر الزمن من الوصفية إلى العلمية، مثل ورقاء يطلق على الحمامة، وحلب معروفة بأرضها الحوارية وحجارتها الكلسية البيضاء. والشَّهب بياض يصدعه سواد، ويقول ابن شداد: إنها توصف بالشهباء والبيضاء، ومثل ذلك يقول صاحب معجم البلدان لكن أحداً لم يستعمل الصفة الثانية، ولربما كانت مجرد توسع في الوصف.

وتل القلعة حواري أشهب، وعليه تقوم القلعة، ويرى ابن جبير أن أول ما لقب بالشهباء هو القلعة، ثم انتقل الوصف إلى حلب من قبيل إطلاق الجزء على الكل.

«والشهباء من الكتائب العظيمة الكثيرة السلاح»، ولربما أطلق عليها الشهباء أيضاً لا لشهبة حجارتها، وإنما لأنها كانت منيعة يصطدم بوجودها الغزاة، وكثير هم الذين غزوها، وإلى هذا الرأي نميل، ومهما يكن

فالشهباء صفة عربيـــة. سماها بها العرب. أما مـــا ينقلـــه ألِكس رسل عـــن الأسطورة الخرافية، والذاكرة الشعبيـــة، بأن الشهباء بقـــرة غربيـــة بلونهـــا وخوارهـــا في قطيع إبراهيم «صـــ» كان يحلبها ويطعم الفقراء، فيقال: «حلب إبراهيـــم الشهباء»، فلا تقوم علـــى أساس، لأن العبـــارة بلفظها وتركيبها عربيـــة، وعلى الرغم مما يقال بأن إبراهيم «ص» في رحلته الكبرى من أور إلى فلسطين قد مر بموقع حلب، وله فيها مقامان: أعلى في القلعـــة، وأدنى في حي بـــاب المقام، وإن مجال حركته كان يمتد مابين فلسطين جنوباً وحلـــب شمالاً، فإن ذلـــك لا يفيد في إثبات هذا الرأي.

❁ ❁ ❁

وحين جـــدد السلوقيون ملـــوك سورية بناء حلـــب سموها «بيروا»، وجـــاء في زبدة الحلـــب لابـــن العـــديم: (وكان اســـم حلب باليونانيـــة، «بـــاروا»، وقيل (بـــيروأ)، وذكر أرسطاطاليس في كتاب الكيان: إنه لما خرج الاسكندر لقصد دارا الملـــك ومقاتلته، كان أرسطاطاليس في صحبته، فوصل إلى حلب، وهي تعـــرف بلسان اليونانية «بـــيروأ»، ولما تحقـــق أرسطاطاليس حـــال تربتها وصحة هوائها، استـــأذن الاسكنـــدر في المقام بها، وقـــال له: إن بي مرضاً باطنـــاً، وهواء هذه البلـــدة موافق لشفائـــي، فأقـــام بها فزال مرضه). ويقول سوفاجيه: (لقد شيد سلوقس نيكاتور مدينة جديدة على موقع حلب سنتي ٣٠١ . ٢٨١ سماهـــا «بيريه Beree أو بيروا Beroia وهـــي اسم لموضـــع في مقدونيا»). يقـــول الطباخ: (وفي سنة ١٠٧ أو ١١٧م أمر الامبراطور ترايـــان اللاتيني بضرب السكة في حلب، فشرعـــوا فيها وكان مرسوماً على أحـــد جانبيها صـــورة الإمبراطـــور، وعلى الجانب الآخر (برويا) وهو اسم حلب بالقلم اليوناني)، وهكذا حتى العهد الروماني كانت تعرف في المعامـــلات الرسمية وكتب البيعة للنصارى باســـم «بيروا». ويذكر الأسدي أنه اتصـــل ببعضـــ مطارنة الطوائـــف -الروم الأرثوذكس، الكاثوليك، الأرمن الأرثوذكس- في حلـــب فأفـــادوا بأنهم كانـــوا أو ما زالوا يوقعـــون باسم «مطران بيريـــا». لكن اسمها لدى العامة ظل «حلب».

❁ ❁ ❁

وإذا كان مطارنـــة المسيحيـــين يسمونها «بـــاروا» فإن اليهود يطلقون عليها اسم «متا محسيـــا» و«آرام صوبـــا»، و«صوبة». و«متا» تعنـــي مدينة، ومحسيـــا «مركبة» مزجيا من محسة وتعنـــي ملجأ، و«يه» وتعني يهوه: الله

فتكون مدينة ملجأ الله. ولربما سميت باسم مدينة في العراق، وينقل الأسدي عن «محنة يهوده» أن أول من أطلق على حلب متامحسيا هو الحاخام يهوده قاصين الحلبي المتوفى سنة ٥٥٤٤ لآدم -كما على لوح قبره- أي سنة ١٧٨٤م). و«سورا» مدينة في منطقة بابل تقع على مستنقع «سوريا» كان فيها معهد ديني يهودي، حدث فيها وباء لم يرفع إلا بعد أن نصح أحد الأحبار سكانها بتغيير اسمها إلى «متامحسيا» ثم نقل هذا الاسم فأطلق على حلب لما اشتهرت به من علم ومحافل دينية وصلاح.

وجاء في تحف الأنباء: (أما اليهود فإنهم يقولون إن أوّل من بنى هذه المدينة بنو آرام ويسمونها «آرام صوبا»)، مستدلين بما ذكر في التوراة في صموئيل الثاني الأصحاح الثامن:

(وضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات، فأخذ داود ألفاً وسبعمئة فارس وعشرين ألف رجل، وعرقب داود جميع خيل المركبات، وأبقى منها مئة مركبة، فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة).

نقلنا هذا المقطع من الكتاب المقدس طبعة المطبعة الأميركية بيروت ١٩٥١، أما العبارة التي نقلها الطباخ عن تحف الأنباء فهي: (إنه لما نزل داود إلى الفرات ضرب حاتا تيثر بن ريجوبا ملك آرام صوبا)، وعلى الرغم من الاختلاف الظاهري في رسم الأسماء في العبارتين، إلا أنها واحدة، ومتفقة لفظاً ودلالة.

ويناقش الطباخ مؤلف أعلام النبلاء هذا الزعم بقوله: (إن هذا الوادي الذي ضرب به الآراميون هو بين الجبول وسبت، وهو شرقي الجبول من جهة الجنوب، والدليل على ذلك أن لفظ سبت أقرب للفظ «صوبا» من حيث مخارج الحروف، بخلاف لفظ حلب، وسبت مدينة عظيمة آثارها موجودة إلى الآن). وهكذا فمدينة آرام صوبا- كما يرى الطباخ- هي مدينة سبت- قرب بلدة الباب حالياً وليست هي حلب. وينقل الطباخ عن أحد الحاخامين الإسرائيليين أنه رأى في قلعة حلب حجراً مكتوباً عليه بالعبرانية: «أنا أيوب بن سيرويا أخذت هذه القلعة». وايواب هو قائد جيش داود النبي «ص» قبل التاريخ المسيحي، ١٩٨٠- ١٧١٠ق.م، واستمرت بأيديهم إلى أن أتى الملوك البابليون وتحاربوا مع السريان وأخرجوهم منها سنة ٦٦٠ ق.م. وهذا الادعاء لا صحة له فلا وجود لمثل هذا الحجر في قلعة حلب. يقول الطباخ: (بحثت كثيراً عن هذا الحجر فلم أجد له أثراً). يقول ألِكس رسل: (ويبدو أن إطلاق صوبا

على حلب مشكوك فيه، ومضطرب جداً). ويرد دوسود R.Dussaud أن «صوبا» تقع جنوبي حماة، وهو رأي تدعمه الوثائق الأثرية، ومن الأرجح أن هذا الاسم أطلق على حلب بعد اندثار مملكة صوبة.

❁ ❁ ❁

وفي رقيم أكدي يرجع إلى نرم سين Naram sin ٢٥٠٧ . ٢٤٥٢ ق.م ما ترجمته: «قديماً لم يكن بقدرة ملك من الملوك أن يكتسح ارمان وابلا. شق «نركال» الإله له طريقاً وأعطاه «ارمان» و«ابلا» نرم سين ظفر على ارمان وابلا». وهذا الاسم قريب جداً في لفظه من «حلوان» الذي يطلقه الآشوريون على حلب. كما أن هنالك رقيماً آخر حورياً سوبرياً يدعو: «أرمان» بلفظ «حلباً با»، و«بلا» بلفظ «ابلّابا».

❁ ❁ ❁

وينقل الطباخ عن الدرر المنتخب أن الصابئة تسمي حلب «مابوغ» وقال: كانت حلب تعرف بمدينة الأحبار عند الصابئة. ووجد في كتاب بابا الصابي الحراني في المقالة الرابعة في ذكر خروج الحبشة وفسادهم في البلاد: (وينزل الفرات... من مدينة الأحبار المسماة مابوغ: وهي- حلب مدينة الأحبار، يأتي رجل سلطان يحل بك، ويعلي أسوارك، ويجدد أسواقك، ويجري العين التي فيك، وبعد قليل يؤخذ منك).

لكن الغزي في نهر الذهب يرى أن ما بوغ أو ما برغ هي منبج، ومثل هذا الوهم وقع في اسم يره بوليس، حيث توهم أنه أطلق على حلب، وأثبته منكه الجغرافي الفرنسي في خارطة آشور. وقد دحض الغزي ذلك قائلاً: (والصواب أن يره بوليس هو أشهر اسمي منبج القديمة في الدولة اليونانية). وجاء في الدرر المنتخب نقلاً عن يحبوب بن القسطنطينية في كتابه الذي وضعه في أخبار ملوك الروم: (وفي سنة ٣١ من مولد لاوي بن يعقوب بنت الملكة سمرين بناء عظيماً لقيوس الصنم في المدينة على شاطئ الفرات وأقامت له من الكهنة ٧٠ رجلاً وسمت تلك المدينة يره بوليس، الذي تفسيره مدينة الكهان وهي مدينة منبج العتيقة). ويؤكد ذلك ما قاله دوسو: يره بوليس هي التي يدعوها الآشوريون نابيجو Nappigu تدعوها النصوص مابوج Mabbog .

❁ ❁ ❁

كغيرها من المدن السورية ردفت اسمها الأصلي «حلب» أسماء أخرى يتمثل فيها مختلف التأثيرات والمتغيرات التي تعرضت لها المدينة.

لاشك أن هذه المدينة السامية الموغلة في القدم إلى ماقبل الوعي التاريخي، تحمل اسمها منذ النشأة لفظة سامية الأصل هي «حلب».

ولابد قبل العرض التحليلي العلمي لتسمية حلب أن نمر بالجانب الأسطوري والمتداول بين العامة في تسميتها، ويدفعنا إلى ذلك أنه ورد لدى بعض المؤرخين.

يقول ابن العديم في زبدة الحلب (وكان الضعفاء إذا سمعوا بمقدمه «أي إبراهيم «ص» أتوه من كل وجه، من بلاد الشام، فيجتمعون مع من اتبعه من الأرض المقدسة لينالوا بره، فكان يأمر الرعاء بحلب ما معهم طرفي النهار، ويأمر ولده وعبيده باتخاذ الطعام فإذا فرغ له من ذلك أمر بحمله إلى الطرق المختلفة بإزاء التل، فيتنادى الضعفاء «إن إبراهيم حلب»، فيتبادرون إليه. فنقلت هذه اللفظة كما نقل غيرها فصارت اسماً لتل القلعة، ولم يكن في ذلك الوقت مدينة مبنية... فلما عمرت المدينة تحته سميت باسمه).

وثمة رأي آخر في تسميتها هو أن اسمها آرامي ومعناه اللبن أو البياض، سميت به لبياض تربتها أو لغزارة لبنها، لكن تحليلاً علمياً يمكن أن يلقي ضوءاً ساطعاً على الجانب اللغوي لكلمة «حلب».

يرى الأب انستاس الكرملي أن أصل كلمة «ح ل ب» هو «ل ب» باعتبار أن جميع الألفاظ الثلاثية السامية هي ثنائية التركيب في أصلها الأول، توجت بالحرف الحلقي ح. والعودة إلى أصلها الثنائي «لب» والاهتداء بمعنى «اللب»، في العربية يمكن أن يبين معناها. يقول: (وعليه فمعنى مدينة حلب: المدينة الخصبة الأرض المكتنزة التراب).

إلا أن العودة إلى الآثار تعرض لنا أن لفظ حلب القديم جاء بتضعيف اللام «حلَّب».

وفي مقدمة شريعة حمورابي قائمة بأسماء ٢٤ مدينة منها «حلَّبو» Khallabu.

والحثيون دعوا أهل «حلب» «حلاّبيز» أي Hallapijail.

وفي رقيم Ri-Mi-Us الأكدي ورد اسم حلب باسم Hallab Ki وكي تعني مدينة أو موضع، وكذا الرقم المارية المحفوظة في حلب وباريس تدعوها Hallap وبفك التضعيف يكون تركيب اسم حلب (حل. لب)، وفي آثار أخرى (آشور، شلمنصر)، تدعى بـ (حل-وان)، و(وان) ملحق خاص بالأعلام.

وهكذا فلا صحة لقول ابن العديم أن اسم حلب عربي وكان لقباً لقلعتها. يقول في الزبدة: (اسم حلب عربي لاشك فيه، وكان لقباً لتل قلعتها، وإنما عرف بذلك لأن إبراهيم الخليل «ص» كان إذا اشتمل من

الأرض المقدسة ينتهي إلى هذا التل فيضع به أثقاله، ويبث رعاءه إلى نهر الفرات وإلى الجبل الأسود).

من هذه الإشارات انطلق العلامة خير الدين الأسدي في تحليله لكلمة «حلب». إنه يبني على مقدمة أساسية علمية اعتمدها الكرملي أيضاً وهي إعادة الألفاظ السامية إلى تركيبها الأصلي الثنائي، ويخالفه فيما قال بأنها مفأمة تفئيم التتويج.

لكن اسمها جاء على تمثال زمريليم ملك ماري والمهدي إلى «حدّد» إله حلب هكذا: حا- لا- ا ب كي فهل هي مركبة من ثلاثة أم من اثنتين؟

يحسم الأسدي الأمر في كتابه حلب الجانب اللغوي من الكلمة بقوله: (لفظ حلب القديم هو «حلَّب» وإن شئت فارسم (حل- لب) فهو إذاً كلمتان أصليتان هما حل ولب مزجتا معاً فكان منهما حلَّب... كانت مضعَّفة، وإن إزالة التضعيف محدث، دفع إليه التسهيل في كلمة عم استعمالها لتجري مجرى الثلاثي الطاغي في معظم الكلمات السامية)، وهذا الحسم في التحليل اللغوي إنما يلجأ إليه كما يقول نزولاً عند ما يفرضه المذهب الثنائي الذي تعتد به مدرسة القرن العشرين). على أن الأسدي يوغل في الاستنتاج إلى حد التخيل، فيتجاوز ما تسوقه الآثار حول (حل . لب) إلى ما يسوقه إليه خياله العلمي الخصب، وهو المعروف بانطلاقاته خارج حدود الحدس العلمي إلى حدود الحدس الصوفي، والذي نلمسه في الكثير من كتاباته. يقول: (إني لأشم في الألب «يقصد لب»، رائحة الجمع لأمر خطير لعله الحرب، نعم هو الحرب، فقد حدثتني عنه عشيرة الكلمة كثيراً فأنست به، هذا الآن ظن، لا يقين نستقبله، لكنه عندي ظن قوي يشارف تخوم اليقين، ذلك أن لب أصلها رب بدليل المواءمة بين مدلول الكلمتين... فالراء . يا نفس!.. صوت طبيعي للتعبير عن الكثرة...إننا إذا استثنينا لثغة المصريين القدماء في تسمية حلب: حرب لا نجد أي نص أثري يورد الحرف الأصلي المبدل منه... إذاً فقد اجتاز لفظ حلب المراحل الثلاث التالية:

١-(حل رب) يعتوره الإدغام فيقال: (حر ر ب)، ٢-(حل لب)، ٣-حلب. وقد سجلت الآثار لهجات الشعوب في المرحلتين الثانية والثالثة).

ولسنا نظلم الأسدي إذا قلنا أنه خرج عن حدود التحليل العلمي، فهو الذي يقول عن ذلك: (حق وحق، وظن قوي، هكذا كنت قلت، وهذا تخيل نستقبله، لا يسعد بحجج العلم، إنما تسعد المخيلة بتصوره، ذلك أن

الباعث على إبدال الراء لاماً إنما هودلع الأوانس آنذاك، فلطفن الراء جرياً على لثغ الأطفال بها حتى اليوم). مع اعترافنا بأن بحثه في هذا المجال هو أعظم وأغنى ما كتب حتى الآن.

أما مدلول حلب، فلابد لمعرفته من العودة إلى ثنائية اللفظة السامية (حل-لب)، وحل: تعني المحل، ونزول القوم بمحله وهو نقيض الارتحال، ولها المدلول نفسه في العبرية، إذا أبدلت اللام نوناً، ومثل هذا الإبدال معروف في العربية وسائر اللغات السامية، وفي البابلية لفظة قريبة من حل هي «ألي» وتعني المدينة، ومثلها في الأكدية «ألو» وفي اللفظتين أبدلت الحاء بالهمزة.

أما «لب» فتعني التألب، والتجمع، والقلب.

وقد وردت في العبرية والسريانية والأكدية بمعنى القلب.وعلى هذا يكون معنى حلب هو مكان التجمع والتألب، أو مكان القلب. وكانت حلب مكان القلب بين ماري وإيبلا وكركميش ويره بوليس وأوغاريت وآراسا وكانس وآراباد.

-٣-

قبل أن يلقي التاريخ أضواءه على منطقة التلال الصغيرة شرقي نهر قويق، كانت حلب قائمة تستحم بأنوار الشمس، وقد لعبت مع سورية الشمالية دوراً بارزاً في الأحداث التي شهدتها المنطقة، فقد كان امتلاكها يؤكد للغزاة في حمى الصراع المستمر الإشراف على ممرات طوروس ومخاضات الفرات وطريق مصر. كانت القلب، وكانت نهاية السهم في مسارات القوى الغازية كالحثيين الذين اجتازوا البوسفور من البلقان باتجاه الأناضول حوالي ٢٠٠٠ ق.م. والحوريين الزاحفين من القفقاس باتجاه الجنوب الغربي والذين انضم إليهم الميتانيون.

والمصريين الذين تقدموا نحو الفرات عام ١٥٣٦ ق.م، وبلغ الغزو أوجه في عهد تحوتمس الثالث ١٤٨٣ ق.م. حتى بلغ كركميش ونهاريا.

والآشوريين أكبر قوة عسكرية تجتاح منطقة مابين النهرين عام ١٢٨٠ ق.م.

والأخيين الذين اجتازوا البوسفور وأدالوا بحركة صاعقة الإمبراطورية الحثية حوالي عام ١١٨٠ ق.م.

والساميين الذين قدمت موجاتهم من الجزيرة العربية.

والميديين والفرس والسيت الهابطين من إيران.

والبابليين الثائرين الذين احتلوا نينوى ودمروها وزحفوا نحو الفرات يبسطون نفوذهم على شمال سورية.

وفرس قورش الذين أسسوا باحتلالهم لسورية وقضائهم على بابل عام ٥٣٩ ق.م. إمبراطورية واسعة الحدود، ودفعهم طموحهم إلى الاحتكاك العسكري بالمدن الإغريقية.

والإغريق الذين اكتسحت جيوشهم بقيادة الاسكندر المكدوني منطقة شمال سورية فيما اكتسحت من بلاد.

لكن موقع حلب في طريق الغزوات المتعاقبة لم يعد عليها بالوبال، وإنما أدى لها خدمات حسنة، وكان أحد أسباب استمرار وجودها، فقد أكد أهميتها الاستراتيجية والتاريخية من جهة، ولم يجعلها محط رحال الغزاة من جهة أخرى، إذ لم يتخذها أحد من الملوك القادمين من الشمال أو الشرق أو الجنوب سكناً له، ولم يكن قصر المرزبان في العهد الفارسي نفسه في موقع حلب وإنما في موقع قريب من بلدة الباب. وانطياخوس ملك الروم غزاها وهدم قسماً منها ثم رحل. وأوغسطوس قيصر بن ميوخس مر بها وعسكر في موقع قنسرين، وكسرى قباذ، كما يذكر ابن العبري في تاريخه، افتتحها في عهد الدولة السابعة ثم رحل، كما افتتحها كسرى بن هرمز في عهد الدولة الثامنة ولم يستقر فيها... وغيرهم من الملوك الذين اكتسحت جيوشهم حلب، أو مروا بجانبها ولكنهم لم يتخذوها سكناً لهم.

هكذا شهدت حلب فترات نهوض وسيطرة، أو خمول ونسيان، لكنها استمرت في الوجود، وأفادت من مختلف التفاعلات السياسية التي مرت على المنطقة لتحافظ على بقائها، وتؤكد استمراريتها وتصبح في العهود العربية الإسلامية فيما بعد المدينة الأولى في شمال سورية.

❁ ❁ ❁

هذه حلب أقدم مدينة في التاريخ

حلب..

وأنت التي حضرت ولادة التاريخ، وعرفته في طفولته وشبابه، تشهدينه في كهولته.

حلب..

وأنت أقدم مدينة معمورة في العالم، تتنفس الحياة مابين المغاور الحوارية والقصور الاسمنتية.

كلما عسكر أمام أسوارك غاز ارشقيه بسهام الحضارات التي ساهم أبناؤك في صنعها، وارفعي في القلعة شاهداً جديداً على رحيله أو انهزامه.

وكلما هز طاغ في وجهك السيف، يسفك دماء أبنائك، ويزرع الفساد، وينهب، ثم يتغنى بشعارات المجد!.. وأمام بابه يسجد المداحون يباركون طغيانه بزنيم الشعر،

احفـري له بئـراً في ثراك، يهـوي فيه عبر طبقات الأرض والتاريـخ، إلى حيث استقر الطغاة الذين سبقوه.

هلكوا... وعشت
ودثروا.. وبقيت
ونُسوا.. وخلِّدت

وستظل شمـس الحضـارة تشرق على وجهـك التاريخـي الناضر، وأهلـك الذين مازالوا يجبلون حماة الزمن الأسود، يصنعون منه حياة وتاريخاً.

وستظل ذكاء في كل شروق وغروب تغسل أقدامك الحوارية، وقلعتك الشامخة بأشعتها الدافئة.

هوامش ومصادر و كتب ألفت عن حلب

١- كتب ألفت عن حلب

١- بغية الطلب في تاريخ حلب: كمال الدين بن العديم متوفى عام ٦٦٠ ويقع في أربعين جزءاً.
٢- زبدة الحلب في تاريخ حلب: كمال الدين بن العديم، وهو مختصر بغية الطلب ومرتب على السنين حتى عام ٦٤١هـ.
٣- تحـف الأنبـاء في تاريخ حلب الشهباء: هو زبدة الحلب نفسه انتحلـه الطبيب بيتشوف الجرماني، أما الحوادث التي ذكرها ما بين ٦٤١ ـ ٩٢٢ فهي منتحلة أيضاً لبعض مؤرخي حلب. مطبوع في المطبعة الأدبية بيروت عام ١٨٨٠م.
٤- تاريخ ابن العظيمي «عن حلب» ولد عام ٤٨٣هـ، ولا يعرف عنوان الكتاب.
٥- حضرة النديم من تاريخ ابن العديم: ابن حبيب الحلبي المتوفى عام ٨٠٨ هـ، وهو مختصر عن زبدة الحلب.
٦- الزبدة والضرب في تاريخ حلب: رضي الدين محمد بن الحنبلي، متوفى عام ٩٧١هـ.
٧- الدر المنتخب في تاريخ حلب: علاء الدين بن خطيب الناصرية، متوفى عام ٨٤٣هـ، ويقع في مجلدين.
٨- المنتخـب من الدر المنتخب: أحمد بن محمد الشهير بالملا، متوفى عـام ١٠٠٣هـ، وولده محمد، متوفى عام ١٠١٠هـ، ويقع في مجلدين.
٩- كنوز الذهب في تاريخ حلب: موفق الدين أبو ذر، متوفى عام ٨٨٤هـ، وهو تذييل على كتاب الدر المنتخب.
١٠- الكواكب المضيئة: أبو ذر بن الرهان.
١١- در الحبـب في تاريـخ حلب: محمد بـن إبراهيم المشهور بابن الحنبلي، متوفى عام ٩٧١هـ، وهو ليس خاصاً بأعيان الشهباء، وإنما يترجم لمن نزلوا بها.
١٢- شفـاء السقيـم بآيات إبراهيم: محمد بن أحمد. الملا، متوفى عام ١٠١٠هـ تعرض فيه لحكام حلب من الصحابة إلى زمن إبراهيم باشا.
١٣- إنعاشـ الـروح بمآثر نصوح: إبراهيم بن أحمد المعروف بابن المـلا الحلبي متوفى عام ١٠٣٠هـ، ويتحدث عن وقائع نصوح باشا حين ولايته على حلب مع عسكر الشام.
١٤- الـدر المنتخـب في تاريخ مملكة حلب: أبو اليمن البتروني متوفى عام ١٠٤٦هـ، والمنسوب إلى محب الدين أبي الفضل محمد بن الشحنة، والمنتقى من كتاب نزهة النواظر في روض المناظر تأليف محمد بن الشحنة، متوفى عام ٨٩٠هـ.
١٥- معـادن الذهب في الأعيان الذين تشرفت بهم حلب: ابـن عمر العرضي، متوفى عام ١٠٧١هـ، وهو ذيل لدر الحبب، ترجم فيه أعيان عصره.
١٦- تاريخ عبد الله ميرو: متوفى عام ١١٨٤هـ، لم يكمله المؤلف، وأضيف إليه تراجم بعده.
١٧- نهر الذهب في تاريخ حلب: الشيخ كامل الغزي، متوفى عام ١٩٣٣، ويقع في أربعة مجلدات طبع منها ثلاثة.
١٨- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: الشيخ محمد راغب الطباخ، متوفى عام ١٩٥١. ويقع في سبعة مجلدات، قسمه إلى

مقدمة وقسمين، ذكر في القسم الأول من ملك حلب تولاها من ١٦هـ «الفتح الإسلامي» إلى نهاية ١٣٢٥هـ «الانقلاب العثماني»، القسم الثاني ويقع في أربعة مجلدات وذكر فيه تراجم أعيان الشهباء من وزراء وأمراء ومحدثين وفقهاء وأدباء... إلخ. ولا يذكر إلا من ولد في الشهباء أو توفي فيها.

١٩- طرائق النديم في تاريخ حلب القديم، ولطائف الحديث في تاريخ حلب الحديث: ميخائيل أنطون الصقال، وهو قسمان: الأول عن سورية قبل الطوفان وحتى المسيح ويقع في ثلاثة أجزاء والثاني من المسيح إلى العصر الحاضر.

٢٠- ثلاثة مقالات منفصلة، وكتاب، كلها بعنوان حلب الجانب اللغوي من الكلمة: للعلامة خير الدين الأسدي، متوفى عام١٩٧١.

٢١- أقدم ما عرف عن تاريخ حلب: صبحي الصواف.

A- Sauvaget: Alep.

B- Russel: Natural History of Aleppo.

C- Baurain: Alep autrefois – Aujourd'hui.

D- S. Saouaf: Alep – Guide du visiteur.

٢. مصادر أخرى للبحث بالإضافة إلى بعض ما جاء في الفقرة ١:

١- معجم البلدان: ياقوت الحموي.
٢- معجم الخارطة التاريخية للممالك الإسلامية: أمين واصف.
٣- دائرة المعارف الإسلامية.
٤- تاريخ سورية: المطران الدبس.
٥- أساطير الأولين: غبرئيل ميخائيل.
٦- خطط الشام: محمد كرد علي.
٧- نشوء اللغة: الأب أنستانس الكرملي.
٨- كتاب البلدان: أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه.
٩- مقدمة لدراسة لغة العرب: عبد الله العلايلي.
١٠- اتجاه الموجات البشرية: محي الدين الخطيب.
١١- التنبيه والإشراف: المسعودي.
١٢- المسالك والممالك: ابن خرداذبة.
١٣- الأعلاق الخطيرة: ابن شداد.
١٤- تاريخ اللغات السامية: إسرائيل ولفنسون.
١٥- القاموس المحيط- الفيروز آبادي.
١٦- مجلة العاديات السورية.
١٧- مجلة المشرق.
١٨- مجلة الضاد الحلبية.
١٩- مجلة سومر.
٢٠- مجلة المجمع العلمي العربي.

الدراسات والبحوث

مدن البنتابول[1] التي كانت في فترة زمنية تسمى مدن الهيكسابول[2]

د. خليل المقداد

العــرب الفينيقيون هم من أسس مدن البنتابول ومملكة إقليم سيرينائيك – برقة .

كنا دائماً ومنذ بداية دراستنا عن مدينة بصرى الأثرية ومعسكرها الشمالي نقرأ ومن خلال النصوص الأثرية الكتابية التي اكتشفت في المدينة ومعسكرها أن هذا المعسكر هو مقر الفرقة العسكرية السيرينائيكية (البرقاوية)، وجاءت الفرصــة بعد عشرات السنين وفي عــام ١٩٩٧ أن زرت المنطقة لفترة زمنية

باحث ومؤرخ سوري.

استمـرت عدة أيام درسـت خلالها المسارح الأثريـة في مدن البنتابـول والتي تعتبر في عددها من أغنى مناطق العالم رغم صغرها أحياناً. ففـي مدينة سيرين (شحات) حالياً يوجد داخل الحيز التنظيم العمراني خمسة مسـارح، وكانت هـذه الفرصـة حافزاً لي لكي أعود مـن جديد لتدريـس علم الآثار في مدينـة البيضاء مركـز المنطقة الرائعة بجمالها وعاصمـة ليبيا الثانية وفي جامعة عمر المختـار بالتحديد بين أعـوام ٢٠٠٠ – ٢٠٠٣م.

والشـيء الملموس الـذي لا بد من ذكره هـو التشابه الطبيعي والجغرافي بين مدينة سيرين (شحات) عاصمـة إقليم سيرينائيك (برقة) ومدينة درعا عاصمة جنوب سورية وحوضـ اليرموك. ومن جهـة أخرى أيضاً التشابه بين منطقة سيرينائيك (إقليم برقة) في ليبيـا وحوض اليرمـوك في سورية[٣] أو بلاد الشام حيث يكون صلة الترابط بين كل من سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

ففـي وادي الكـوف أو الكهوف وجدت دلائل تشـير إلى أقدم الحضارات والتواجد البشري في شمال أفريقيا، وبفترات مختلفة منها كهف هوا فتيح على الحواف الصخرية التي تشرف على مدينـة أبوللونيا (سوسة) والذي يعود بتاريخه إلى فترة ما قبل التاريخ ويستمـر حتى فترة قبيل التاريخ وبالتحديد وحسـب المعطيـات الأثريـة إلى مئة ألف عـام وهو عصر الصناعة الآشولية أو عصر الباليوليتيـك القـديم في الجبـل الأخضر حيـث نموذج كهـف هوا فتيـح في منطقة سيرينائيك، وفي منطقة الحماد الحمراء في وادي العجال (فزان) لفترة ثمانين ألف عام ق.م.

وكذلك الأمر بالنسبـة إلى كهوف وادي الكوف التي تتراوح أعمار اللقى الأثرية فيها بـين ٥٠ و ٤٠ إلى ١٧ ألـف عام ق.م. وهي بذلـك تتشابه مع كهوف بـلاد الشام التي تعتبر الكهوف الأقدم ليس في منطقة حوض البحـر الأبيـض المتوسط وإنمـا في العالم قاطبةً، وهـذا ما أكدته أعمـال التحريات والأسبـار واللقـى الأثريـة في العديد من المواقع التي تتواجد بها هذه الكهوف والتي دلت على أن إشغال هـذه الكهوف من قبل الإنسان يعود إلى ما قبل مئة ألف عام.

والدليل علـى ذلك تلـك الأدوات التي خلفها ذلك الإنسـان والتي سوف نفرد لها بحثـاً خاصاً في الدراسـات اللاحقة، وهي دليل وبرهان يؤكـد على التقنيات الخاصة والمتقدمـة للعصور التاريخية التي تعود إلى ما قبل وقبيل التاريـخ في الحضارات التي تولدت في مناطق العالم العربي.[٤]

ومن هذه الأدوات المتقدمة تلك الصوانيات من بلطات وأدوات حادة من الصوانيات ذات الاستعمالات المتعددة وغيرها والتي تعود إلى عصر الباليوليتيك بكافة مراحله وخاصةً الشفرات الحادة والأدوات العظمية ومنها تلك التي كانت تصنع من عظام الغزلان والتي تم العثور عليها في الكهوف المذكورة والتي تدرجت في تواريخها بين ٨٠ – ٥٠ – ٤٠ عاماً قبل الميلاد.

تأسيس مدن إقليم سيرينائيك (برقة):

سمي الإقليم تاريخياً ومنذ تأسيسه في بداية العصر الكلاسيكي وحتى فترة دخول القوات العربية الإسلامية في عام ٦٣٤م باسم إقليم سيرينائيك نسبةً إلى مدينة سيرين، وهي أول مدينة أسسها العرب الفينيقيون القادمون من جزر البحر التيراني وجزر بحر إيجة ومعهم عدد من الإغريق الذين كانوا يقومون بخدمتهم في قيادة السفن والمهام الحياتية المختلفة.

وكانت أولى طلائع هؤلاء القادمين الجدد سكان جزيرة تيرا Théra[٥] التي كانت قبل أعمارها من قبل الفينيقيين العرب في مطلع الألف الأول قبل الميلاد ذات جفاف ملفت للنظر كما هي جزيرة ديلوس التي عمرتها نفس القبائل الفينيقية قبل قدوم الإغريق. وكما هو معروف أن كل حدث كان يتم سابقاً كان يعزى إلى استشارة الآلهة لذلك تم ذهاب أول جماعة استطلاع إلى الشاطئ الليبي القريب بمسافة تقارب ٣٠٠كم، وكان الإله الذي تمت استشارته هو إله مدينة دلفس أبوللو، كما خصص هذا الإله لا حقاً ليكون إله مدينة سيرين الرئيس.

وقد أصبحت سيرين مقر إقامة عائلة Battiadesباتياد، واستمرت طيلة تاريخها الطويل أكبر مدينة فينيقية/إغريقية في أفريقيا. وبقيت لمدة ثلاثة قرون تحت حكم البطالمة اللاجيد في مصر. ومن ثم دخلت في إمبراطورية أوكتاف/ أغسطس وانخرطت في تاريخ المنطقة الجنوبية الشرقية من حوض البحر الأبيض المتوسط بكامل مراحله التاريخية. وحسب ما جاء به الشعراء في تلك الفترة أن مدينة سيرين تعتبر هي الأفضل من بين جميع المدن الأخرى في الإقليم.

وفي الحقيقة يعتبر الوصف الذي جاء فيه هيرودوتس الذي زار المدينة في منتصف القرن الخامس ق.م هو الأفضل في تلك الفترة التاريخية، حيث ترك لنا شرحاً وتاريخاً مفصلاً بشكلٍ خاص حول تأسيسها وعن القرنين الأوّلين في هذا المركز الحضاري الكبير apoikia.

وقد جاء تاريخ المدينة من مصدرين مختلفين، أحدهما من مدينة سيرين نفسها وكذلك من عاصمتها السابقة تيرا Théra، بالإضافة إلى ما ذكر عن هذا الموضوع في جزء من التاريخ اللامع والبراق عن تاريخ سيرين ménéklés المرتبط مع برقة التي عاشت في القرن الثاني ق.م، وكذلك القسم والعهد الذي تم اعتماده من قبل المؤسسين الذين تركوا لنا كتابةً تشهد على ذلك وتعود إلى النصف الأول من القرن الرابع ق.م وقد تم الكشف عنها وقراءتها لاحقاً[٦].

وقد عانت جزيرة Théra تيرا التي قدم منها المهاجرون من جفافٍ شديد استمر سبع سنوات متتالية، وترافق هذا الوضع الخطير مع الانهيار الاقتصادي الذي خيم على المنطقة وكان المسبب لذلك الوضع الذي كانت له نتائج سلبية على كامل العالم الإغريقي خلال القرن السابع ق.م. وكان الحال هنا كما هو الحال في مختلف المدن الإغريقية.

وقد هاجر قسم من السكان بحيث يمثل مختلف العائلات، بمعنى تولد من كل عائلة شخص حسب ما جاء في مسلة المؤسسين الذين خرجوا وبلغ عددهم ٢٠٠ شخصٍ. وقد وُضع هؤلاء تحت قيادةQéciste Aristotélés كيسيت أو قيس أرسطو طاليس والذي سمي أيضاً Battos باتوس، وكانت الانطلاقة إلى أفريقيا، أو بالأحرى إلى ليبيا. وكما ذكر عند الإغريق فقد كان هذا الأمر مقرراً من قبل الكاهن وكيل الإله أبوللو في دلفس وربما كان ذلك في عام ٦٤٠ ق.م.

وقد كان دليل المستوطنين صياد من جزيرة كريت الذي كانت لديه الخبرة المعتادة في الذهاب لإلقاء شباكه على السواحل الليبية، أي بمسافة ٣٠٠كم. وعند ذلك تم الوصول إلى مدينة المستقبل سيرين في منطقة سيرينائيك وبالتحديد في خليج بمبا حيث تم الاستقرار والحلول في جزيرة بالقرب من ساحل platéa بلاتيا. وفي روايةٍ أخرى جاء فيها أن الغراب الأبيض هو الذي كان قد أرشد المستوطنين الأوائل على موقع سيرين إلى الغرب من بومبا.

وفي هذا القطاع الجاف وغير منسجم مع القادمين الجدد الذين كانوا حذرين جداً في مواجهة القبائل الليبية[٧] فقد عاشوا بخمول ومن دون إنتاج لمدة سنتين، إلا أنهم في النهاية رجعوا إلى Théra تيرا حيث تعرضوا هناك إلى الضرب بالحجارة؛ بمعنى الاستهزاء بهم، عند ذلك عادوا إلى مدينتهم دلفي حيث استقبلهم الإله بسخرية لعملهم هذا وما حل بهم.

وعمليــة السخرية والتهكــم بهم جاءت بعد عودتهم من الهجرة خاصةً بعد تعرفهم علــى ليبيا التي لم يذهبــوا إليها مطلقاً من قبل. عند ذلك فهم المهاجرون التيرانيون أنه يتوجــب عليهم ترك جزيرة بلاتيا platéa والعودة والإقامة فوق أرض القارة الجديدة نفسها التي تركوها.

وهذا يعني الإقامة في حوض الأزيريس Aziris المتحضــر والغني بالماء وذي الظل الدائم وبالوقت نفسه ليس بعيداً عن جزيرة بلاتيــا، ومــن دون شك عنــد مصب وادي الخليج. وقد بقــوا هناك تسع سنوات حتى الوقت الــذي جاء فيه الليبيــون المجاورون لهــم واصطحبوهــم إلى المــكان الذي كان يسمــى : «المكان الذي تدخله الشمس» هذه العبــارة تشير إلى المــكان أو المنطقة المعنية في الاستشــارة الإلهية، وهــي الغنية بالمياه والأمطار.

وفي بعض الأحيــان كان يتطلب الأمر اصطحابهــم في الليل خوفاً أن يختار هؤلاء الجدد مكاناً آخر، وهــذا بالطبع سيغضب أو يثــير غضب كامل شرائح القبائل الليبية. علماً أن الشعــور بالخطر لدى الليبيين من قبــل القادمين الجدد مــا زال غير مهم ولا يلفت النظــر بشكلٍ كبــير؛ وعند ذلك وفي عام ٦٣١ ق.م حــل التيرانيون القادمون من تــيران باتوســ Thréen de Battos بالقــرب من نبع كيرا، نبع النباتات الزنبقية asphodels والذي كان وجوده ضرورياً من أجل تأسيس مدينة سيرين المستقبلية وتأسيس الولاية لتكون هذه المدينة عاصمةً لها.

وبعد هــذا الموقف وهذا الاستقرار بقي علــى المستوطنــين أن يبحثوا عــن أراضٍ جيدة في منطقة تكــون قريبة من مواطنهم الأصليــة والتــي عرفت لاحقــاً بجزر بحر إيجة وبحــر تيران أو جزر اليونــان، إلا أن معرفتهم في المنطقــة كانت غير كافية، كما يؤكد ذلــك خجلهم وخشيتهــم في المحاولة الأولى، وكذلــك التاريخ المتأخر الذي توصل إليه المستوطنون، أي بعد قرن من الزمن من حلولهم في المدن الكــبرى في جزيرة صقلية وفي اليونان الكبرى.

وبالمقابــل فإن الجاذبيــة وسحر المكان والإغــراء الحاصل مــن خــلال التأسيس الجديد الذي جرى مباشرةً حيث أخذ هؤلاء الفينيقيون/الإغريق مباشرةً في التوسع على الساحــل في اتجــاه الغــرب وأسسوا مدين توخيرا(توكرا) في العشــر سنوات التي تلت وجودهم في مدينة سيرين، وجاء الأمر بشكلٍ اعتيــادي، ثم لحق بهــم جماعات من جزر

منطقــة البيليوبونيز ورودوس، وهي الأرض التــي أصبحت أغلبية سكانهــا من القبائل الدورية كما هو الحال في تيرا نفسها.

تأسيس السلطة الحاكمة والأسرة الملكية:

بعــد أربعين عامــاً مــن إدارة السلطة في مدينــة ومنطقة سيريــن من قبل العاهل باتوس الأول أصبــح هذا الشخص المؤسس الحقيقي والملــك الجديد للمدينة الحديثة، وهذا يعني أنه أســس أسرة وسلالة حاكمة أصبحت تتربع على العرش في المدينة وعلى دفة القيــادة والسيادة في المنطقة التي أخذ يطلق عليها المؤرخون ليبيا الإغريقية خلال ماينوف عن قرنين من الزمن حتى عام ٤٤٠ ق.م، وقد تناوب على السلطة والمملكة خلال هذه الفترة ثمانية ملــوك جاءت تسمياتهم بالتعاقب بين باتوسBattos و أرسيزيلاس Arcésilas.

وقد حصل الملك باتوســ الثاني والذي عــرف باسم باتوســ البطل علــى المباركة الإلهية من قبل الإله أبوللو من أجل تشجيع وتنشيط مستقبل المستوطنة الجديدة. وقد أيقظ هذا الأمر وأثار قلق ومخاوف القبائل الليبية التي أجبرت على تقسيم أراضيها مع المستوطنين الجدد، وبشكلٍ خاص الجماعات التي تنتمي إلى منطقــة البليوبونيز أو جزر البليونيز.

ونتيجــةً لهذه الأحــداث المستجدة لجأ الليبيون إلى المصريين وخاصة إلى الفرعون Apriés أبريســ مما أشعــل الحرب بين الطرفين، إلا أنهم خسروا الحرب وانهزموا أمام جيش سيرين في معركة إيراسا التي تقع إلى الشــرق من سهل سيرين. وقد رسخ هذا الانتصار ومتن الاستيطان النهائي والسيادة للسيرينيين وتم تشكيــل سلطة ريفية محلية واسعة في المناطق الخضراء. كما أن التوسع والامتداد ســار بشكلٍ سريع وانتصارٍ شهير، إلا أن هذا الازدهار الذي تحقق بشكلٍ سريع لم يحدث مــن دون أن يسبب خلق مشكلات سياسية واجتماعية.

وبمــا أن الأراضــي الليبيــة الشاسعــة والواسعة قد سمحــت للمستوطنين الجدد بتأسيس وتشكيــل سلطات واسعة وتحصيل ثــروات هائلة، إلا أن هــذا الأمر ولد ثروة وطبقــة أرستقراطية ملحوظة؛ وهذه الثروة الارستقراطية كانت ناتجة عن الموارد المالية والعقاريــة والاقتصاديــة الجديــدة، وهنا أصبحت تتشابــه مع ما كان عليه الحال في بقية العــالم الفينيقــي والإغريقي مما ولد وجر المتاعــب للسلطة الحاكمة وكبل بشكلٍ متصاعد السلطة الملكية.

وقد انفجرت الأزمة في عهد الملك أرسيزيلاس الثاني Arcésilas الصلب والقاسي، حتى إن المشكلة وصلت إلى العائلة المالكة نفسها بحيث أخذ أخوة وأشقاء الملك يتوسعون إلى الغرب من مدينة ومنطقة برقة في ظل الأزمة الداخلية وكذلك المخاطر الخارجية.

وبما أن الجيش السيريني عانى وواجه إخفاق وانهيار وخسارة في leukôn لوكون، وهذه الخسارة والإخفاقات ترجمت وأظهرت الفوضى والانحلال الذي أخذ ينمو ويزداد مولداً ومحدثاً أزمة خطيرة متناظرة ومتماثلة مع كامل المنطقة؛ بمعنى أن الأزمة كانت متشابهة مع ما حصل وحل في كل المناطق بما في ذلك كل المدن.

لذلك أخذ السيرينيون يبحثون وبشكلٍ ملح لحل المشكلة والأزمة وإيجاد حل عن طريق نداء ودعوى من قبل الهيئة التشريعية واللجوء إلى التحكيم من قبل سلطة مدنية. وقد حافظ ديموراكس Démorax de Mantiée على السلطة، أو بمعنى أخر استطاع أن يرمم ويعيد للسلطة اعتبارها وينقلها إلى السلطات الدينية، أو تقليص السلطة السياسية لصالح السلطات الدينية وتحويل ما يخص السلطات السياسية إلى «Démos» الديموس حسب ما ورد عند هيرودوت. وهذا التعبير المبهم والغامض من قبل هيرودوت لم يؤكد لنا أو يعطينا مجالاً للتفكير إلا منذ منتصف القرن السادس حيث ظهرت الديمقراطية في سيرين.

وفي الحقيقة فإن تعبير الديموس حدد فقط بمن وضعوا أيديهم على السلطات المدنية، أو من حصرت سلطاتهم في السلطات المدنية، أو بمعنى محدد أكثر من قبل الأرستقراطيين الذين يعتبرون كبار الملاكين العقاريين أو كبار أصحاب الأراضي. وقد كان التحكيم والتسوية أصيلة وجوهرية لأنها أرضت الجميع ونالت القبول ممن كانوا المتسببين في مخاطر عدم الاستقرار.

ولكن على الرغم من قبول الملك باتوس الثالث لهذا الأمر وحسب ما ظهر ذلك لاحقاً وبهذه الوضعية، إلا أن الرضا والقبول لم يتم بنفس القدر وبنفس الوضعية من قبل ابنة ارسيزيلاس الثالث الملك الطاغية ذي الاستبداد الحقيقي، وقد حاول هذا الأخير أن يقاوم ويناضل من أجل أن يتسلم الحكم ثانية أو يعيد استلام السلطة التي خسرها والده، إلا أنه لم يحقق نجاحاً بل انهزم.

وهذا الانهزام أجبره على الهجرة والعيش وحيداً في الاغتراب، وقد اختار وبشكلٍ عرضي أن يطلب اللجوء إلى الحاكم بوليكرات polycrae مغتصب السلطة

وحاكم ساموس samos، بينما وجدت أمه pheretimee فيريتيم لاجئة عند الملك إيفيلتون Evelthon في مدينة Salamine سالامين في جزيرة قبرص.

وأخذ هذا الملك إيفيلتون يتنقل ليحث ويثير الحماس لإيقاظ محاولات الثأر عند الملكة الأم، بينما كان الأمر عند أرسيزيليس الثالث على العكس من ذلك، فقد أخذ يوقظ ويشجع أتباعه ومرتزقته في ساموس وباشر في إعادة الترميم والاستيلاء أو العودة إلى السلطة، وأخذ منذ ذلك الوقت في استشارة كاهن مدينة دلفس أو وسيط الآلهة في دلفس حيث كان الجواب المنقول إلينا عن طريق هيرودوت من خلال إحدى روائعه وكتاباته الشهيرة في كتابه logoi.

وجاء القسم الأول من الاستشارة الإلهية على الأرجح مفتعلاً أو مزوراً، حيث تدعو الاستشارة الملك إلى الإصلاح في حياة العائلة المالكة من أجل قرن آخر من الزمن. أما القسم الآخر من الاستشارة وهو الموثوق الصحيح والمصدق فهي نصيحة إلى الملك بعدم وضع النار في الفرن المليء بالجرار، وإذا حصل خرق على حين غرة وغفلة ونتيجة خطأ أو سهو أو مكث هذا النهي والمنع دون تطبيق، وإذا امتنع منذ الآن وصاعداً من الدخول في «المحيط المائي» فعند ذلك سوف يغضب الآلهة.

وإذا كانت العبارة الأولى واضحة فإن الأمر يتطلب مجاملة ومحاباة ومراعاة الأرستقراطية. بينما لم يفهم الملك ذلك إلا في وقتٍ متأخر عندما طفح الكيل من الزجر والعقاب الذي لحق الإصلاح وسود بالدخان مجموعة من الأرستقراطية، وبذلك فقد خشي وخاف إذاً من عقابٍ عادل تفرضه عليه الآلهة.

وقد اعتقد أو فكر أن المحيط المائي كان موقع سيرين المحصور والمحاط في مسيلين أو واديين مزودين بالمياه التي تجري فيهما هذه المياه القادمة من مسيلات مختلفة في فصل الشتاء، وكذلك من خلال كمية قليلة من مسيلات المياه البسيطة، ولذلك فقد لجأ إلى برقة عند صهره الآزير Alazeir ملك المدينة حيث تم قتله أو اغتياله هناك. ولمعرفة حقيقة ما جرى فهناك تفسير أخر مفاده أن المياه عندما تجري وتفيض شتاءً في مجرى المياه في مدينة برقة المنخفض الحقيقي تصبح المدينة في ذلك الوقت عبارة عن جزيرة.

أما بالنسبة إلى الملكة الأم pheretimee فيريتيم فلم تُلقِ السلاح ولذلك قررت الاستنجاد بالفرس الذين سبق لابنها أن

قام بإجـراء تحالف معهم عنـد احتلالهم لمصر من قبل قمبيز في عام ٥٢٥ ق.م. وقد نظر الوالي الفارسـي «الساتراب أرياندس Aryandes» إلى أن إبعـاد وطـرد عـدو ومنافس للملك الكبير يشكل هدفاً له، وبنفس الوقت يكون وسيلة لبلوغ الهدف في الوصول إلى داخـل سلطة وسيادة هذا الأخير، ولهذا جهز حملة تأديبية نحو عام ٥١٤ ق.م.

أمـا بالنسبـة إلى مدينـة سيرين فقد تمت المحافظـة عليها، ولكـن بالنسبة إلى مدينة برقـة فقد دمرت، أمـا بالنسبة إلى سكانها فقد أبعدوا وتمَّ نفيهم إلى آسيا وفي منطقة Bactriane باكتريان، وبذلك فقد سقطت سيرين في أيدي المحتلين الجدد، أما المنطقـة فقد بقيت خاضعة إلى أسرة باتياد BATTIADES ممثل باتوس الرابع.

وقد تبيَّن من خـلال مجريات الأمور أن السلطـة الفارسيـة كان مستوجباً عليها أن تتجنـب هـذا الحاكم نفسه بعـد الحروب الميديـة في بدايـة القرن الخامـس، بينما بقيت الهيبـة والقوة الأرستقراطية موجودة بشـكلٍ دائم وبقوةٍ كبـيرة، إلا أنها أصبحت شيئاً فشيئاً تنظر إلى استلام السلطة الملكية كشيءٍ مهمل وليس له قيمة تذكر.

ونحو عام ٤٤٠ ق.م فإن الغراب الأبيض الذي كان قد أرشد المستوطنين الأوائل على موقع سيريـن فقد ظهر مـن جديد، وهذا يعنـي أن اللحظات قد أنجـزت وكل شيءٍ أصبح على ما يرام والملك الذي كان قد نفي أو التجـأ لوقتٍ قصير إلى الغرب من مدينة أو موقـعEuhespérides أوهسبيريد – Berenike (بنـي غازي اليـوم) فقد توفي تاركاً المكان للجمهور.

وإذا كانت الفترة الزمنية في بحر القرن الخامـس تتميز بالفوضى بحيث تسببت في عـدم الاستقرار ضمـن التسلسل التاريخي الواضح، إلا أن الأمـر لا يقتضي أن يوضع القناع على قوة ليبيا الفينيقية/ الإغريقية، وخير دليل على ذلك التحول والتطور المنفذ مـن خلال العدد الكبير للمـدن الفينيقية/ الإغريقية الكبرى والمتعددة.

قمة وذروة مجد سيرين الجمهورية :

لقد انتهى القـرن الخامس قبل الميلاد وأصبـح القرن الرابع يمثـل المرحلة الأكثر ازدهـاراً ولمعاناً في تاريخ سيرين ومنطقتها، ومنها أربع مدن هي: مدينة Barka (برقة – المرج) ومدينة توخيرا Taucheirā (توكرا) ومدينة هسبيريدس Euhespérides أو بيرينيك Berenike (بنـي غازي) ومدينة بتوليمائيك Ptolemais (طلميثة)، وشكلت هذه المدن ما يسمى ليبيـا الإغريقية، وكل واحدة مستقلة عن الأخرى، كما كانت دائماً

في صراع وعداء بين بعضها البعض، وكانت غير متماثلة ومتساوية بشكلٍ كبير وذلك بما يخص السلطة والنفوذ والأهمية.

ولكن كان يتوجب عليها جميعاً الاعتراف في استعلاء وتفوق مدينة سيرين وبشكلٍ خاص بعد عام ٣٧٥ ق.م أي في الفترة التي شهدت فيها عدوتها ومنافستها الرئيسة مدينة برقة فترةً من التراجع. ومن المرجح أن يكون ذلك بعد انتصار سيرين.

ولم يكن بالشيء المدهش والغريب أن يكون مفهوماً لدى الجميع بأن هذه المدينة كانت تخضع وبشكلٍ دائم تقريباً للسلطة الأرستقراطية، ولذلك يصبح من الصعب استبعادها في فترةٍ وجيزة من الثورة والاضطراب كما حدث في عام ٤٠١ ق.م. ومع ذلك نجد وبشكلٍ عام أن حكومة سيرين كانت ترتكز على طاقم مدني مقلص ومحدد ويعرف باسم الأميال les Mille.

وفي منتصف القرن الرابع كان يترأس السلطة في المدينة أحد كهنة الإله أبوللو الذي كان ينتخب بشكلٍ اعتيادي سنوياً من بين المواطنين الذين يبلغون عمراً يتجاوز الخمسين عاماً. وبعد هذا الكاهن يأتي خمسة قادة برتبة stratégesاستراتيجي يمارسون السلطة السنوية بشكلٍ متعاقب مع الحاكم إيفور Ephore ومع مساعدة ومؤازرة مجلسين هما مجلس الشيوخ la Boulé ومجلس المستشارين Gérousia، إلا أننا نجهل بدورنا المهام والوظائف المحددة لكلٍ منهما.

ثم هناك مجلس الكهان des demiurges أو مجلس الكهنوت اللاهوتيين الذين كانت مهامهم إدارة سلطات الإله أبوللو، وهي السلطات الملكية السابقة. ومن المعتقد أيضاً وجود مختصين ماليين واقتصاديين أكفاء. وهذا الأمر أو النمط من السلطة فمن المعتقد أن يكون نموذجاً إسبارطيا معتاداً، وخاصة في حال معرفتنا عن الجذور والأصل البيليونيزي للقسم الكبير من الشعب.

وكذلك الأمر الاقتباس من النموذج الأثيني من نواحي الالتزام والامتياز والتنسيق مع المطالبات والادعاءات والمتطلبات الديمقراطية مع الزمن. إلا أن الصفات المميزة والتنويع الأرستقراطي كان ينفذ ويمر عبر تصنيف ووظائف ومهام المجلس البلدي corps civique ، وكذلك شروط العمر المفروضة على الشيوخ (الماجيسترات magistrats).

كما خصص أيضاً مقعداً للإدارات والمصالح الرياضية التي كانت تلعب دوراً هاماً هنا كما هو الحال في المناطق الأخرى

حيث كانت تلعب دوراً أساسياً وعميقاً وذلك بما يخص الأجيال الصاعدة وبناء المواطنين في المستقبل. أما المراهقين والشباب les éphébes فكانوا يشكلون جسم وهيكلية ما يعرف باسم الثلاثمئة trios cents أو الكتائب وذلك تحت قيادة وإدارة Triacatiarque. وكان اللون الوردي المختص بهم ظاهراً بوضوح وهذا ما يذكر بجزيرة من الجزر الفينيقية في البحر الأبيض المتوسط وخاصة جزيرة كريت القريبة جداً من الشاطئ الليبي والتي التحق قسم من سكانها بالمستوطنين في إقليم سيرينائيك.

أما بالنسبة إلى باقي شرائح الشعب أو الجماعة المدنية من هذا الشعب فقد أصبحت في بحبوحةٍ من العيش وبشكلٍ سريع وشهدوا كذلك أريحية في تصريف أعمالهم ومصالحهم الكبرى حيث سنحت لهم الفرصة المتاجرة بالحبوب التي كانت تباع في الأسواق عند نضوجها المبكر أو فترة ما يعرف باسم «soudure» أي فترة الاستجابة لحاجات المنتجين والمستهلكين لكامل التشكيلات الزراعية المحلية والمحيطة والتي تعود إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وفي تلك الآونة نشطت تجارة الخيول وكذلك النباتات البرية المتنوعة وعلى رأسها النبات المشهور باسم السلفيون silphion والذي كان يستعمل في معالجة جميع الأمراض ثم أصبح رمزاً للولاية، وكذلك الترياق panacée الذي كان يستعمل لنفس الأغراض ولكن بشكل أقل شهرة من السلفيون، وكذلك البهار والخردل الصافي والنقي.

وكانت تقدم هذه المنتجات على شكل ضريبة من قبل الليبيين. والسبب في ذلك أن قوة هذه الارستقراطية المرتبطة مع العائلات الليبية الكبرى اقتضت أن لا تخفي هذه الأسر وجود مجتمعات فلاحيه إغريقية أو ليبية كانت تعيش في القرى التي كانت تعرف باسم الكوماي[٨].

وكانت هذه القبائل تعيش أغلب أوقاتها بعلاقة حثيثة واتفاقٍ حسن مع المواطنين سكان المدن والقرى، وكان هذا الأمر يتم على الأقل بخصوص القبائل القاطنة شمال المنطقة، ولم يكن يعني القبائل التي تسكن في الجنوب والتي حقق السيرينيون انتصارات حقيقية عليهم في منتصف القرن الرابع ق.م. وكان هذا الصراع والمنافسة يتكرران بشكلٍ خاص ضد النازامون les Nasamons و الماكيين les Maques، إلا أن هذا الصراع لم يترك أي إثارة للفضول، كما أنه لم يُثر الاهتمام بقدرٍ معين لدرجة يتوصل فيها الأمر إلى شن حرب ضروس ومدهشة

ومذهلة كما تم الأمر ضد السلطة الفينيقية في مدينة قرطاج البعيدة.

وفي الحقيقة فإن المسافات الشاسعة والواسعة خارج نطاق الجبل الأخضر وكذلك الطبيعة القاسية للمنطقة كانت تمنع حتى التفكير أو إثارة الرغبة في استثمار المنطقة في المجالات الزراعة، لذلك كان السيرينيون يبحثون بكثرة وبشكلٍ مؤكد على ضمان تأمين أمن وحماية تجارة القوافل التي تعبر الصحراء والتي تكون حركتها بشكلٍ عام غير مستمرة وإنما بأوقاتٍ محددة، كما أنها كانت مأجورة ولها عائداتها الواضحة والمحددة.

وكانت هذه القوافل محملة دائماً بالمنتجات القادمة من الواحات أو البضائع التجارية المنقولة عن طريق الواحات والمتجهة إلى البحر الأبيض المتوسط والمحملة بمادة الذهب والعاج والنعام ... إلخ، وكذلك التجارة القادمة من المناطق الداخلية في القارة السمراء.

وهذا الأمر يوضح وبجلاء سبب المنافسة والعداء المدهش الذي واجه العدائين السيرينيين والعدائين القرطاجيين والأخوة Philénes فيلين من أجل تعيين وتحديد الحدود أو التخوم والتي حددت ليس بعيداً عن سيرين بالمقارنة مع بعدها الكبير عن قرطاج، وفي عمق خليج سرت. وهناك في ذلك الموقع قبل الأخوة الفيلينيون التضحية من أجل المحافظة على موطنهم الذي اكتسبوا الحصول عليه والنصر في اقتنائه[٩].

ومما زاد في التأكيد على ذلك الصدق في الشرح والتوضيح عن أهمية الحركة العمرانية وإشادة الأبنية الضخمة والمجملة والفاخرة في مدينة سيرين انطلاقا من منتصف القرن الرابع، وجاء ذلك أيضاً مترافقاً مع النهضة الثقافية في المدينة التي شملت مختلف العلوم الفلسفية والأدبية والطبية وغيرها حيث الأطباء هناك بنفس المستوى والكفاءة بالمقارنة مع أولائك الأطباء الذين ينتمون إلى مدرسة كوس Cos منذ القرن الخامس، وكذلك علماء الرياضيات الذين كان لهم شهرة كبيرة مثل تيودوروسthéodoros السيريني وأفلاطون platonالذي جاء لزيارته في عام ٣٩٩ ق.م. وكذلك الأدباء والفلاسفة الذين كانوا يستلهمون أفكارهم ومبادئهم من المنطقة مثلaristippe أرستيب تلميذ سقراط الذي أسس مدرسة سيرينائيك والذي اشتهر وشهر وعظم البحث عن الرغبة في قمة أوجها وتعاليها.

وبهذا استطاعت سيرين منذ ذلك الوقت أن تتربع على مركز عالمي من خلال لمعانها

وازدهارهـا، وظهـر ذلك أيضـاً من خلال الانتصارات التي كانت تحققها في المسابقات العالميـة التـي كانـت تجـري في الألعاب الأولمبيـة في مدينة دلفـس Delphes أو نيمة Némé، وقد تفوقت على تلك المدن ومدنٍ أخرى بين أعوام ٣٦٠ – ٣٣٠ ق.م.

وبفضل الثروات الهائلة والكنوز الكبيرة التـي كانت تمتلكها المدينـة فقد أخذت في سـك المجوهرات والمسكـوكات المعدنية في مدينـة دلفـس في الربع الثالـث من القرن الرابـع وتخصص ريعهـا وأرباحهـا لبناء روائعها الهندسيـة والمعمارية بفضل براعة المهندسين في علـم الرياضيات، وقد ارتكز الأمر كلياً على مركز العدد pi بي؛ وهو رمز يمثل نسبة محيط دائرة إلى جزء قطرها، أي زهاء ٣٠١٤١٦ ومضاعفاته.

وبذلك فقـد أصبحت سيرين ومنطقتها جزيرة مـن الأزهار في عـالم إغريقي تآكل وهلك من جراء الحـروب. وقد استطاعت سيريـن كسب ثقة وصداقة الإسكندر الكبير مـن دون أن تقع تحت احتلالـه كما أنها لم تتعرض إلى خطـر جيشـه، إلا أنها كانت حذرة مـن طموحـات أحد قادتـه تيبرون thibron الذي استغل واستعمل ومن دون شفقة ورحمة الكنز السري والمختلس وبخفية وسراً عن الإسكندر الكبير من أمين الخزينة Harpole من أجـل تجهيز حملة ومحاولة احتلال المنطقة.

وهذه التصرفات الفردية كانت تعبر عن طموحـات الجنرالات أو قادة الأسكندر، إلا أنهـا كانت محاولات مـن دون أن تحقق أي تقدم ونجاح خلال ثلاث سنوات في المنطقة، ولم تنجـح في تحقيق أي نجـاح مستمر، إلا أنها أيقظت وخلقـت الانفساخ الداخلي في سيريـن، وكذلك العداء بين المدن الإغريقية الليبية. وقد أنهك هذا الأمر المنطقة خلال ثلاث سنوات من الصـراع من دون انقطاع مما دعا إلى الاستنجاد بوالي مصر بطليموس الذي نجح وبسهولة في السيطرة على المنطقة بفضل ضابطه الماهر أوفيلا Ophélla في عام ٣٢١ ق.م.

وبذلك وللمـرة الأولى خسـرت سيرين استقلالهـا وأصبحـت تحصـل على ذلك عرضـاً، ولم تعد لديها الفرصـة للعودة إلى الـوراء للوصول إلى لمعانها وازدهارها الذي عاشته خلال قرن ونصف من الزمن في ظل ملوكها الثمانية من أسرة مؤسسها باتوس.

سيرين وحكام مصر البطالمة اللاجيد:

كان بطليموس (حاكم مصر) حكيماً جداً وحذراً ومتبصراً وثاقب الرؤية والفهم الجيد في ماهية الإجراءات والترتيبات المستوجب أخذهـا وتهيئتهـا بما يخصـ علاقاته مع

سيريـــن، لذلك أصدر مرسوماً في نهاية عام ٣٢١ ق.م. وسمي هـــذا المرسوم الدياقراما diagramma أي الرســم التخطيطـــي أو البياني يحدد من خلاله الخطوط العريضة لمهمة ووظيفـــة المؤسســـات المدنية و يحدد فيه أيضـــاً مكان ومهمة القائـــد العسكري الساتـــراب، وهـــو قائـــد استراتيجي يعيش ويقيم في المدينة ومن ثم ممثل عنه من قبل ضابطه ووكيله Ophéllas أوفيلاس.

وقـــد بـــرز ولمـــع بسرعـــة مـــن خلال انطلاقـــة حثيثة وجادة حيث أخذ أوفيلاس Ophéllas ينظـــم مهامـــه ذات الاستقلال المتســـع والعريضـــ، وعقد اتفاقـــاً مع والي وحاكم سيراكوس أقاتوكل Agathocle من أجـــل محاربة مملكة قرطـــاج في عام ٣٠٩-٣٠٨ ق.م. لذلك باشر في التوجه نحو الغرب ووضـــع مركـــزه في وضعية الحصـــار أمام قرطاج بعد مسيرة ألفـــين ٢٠٠٠كم. إلا أنه سقـــط بسرعة تحت قبضـــة حليفه القديم الذي استولى علـــى الجيش وخصص قواته لنفسه.

وقد وضعت هذه الخســـارة حداً نهائياً للذبذبات وبينت ضعف الإدارة السيرينية في تشكيل إمبراطورية أفريقية كبرى. وعند ذلك قلصت المدينة طموحاتها وانحصرت ثورتها وعداؤها منذ ذلك الوقت ضد بطليموس في عام ٣٠٥ ق.م، إلا أنها سقطت في عام ٣٠٠ تحـــت قبضة قواته، ومن ثم وبناءً على ذلك خضعت تحـــت سلطـــة وإدارة حاكم جديد وهو ماقاز Magas صهر الملك الجديد في الإسكندرية. وكان عمر هذا الحاكم الجديد حوالي العشريـــن عاماً حيـــث أصبح يحكم ليبيـــا الإغريقية لحساب حمـــاه حتى عام ٢٨٣ ق.م. وعند وفاة بطليموس الأول أعلن استقلاله مع الاحتفـــاظ بعرشه حتى وفاته في عـــام ٢٥٠ ق.م. أي بمعنـــى أن سلطتـــه دامـــت نصف قرن مـــن الزمن، وقد حافظ خلالها على الاستقرار والهدوء للمدينة.

وأثنـــاء توليـــه العرش أخـــذ يفكر بمن يخلفه في الحكم، لذلك أخذ في تزويج ابنته الوحيـــدة بيرينيســـ Bérénice مـــن والي عهد مصر بطليموس الثالث. وهذه المبادرة أدخلت سيرين في حلقـــة التبعية البطلمية، إلا أن هذا الأمر لم يتم من دون توليد مآسي ومتاعـــب وأحزان لذلك أخـــذت الملكة الأم أفاميا تبحث عن عـــدو وخصم لبطليموس الثالث في سيرين ووجدت ذلك في شخصية أمـــير مقدوني وهو ديمتريوس الجميل الذي أصبح مهيئاً لزواج ابنتها بيرينيس.

إلا أن صهرها المستقبلي المتيم والولهان أثـــر على بيرينيس، ولكـــن للأسف فقد كان ثمن هذا الحب التضحية بحياته ثمناً لذلك

حيث مات مقتولاً، وبذلك اخفت لديها الرغبات الأبوية، إلا أنها بالمقابل حصلت على الشهرة العالمية والصيت والسمعة الأسطورية والسيرة الحميدة بفضل قصيدة bonum facinusأو القصيدة الشعرية التي ألقيت وغنيت وأنشدت من قبل الشعراء، مثل الشاعر السيريني كاليماك Callimaque والشاعر اللاتيني كاتول Catulle.

وقد ذكر أن هذا الحدث كان من المبررات الهامة للسيطرة البطلمية على سيرين، يضاف لذلك أن السيطرة البطلمية بصورتها الحقيقية كانت نتيجة حملة عسكرية من أجل إعادة الترتيبات الأمنية، وبشكلٍ خاص أخذت طابعاً حساساً وخاصاً في القسم الغربي من سيرين، وهو الإقليم الأكثر عزلة والأكثر عناداً ومعصية وصعوبة في المراس.

أما مدينة برقة القديمة فقد مسحت وتلاشت أو حذفت وحل محلها كمدينة هامة واستراتيجيةمينائهاالقديممدينةبتوليمائيس (طلميثة) نسبةً للملك اللاجيدي بطليموس، أما مدينة برقة الجديدة فقد نقلت وأصبحت تحت اسم مدينة جديدة أخذت اسم توخيرا والتي أخذت اسم Arsinoé أرزينوية، كما تركت أوهسبيريدسEuhespérides الموقع لحساب بيرينيكة Bérénikéـ.

ومنذ ذلك الوقت وضعت سيرين تحت سيطرة السلطة والسيادة لحكام الإسكندرية، إلا أنها حافظت على وجود أمير كحاكم داخل حصونها عندما أصبحت مقاطعة أو إقطاعية لبطليموس الفتى الذي أصبح في المستقبل يعرف باسم بطليموس الثامن وسيد سيرين منذ عام ٢٦٣ ق.م.

وكان يختلف كلياً عمن سبقه بسبب مقدرته العالية وميزاته المعتبرة، إلا أنه أصبح ضحية محاولة اغتيال وقتل في عام ١٥٥ ق.م، ولهذا السبب اتخذ قراراً أعلن من خلاله أنه في حال موته من دون خلف تتبع مملكته إلى الرومان، و دعم الحصانة وعزز المناعة ضد محاولة الاغتيال الجديد أو المتوقع مستقبلاً والتي أدينت أيضاً من قبل أخيه أو أكثر احتمالاً من قبل مرؤوسيه.

وهؤلاء بالطبع لم يكن لديهم أي اعتراض أو شكاوى ضد الملك. وترافق ذلك مع تنشيط الحركة العمرانية في سيرين بشكلٍ واسع بإعادة تطوير المدينة[١٠] وإضافة حي جديد في المركز و إشادة مركز رياضي (جيمناز) في المدينة؛ وهو عبارة عن بناء كبير مع أروقة بأبعاد ٩٢×٨٢م كما كان في مخيلته حيث كان يتذكر بفخر واعتزاز الوليمة الفاخرة

والاحتفال الضخم الذي أقامه الكاهن في أبولونيا احتفاءً بالأجداد وأسلافه بمناسبة احتفالات أرتاميتيا Artamitia[11].

ولم يقتصر التقديم أثناء المأدبة على تشكيلة من المأكولات الشهية والفاخرة من الدواجن والأسماك، ولكن أضيف إلى ذلك أن كل مدعو كان بإمكانه أن يحمل معه الأواني الفضية، ويعتلي حصاناً أو جواداً مزيناً بأجناد ذهبية ومرافقة عبد صغير كسايس للخيل.

وقد كان هذا الحاكم شخصية غريبة عما كانت عليه العادة أو شخصية جديدة عما هو مألوف حيث وازن بين العيوب والأخطاء البديهية على الأقل. وقد اضطر بطليموس الثاني أن يترك سيرين للرحيل إلى الإسكندرية في عام ١٤٥ ق.م، أما بطليموس أبيون الذي أصبح حاكماً مؤقتاً لمدينة سيرين حتى وفاته في عام ٩٦ ق.م فقد ترك مملكته إلى الرومان، وبذلك ترك سيرين ومدناً استطاعت أن تحافظ على استقلالها وخاصةً استقلالية مجلس الشيوخ.

وفي عام ٧٤ ق.م فقد قرر هذا أن يقلص ليبيا الإغريقية لتكون على شكل ولاية، وهنا نجد أن القرون الثلاثة من الحكم البطلمي اعتبرت في ذلك الوقت أنها فترة زمنية شهدت خلالها مدينة سيرين ومنطقتها لمعانها وازدهارها، إلا أن الاستقلال والازدهار لم يكن يخلو من دفع الثمن الباهظ. إذ إن الحكم التعسفي للمدن الغربية ونزف الدماء التي هدرت والخسارة التي لحقت بالمنطقة بسبب نزوح الكثير من السكان يمكن أن لا يكون موازياً لذلك الازدهار واللمعان.

سيرينائيك ومدن البنتابول والرومان الجدد:

كما هو الحال بالنسبة إلى جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط والقارات المحيطة فيه وخاصةً المناطق العربية والإغريقية والفارسية وغيرها فقد شهدت ليبيا وخاصةً منطقة الجبل الأخضر وعلى رأسها مدينة سيرين فترات صعبة ومؤثرة خلال القرن الأول ق.م بسبب الخلل والفوضى التي تطورت وتوسعت في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية.

وفي خضم هذه القرينة التاريخية والأحداث المضطربة في المنطقة حصلت مدينة أبولونيا والتي تعتبر ميناء مدينة سيرين على مركز مدينة ميتروبول وانضمامها إلى مدن الميتروبول الأم، وسمحت للمنطقة أيضاً أن تحصل على لقب حلف مدن البنتابول. وقد نظر بومبي إلى منطقة سيرينائيك في بداية الأمر نظرة خاصة تنطلق من خلال

مصلحة توفير الأمن لجيوشه التي كانت تطمع في تشكيل إمبراطورية واسعة على حساب جميع الممالك السابقة.

وتنحصر هذه السياسة في تقليص أطماع كل من يطمع في الاستيلاء على هذا الإقليم وخاصة من جهة مصر أو قرطاج، وبعد أن عالج القضية حسب ظروفها المؤرخة جهد في توحيد منطقة سيرينائيك وجزيرة كريت المجاورة لها ولسنواتٍ طويلة ضمن نطاق العمل ضد القراصنة، وكذلك إصلاح وتحسين الإرهاصات السابقة في منطقة بتوليمائيك (طلميثة).

وضمن هذا التنظيم وهذه الاستراتيجية الجديدة استمرت كل من جزيرة كريت وسيرينائيك متحدة وتدار من قبل مستشار بمرتبة بروقنصل يتم اختياره من قبل مجلس الشيوخ من بين أحد أعضائها ولعام واحد، ويوضع هذا المستشار تحت المراقبة الإمبراطورية مباشرةً.

وقد أفلحت هذه السياسة في إحلال السلام على معظم المناطق. وكان من محاسن هذا السلام نتائج فورية رفعت عن منطقة سيرينائيك المتاعب التي كانت تعاني منها نتيجة الحروب ضد المارماريديينles Marmarides في مطلع القرن الأول للميلاد، إضافةً إلى إعادة بناء الحياة المدنية وإعادة ترميم وإشادة الأبنية الكبرى مثل معبد أبوللو ومعبد زيوس وكذلك الجيمناز الذي عرف باسم السيزاريوم والذي يؤكد قوة وعظمة ونشاط التطور في المنطقة. وبذلت المساعي الحثيثة في إعادة البناء والأعمار وعودة النهضة العمرانية والتنظيمية كما كانت.

وقد لفتت هذه المشاريع اهتمام وإعجاب الأباطرة مما شجعهم على بذل الدعم والعون، ومن هذا المنطلق لاقت مدينة سيرين ومدن الحلف دعماً وعوناً من قبل الإمبراطور أورليان والذي قام بدوره في كسب لقب راعي الرعية في مدينة أبولونيا التي تحمل اسم الإله أبوللو. وتأسيس مدينة على شرف الإمبراطور هادريان والتي عرفت باسم hadrianopolis مدينة هادريان (driana دريانا حاليا) والتي تقع بين مدينة توخيرا(توكرا) /أريزونا ومدينة بيرينيكة (بنغازي) .

وبذلك فإن انطلاقة مدن سيرين وبيرينيكة الجديدة كانت قوية لدرجة أن هذه المدينة الثانية استمرت في الازدهار حتى تربعت وبلغت درجة نافست فيها مدينة سيرين لتصبح مدينة الميتروبول الأولى أو المدينة الكبرى في ليبيا في عهد الإمبراطور أنطونين، وفي سيرين نفسها فقد أعيد إنشاء

كامل الأبنيــة في نهاية القــرن الثاني، كما شهدت تحسيناً جديداً شمل المنهج العمراني الذي غطى كامــل الحيز التنظيمي وكذلك التوسع خارج الأسوار.

ولا بــد مــن الإشــارة أيضــاً إلى عهد الإمبراطــور سبتيموس سيفيروس ابن ليبيا، وإلى الازدهــار الذي ظهــر في مطلع القرن الجديــد وعبر عن الغنــى والتاريخ الطويل لمدينة سيريــن والمدن العربيــة الفينيقية/ الإغريقيــة في ليبيا التي ظهــرت دائماً في مظهر اللمعان في بنائهــا الكلي. وإن ركائز الازدهــار في المنطقــة كانت دائمــاً سليمة وثابتة وغير متبدلة.

كمــا أن التــوازن بين البــداوة والمدنية والتحضــر لم يعرض المنطقــة دائماً إلى أي مشكلة، كما أن قوة وثقة سيرين في ماضيها العريق استمرت لامعــة على الدوام، وظهر ذلك واضحاً في النصوص الكتابية الرسمية، وأن سيريــن المدينــة العربيــة الفينيقيــة/ الإغريقيــة الليبيــة عبارة عــن مثل واضح وفريــد من نوعه على النجاح المثالي في عالم البحر الأبيض المتوسط.

سيرينائيــك ومدن البنتابــول في العهد الإمبراطوري المتأخر والعهد البيزنطي:

إن الشــيء المميز في تاريــخ سيرين في العهــد الإمبراطــوري المتأخر هــو وضوح وتحديد الحياة العامة بــين ولايتين تشكلتا في ليبيــا العليا وهما ولاية مــدن البنتابول وولاية ليبيــا الداخلية التي ظهرت في عهد الإمبراطــور ديوقليسيــان واستمــرت حتى وصول الفتوحــات العربية الإسلامية. وهي عبارة عن فــترة زمنية هامة استمرت أربعة قرون تقريبــاً، إلا أنها تميــزت في إطارها العــام بأنها فترة مغلقــة ومظلمة ومكتئبة بسبب الغــزوات البشرية أو بسبب المصائب والكــوارث الطبيعية التــي حلت في البلاد، إلا أنها كانت تضاء بــين حين وأخر وتتنور باللمعان والانطلاقة التي تتوقد من الإيمان بالحياة والتمسك بالتاريخ الحافل بالأمجاد والازدهــار. وخلاصة القول إنها فترة زمنية تعبر عن نفسها وتدل وتظهر عالماً إما يكون متناميــاً أو مهجوراً أو زاهداً أو عالماً يحمل في داخلــه مستقبلاً أو تاريخــاً للمستقبل القــادم أو مــا يمكــن أن نسميــه ظاهرة الحضارة البيزنطية.

وحتى تاريخ قريب جــداً كان المؤرخون والأثريــون الذين كانــوا يكتبون عن التاريخ العربي بشــكل عام والتاريــخ الليبي بشكل خاص يعتقدون بــأن إقليم سيرينائيك بقي مــن القرن الرابــع وحتى السابــع للميلاد منطقة يخيــم عليها الانحطــاط. والسبب في ذلــك أنها كانت ضحيــة استباق الحكم

وبغير دراية عن طريق استنتاجات المؤرخين بموجب ذاكرة وعرف متوارث منذ القرن الثامن عشر.

وكان ينظر إلى الولاية على أنها إحدى الأجزاء الممزقة من الإمبراطورية الرومانية التي تجزأت وتمزقت خلال هذه الفترة من القرون التي نحن بصدد الحديث عنها مما حول زينتها إلى ظلمة، ومن خلال هذه النظرة فإن دراسة المنطقة دراسة منطقية منذ نهاية المرحلة الكلاسيكية تكون لها قيمة اعتبارية من أجل فهم المراحل التي سبقتها والمراحل اللاحقة. ويظهر من خلال ذلك بأن المفهوم أو التصور التاريخي للأحداث لم يكن حتى الآن شيئاً مكتسباً، وفي هذه الحالة يكون من السيئ جداً الحكم على الأمور بهذه البساطة، وأن التعرف على التاريخ الحقيقي هو المنطلق الأساسي ليعود هذا التاريخ ويتكلم من جديد وبشكلٍ مستمر ودائم عن حقيقة الأحداث.

والسبب في ذلك أن المقارنة بين المصادر الكتابية والأدبية والنصوصية والتاريخية والأثرية جميعها تثبت أن هذه المنطقة كانت ضمن إمبراطورية منحطة ومتفسخة في فتراتٍ معينة، ولذلك يجب أن تتبدل الصورة ويحل محلها المفهوم الصحيح عن تلك المنطقة المزدهرة وعلى الأقل المنفتحة على الخارج وذلك حسب منطق الزمن وكذلك بما يخص أهلها وموقعها وأماكنها، وليس بشعور التخلي والحرمان وإنما بنظرة التبدل والتحول والتجديد المستمر.

ومن منطلق الصدق في إظهار حقائق الأمور وبالاعتماد على الدلائل المادية الملموسة والثابتة فقد تأكد منطلق التغيير والإصلاح بعد كل أزمة أو مصيبة أو كارثة، وكان هذا المنطلق يشمل النواحي الإدارية التي تعتبر في حقيقة الأمر الشيء الجوهري في حياة كل مجتمع، ولهذا السبب فقد بادر الإمبراطور ديوقليسيان في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثالث للميلاد في إعادة تشكيل الإدارات وإجراء التغييرات الضرورية في كامل مناطق الإمبراطورية من أجل أن يتسنى له تعيين مصلحين جديرين ومراقبين مخلصين في ولايات الإمبراطورية.

وبهذه السياسة تم فصل الولايات المدنية عن الولايات العسكرية التي كانت سابقاً متمركزة في أيدي الحكام المحليين. ولهذا أصبح منذ ذلك التاريخ في كل ولاية حاكم مدني وحاكم عسكري مرتبطين جوهرياً بإدارة السلطة في روما، وكذلك الحال بالنسبة إلى جزيرة كريت فقد انفصلت بدورها عن ولاية سيرينائيك وانضمت منذ ذلك التاريخ إلى شبه جزيرة البلقان وأصبحت تبعيتها

إلى أبرشيـــة الشرق حيـــث الحكام المدنيين، كمـــا أصبح الحاكم العسكـــري المختص في الشرق يقيم في مدينة أنطاكيا.

أما بالنسبة إلى سيرينائيك فلم تعد بعد ذلك تنحني إلى الغرب والعاصمة روما ولكن تحولـــت نحو الشرق وأصبحـــت تحت إدارة القسطنطينيـــة وحكامها وخلفائهم وورثتهم في القرن الرابع. وهذا التحول حُدد قبل كل شيء وتزامن مع تأسيس مدينة القسطنطينية كمقر للإمبراطور الـــذي كان يحكم القسم الشرقي من الإمبراطورية، ولكن كان يترافق ذلك أيضاً مع حاكم الولاية هذه.

وبعـــد ذلـــك تأسست ولايـــة مصر نحو عـــام ٣٧٠م. ومنـــذ ذلـــك التاريـــخ احتلت مركـــز الصـــدارة وأصبحت تقـــود المنطقة ضمـــن المخطـــط المـــدني وبنفســـ الوقت بموجـــب القانـــون السادســـ الصـــادر عن المجمع الكنســـي الأول في مدينة نيسة عام ٣٢٥م والـــذي أقر واعـــترف بسيادة أسقف أو بطريـــرك الإسكندرية على كامل أراضي أفريقيا الإغريقية والرومانية، أي من حدود خليج سرت غرباً وحتى الحدود المحاذية إلى فلسطين شرقاً.

ومنـــذ ذلـــك التاريخ أصبحـــت منطقة سيرينائيـــك ذات علاقة جيـــدة مع الشمال الغربـــي ومركزه مدينـــة القسطنطينية ومع الشرق ومركـــزه مدينـــة الإسكندرية، وهذا يعني عودة المنطقة إلى الوضعية التي كانت عليها قبل وصـــول الرومان في الوقت الذي كانـــت منطقـــة سيرينائيك لهـــا ارتباطات حادة مع شبـــه الجزيـــرة اليونانية والجزر المرتبطة والمتعلقة فيها في العهود الفينيقية والإغريقية الكلاسيكي بين القرنين السابع والرابع ق.م. وبعد ذلك أصبحت تحت تبعية المملكة البطلميـــة في الإسكندرية من القرن الثالث وحتى القرن الأول ق.م.

وقـــد ظهـــرت الأعمـــال والمساعـــي والإنجازات الإيجابية التي شملت إصلاحات ديوقليسيـــان بوضوح ودامت أكثر مما دامت عليه إصلاحات أغسطس نفسه وأضفت على منطقـــة سيرينائيك استقراراً ثانوياً لم تعرفه مـــدى حياتها. وتم تنفيـــذ التنظيم ووضعه موضع التطبيـــق من قبل الحاكم (تيترارك) الذي أبدى مقاومة عتيدة وصلابة قوية من أجل أن تستمر الولاية والمقاطعة وحتى بعد نهاية تاريخها ضمن العالم المؤثر والمتأثر في عالم البحر الأبيض المتوسط الشرقي.

وخلال القرن الخامس للميلاد فلم نعد نسمع الحديث عن المنطقة إلا نادراً وبمناسبة الأزمـــات الدينية في البدايـــة وعلى رأسها مشكلة الهرطقـــة النسطوريـــة التي أدينت واستنكـــرت في عام ٤٣١م والتي من خلالها

ظهرت معارضة أوبوسيون Euoption شقيق مطران منطقة سيرينائيك Synésion سينيسيون ومن خلال معارضة الآخرين أيضاً. وقد أصبح سينيسيون لاحقاً مطران المدن الخمس البنتابول. ومن ثم هرطقة أوتيشيان eutychienne والمونوفيست التي استنكرت وأدينت عام ٤٥١م والتي سببت إلى استحقاق صامت من أجل تحديد نطاق وحدود كنيسة الإسكندرية، وكذلك مشاكل وأزمات عسكرية ومن ثم غارات وهجمات بربرية جديدة على منطقة سيرينائيك، وكان ذلك في فترةٍ تسبق قليلاً عام ٤٤٨م.

ويمكن من خلال هذه الظاهرة وهذه الأحداث تفسير التحول من مدينة طلميثة (بتوليمائيك) عاصمة ليبيا العليا إلى مدينة أبولونيا (سوسة)؛ بمعنى أن الثانية حلت محل الأولى. ولكن بقيت المشكلة قائمة حيث أن المسألة الدينية لم يوجد لها حل وخاصةً عام ٤٨٢م سواء من خلال صدور المرسوم أو قانون الوحدة الذي أصدره الإمبراطور زينون عام ٤٧٤-٤٩١م والذي حدد فيه الأمر بالإصلاح والتوفيق بين الكنائس المتنافسة والمتعارضة أو المتضادة.

ويبدو أيضاً أن عقد المصالحة والتحالف مع الأرثوذوكس لم يتم إلا في زمن الإمبراطور جوستينيان، أما بالنسبة إلى الضغوطات البربرية فيبدو أنها أوقفت أيضاً عندما أُعلن صدور مرسوم الإمبراطور أناستاز في عام ٤٩١-٥١٨م حول الإدارة العسكرية في حلف البنتابول، أي المدن الخمس في ليبيا. وقد جاء ذلك من وثيقة تاريخية مالية تبين لنا تفاصيل محددة وتبين هيكلية التنظيم وعودة ظهور الكتائب العسكرية في الولاية. كما تبين أن الإمبراطور جوستينيان كان يستحسن في عام ٥٣٩م تحويل القطاعات العسكرية من أبرشية مصر وتخصيص قسم منها وتحويله إلى منطقة سيرينائيك.

ويستخلص من عرض الوثائق أن منطقة الجبل الأخضر كانت تتعرض إلى هجمات قادمة من الداخل، لذلك كانت الرغبة لدى السلطات حماية المنطقة والدفاع عنها ضد الهجمات التي كانت تشنها القبائل القادمة من المناطق الداخلية أو البوادي، وقد تأكدت هذه الرؤية من خلال الإشارات التي جاءتنا نحو عام ٥٥٠م من قبل المؤرخ السيزاري بروكوب procope. وقد أظهر هذا المؤرخ وشرح الكثير والعديد من القضايا المختصة في الحركة العمرانية والتجديدات العسكرية التي كان الإمبراطور قد كرس اهتمامه من أجلها ليس فقط في منطقة سيرينائيك وإنما شمل ذلك البرنامج والنشاط كامل الأراضي الأفريقية بما فيها الأراضي الداخلية.

وتبقى الإشارة إلى أن هذه البرامج الإصلاحية لم تكن محددة فقط في اهتمامات وبرامج جوستينيان الإستراتيجية، وإنما شمل الأمر المجال الديني على اعتبار أنه كان من المستوجب عليه إصلاح وبناء العديد من الكنائس في منطقة سيرينائيك، وكان ذلك الأمر عكس ما هو عليه الحال في القرن الرابع حيث كانت هيكلية الأبنية وزينتها الهندسية وغيرها ذات أهمية بسيطةً جداً.

ويبقى عصر جوستينيان هو العصر الذي نجد فيه من جهة المخطط الأكثر تحديداً وكذلك الأبنية ذات الديكورات والتزيينات الأكثر دقة ونعومة وجمال. ولم يبخل في الأمر بأي عنصر من العناصر سواء كان ذلك بما يخص استعمال الرخام وتوظيفه والذي استخدم ووظف بشكلٍ مفرطٍ سواء في الأعمدة أو في تصفيح الجدران والمستعمل في الكنائس المحلية، أو بما يخص الفسيفساء الذي كان يركب دائماً على شكل سجاد يغطي الأرض بمظهر ومنظر رائع وجميل.

وقد أصبحت مدينة سوسة عاصمة الولاية مزينة في كنائسها الثلاث العائدة لجوستينيان، كما أصبحت مثالاً يحتذى به، كما شملت النهضة العمرانية التجمعات السكنية الريفية والقرى الصغيرة.، ومما يدل على ذلك كنيسة رأس الهلال التي كانت تعرف قديماً باسم نوستاتموس Naustathmos ، وكنيستين في العترون أو إيريترون Erythron القديمة، أو كنيسة قصر ليبيا حيث يقدم فسيفسائها الرائع والبهي والبراق أجمل اللوحات.

وكان هذا الأمر ينطلق من ثقافة إقليمية وقومية شاملة، فنجد في لوحات الفسيفساء التي فرشت أرضية الكنائس في قصر ليبيا لوحة تصور منارة الإسكندرية، ولوحات تصور آلهة الأنهار الكبرى مثل إله نهر النيل في مصر والسودان وكل من آلهة الأنهار الرئيسة الأربعة في بلاد الشام : الفرات – دجلة – العاصي – بردى. إضافة إلى لوحات تعبر عن مناظر تدل على عالمية الثقافة المنطلقة من منطقة سيرينائيك.

إن تزايد وتكاثر الكنائس ذات المظهر الترفي والمعبر عن البذخ والسخاء والمزينة بالرخام وتحوي أيضاً الفسيفساء الثمين في منطقة سيرينائيك في القرن السادس فهي تعبير واضح ومن دون شك على سلطة جوستينيان وعلى إيمانه وقوته وغناه الاقتصادي والمالي في الإمبراطورية الشرقية في ذلك التاريخ، كما يبرهن ويشهر الغنى لدى التجمعات والمجتمعات العربية المحلية في المنطقة في كثافتها وكذلك تطور وتنامي

الكاثوليكية على حساب المذاهب الأخرى.

وتظهر الحركة العمرانية تنامي البرامج التزيينية من فسيفساء وتيجان وأعمدة وملحقاتها، وهذا يعني بالطبع التأثيرات المستعارة من سورية ومن الأبنية السورية، وكذلك على الازدهار والتطور المتنامي في المنطقة في القرن السادس وانفتاحها على العالم الخارجي.

وأخيراً تبقى المسألة الاقتصادية، فقد بقيت منطقة سيرينائيك وعلى الأقل من القرن الرابع وحتى القرن السادس كما كانت عليه الحال سابقاً عبارة عن منطقة زراعية غنية ومزدهرة، وبلد رعي وتجارة، بمعنى منطقة استيراد وتصدير وعبور للقوافل التجارية البرية والبحرية.

ومهما تكن المعلومات المتوفرة حتى الآن عن المنطقة في العهد الأخير، إلا أنها لم تكن كافية، وتبقى خرساء وناقصة ولم تفِ بالغرض وذات فجوة كبيرة بما فيها المعطيات الأثرية فلم تسمح بإعطاء فكرة واضحة عن الوضعية التي عرفتها الولاية، أي ولاية ليبيا العليا في الفترة الواقعة بين ٥٧٥ و ٦٥٠م والتي سبقت العهد العربي الإسلامي. ويبقى الشيء الوحيد وهو الدلائل الأثرية التي تغني المعرفة عن هذه الفترة التي تعتبر مجهولة حتى الآن.

أما ما يخص قضية الدين والعقيدة فإن المنطقة والتي شهدت منذ القرن الثالث انتصارا على الوثنية ولم تتوقف مطلقاً عن التطور المتلاحق ، و هذا الأمر كان باعثاً أدى إلى رغد العيش وتمتين اللحمة القومية والعقائدية مما سهل ويسر في دخول القوات العربية الإسلامية بقيادة عمر بن العاص وانتشار الإسلام بسهولة.

الهوامش

١- وهي حلف المدن الخمس Pentapole في منطقة الجبل الأخضر في ليبيا وهي مدن : - (توخيرا Taucheirā (توكرا) - Euhespérides أوهسبيريديس (بني غازي)- سيرين Cyrene (قورينا - شحات) - أبولونيا Apollonia(سوسة) بتوليمائيك Ptolemais(طلميثة)

٢- حلف المدن الست Hexapole أي نفس حلف المدن الخمس السابقة مضافاً إليها مدينة برقة Barca (المرج).

٣- خليل المقداد. درعا مدينة المدائن مدينة الديكابولس - دمشق ١٩٩٨ - ص ص ٢١- ٤٦.

4- F. Hours. Le paleolitique en Syrie. In au pays de Baal et d,Astarte 10,000 ans d,art en Syrie. Paris 1984. pp 2731-.

٥- Théra تيرا وهو الاسم الحديث لهذه الجزيرة في بحر إيجة في القسم الجنوبي من أرخبيل desCyclades سيكلاد و Santorin سانتورين، وهو الاسم الذي استعمله اللاتين في العهد البيزنطي اشتقاقاً من اسم القديسة غيرين. وتيرا الذي أعطى اسمه في العهد الكلاسيكي القديم إلى هذه الجزيرة قد كان وحسب القصة أو الأسطورة أحد المنحدرين أو أحفاد قدموس الفينيقي مؤسس مدينة طيبة. وقد ذهب على رأس جماعة من المنيويين لتأسيس وأعمار الجزيرة التي كانت قبل ذلك الوقت مستوطنة فينيقية تتبع أجداد قدموس، وربما أن هذا التاريخ يعود إلى نهاية القرن الثامن ق.م، أي فترة غزو قبائل الدوريين.

6- André Laronde. La Cyréne grecque et romaine. Les dossiers d,archeologie no 167. 1992. pp 6 – 15.

٧- كانت أهم القبائل العربية الليبية الكبرى الموجودة في الحيز الجغرافي الممتد من شرق مصر وحتى خليج سرت بما فيها منطقة الجبل الأخضر وجنوباً حتى الواحات الداخلية هي : التنحو – المشواش – الجرمنت.

٨- kômai الكومـاي وهو تجمع قروي لتقاسم محصول الكورة la chôra مع القبائل الليبية البدوية منها وكذلك سكان البوادي الذين يمارسون من جهة الزراعة ومن جهةٍ أخرى الرعي.

٩- ملخص الموضوع على الشكل التالي: عندما اشتدت شوكة مملكة سيرين أصبحت المنافس الأكبر لمدينة ومملكة قرطاج على الأراضي الليبية مما ولد عداءات وكاد الطرفان الدخول في الحرب من أجل ترسيم الحدود بينهما، ولكن في النهاية قبل الطرفان الرضوخ إلى التحكيم بحيث يسير عداؤون من مدينة قرطاج باتجاه الشرق وعلى رأسهم أحد الأخوة الاثنين من أسرة فيلين، وبالمقابل يسير عداؤون من مدينة سرت وعلى رأسهم الأخ فيلين الثاني باتجاه الغرب، وفي الموقع الذي يلتقيان فيه يكون موقع ترسيم الحدود بين الطرفين، وبذلك يتوقف الأمر على سرعة وهمّة كل عداء، وفي حال الغش أو الخداع يقتل الأخوة فيلين Philénes، علماً أن المسافة بين مدينة سرت وقرطاج تتجاوز الألفين كم، إلا أن نقطة التلاقي كانت بالقرب من مدينة سرت والتي لم يتجاوز بعدها عن مدينة سيرين أكثر من ٥٠٠كم، بمعنى أن سيرين حصلت على ربع المساحة من الأراضي الليبية مقابل ثلاثة أرباع لمملكة قرطاج، لذلك شعر أهل سيرين بالغبن وأيقنوا أن الموضوع جاء بسبب الغش لذلك قتل الأخوة فيلين واشتعلت الحرب بين الطرفين.

١٠- سوف يتبع هذا المقال إن شاء الله بحث أخر نخصصه إلى مدن البنتابول وأبنيتها الأثرية في الأعداد اللاحقة.

١١- نسبةً إلى الإلهة أرتيميس.

الدراسات والبحوث

الثقافة العربية والثقافة الأفريقية

عبد الباقي يوسف

الثقافة العربية ثقافة منتشرة في سائر البلاد الأفريقية، والثقافة الأفريقية منتشرة في سائر الدول العربية، ولذلك عندما نقرأ أدباً أفريقياً، لانشعر بأننا نقرأ أدباً غربياً بالمعنى الكلمة بقدر ما نشعر بأننا نقرأ أدباً عربياً، ولذلك كانت اللقاءات المستمرة بين الثقافتين.

يتطرق هذا البحث إلى خصائص وميزات العلاقات الثقافية العربية الأفريقية، ويسعى إلى بيان تكامليتها.

كاتب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ويبيّن أهمية بناء كيان ثقافي عربي أفريقي في سبيل مواجهة نزعات التهميش التي تتعرض لها الثقافتان.

كذلك يتطرق إلى إيقاع الحياة المشتركة بين المجموعتين، مثل اللغة العربية التي يتحدث بها خمس سكان القارة الأفريقية، وانتشار الإسلام في كثير من الدول منذ القرن السابع الميلادي، وبيان أن الشعوب الأفريقية هي شعوب مسالمة آمنة لم يسبق لها أن غزت أحدا.

والتاريخ الثنائي بين العرب والأفارقة هو تاريخ سلمي مشجع على إقامة هذا الكيان الثقافي.

ثم تتبيّن عوامل حدود القارة الأفريقية الغنية التي تجعل الأبواب مشرعة للتبادل الثقافي العربي الأفريقي.

من جانب آخر يتحدث هذا البحث عن أهمية دور المثقف في بناء هذا الكيان الثقافي ويتم ذكر بعض أهل الثقافة والإبداع الذي تتجلى في إبداعاتهم ووقائع الحياة المشتركة بين العرب والأفارقة مثل وول سوينكا، ونادين جوريمير، وتشينوآتشيبي، وسنغور، وكذلك يأتي الوقوف مع شخصية لقمان الحكيم التاريخية التي ولدت في أفريقيا وانطلقت إلى رحاب العالم لنشر الحكمة عبر الزمن.

ويرى البحث أن دور المثقف هو دور بالغ الحساسية في قيام المعاهدات والاتفاقيات والكيانات حيث تنعقد عليه آمال المشاريع الإنسانية التنويرية، والوطنية الكبرى.

كذلك يرى البحث أن بناء مثل هذا الكيان يحتاج إلى دعائم وقوائم كي يقف عليها، ويشرح البحث جانبا من ذلك مثل إقامة قناة فضائية ثقافية عربية أفريقية مشتركة، وتبادل الآداب والعلوم في مختلف مراحل المناهج الدراسية بين طلاب الثقافتين.

وعقد اتفاقيات بين اتحادات الكتاب العرب، واتحادات كتاب أفريقيا من أجل تفعيل دور الثقافة من خلال الزيارات الثقافية المتبادلة، وإقامة الأنشطة الثقافية واستقطاب رموز الثقافتين. ويرى البحث ضرورة وجود مجلة فصلية تعنى بالآداب العربية والأفريقية تترجم إلى اللغة العربية واللغات الأفريقية، ويصدر مع كل عدد كتاب إبداعي أو فكري لأحد أعلام أو أدباء الثقافتين.

يرى أن هذا الكيان هو حصانة للثقافة التي لم يعد يهمها ما يمكن أن تتعرض له من تهميش، وأول ما يحققه هذا الكيان هو تعزيز مشاعر الانتماء، وإزاحة مشاعر الغربة واللاانتماء بالنسبة لأبناء الثقافتين، وهو

يحقق لهم قــوة وتفاعلاً وحضوراً في المشهد الثقافي العالمي.

رسالة الثقافة

تــؤدي الثقافة رسالــة إنسانية هامة، ومــن خلالها يتعرف الناس على بعضهم البعض، ويقتربوا من بعضهم البعض.

الثقافة هي الموسيقى الروحية التــي يعزفهــا نبضــ الإنسان من أجــل أن يسمعهــا إنســان آخــر، فيشعر بنشوة وأُنس، وينتابه إحساس ولو للحظات بأن هــذا العالم ليس موحشاً.

إذاً، الثقافة هي حالة حب من إنسان تجــاه إنسان آخر، والمجتمع الــذي يخلو فيه المثقِفــون- بكسر القاف- والمثقفون- بفتحها- سوف يؤذي بعضه بعضاً لأنه سوف يبقى في حالة متدنية من الارتقاء الثقافي، وسوف يبقى في شتات أبدي في هوة مطفأة المصابيح تحتضر ارتجافاً من قوة البرد الروحي، وهول حلكة الظلام.

علمتنــا دروس التاريــخ الإنساني خلال ثلاثة آلاف سنة ماضيــة من تاريخ الحركة التثقيفية الفعلية أن البقع الجغرافية تكون قويــة قدر ما يتمتــع مثقفوها بقوة الحرية

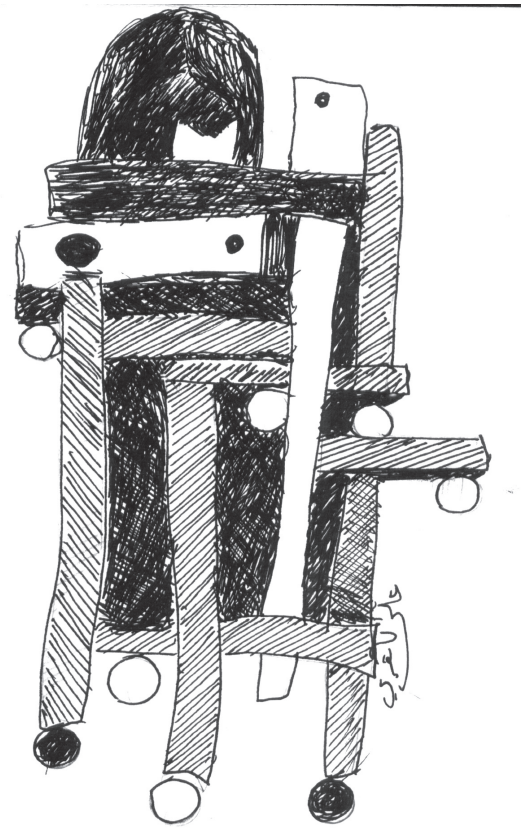

وقــوة التلاحم، ويمكن لمثقِــف حر أن يمثل عصراً بأكمله.

لذلك كنت أنظــر في مراحل متعددة أن مهمة ممثــل الثقافة في أي بلــد ما، أو في أي مدينة، تكون من أكثر المهمات حساسية، وربما إحراجاً لذاك الشخص الذي قَبِل أن يكــون ممثلاً لهــذه الحساسية الثقافية في مجتمعه.

وكنت دوما أنظر أن ممثل الاقتصاد في

أي بلد ما من العالم، لايكون مسؤولاً عن خيمة احترقت على منعرج نهر، وممثل المواصلات لايكون مسؤولاً عن سائق مشاكس خطف فتاة جميلة، وممثل الزراعة لايكون مسؤولاً عن سيارة دهست قطة على طريق عام، وكنت أرى أن ممثل الثقافة في ذاك البلد، يتحمّل حصة جيدة من تلك المسؤولية، ذلك أن مهمته هي مهمة تنويرية عامة.

إذن، تكمن مهمة ممثل الحالة الثقافية في قوة مسؤوليته حتى عن عامل يذهب مبكرا إلى معمله، عن عاشق يلتقي حبيبته في صالة سينما لأنه رسول الإشراق الروحي في مجتمعه.

إنه رسول القيم، رسول الأخلاق، رسول الحرية، رسول العشق، رسول الفن، رسول الإبداع، رسول الرقي، رسول الحضارة، وحامل إرث التاريخ على كتفيه، والذي يستقبل ممثل الثقافة يشعر بشيء من الخصوصية،

فهو إذاً في حضرة رجل استثنارة أجلّ، يستأنس ويستمتع بحالة الجلوس إليه، إنه أمام كائن معرفي يخبر عن الحياة ما قد لايخبره غيره، ويمكن له أن يؤوّل كل حدث تأويلا ثقافيا بما ليس بِمَلِكة سواه.

إنه يحمل ويتفوّح بجمال روحي، لذلك كنت دوما أرى أن ممثل الثقافة هو إمام الثقافة يؤم مثقفي وثقافة بلاده.

من هنا أقول إن علاقات التلاحم والتكاتف الإنساني هي علاقات فطرية طبيعية بين سائر سكان الأرض، لأن الإنسان هو للإنسان مهما كان موقعه،

أو زمنه، أو لونه أو مذهبه، أو لسانه، وللإنسان حق في الإنسان، وله حق عليه.

إذا كان هذا التكاتف طبيعياً وفطرياً بين أبناء الكرة الأرضية بصفة عامة، فإنه يكون واجباً وفرضاً بين أهل الديار الملاصق، أو المجاور لبعضه البعض، أهل التراث المشترك، أهل الرؤية المستقبلية المشتركة.

لقد أتيح لي أن ألتقي برئيس اتحاد كتاب عموم أفريقيا، وكذلك برموز الثقافة الأفريقية من خلال مشاركتي في ندوة الثقافة العربية الأفريقية التي أقيمت في ليبيا بين ٢٤ - ٢٦ من شهر تشرين الأول ٢٠١٠، وألقيتُ بحثاً في جامعة قاريونس في بنغازي بهذا الصدد بعد أن كلفني اتحاد الكتاب العرب للمشاركة في هذا المؤتمر مع وفد الجمهورية العربية السورية الذي تم فيه لأول مرة الإعلان عن تأسيس اتحاد الكتاب العرب والأفارقة بحضور وفود الدول العربية والأفريقية، وكذلك بحضور الأمين العام لاتحاد الكتاب والأدباء العرب،

وحضور رئيس اتحاد عموم أفريقيا .

أجل، إننا نشعر بصلة رحم تاريخية، وجوارية، واجتماعية بيننا وبين سائر الدول التي تستقر في القرن الأفريقي الذي هو ثاني أكبر قرن على سطح الكرة الأرضية حيث تضم هذه القارة أكثر من خمسين دولة مستقلة تتمتع بسيادتها وتتحدث بنحو ألف لغة، وتقف على تاريخ متأصل من الكفاح والإبداع، والثورات، وقد قدّمت لمختلف دول العالم عقولاً نيرة عبر العقود البشرية، وقدمت ثقافات وفنوناً وأيديولوجيات غاية في الغنى والتنوع والخصوبة وهي دول مشرعة الأبواب والنوافذ على الثقافة العربية تلقياً وإرسالاً، والدول العربية مفتوحة الأبواب والنوافذ على ثقافتها إرسالاً وتلقياً حيث توجد الكثير من النقاط المشتركة التي من شأنها أن تيسّر سبل التلاقي والتلاقح الثقافي بين أبناء الثقافتين.

إيقاع الحياة الثقافية العربية الأفريقية المشتركة

كما كان العرب بصفة عامة لا يستغنون عن أفريقيا، فإنها كذلك لا غنى لها عن العرب.

لقد شاءت الظروف أن يتقاسم العرب قارتي أسيا وأفريقيا، والعرب الذين يقطنون الجناح الآسيوي ينظرون إلى ذويهم في الجناح الأفريقي، ومنهم إلى سائر البقاع الأفريقية، وكذلك، فإن الدول الأفريقية غير العربية، تنظر إلى الدول الأفريقية العربية، ومنها إلى أخواتها في القرن الآسيوي.

انطلاقاً من هذا الواقع المعاش، تمتعت العلاقات الثقافية العربية الأفريقية بمزايا وخصائص تكاملية.

لقد قرأنا أفكار أهل الفكر والثقافة والأدب من أبناء القارة الأفريقية، ورغم أننا قرأناها مترجمة إلى اللغة العربية، إلاّ أننا لم نشعر بغربة اللغة المترجمة، بل نقرأ أدبا بلسان قريب إلينا، ولذلك فإننا لم نشعر بخلاف كبير عند ما فاز الكاتب النيجيري ووسوينكا بجائزة نوبل للآداب، وعندما فازت كاتبة جنوب أفريقيا المتألقة نادين جورديمر بجائزة نوبل للآداب، حين فاز نجيب محفوظ بهذه الجائزة، ولذلك عندما نقرأ (سنوات الطفولة) لـ سوينكا، أو (سهم الله) لـ(تشينو أتشيبي)، أو (العالم البرجوازي الزائل) لـ جورديمر.

يمكننا أن نرى فيها إيقاع الحياة المشتركة كما لو أننا نقرأ الطيب صالح، أو توفيق الحكيم، أو غادة السمان.

لذلك تشكلت لدينا فكرة واضحة عن مزايا وخصائص أبناء القارة السمراء سواء أكانوا في بوتسوانا، أو في غينيا، أو أنغولا،

أو الصومـــال، أو سيراليـــون، أو مدغشقر، أو زيمبابـــوي، أو موريتانيـــا، أو أثيوبيا، أو جيبوتي.

عرفنـــا مواضع القـــوة التـــي يتمتعون بهـــا دون غيرهم، وهم يقفـــون على جذور حضـــارات قديمـــة تؤهلهم ليقفـــوا موقف الندية مع كبرى حضارات العالم المعاصرة.

لذلك تحـــدث الكثير من أهـــل الثقافة والمعرفـــة والحكمـــة عن ضـــرورة التلاحم الاجتماعـــي بين الأفارقة عامة، وبين عموم العـــرب، لأن المستقبل المشـــترك بينهما هو مستقبل إيجابي، وكان ليوبولد سنغور يدعو إلى توثيق العلاقـــات الثقافية والاجتماعية بـــين الأفارقـــة والعرب، وأن تحـــدث بينهم علاقـــات النســـب والمصاهـــرة والروابـــط الأسريـــة الحميمة، والمصالـــح المتبادلة لأنه كان يـــرى أن الأفريقانية تتكون من العروبة والزنوجة.

أمـــا بالنسبة إلى اللغة، فهـــي أيضاً من العوامـــل الحياتية التـــي تقرّب بـــين أبناء المجموعتـــين، لأن اللغـــة العربية منتشرة في أنحاء القارة الأفريقية إلى جانب لغات أبناء القارة التي تُعد من أكثر قارات العالم غنى في لغاتها، وقد وضـــع الإسلام الحنيف جذوراً ثابتـــة لتعزيز وتوثيق هـــذا التلاحم الثقافي عندما وصل العرب في القرن السابع الميلادي إلى شمـــال أفريقيا، مما ولّـــد ثقافة عربية أفريقية أفادت العرب، كما أفادت أفريقيا، فقـــد انتشر الإســـلام في أفريقيا ورحب به الأفارقـــة، وبذلـــك انتشرت اللغـــة العربية مما أدى إلى ارتباط سكان القارة بروحانية الإســـلام، وروحانية لغته العربية، وروحانية الجغرافيا العربية التي تحتوي على الرموز الإسلامية المقدسة ليس في الحجاز والقدس فحسب، بل في سائر الدول العربية.

لقد اغتنى التاريـــخ العربي والإسلامي بشخصيـــات عديدة من أفريقيا، وغدت من نسيج المجتمع العربي، بل غدت رموزاً بالغة الأهمية في التراث العربي.

أريـــد أن أقول إن هـــذا الانفتاح، وهذا الترحـــاب بذاتـــه أسهم بفعاليـــة عالية في تداخل ألفاظ اللغـــة العربية في نسيج عدد من لغـــات اللسان الأفريقي، مما مخض إلى ولادة لغات أفريقية جديدة مثل السواحيلي في شرق أفريقيا.

إن إشـــادة كيـــان ثقافي عربـــي أفريقي مشـــترك هو حاجة ملحـــة لأبناء الثقافتين، وهو بذاتـــه من شأنـــه أن يضفي على هذا التاريخ المشترك غنى وتفاعلاً وقوة وحضوراً لمواجهة بعضـــ نزعات التهميشـــ التي قد تتعرض لها خصائص ومقومات الثقافتين.

الثقافة العربية الأفريقية تاريخ مشترك

يتمتع المثقف بخصائص ومقومات تؤهله لإشاعة أنماط الأفكار والثقافات والمفاهيم ووجهات النظر الجديدة، وهو يؤدي دوراً بارزاً وفعالاً في تعزيزها وجعلها واقعاً معاشاً.

عبر الأحقاب والعقود الزمنية كان المثقف هو منظّر المعاهدات والكيانات التحولية الكبرى في تاريخ الشعوب، وكان السياسي يستأنس بوجهات نظره وما يراه من تحليل مستقبلي، لأنه يمتلك المخيلة المتقدة التي هي ركن أساس من أركان عمله الإبداعي، ولذلك هو قادر على التخيل والتحليل والتكهن بشكل قريب إلى الدقة.

لذلك فإن عمليات التحول الهامة في تاريخ الشعوب والدول، اشترك الثقافي والسياسي في صناعتها.

المثقف كان دوماً يمتلك البلاغة في التأثير، وكان يستخدم ثقافته، وحججه وبراهينه في سبيل إقناع الآخرين بمشروعه التنويري الذي يدعو إليه. لقد أدى دوراً أساسياً هاماً إلى جانب دور السياسي الذي يمتلك صلاحية اتخاذ القرارات المصيرية، والأمر بتنفيذها بشكل مباشر حتى تغدو واقعا يومياً ملموساً ومعاشاً.

إن المثقف هو الشخص المنظّر، والعقل المدبر، وهو واضع المواثيق، والمعاهدات، والأناشيد الوطنية، والفنون، وهو مصمم الرايات الخفاقة، وصانع الإعلام المسموع والمقروء والمرئي، ومبتكر الفلسفات والأيديولوجيات، وهو صانع ثورة الملتي ميديا، إنه بشكل مختصر مشكِّل هوية البلاد والعباد في موطنه.

منذ الأزل فإن اسم الثقافي يكون بارزاً وحاضراً إلى جانب الاسم السياسي، منذ أرسطو طاليس، وسقراط، وشكسبير، ومروراً بالمتنبي، وابن رشد إلى سنغور، وسوينكا، وغورديمير، وطه حسين، وليس انتهاء بفوكوياما، وهنتغتن، سواء أكان هذا الدور إيجابياً، أو سلبياً لأن المثقف يمكن له أن يؤدي دوراً سلبياً ويكون شريكاً للسياسي في كوارث كبرى، بل قد تسهم أفكاره في تكوين شخصية سياسية سلبية كما الأمر بالنسبة لأفكار نيتشه عن الإنسان الجبار والقوي والسوبرمان، وتمثيل بعض الشخصيات القيادية الكبرى التي تمثلت هذه الأفكار وتأثرت بها بشكل سلبي، وبالتالي قادت العالم إلى حروب ومعارك كان الإنسان بغنى عنها.

من هنا فإن الأفكار السياسية هي أفكار بالغة الحساسية، وتحتاج إلى الكثير

من التفسير والتأويل والشرح، وكذلك تحتاج إلى المناسبات والأسباب التي فجرت تلك الأفكار، سواء أكانت أسباباً شخصية للكاتب، أو أسباباً جماعية، ولذلك فإننا لانستطيع أن نفرّق بين الثورات الفكرية التي ظهرت في العالم، وبين الحربين العالميتين، سواء أكانت أفكاراً ومذاهب عدمية، أو وجودية، أوفانتازية، أوتنويرية.

بناء على هذه العلاقة يمكننا أن نرى تهاوي الكثير من الأفكار في وقتنا الراهن، أو تعرضها للحرج الشديد، مثل ما يمكن تسميته بفلسفة الإنسان النفعي، أو الإنسان القبلي، أو الإنسان الطائفي، أو الإنسان القومي، أو الإنسان الأبيض مقابل الإنسان الأسود، أو الإنسان الأيديولوجي، أو الإنسان البراجماتي، أو الإنسان المكيافيلي، وغيرها من الأنماط الإنسانية التي أحدثت آثاراً سلبية في الرصيد الحضاري للأمم والشعوب.

يتمتع المثقف بسحرية التأثير، ويحالفه النجاح غالباً في مسألة الإقناع لأنه يعيش أفكاره وقناعاته ويتغلغل في دواخلها.

ولذلك رأينا في العالم وفي مختلف الأحقاب الزمنية ثنائية الأديب السياسي، والسياسي الأديب، فكان الأديب يعمل في الحقل السياسي، وكان السياسي يكتب أدباً، وكما أن الأديب يخلّف مواقف سياسية، فإن السياسي يخلّف أعمالاً أدبية.

من هنا، فإن دور المثقِف -وهنا أعني مبدِع الثقافة، المثقِف بكسر القاف- هو دور بالغ الحساسية في الحركات والثورات والكيانات، وتنعقد عليه آمال المشاريع الإنسانية التنويرية، والوطنية العظمى.

بيت الثقافة العربية الأفريقية

إن بناء أي بيت يحتاج إلى أرضية صلبة مقاومة للهزات التي يمكن لها أن تحدث مع مرور الزمن، ومانعة ضد الشروخ والتصدعات، وحقيقة الأمر فإننا إذا استدرنا إلى الوراء قليلاً، وألقينا نظرة خلفية إلى ماضي العلاقات العربية الأفريقية، سنرى بأن أجدادنا أولئك وضعوا قوائم أساسية لبناء علاقات عامة في مختلف مناحي الحياة بين أبناء القارتين، ولم يتركوا ماضياً سلبياً مشحوناً بيننا، بل تركوا صفحة ناصعة البياض فيما بيننا.

تبيّن لنا صفحات التاريخ الثقافي والاجتماعي المشترك بأنهم التقوا وتعارفوا خلال عقود مديدة من الزمن أكثر مما نحن عليه الآن، وأرسوا قوائم بناء علاقات جوارية، واقتصادية، ودينية، وتراثية، وثقافية، ومعرفية بين سائر العرب، وسائر أبناء القارة الأفريقية سواء أكانوا عرباً، أو

مسلمين، أو من سائر ألوان وأطياف المجتمع الأفريقي.

إن أفريقيا تتمتع بعوامل الغنى والخصوبة في حدودها من كل الجهات، من المحيط الهندي، والمحيط الأطلنطي، والبحر الأحمر، والبحر المتوسط، وقناة السويس.

وتُعد أفريقيا من أقدم البقاع الجغرافية المأهولة بالسكان على سطح الأرض، حيث تم اكتشاف حفريات تدل على الوجود البشري فيها منذ سبعة ملايين سنة، وترى بعض الآثار بأن هذه الأرض التي رأت أن تتخذ من أفريقيا اسماً لها إلى جانب تسميات أخواتها من قارات الأرض، أن هذه القارة هي أصل الوجود البشري.

لقد بدأت كتابة أولى صفحات سجل التاريخ البشري منذ ٣٣٠٠ ق.م تقريباً في شمال أفريقيا ببزوغ نجم الحضارة الفرعونية في مصر القديمة، وهي تُعد واحدة من أقدم الحضارات بقاءً في تاريخ الحضارات البشرية.

ولعلَّ تحقيق الاتحاد الأفريقي الذي ضم الدول الأفريقية في ٢٦/ يونيو ٢٠٠١م كان منجزا انعطافياً هاماً بالنسبة لهذه القارة التي تفاقمت فيها ألوان وأشكال المعاناة بسبب التشتت، وبسبب التدخلات التي أسهمت في نشوب نزاعات حادة بين أبناء اللون الواحد، وأصحاب الأرض الواحدة، والاتحاد هو رد فعل على تلك المحاولات التي عملت في سبيل إضعاف هذه القارة، الاتحاد هو قوة، وهذا الاتحاد ييسّر بناء علاقات قويمة بين القارة الأفريقية وبين مختلف أبناء العالم، فأنت تدخل إلى ولايات أفريقية متحدة، تدخل إلى دول أفريقية متحدة، تدخل إلى ممالك أفريقية متحدة، تدخل إلى جمهوريات أفريقية متحدة.

الأمر لا يختلف كثيراً، لأنك تبني علاقة مع /اتحاد أفريقي/ وهذا بذاته من العوامل الميسرة لبناء كيان ثقافي عربي أفريقي، وأظن أن الأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتاب العرب يمكنها أن تلعب دوراً هاماً إلى جانب مجلس وزراء الثقافة والإعلام العرب من أجل ولادة هذا الكيان لأن العمل في هذا المسعى يحتاج إلى جهد جماعي.

تُعد الثقافة من المرتكزات الأساسية في سبيل التقارب والتلاحم الإنساني، وأنت يمكنك أن تميل إلى دولة، أو إلى شعب من خلال التعرف على ثقافته، ودوماً فإن العقائد والأيديولوجيات تتشكل وتتعزز في العقول والنفوس من خلال التلقي الثقافي والفكري والفني والمعرفي.

إن المرسل الذي هو المثقف -بكسر القاف- يصنع ذائقة ومفاهيم المتلقي

المثقف -بفتح القاف- لقد أتيح لي أن أكتب روايتي الأخيرة «إمام الحكمة» عن أحد أهم أقطاب الحكمة في التاريخ البشري، وهو لقمان الحكيم الذي ولد وانطلق إلى سائر أنحاء العالم من رحم هذه البيئة الأفريقية.

لقد تعرّفت على خصائص هذه البيئة، وعلى خصائص القوة التي يتمتع بها إنسانها، لاأعني القوة العضلية فحسب، بل قوة الجَلد، والصبر، قوة تحمّل القسوة، قوة النضج، قوة الحكمة، قوة دفق المشاعر الإنسانية.

إن هذا الإنسان يتمتع بقوة حب هائلة ليس نحو قارته فقط، بل نحو البشرية جمعاء، وقلبه بالفعل يتسع لهذا الحب الإنساني الكبير، وهذه هي إحدى خصائصه.

ولولا كل هذا الحب نحو الإنسانية، وهذا القلق على مصيرها من النعرات والنزعات، لما أقبل على الحكمة، وملأ العالم ببديع هذه الحكمة، ولذلك فإن سيد الحكمة المولود على الأرض الأفريقية، والمتمتع بخصائص إنسانها هو رجل عالمي وسطي حظي بتقدير كل الأديان والمعتقدات والألوان، واللغات، والأقوام، وبالنسبة لنا فقد احتفى به القرآن الكريم إلى درجة أن حملت سورة كاملة اسمه، واحتفى به الفقه.

أريد أن أقول بأن وجود مثل هذا الرجل يمكن له أن يعزز دعائم بناء هذا البيت الثقافي العربي الأفريقي.

إنه ينشر رسالة الإخاء الإنساني ومن أفكاره على سبيل المثال قول رجل له: أي علم أوثق في نفسك؟

قال: تركي مالا يعنيني

جاء صوت آخر: أي الناس شر؟

أجاب: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا.

ثم أضاف بعد شيء من صمت: لا تعاشر الأحمق، وإن كان ذا جمال، انظر إلى السيف ما أحسن منظره.

تقدم إليه ثلاثة رجال من بعيد، وما إن دنوا منه حتى سبق أحدهم صوته:

أي الخصال خير للإنسان يا حكيم؟

تمهّل في الإجابة إلى أن بلغه الرجال الثلاثة فقال: الدين.

قال الصوت ذاته: فإذا كانت اثنتين.

أجاب: الدين والمال.

قال الرجل الثاني على الفور: فإذا كانت ثلاثة يا حكيم

أجاب: الدين، والمال، والحياء.

أردف الصوت نفسه: إذا كانت أربعة

قال: الدين، والمال، والحياء، وحسن الخلق.

قال الرجل الثالث: فإذا كانت خمساً؟

قال: الدين، والمال، الحياء، وحسن الخلق، والسخاء.

قال الصوت ذاته: فإذا كانت ستاً؟

قال: مَن اجتمعتْ فيه الخصال الخمس، فهو تقي نقي، ولله ولي.

قال ذلك ومضى في سبيله، عند ذاك لحقه صوت رجل يهرول

إليه قائلاً: انصحني يا لقمان

توقف لقمان حتى لحق به الرجل فقال: أشكر لمن أنعم عليك، وانعم على شكرك، فإنه لابقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت.

في أثناء ذلك تقدم إليه جمع آخر من الناس، عند ذاك تقدم رجل إلى لقمان فقال له: أنت لقمان، أنت عبد بني الحساس.

قال: نعم

قال: فأنت راعي الغنم الأسود؟

قال: أما سوادي فظاهر، فما الذي يعجبك من أمري؟

قال الرجل: وطء الناس بساطك، وغشيهم بابك، ورضاهم بقولك.

قال: يا بن أخي، إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك

قال: ما هو؟

قال: غضي بصري

قال الرجل: وأي؟

أجاب: كفي لساني

قال الرجل: وأي؟

أجاب: عفة مطعمي

قال الرجل: وأي؟

أجاب: حفظي فرجي

قال الرجل: زدني

قال: قيامي بعدتي

قال الرجل: زدني

قال: وفائي بعهدي

قال الرجل: زدني

قال: تكريمي ضيفي

قال الرجل: زدني

قال: حفظي جاري

قال الرجل: زدني

قال: تركي مالا يعنيني، فذاك الذي صبرني كما ترى.

إنه رسول الحكمة التي انطلقت من هذه الأرض واتسعت لها رحابة العالم.

إن وجود مثل هذه الشخصيات التاريخية العالمية تزيح الكثير من الحواجز التي يمكن أن تُنصب بين الطرفين، خاصة وأنها شخصيات ثقافية بامتياز، وهي كنوز ثقافية وإرث ثقافي تتمتع به هذه القارة.

وحقيقة الأمر فقد تعرفنا على سيكولوجية الإنسان الأفريقي أيضاً من خلال قراءاتنا لأعمال روائية بيّنت معاناة

الإنسان الأسود، وهي أعمال أدبية كتبها مبدعون ومبدعات من شتى أنحاء العالم، ولعلي أذكر الروائية الأمريكية السوداء / توني موريسون/ التي استطاعت أن تقدم سيكولوجية الإنسان الأسود بشكل روائي تحليلي بارع.

وقد دعت الروائية موريسون إلى التصالح بين الأسود والأبيض، ومن ذلك دعت إلى عالم سلمي عام بين جميع سكان الأرض.

السلام فكرة إنسانية يؤمن بها أشخاص، ويسعون ما بجهدهم في سبيل نشر السلام في الناس، كما أن الحرب فكرة يؤمن بها أشخاص، ويسعون ما بجهدهم في سبيل نشر القتال في الناس.

ويمكن للإنسان أن يكون من دعاة السلام، أو من دعاة الحرب مهما كان موقعه، ولكن على الأغلب نرى أن الذين تعرضوا للظلم والقسوة والحروب هم أكثر الناس دعوة للسلام لأنهم ذاقوا وبال الحروب، ولايريدون أن يروها ويعيشوها ثانية، كما أنهم يسعون لتأمين حياة مسالمة لأولادهم وأحفادهم.

والأدب طريق فعال للدعوة إلى السلام، الروائية الأمريكية الحاصلة على جائزة نوبل للآداب توني موريسون تُعد من دعاة السلام في العالم من خلال أعمالها الروائية التي تطالب فيها بتطبيع العلاقات بين السود والبيض في أمريكا والعالم، وتطالب بأن يمارس الأسود حقوقه إلى جانب أخيه الأبيض.

وهي كاتبة عانت هذه العنصرية شخصياً كونها امرأة سوداء.

الروائية السوداء التي تكتب بقلب أبيض

امرأة مسنة تبدو واثقة من خبرتها في الحياة، قرأت كثيراً، وأتاح لها عملها في كتابة الرواية التعرف على الكثير من المجتمعات والعادات والتقاليد والمفاهيم.

تمتلك موريسون مقدرة على تقييم الناس من خلال النظر إلى وجوههم وهي بذلك تشبه العرافات والكاهنات والحكيمات.

تعد /كلو أرديلياووفورد/ وهذا اسمها الحقيقي من سيدات الرواية في أمريكا وتحظى رواياتها بإقبال شريحة كبيرة من القراء الذين يبحثون عن قيمة المعرفة، وقيمة الحكمة، وقيمة الاعتدال مع النفس ومع الآخرين.

رغم مشاهد العنف التي تصورها في رواياتها، يشعر القارئ بأنها تكتب بقلب أبيض، وتدعو إلى تصحيح الأخطاء التاريخية، لأن الإنسان بوسعه أن يفتح صفحات جديدة في علاقة إنسانية جديدة.

تقديم تجربة أمريكا السوداء روائياً

فتحت موريسون عينيها على ألوان الاضطهاد التي يتعرض لها أبناء وبنات قومها من السود في أمريكا. حدثها والدها قصصا كثيرة عن المعاناة، عندئذ مالت إلى القراءة تقول: /لقد عشت في المكتبة تحت في الطابق الأرضي لأن كل كتب الأطفال كانت هناك/.

عندما بلغت الثانية عشرة منحتها الكاثوليكية الاسم المعمداني أنتوني الذي اختصرته إلى توني. بعد ذلك تزوجت من المهندس المعماري هارولد، وتم الفراق بينهما بعد سنوات قليلة من الزواج وإنجاب طفلين.

عندئذ خطر لها أن تعبر عن نفسها من خلال الكتابة وتقدم /تجربة أمريكا السوداء المحددة إلى العالم/ بقلم نسوي لأنها أدركت أن: /كل الأعمال القصصية حول العبودية كتبها رجال/.

لم يكن أمام الروائية توني موريسون أن تدافع عن أبناء قومها إلا من خلال الرواية، ولذلك فإن معظم أعمالها تتحدث عن العلاقة بين السود والبيض في أمريكا، وهذا ما أكسب هذه الروائية شهرة عالمية.

تحاول موريسون من خلال أعمالها الروائية أن تقدم حالة من اللاتوازن في العلاقات الإنسانية في كثافة مجتمع متنوع، وهي بالوقت ذاته -سواء عمدت، أو لم تعمد- تسلط الضوء على الميول الإنسانية غير السوية، ربما لأنها عانت بقسوة في طفولتها، وعندما انفتحت على الحياة بدأت تلحظ شيئا من التميز اللوني، أو ربما العرقي، وهنا أظن بأن الدخول إلى عالم الأدب بالنسبة لموريسون كان بمثابة المحاولة لإثبات النفس، وأن الإبداع لايقتصر على جنس أو لون أو عرق بقدر ما يقتصر على النبوغ، والذكاء، والموهبة البشرية، وهنا مرة أخرى نرى الإخلاص الشديد للأدب، ولا صوت لديها يعلو على صوت القلم، فاستطاعت هذه الروائية الأمريكية الزنجية أن تنتزع الاعتراف العالمي بموهبتها لتُتَوّج، أو لقل لتُكَلّل بجائزة نوبل للآداب.

أبطال موريسون، أو بالأحرى بطلاتها يعانين من حالة الاغتراب حتى وهن في حضن الأسرة. ويبدو أن التمييز العنصري بحق السود بلغ مع موريسون ذروته إذ إنها لم تعد ترى في العالم إلا السواد، وبهذه القوة تمد يديها إلى يدَي القارئ لتُدخله إلى رحاب عالمها الروائي.

العنف الرهيب

تصور موريسون أهوال العنف بحق السود في رواياتها، وهذا يجعلها تؤدي

وظيفة سياسية بامتياز من خلال الأدب كما الحال مع غابرييل غارسيا ماركيز.

شخصياتها تعاني حتى من أقرب الناس إليهـا، ولعلّ /بيكـولا لابريد لـوف/ هي النموذج الأكثر ألما وفجيعة في روايتها /أشد العيون زرقة/.

في هذه الرواية تعبر موريسون عن حالة التيـه الأسـروي حتى بين السـود أنفسهم، بسبـب المعانـاة الشديدة التـي يتعرضون لها، والتي تـؤدي إلى ولادة نزعات غاية في السلبيـة، وبالطبـع فهي حـالات لاتقع مع الأسويـاء، بقـدر ما تقع مـع الذين يعانون أمراضـا نفسيـة بالأصـل، فتضخم هذه المعاناة هذه الحالة لديهم.

بتقديري فإننا نحتـاج إلى انتباه شديد ونحـن نقـرأ هـذه الحـالات في كتابـات موريسون.

الظلم في /أشـد العيون زرقة/ يقع من أقرب الناس، ألا وهـو الأب، وأي شكل من الظلم القاسي هـذا الذي يحيل البطلة إلى كائنة مهووسة في النهاية لتتعلق بعيني دمية زرقاوين.

تقـول موريسون: /أعي العنف الرهيب والجهـل المتعمد والجوع لإيـلام الآخرين، أعـي ذلك دائماً رغم أني أقل وعياً به تحت ظروف معينة/.

والواقـع فـإن موريسـون تسقط آلام ووقائع المقربين لها على شخصياتها في بعض مواقع كتاباتهـا تتحدث عن عالم روايتها: / في أشـد العيون زرقـة أعتقد أني استعملت إيمـاءات وبعض الحوار مما أذكره عن أمي في أماكن معينة وبعض الجغرافيا/.

عندما أحست بجدوى الكتابة، تواصلت معها وأخذت الأمر على محمل الجد بشكل أكبر بحيث اقترنـت حياتها بالكتابة خاصة بعد احتفاء النقاد بها، ومنحها جوائز دولية ومحلية عديدة ومقارنتهـا بكبار الروائيين. ولعل روايتها «أغنية سليمان» فتحت لها آفاقاً رحبـة للدخول إلى عـالم الرواية بقوة، وقد فازت بجائزة مجموعة نقاد الكتاب الوطنية سنة ١٩٩٧ وهي ملحمة ريفية جعلت النقاد يقارنونها بأجواء غابرييل غارسيا ماركيز.

تأتي روايتها /سولا/ لتعطي نموذجاً حياً عن حالة الاغتراب في مجتمعها إلى درجة أن الصديقة وهـي مع صديقتها القريبة تشعر بالاغتراب عنهـا، فـ سولا بيس تلتقي بـ نيل رايـت في أوهايو، ومن خـلال هذه العلاقة نتعرف على العزلة التي تفرض عليهما حتى من قبل الرجال، فلاتجـدان من يشاركهما حياتهما.

إن توني موريسون تتعرض لأكثر المواضيع حساسية في كتاباتها وبالتالي تفتح صفحات

المجتمع الأمريكي بذكاء وخبرة ونضج، ودوماً تطرح العلاقة مابين البيض والسود نفسها بقوة. ولعل الأهمية التي تكمن في هذا الطرح هي أن القارئ يستنتج بعد تفرغه من روايات موريسون أن الأفراد لايملكون إلا أن يكونوا أبناء المجتمع الذي يعيشون فيه ويتأثروا بمعطياته، وأي خلل في المفهوم الاجتماعي، أو في التركيبة الاجتماعية يدفع ضريبته هؤلاء الأفراد، وبالطبع فإن الكاتبة تكتب بجرأة عن وقائع الحياة /الأفريقية الأمريكية/ كما تسميها ولذلك عندما أثارت روايتها /الفردوس/ نقاشات حادة في الأوساط الثقافية والاجتماعية أجابت عن كل تلك الأسئلة بأنها لاتبالي مادامت تمسك بقلمها وتواصل الكتابة.

ترجمة التاريخي إلى الشخصي

وضعت توني موريسون بعض الشروحات حول كيفية الكتابة لديها في كتابها النقدي /اللعب في الظلام/ وهو كتاب يضيء جوانب هامة من أسلوبها السردي الروائي. تروي فيه تفاصيل عملية الكتابة لديها، ومما تقول: لقد كان ذلك.. أردت ترجمة التاريخي إلى الشخصي، قضيت وقتاً طويلاً محاولة فهم ماجعل العبودية بتلك البشاعة، وبقراءة بعض الوثائق لاحظت الإشارة إلى شيء لم يوصف أبدا بشكل كاف: اللجام، ذلك الشيء الذي كان يوضع في أفواه العبيد لعقابهم وإخراسهم دون أن يمنعهم ذلك من العمل.

قضيت وقتاً طويلاً محاولة اكتشاف شكل ذلك الشيء.

كنت أقرأ عبارات متكررة مثل: وضعت اللجام في فم جيني، أو كما يقول إيكويانو: ذهبت إلى المطبخ ورأيت امرأة تقف قرب الفرن وكان في فمها لجام. فقلت: ماذاك؟ فأخبرني أحدهم.

فقلت: لم أر شيئاً أرهب من هذا في حياتي كلها، لكني لم أستطع تخيل ذلك الشيء.

هل كان كلجام الحصان أم ماذا؟

وتضيف موريسون موضحة بأنها تعتمد في بعض المواقع على وثائق ووقائع لدعم مواضيعها: أخيراً وجدت بعض الاسكتشات في كتاب /في هذا البلد/ وقد كان سجلاً لتعذيب رجل لزوجته في أميركا الجنوبية، لكن بينما كنت أبحث حدث لي شيء آخر وهو أنني اكتشفت أن هذا اللجام، أداة التعذيب الشخصية هذه، كانت الوريثة المباشرة لمحاكم التفتيش.. هناك مقطع يقول فيه بول د .لسيثي: لم أخبر به أحداً عنه، إنه يحاول أن يخبرها عن إحساسه بلبس اللجام، لكنه ينتهي إلى الحديث عن

ديــك يحلف أنه ابتسم له عندما لبسه، لقد شعر بانحطاطه وأنه لايساوي ديكاً يقف في ضوء الشمس.

أشــير أيضــا بشكل متكــرر إلى الرغبة بالبصاق، بمص الحديــد وهكذا، لكن بدا لي أن وصــف الحالة سيصرف نظر القارئ عمــا أردته. أن يجــرب كيفيــة الإحساس بذلك.. ذلك النوع من المعلومات بين سطور التاريــخ، ويبدو وكأن أشياء كهذه تسقط من الصفحات.. إنه هنــاك عند ذلك التقاطع الحاصــل، عندما تصبــح المؤسســة شيئاً شخصياً، عندما يصبــح التاريخ أناساً لهم أسماؤهم.

سيدة الواقعية السوداء

يمكن ملاحظة بأن الخيال الأدبي يلعب دوراً بــارزاً في معظم روايــات هذه الكاتبة، وهــي تستخدم في بعض مراحل الكتابة لغة شاعرية بالغــة الرهافة حتــى وهي تعالج موضوع التفرقة العنصرية، ولكن ماذا تريد أن تقــول هذه الروائية مــن خلال أعمالها الروائية؟

إنها تدعــو إلى أن يتعامــل الإنسان مع الإنســان بإنسانية بالدرجــة الأولى، وتدعو إلى أن يتعامــل الرجل مع المــرأة على أنها إنسانة وشريكة له في الحياة.

أمــا إذا مالت المرأة إلى طــرق ملتوية، فإن موريسون تحمّل الرجل سبب تخليه عن المرأة، بل إنها في جوانب أخرى تحمّل حالة التمييز العنصــري مسؤوليــة تفاقم الفقر والفاقــة، وبعض الميول الشــاذة لدى هؤلاء الذين يعانون بأنهم من درجة أدنى.

يمكــن تلخيص أن موريســون تدعو إلى /المجتمع المتماسك/ في واقع متفتت يعطي صــورة جميلة عــن شكله، لكنــه ينهار في مضمونه.

حققت موريسون مجداً أدبيــاً وانتشاراً واسعــا علــى قدر مــا تمسكــت بواقعيتها المحلية، و نجاحهــا في تصوير وتقديم هذه الواقعية للعالم.

موريسون تُعد بطلة ورائدة للدعوة إلى أن يأخذ السود حقوقهم في كافة مواقع الحياة في المجتمع الأمريكــي، وأظن بأنها نجحت في وضــع تلك اللبنة بعــد كل هذه السنوات من العمل.

أقــول بوضوح بأننا نحتــاج إلى مشاريع ثقافية تنويرية تتفاعل على الواقع، أن نصل إلى بعضنــا البعض، أن نقرأ بعضنا البعض في مختلــف الأماكــن والمناسبات، ومن ذلك أرى أهمية تبادل الآداب والعلوم في المناهج الدراسيــة في مختلــف مراحلها بين طلاب المجموعتين،وهذا من شأنه أن يعرّف الطلبة بالثقافة المتبادلة.

كذلك يمكن العمل على برامج تخصصية من خلال الاتفاق مع قنوات فضائية عربية، وأفريقية تـروّج لثقافة التلاحم، وتشير إلى علامات التقارب، وإلى بعض الوقائع والرموز في التاريخ العربي الأفريقي المشترك.

كمـا أرى أهميـة وجود قنـاة فضائية ثقافية عربية أفريقية مشتركة بين الطرفين يعمـل فيها ويديرها أهـل الاختصاص من الـدول العربية والأفريقيـة في وحدة عمل ثقافي مشترك.

ثم يمكن تعزيز العمل نحو ترجمة الآداب العربيـة إلى اللغـات الأفريقيـة، والعكس، وكذلك إيصال المطبوعات العربية إلى منافذ البيع الأفريقية والعكس.

عقد اتفاقيات متواصلـة بين اتحادات الكتـاب العرب، واتحـادات كتـاب الدول الأفريقيـة بغية تبـادل النشاطات الثقافية والملتقيـات الأدبيـة، وإقامـة الأمسيـات والأصبوحـات الثقافيـة، وكذلـك توجيه الدعوات للأدباء والمثقفين من أجل الكتابة في الصحـف والمجلات بـين الأدباء العرب والأفارقـة، وتخصيص بعض الملفـات الثقافية الدورية التي تخص آداب وثقافات المجموعتين.

كمـا يمكـن الاستفـادة مـن الشبكـة العنكبوتيـة في استقطاب الأقلام والمدونات العربية والأفريقية لتتلاقى في مواقع ثقافية واجتماعيـة وتواصلية تنشـأ لتعزيز قوائم هذا البيت الثقافي العربي الأفريقي الرحب الذي يزيدنـا تألقا وانفتاحا وقوة وحضورا في المشهد الثقافي العالمي.

الأمر الآخر الذي لا يقل أهمية هو تبني إصـدار مجلـة فصلية كبـيرة تختص بنشر الأدب العربي والأفريقـي، تُترجم إلى اللغة العربية، وكذلك إلى اللغات الأفريقية،

ويلحق مع كل عدد فصلي من هذه المجلة كتاب إبداعي، أو فكري لأحد أعلام أو أدباء الثقافتين.

إن العمل الثقافي كلما كان تكاملياً، كلما تمتـع بالقوة والسيـادة والحضور، وبالتالي اكتسـب الاعتراف بـه من قبـل الآخرين، وتمتع بكيـان وبمكانة مرموقـة إلى جانب الكيانات الثقافية في العالم، ومرة أخرى أبيّن بأن الكيان هنا هو البيت، هو الهوية،

هو الشخصية الثقافية المعتبرة، وأول ما يحققـه لأبنائه هو أنه يبعـد عنهم مشاعر الغربـة واللاانتماء، وينمّـي فيهم المشاعر الانتمائية، والوطنية، والإنسانية.

ترسيخ العلاقات الثقافية العربية الأفريقية

إن روح العلاقـات الطبيعية بين الناس هـي باب مفتوح كبير لولادة علاقات فرعية

أخرى تستند إلى طبيعة العلاقات المتبادلة بين هؤلاء الناس، وثمة مجتمعات تجد من الصعوبة التلاقي بسبب بعض الفوارق والمنعطفات التاريخية المزلزلة الكبرى التي حدثت بينها، ولكن ثمة مجتمعات يمكنها أن تمارس علاقات طبيعية بين بعضها البعض، وخاصة إذا كانت هذه العلاقات معرفية وتنويرية وثقافية، وإشادة كيان أو بيت ثقافي كبير مشترك للعرب والأفارقة يحتاج إلى ما يمكن تسميته بـ تعزيز أواصر التطبيع الثقافي بين مثقفي الجناحين، وكما أننا أبناء هذه الضفة نحتاج إلى أن تكون العلاقات بيننا وبين الدول العربية الإسلامية التي تقع في ضفة الجغرافيا الأفريقية طبيعية، فإننا كذلك نرى أن تكون العلاقة بيننا وبين سائر الدول الأفريقية بذات السوية العالية التي تربط بيننا، وذات الميثاق.

أن ننفتح على إيقاع تلك البيئة، ننفتح على تلك اللغات، تلك المفاهيم والأيديولوجيات، أن نغتني بالاطلاع على تلك التيارات الفكرية والثقافية والمعرفية، أن نشاهد الفلكلور، وإيقاع الرقصات والدبكات، وطقوس تفاصيل الحياة اليومية.

ولاأريد هنا أن أبسّط الأمور وأقول بأن الطرق جميعها سالكة، وسوف نمشي حفاة على طريق من حرير حتى نصل إلى بعضنا البعض كحالة وواقع ثقافي، لكن علينا أن نفكر بذهنية أكثر انفتاحاً، وأكثر نضجاً، ونمتلك شجاعة التجاوز عمّا قد يقف عائقاً بيننا، ولايكون الحوار الجاد بين المتفقين في الآراء فحسب، بل يكون أيضاً بين المختلفين فيها حتى يغتني كل مختلف بوجهة نظر المختلف الآخر، ذلك أن محطات الحوار بيننا هي أكثر من محطات اتخاذ المواقف المتشددة اللاحوارية، وأن وجود تلك الشخصيات التاريخية الكبرى من مختلف الميادين التي انطلقت من رحم وزخم هذه القارة البالغة الغنى، وقدّمت لنا ولشتى شعوب الأرض عبر الحقب التاريخية، لهي قادرة أيضاً أن تقف إلى جانبنا اليوم في سبيل بناء هذا الصرح الثقافي التنويري الإنساني الطيب والذي فيه نفع وتلاقح للثقافتين.

إن قوة التطبيع الثقافي سوف تزيح الكثير من العوائق التي ربما تقع، فنحن على سبيل المثال عندما نقرأ ناظم حكمت، وعزيز نيسن، لانشعر بأننا نقرأ أدباً مترجماً، أو حتى ثقافة مترجمة، أو طبائع اجتماعية مترجمة، قدر شعورنا بأننا نقرأ أدباً انبثق بين ظهرانينا، وكذلك الأمر عندما نقرأ الشيرازي، والخيام لأن طبيعة العلاقات الثقافية بيننا حققت هذا التذوّق والتقارب الثقافيَين.

أريد أن أنفذ إلى القول بأن مسار التطبيع -الذي هو موجود بالأصل بيد أنه يحتاج إلى قوة دفع بغية تفعيل كافة عروقه وتفرعاته- سوف يجعلنا نقرأ سلسلة الآداب والثقافات الأفريقية من شتى اللغات الغنية الألف وكأننا نقرأ نجيب محفوظ، والطيب صالح، ومالك بن نبي، وابن باديس، وهذا بذاته يتحقق عندما يقرؤون آدابنا مترجمة إلى تفرعات لسانهم، فينتابهم شعور بأنهم يقرؤون أدباً مكتوباً في ظهرانيهم.

عند ذاك سوف يكون بإمكان هذا الكيان الثقافي أن يتطلع إلى إنشاء خيوط أولى للإعلان عن جائزة أدبية عالمية كبرى لايقتصر منحها لأحد مبدعي الثقافتين فحسب، بل تمنح لهم ولسائر المبدعين في العالم كما هو الأمر بالنسبة للجوائز العالمية الرفيعة الاعتبار.

عندما نقول تطبيع فهذا يعني بأننا نريد أن نزيح الحواجز، التي تقف حائلا بيننا وبين من نسعى كي تأخذ العلاقة بيننا وبينه، وبينه وبيننا الصفة الطبيعية.

والأمر الطبيعي، هو خلاف الأمر غير الطبيعي، وحقيقة فإن العلاقات الإنسانية على سطح الأرض كلها عليها أن تأخذ صفة الطبيعية، لأن الإنسان هو ملكٌ للإنسان، وليس هناك إنسان هو خارج المنظومة الإنسانية، وكما يقول كانط، فلو كانت سعادة البشرية كلها تقف على قتل طفل بريء، لكان قتل هذا الطفل البريء عملاً غير أخلاقي، ولذلك فإن العلاقة الطبيعية بين العرب وأفريقيا هي علاقات ضرورية، وعلى الطرفين العمل الجاد للتغلب على عوائق طبيعية في هذه العلاقة الثقافية العربية الأفريقية لأن الثقافة هي البوّابة الكبرى إلى تطبيع سائر العلاقات الحياتية الأخرى، وإذا لم ننجح في تطبيع العلاقات الثقافية أولا، فإن الإخفاق سيحالف الخطوات الأخرى في الكثير من المساعي.

إن ما ييسر طبيعة العلاقات هو عدم وجود صراعات تاريخية أو معاصرة بين المجموعتين، وبالنسبة للعرب، فإنهم استطاعوا أن ينسوا الماضي مع الكثير من الدول التي احتلت دولهم لسنوات طويلة، واحتدمت بينهم حروب وصراعات طويلة، استطاعوا أن يتسامحوا، ويبنوا علاقات حديثة مع تلك الدول، والوطن العربي في غالبيته عانى سنوات الاحتلال.

وكذلك القارة الأفريقية عانت الاحتلال، ونجحت في تجاوز الماضي وبناء علاقات طبيعية مع الدول التي احتلتها.

إذا كان الأمر كذلك، فإن العلاقات الثقافية الطبيعية بيننا تتمتع بخصائص

ميسرة أكثر لأنها تستند على إرث الصداقة والعلاقات الإيجابية، ولا تستند على الاحتلال والنزاعات، فأفريقيا لم يسبق لها أن احتلت بلدا عربيا، والعرب لم يسبق لهم أن احتلوا دولة أفريقية، إننا نقف من ذلك على صفحات بيضاء.

قد يتساءل البعض عن جدوى بناء مثل هذا الكيان، الكيان هو البيت الكبير الذي يجمع أكبر عدد من الناس رغم اختلاف لغاتهم ومعتقداتهم، وطبائعهم، ولذلك فإن الناس عندما يدخلون هذا البيت سوف يشعرون بشيء من القوة الجماعية، ينتابهم إحساس بأن قوة الآخرين هي قوة لهم، وأن قوتهم هي قوة للآخرين في علاقة قوة تبادلية تكاملية.

إن الكيان من هذا المنظور، هو الواقع، وهو المستقبل، وهو حصانة ضد التنازلات الكبرى التي يمكن لثقافة ما أن تتعرض لها نتيجة هيمنة قوة أخرى، وكذلك حصانة للمبدع بشكل فردي لأن المبدع لم يعد يهمه التهميش الذي قد يتعرض له نتيجة مواقفه وأفكاره التي يؤمن بها.

من هنا، وبتقديري، فإن أول ما يحققه هذا الكيان لأبنائه وحفدته المثقفين هو تحقيق الحرية الإبداعية، وتحقيق نشر هذا الإبداع بسوية عالية، وبقدر ما يمارس المبدع حريته ضمن أركان هذا البيت، فإنه يشعر بقوة الانتماء إليه.

أمام هذا الواقع الثقافي الجديد الذي ستفرزه ولادة الكيان الثقافي العربي الأفريقي بشكله التفاعلي القوي، سوف تسعى الثقافات المهيمنة إلى التقرّب إلى هذا الكيان هذه المرة، بدل رفضها وتهميشها، وفرض شروط عليها.

سوف تعترف بها ككيان ثقافي عالمي مستقل، وسوف يستمد الكاتب العربي مشروعية عالميته من صلب هذا الكيان الثقافي.

إن الثقافة يمكنها أن تقدم الكثير للإنسانية، وهي تقف على تاريخ غاية في الغنى والعطاء، ودوماً فإن المشاريع الثقافية، هي مشاريع تنويرية تمد الجسور من أجل أن يلتقي الإنسان بأخيه الإنسان في رسالة أخوية مشتركة يغتني فيها الإنسان بالإنسان، ويكون الإنسان قريباً من الإنسان.

الدراسات والبحوث

المانعة الثقافية للتنمية في العالم العربي

د. علي أسعد وطفة

يعــرف كانــط الثقافة «بأنهــا مجموعة من الغايات الكــبرى التي يمكن للإنسان تحقيقها بصورة حــرة وتلقائية، انطلاقا من طبيعته العقلانية»[1]. وهكذا تكون الثقافة في نظر كانط أعلى ما يمكن للطبيعة الإنسانية أن ترقى إليه وذلك عندما تأخذ الثقافة الإنسانية صورة فلسفة تنموية ترقى بالإنسان إلى أعلى ما يمكن للطبيعة الإنسانية أن ترتقي إليه من سمو أخلاقي وروحي. فالإنسان لا يصير إنسانا إلا بالثقافة، بل هو ما صنعت منه الثقافة.

أستاذ التربية في جامعة الكويت.

العمل الفني: الفنان عماد كسحوت.

فالإنسان يشكل غاية التنمية ومنطلقها في جميع الشرائع التنموية المعاصرة، وهذا يعني أنه يجب على العملية التنموية أن تخاطب البعد العقلاني والأخلاقي في الإنسان. وهذا يُلزم التنمية، في أية صيغة أو تعريف تأخذه، أن تتخذ الإنسان غايتها بوصفه الكائن الأسمى في الوجود. فغاية التنمية تكمن في تفجير الطاقات الإنسانية الكامنة في الإنسان وتحقيق مطلق الازدهار والتكامل في شخصه الإنساني. ومن هذا المنطلق فإن تنمية الجوانب المادية والاقتصادية والأمنية تشكل الإطار الموضوعي لهذه الأنسنة الثقافية التي لا تكون، ولا يمكن أن تكون، إلا فعلا ثقافيا يتجلى في منظومة من القيم الأخلاقية والإنسانية التي تحقق التوازن بين الإنسان والوجود.

الجوهر الثقافي للتنمية الإنسانية:

يقول دانييل باتريك موينيهان Daniel Patrick Moynihan إن «الثقافة هي التي تحدد وتقرر نجاح وتقدم المجتمع وليس السياسة»[٢]. فالثقافة تتفاعل جوهريا مع التنمية وتشكل المناخ الحيوي لكل فعل تنموي. وقد ألح ماكس فيبر على أهمية البعد الثقافي للتنمية والحضارة حيث كان يقول «إننا لو استطعنا أن نتعلم شيئا من تاريخ التنمية الاقتصادية فإن ذلك الشيء هو أن الثقافة هي التي تصنع كل التغيرات والاختلافات».

وتأسيسا على هذه الرؤية فإن الثقافة لا تلعب دورا حيويا في إنجاز التنمية الشاملة بنجاح فحسب، بل تشكل جوهر العملية التنموية ومحورها بوصفها دينامية إنسانية غائية يكون الإنسان فيها هدف التنمية وغايتها. وكان قد سبق لماكس فيبر أن أعلن عن هذه الغائية الثقافية في كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» عام ١٩٠٤، لقد ذهب في إعلانه هذا أن القيم البروتستانتية كانت منطلق التنمية الاقتصادية الحديثة في أوروبة، وأن النهضة الحضارية في أوروبة تدين للقيم البروتستانتية التي حضّرت المجتمع الغربي لنهضته الصناعية عبر القيم الثقافية الجديدة التي أوجدتها في مجال العمل والزمن والمسؤولية والمغامرة والمطالعة والتثقيف.

ومهما يكن الأمر فإن التنمية تأخذ جوهرها في مضمونها الثقافي، حيث يرتهن نجاحها أو إخفاقها بالمضامين الثقافية السائدة في المجتمع، ولاسيما في منظومته القيمية في العادات والتقاليد السائدة فيه، وفي معايير الفلسفات التي تحدد

موقف أفراده من الحياة والوجود. وتأسيسا على هــذا التصور أرجع ماكس فيبر نجاح عمليات التحديث التي شهدتها أوروبة والعالم الجديد في عصــر النهضــة إلى القيم التي رسختهــا البروتستانتيــة كقيــم: الفردية، والادخار، والنجاح، والربح، والمغامــرة، والإحساس بالمسؤولية، والنظــرة الائتمانيــة، وكانت هي القيم التي شكلت الجدار الاستنادي للتطــور الاقتصــادي والاجتماعي الذي شهدتــه المجتمعات الأوروبية في عصر النهضــة، وكانت مرتكزا للثــورة الصناعية الكــبرى وموئلا للنظــام الرأسمــالي الجديد. ومن هــذا المنطلــق الحيــوي، لأهمية التكوينات الثقافية والقيمية، يدعو عالم الــذرة الباكستاني عبد القادر خان، المشرف على برنامج باكستان النووي، الدول الإسلامية للمزيد من الإنفاق في مجــال الثقافة والتعليم حيث يقول «كنت أكرر دائمــا وما زلت أكرر بــأن على العالم الإسلامي أن يتجه نحو الاستثمار في الثقافة والتعليــم وفي رأس المال البشري إذا أراد أن يسترجــع هيبته المفقودة وحمــاه المستباح. فالتعليــم في الإنسان وتشكيل الإنسان وفقا

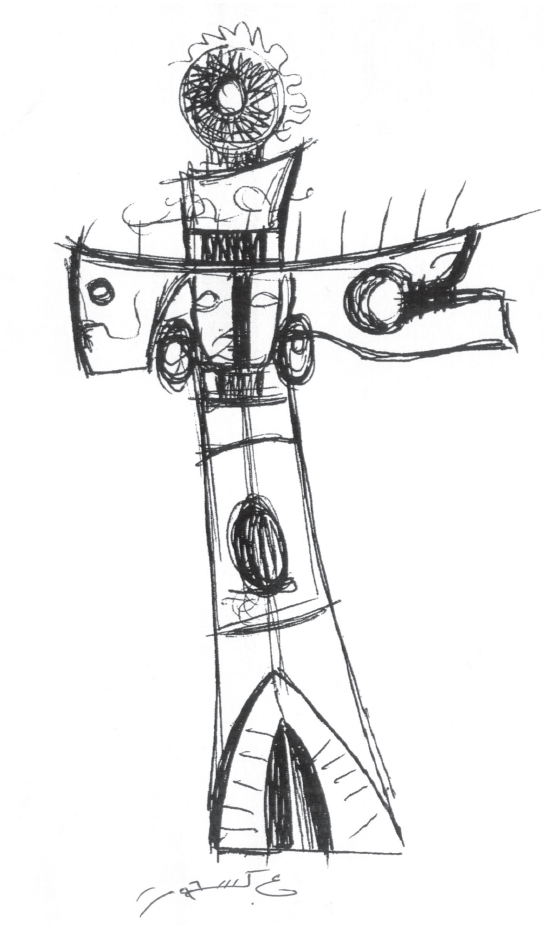

لروح ثقافية جديدة يمثــل رأس المال الذي يجب إنمــاؤه والسهر عليــه بوصفه الثراء الذي لا يضاهيه ثراء في العالم المعاصر»[٣].

المانعــة الثقافيــة للتنميــة في الوطن العربي:

تشــكل الثقافة الجــدار الاستنادي لأية عملية تنموية، ولا يمكن لأية محاولة تنموية أن تحقق أهدافها مــا لم تنطلق من الثقافة

وترتد إليها في صيغة تفاعل بين الغايات والوسائل، بين الإنسان كغاية ثقافية عليا، وبين متطلبات وجوده المادي والمعيشي، حيث تكون الثقافة منطلقا للعملية التنموية ترسم لها غاياتها وأهدافها من أجل التحضير لعملية بناء الإنسان في أكمل وجه وأبهى صورة.

لقد أصبح من الصعوبة بمكان تحقيق نجاحات فعلية في مجال التنمية من دون التركيز على البعد الثقافي للعملية التنموية، فثقافة التنمية تشكل مهمازا لانطلاق الحداثة والتقدم والحضارة، وهذا يعني أن الثقافة الحقيقية -أي ثقافة الانطلاق- تشكل الضمان الحيوي للعملية التنموية والحضارية برمتها.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما الثقافة التي يمكن أن يعوّل عليها في عملية التنمية الإنسانية المنشودة؟ وفي معرض الإجابة عن هذا السؤال الجوهري، يميّز الباحثون بين نمطين من الثقافة، أحدهما يحضّ على التنمية ويعزز مسارها، بينما يكبح الآخر متطلباتها ويعرقل تقدمها. فهناك ثقافات دينامية تتميز بقدرة عناصرها على الحركة والتوالد والانتشار خارج إطارها الجغرافي، حيث تتميز بقدرتها على الإقناع والتحدي وتلبية حاجات الأفراد، وهناك ثقافات تقليدية، وهي ثقافات جامدة منغلقة مناهضة للتغيير متشبعة بعناصر قيمية مضادة للتنمية والتطوير، كالتواكل، والاتكالية والتعصب، والعصبية، والجمود، والسلفية، والقداسة والقدسية، والتقشف والتصوف، والتمييز العنصري والاجتماعي، والإيمان بالسحر والخرافة.

هذا وتبين الدراسات الجارية حول التجارب التنموية في مختلف أنحاء المعمورة، أن البيئة الثقافية قد تمارس دورا سلبيا يعطل عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ويضعف مسارها، وقد تُشكل هذه البيئة نفسها مناخا مواتيا ومشجعا لنجاح العملية التنموية.

لقد مارست الثقافة التقليدية دورا سلبيا في عملية منح الحقوق السياسية للمرأة في كثير من البلدان العربية والإسلامية، حيث كان القرار السياسي بمنح المرأة حقوقها السياسية، متقدما على الثقافة التقليدية السائدة في المجتمع، أي هذه التي تبخس المرأة هذه الحقوق ؛ ولاحظنا بأن صدور التشريعات الخاصة بالحقوق السياسية للمرأة قد مرّ في أتون عاصفة كبيرة من الجدل السياسي والثقافي في كثير من البلدان العربية انتهت أخيرا بانتصار المدّ الحضاري لحقوق المرأة السياسية، ومع أن

المرأة تتمتع اليوم بحقوقها السياسية تحت الضغوط السياسية للدولة، فإن الدراسات تبين بأن وصول المرأة إلى المجالس النيابية والمناصب الوزارية ما زال يعاني من مقاومة كبيرة لثقافة استلابية راسخة ورافضة لحقوق المرأة في العمل السياسي التشريعي.

وفي هذا السياق، يرى كثير من المفكرين، بأن هيمنة الثقافات التقليدية تعيق عملية التنمية الحقيقية وتؤدي إلى استمرار التخلف والجمود، وقد وصفت هذه الثقافات التقليدية بالغيبية أو القدرية أو السلبية أو الأبوية أو السلطوية أو التواكلية، ووفقا لهذا التصور فإن الثقافة التقليدية تشكل ثقافة المانعة بامتياز بوصفها ثقافة جامدة منغلقة ومتشبعة بعناصر قيمية مضادة للتنمية كالتي أشرنا إليها مثل: التعصب والعصبية والجمود والسلفية والتقشف والتصوف والتمييز الاجتماعي والإيمان بالسحر والخرافة.

وعندما ننظر إلى الثقافة العربية من منظور أنتروبولوجي، أي، بوصفها مجموعة قيم وتصورات ومفاهيم وعادات وتقاليد ومعتقدات ومعايير ورؤى وذهنيات ومواقف، سنجد بالتأكيد أن العناصر المعطلة للتنمية والمقاومة للنهضة تسود وتهيمن وتسيطر على العناصر الحافزة والميسرة للعملية التنموية وتبزها.

وتتمثل الأزمة التنموية الثقافية العربية في التناقض ما بين القيم والعادات والتقاليد ومتطلبات التنمية الشاملة، فالثقافة التقليدية، المشبعة بعناصر ثقافية مضادة للتنمية، تناهض أي فعالية تنموية وتتناقض مع معطياتها، وذلك لأنها تمثل نمطا من وعي التخلف في جوهرها وبنيتها الأنتروبولوجية، وهذا ناجم عن وضعية التخلف الفكري الراسخ في الحياة الاجتماعية التقليدية الذي يتبلور في نسق من القيم والعادات والتقاليد السلبية التي تعرقل مسار النماء الإنساني في مستوى الفرد والجماعة والمجتمع. ويمكن تفسير هذه الوضعية بما تركته عصور الانحطاط الطويلة من مفاهيم متخلفة ومن مقومات نفسية واجتماعية تحول دون التقدم. من مثل التواكل، والتفسير السحري للأشياء، وسيطرة الشكل والمظهر على المضمون والجوهر في شتى جوانب السلوك، وتعطيل دور المرأة، وسيادة التسلط والقسر والإحجام عن العمل اليدوي وغياب النزعة العقلانية، وغير ذلك من أنماط السلوك السلبية في المجتمع[٤].

يعلن عدد كبير من المفكرين العرب في هذا السياق عن هيمنة كبيرة لثقافة الممانعة في مختلف البلدان العربية، وتتمثل ثقافة الممانعة في أنماط الثقافات التقليدية التراثية الماضوية العشائرية القبلية التواكلية التي تنطوي على عناصر ثقافية مضادة لعملية الأنسنة والتنمية بمختلف تجلياتها وتنوعاتها.

وفي هذا الصدد يقول أحمد مجدي حجازي: «في المجتمعات العربية نجد ثقافة غير مبدعة لا تقوى على خلق فكر اجتماعي مستقل قادر على التجديد على رغم وجود مظاهر التحديث المادي مثل: زيادة أعداد المتعلمين، وتنامي ظاهرة الاستهلاك الترفي، بل إن قيم الثراء أصبحت قيما كمية لا نوعية، حيث أصبح الثراء سلطانا على الثقافة والمعرفة والقيم»[٥]. فالشخصية العربية شخصية تقليدية محافظة نتيجة لهيمنة القيم الاجتماعية القبلية والعشائرية المضادة للحضارة والمدنية، وقد أدت عوامل التغير السريع إلى تشويه القيم الإيجابية في الشخصية العربية فتحول الكرم إلى تبذير، والرجولة إلى رفض لدور المرأة في المجتمع، والاعتدال إلى تطرف، والجدّ إلى الكسل، والتوكل إلى تواكل، وقوة العزيمة إلى مهادنة، والاعتماد على الذات إلى الاعتماد على الغير. ومثل هذا التصور نجده لدى علي خليفة الكواري الذي يقرّ بوجود أزمة قيم في الخليج العربي تتمثل بظهور قيم جديدة قوامها استشراء الروح الاتكالية، والانتهازية، والارتزاق، والمضاربة، والبطالة المقنعة، وشعور اللامبالاة، والانغماس في ماديات الحياة على حساب إمكانيات السمو المعنوي والأدبي للأفراد والجماعات[٦].

«فالثقافات التقليدية العربية ما زالت تدور في فلك المحافظة والجمود الثقافي على الرغم من طفرات التنمية الاقتصادية، والحق يقال إن ظاهرة المحافظة ورفض التغير والتجديد من أخطر ظواهر التخلف وأعمقها لكونها ظاهرة يصعب تغيرها، ذلك أنها تضرب بجذورها في أعماق حياة الإنسان إذ ترتبط بما ألفه الفرد وما عرفه وما تأصل فيه، وبما ألف آباؤه وأجداده وعرفوه، وتحمل بالتالي جانبا من القدسية أو ضربا من نشوة الحنين إلى الماضي».[٧]

والثقافة الخليجية كنموذج لثقافة عربية، تنطوي على مجموعة من القيم والمعايير والبنى الذهنية التي تناهض عملية التنمية ومنها: رفض العمل اليدوي والحر ولاسيما أعمال المخابز والمتاجر وخدمة الآليات وأعمال النظافة وغيرها[٨]. فكيف تكون التنمية في مجتمع يرفض القيام

بخدمة نفسه وأداء الأعمال الحيوية في مجال الحياة الاجتماعية.

وفي هذا الخصوص، يرى فوستر Foster George في أبحاثه حول الثقافات التقليدية وصدمة التغير التكنولوجي والحداثي، أن القيم والاتجاهات الثقافية التقليدية مثل: الكبرياء والكرامة والتمركز حول الذات، تشكل أخطر المعوقات في وجه النماء الحضاري لهذه المجتمعات[٩].

يقول أحمد خضر أبو هلال مؤكدا الدور السلبي للثقافة التقليدية «الإنسان التقليدي يخضع للطبيعة، ولا يعشق التغيير بل يخشاه، إنه يؤمن بالسحر والغيبيات، ويرغب في الابتعاد عن السلطة وعن مراكز المسؤولية، إنه متواكل إلى درجة التخاذل ولا يبحث في المستقبل لأنه يعيش بالماضي وينعزل به[١٠]. وعلى خلاف ذلك فإن الإنسان في المجتمعات المتطورة نشيط يحب العمل وتحمل المسؤولية، ويخطط للمستقبل ويعتقد بإمكانية التحكم فيه، يؤمن بالتغيير ويعشق المغامرة»[١١]. ومما لا شك فيه أن التكوين الثقافي للإنسان العربي تقليدي فرضته عوامل وظروف تاريخية ضاربة الجذور والأبعاد، وهذا يعني أن الثقافة السائدة في الغالب هي ثقافة ممانعة لعملية التنمية الحقيقية التي يجب أن تكون في هذه المراحل التاريخية من تطور هذه المجتمعات.

فالثقافة العربية التقليدية السائدة «ثقافة خرافية تميل إلى الإعجاز أكثر من ميلها إلى العلم، وتميل إلى الاستسلام أكثر من ميلها إلى المنحى التحريري... والبرجوازية العربية تشيع هذا النمط الخرافي من التفكير وتساعد على بثه بهدف إضعاف الفكر العلمي لدى الطبقات الشعبية، فيسهل تخويفها والسيطرة عليها»[١٢].

وباختصار يمكن القول بأن الثقافات التقليدية السائدة في العالم العربي قد غرست نسقا من القيم السلبية المناهضة للتنمية مثل: الخضوع للأمر الواقع، القدرية، الاتكالية، القبلية، العشائرية، الطائفية، القبول بما هو قائم، وأن هذه الثقافات تعمل على تجريد الفرد من روح المبادرة، وتغييب حس المسؤولية، وإضفاء الطابع القدسي على أغلب جوانب الحياة وتغيب الروح النقدية.

مفارقة النمو والتنمية:

لقد شاع في العالم العربي ولاسيما في الخليج العربي عدد كبير من مظاهر التحديث الذي اتخذ صورة من التسابق في تشييد الأبراج العملاقة الشاهقة كأبراج دبي، وبناء منشآت ضخمة هائلة،

ومبـاني رائعة تأخذ أحـدث أشكال وطراز العمـارة الأجنبية الحديثـة، وفي التأسيس للمجمعات التجارية التي تفوق ما عداها في أوروبة وآسية. لقـد انطلقت هذه التغيرات الحضارية المادية الهائلـة بوتائر متسارعة دون أن يرافقها تنمية ثقافية وعقلية وذهنية في الكيان الاجتماعي وهذا قد ولد شروخا وتصدعات كبيرة في بنية الحياة الحضارية بين ثقافـة تقليدية ساكنة جامدة، وبين نمو مالي واقتصادي بنيوي هائل متسارع يتميز بالعمق والشمول، وقـد أدت هذه الوضعية إلى انشطـار كبير بين الوعـي الاجتماعي والتقـدم المـادي بين ثقافـة تقليدية ونقلة حضاريـة مادية نوعية تفوق حدود الوصف من حيث قوتها وسرعتها وتقدمها، وأخذت الحضارة صورة ماديـة صنعية لا روح فيها ولا معنى أو دلالة إنسانية.

وإذا كان العلم يشكل وعيا بالحضارة، فإن النقلة الطفرية النوعية للنمو الاقتصادي في العـالم العربي لم يترافق حتـى اليوم بتوطين العلـم والمعرفة العلميـة، أو بتكوين العقول والخـبرات الوطنية المبدعة كما يجب حيث بقـي العقل الأجنبي هو مبتدأ هذه النهضة وخبرها.

ولو سألنا اليوم مَن المهندسون والخبراء الذين قامـوا بتشييـد أبراج دبـي والمآثر العمرانيـة في العالم العربي؟ لمـا تردد أحد بالإجابة قـولا بأن الخـبرات والعقول هي خبرات وعقول أجنبيـة بامتياز، فهم ليسوا عربـا أو خليجيين على الأغلـب، فالأبراج والمنشآت صناعـة أجنبية ونحن نفخر بكل مـا هو أجنبي ولا فخر. وأريد هنا أن أسوق مثالا يوضح هذه المفارقة بين برج دبي وبين برج إيفيل في فرنسا، فعندما تصعد إلى برج إيفيل ترى أن الفرنسيين يفتخرون بمهندسهم إيفيـل أكثر بألف مرة من البرج نفسه ككيان مادي، أي أنهم يفخرون بالعبقرية الفرنسية في مجـال الهندسة العمرانيـة، وليس ببرج إيفل نفسه، وقد خصصـوا في البرج مكانا شامخـا للمهندس وزوجتـه ومساعديـه وظروف عملـه وتاريخه، وذلك هو الجانب الأهم ربمـا في برج إيفيـل، فهل نجد مثل هذا في الأبراج العربية التي تصدم الخيال بقوتها وعظمتها؟

لـو كان الأمر في مساره الصحيح لوجب علينـا أن نفخر بعـدد العلمـاء والمبدعين والمفكريـن من أبنـاء الوطـن والمؤسسات العلميـة والفكريـة والأكاديميـة الوطنية التـي يمكنها أن تنهض بالتنمية الحقيقية وأن تتجـاوب لمتطلباتهـا. ولو كان من فخر لكان علينـا أن نعمل علـى توطين المعرفة والخبرات العلميـة واستثمار بعض المال في

بناء العقــول والأدمغة والخــبرات الوطنية التي تشكل مبتــدأ النهضة وخبرها. لو كان علينا أن نفخر! لكان علينا أن نفخر بعملية بنــاء الإنسان العربــي والاستثمار في بنائه الثقافي على صورة الإنســان الفاعل المبدع المخطط المنتــج المغامر الخلاق الذي يرسم الحضارة ويؤمن بالقيــم الخلاقة المؤسسة للنهضة الإنسانية وهنا تكمن روح الحضارة وعبقريتها.

تنميــة مشوهــة: صــدام التحديــث والحداثة.

لقد عملــت الدول العربيــة منذ عهد الاستقلال، على تحديث مجتمعاتها وتنميتها، وقد شهدت هذه المجتمعات في حقيقة الأمر عملية تنمويــة اقتصادية وعمرانية لا مثيل لها، فرضتها عوامــل متعددة أهمها الوفرة الاقتصادية المتمثلة في الثروة الطبيعية لهذه البلدان، ورخصــ اليد العاملة. واستطاعت هــذه البلــدان، ولاسيما الخليجيــة منها، خلال عقــود قليلة أن تؤسســ لعملية نمو عمــراني واقتصــادي واضحة المعــالم، وأن تنتقل بمجتمعاتهــا – في مستويات التطور العمراني والمادي- عبر عملية حرق المراحل من مجتمعات بدوية صحراوية إلى مجتمعات تضاهــي أحــدث دول العــالم عمرانا وبناء ومؤسسات لتختصر مسافات حضارية بلغت مئات السنين بمقاييس الحضارة الإنسانية، حيث أصبحت المنشآت الاقتصادية والمالية والتجاريــة تضاهي باريس ولنــدن وروما. ولكن المشكلة هي أن هذه النقلة الحضارية لم ترافقها نقلة حضارية فيما يتعلق بالحداثة الفكريــة والثقافية، حيث بقيــت الثقافات التقليديــة البدويــة المحليــة والصحراوية تحتــل مكان الأهمية والصــدارة في الحياة الاجتماعية دون تغيير يذكر. بل وعلى خلاف ذلــك كله فإن المؤشــرات الثقافية تدل على أن حركة التجديد هذه قد أدت إلى تحديث القــديم وتطويــره من دون تغيــيره جذرياً، وما يــراد بهذا القول إن ثمــة قيم تقليدية ممانعة قــد وجدت نوعا من التأصيل تحت ضغط مــبررات أيديولوجية متعددة أبرزها قيم الانكفاء والانغلاق والعودة إلى النماذج الأصولية[١٣].

فالوطــن العربي يعيشــ حالة تناقض وانشطار وجودي كبــير، يتمثل في التصادم بــين أحــدث مظاهــر الحيــاة الحضارية الغربية المتقدمة، وبــين ثقافات تقليدية ما قبل صناعية تحكمها الروح القبلية السابقة للحضــارة بمعاييرهــا وقيمهــا وتجلياتها المختلفة، وهذا يعني وجود انشطار كبير بين روح الحضارة وكينونتها المادية، ومن الواضح أن هذا التناقض يمثل صورة المفارقة القائمة

بين منتهى التقدم الحضاري ومبتداه، حيث يأخذ هـذا التناقض في وجهه صورة ثقافة تقليديـة من غـير أسس ماديـة، كما يأخذ في وجهـه الثاني صورة حضـارة مادية من غير أسس ثقافيـة حداثية. وهذا التناقض المـزدوج يولد بالضـرورة مشاعر التناقض الكبير والتصادم الثقافي الذي يؤسس لأزمة هوية تتسم بالعمق والشمول.

فالإنسـان العربي يعيشـ خصوصياته الثقافيـة التقليدية حتـى العظم في الوقت الذي يرفل فيه بمعطيات الحضارة الغربية حتـى الثمالة، فنحن كمـا يقول علي حرب «عرب أو مسلمون فيمـا يتصل بالمقدسات والمحرمـات؛ ولكننـا غربيون فيمـا يتعلق باستيراد الأدوات والسلع والصور والمتع التي توفرهـا أجهزة الفيديو وأفـلام البورنو... أي في كل مـا يتصل بمـادة الحياة وأسباب الحضارة»[١٤]. فثقافـة الحداثة تركز على العقلانية والفرديـة والإيمان بالعلم والقيم الديمقراطيـة، أما ثقافتنـا التقليدية فهي ثقافـة ما قبـل الحضـارة الزراعية ثقافة البداوة، وهي ثقافة جمعية عاطفية ترفض مبـدأ الفردانية وتستمـد نسغ وجودها من الإيمـان بالأساطـير والخرافـات والقيـم التقليدية التـي لا تتوافق مع قيم الحضارة المادية الغربية.

لقد عبر أحـد الكتاب العرب خير تعبير عن هذا الانشطار وتلك الإشكالية في طبيعة العلاقة بين الحداثـة والتحديث بين النمو والتنميـة حيث يقول: «في القبيلة تسود قيم قـد لا تتماشى مع كينونة الدولة وتراكيبها، فقيم الدخالـة والعصبية والفزعة والنخوة والفخر والهجاء والطاعة والنصر والحماية والحلف وغيرها من قيم القبيلة لا يمكن أن تتحمل فكرة الدولـة العصرية وتواجدها». وفي إشارة منه إلى واقع التطور في الكويت[١٥] يـرى النفيسـي - وهـذا الرأي يعـود إلى مرحلـة الثمانينات من القرن الماضي ولكنه برأينـا ما زال يحمل دلالـة معاصرة تشمل معظم دول الخليج العربي ما زالت في طور الانتقال من كونها القبلي إلى كونها العصري في شكل الدولـة. حتى الآن لم تحقق (بعض هذه الدول) العبـور الكامل من القبيلة إلى الدولة[١٦].

إنـه لمـن البساطة بمـكان القـول بأن التنمية الحقيقية تقاس بمدى حضور القيم الثقافية التنموية في سلـوك الناس، ومدى تجليها في أنماط حياتهم ووجودهم، ووفقا لهذا المعيار يمكـن القول بأن ثقافة التنمية في مجتمعاتنـا لا تأخـذ موقـع الهيمنة في الحيـاة العامة للناس، فأنمـاط السلوك ما زالت تستمد وجودها مـن ثقافات تقليدية

قبلية إثنية أو طائفية وإقليمية في غالب الأمر، ويتمثل ذلك في ضعف الولاء للدولة وقيمها بالمقارنة مع قيم الولاء للطائفة والقبيلة وغيرها من الولاءات الصغرى. هذا وينبئنا واقع الحال أن التنمية لم تنجز بعد كثقافة حياة ووجود وبقيت تنمية تنظيمية للحياة مرهونة بمؤسسات الدولة وقوانينها وممارساتها اليومية.

وهذا يعني أن التنمية الحقيقية في العالم العربي ما زالت في أمس الحاجة إلى دمج النبضة الوجدانية والروحية الحداثية في بنية الحياة المادية والاقتصادية، وباختصار يمكن القول هنا إن هذا الانشطار بين الحضارة المادية وروحها يشكل التحدي التاريخي الأول الذي يواجه عملية تنمية وطنية حقيقية متكاملة وشاملة، حيث تعمل هذه التناقضات الكبرى، ما بين الثقافة التقليدية البدوية الشرقية والحضارة المادية الغربية، على توليد مشاعر القلق والضياع والتوتر في العمق الإنساني للإحساس بالهوية والانتماء. وأخيرا فإن المصالحة بين روح الحضارة وجسدها، يشكل اليوم أحد أكبر وأهم وأخطر التحديات التي تواجهها المجتمعات العربية، ولا تكون هذه المصالحة إلا بترسيخ ثقافة العقلانية والروح التنويرية التي يمكنها أن تشكل منطلق هذه المصالحة الحضارية مع الذات والوجود والهوية. وعلى هذا النحو فإن العرب مطالبون اليوم باستخدام الطاقة النقدية والعقلانية والديمقراطية، مطالبون بتوظيف العلم والمعرفة العلمية، وتوظيف كل القيم الإنسانية الخلاقة في مواجهة تحديات التنمية وغيرها من التحديات الكبرى للمحافظة على الهوية والكينونة والوجود وتحقيق تنمية شاملة متكاملة.

فثقافة التنمية تحتاج إلى «عقل منفتح غير متعصب، ونقدي يقبل الاختلاف وينتج الاختلاف، ويسعى للاتفاق على أسس مقبولة عقلية وعقلانية، فنحن إذا محتاجون إلى تفتح فكر ي إلى روح نقدية، ومحتاجون إلى فكر يحارب الإحباط الذي في أنفسنا أو الذي في نفوس بعضنا»[١٧]. إننا «بحاجة إلى التحديث والانخراط في عصر العلم والثقافة كفاعلين ومساهمين. كما نحن بحاجة أيضا إلى مقاومة ثقافة الاختراق وحماية هويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الثقافي الذي يُمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والثقافة. والوسيلة في كل ذلك واحدة هي اعتماد الإمكانيات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها، أعني الجوانب الإيجابية منها وفي مقدمتها العلم والتقانة»[١٨].

ثقافة الانطلاق:

لقد رَسخ في مختلف التجارب التنموية أن رأس المال وحده لا يمكنه أن يكون كافيا في العملية التنموية، أو حتى في عملية الإنتاج ذاتها، وبات واضحا أن النشاط الذهني بمادته وقدراته المعلوماتية هو أساس الإنتاج في حين أصبح رأس المال مجرد عنصر من عناصره، وهو بذلك قد فقد عنصر الأولوية الرئيسية كما كان الاعتقاد في العصر الصناعي[١٩]. وقد كان للاقتصادي الإنكليزي آدم سميث فضل السبق على معاصريه في الإشارة إلى أهمية رأس المال البشري ودوره في الدخل الاقتصادي القومي، والذي سبق له القول : «إن الرجل المؤهل علميا يمكن أن يقارن بإحدى الآلات المتطورة والحديثة والمكلفة في مجال الإنتاج والتوظيف والاستثمار»[٢٠]. وهذا يعني أنه لا يمكننا أن نتحدث عن تنمية حقيقية من دون الاستثمار في مناجم العقول وبناء البشر، وهو ما لا يتم من دون التطوير الجذري للتعليم كي يصبح تعليماً منتجاً للمعرفة ومنتجاً للثقافة، وكي يكون سلاح الأمة الذي تواجه به كل تيارات الغزو الثقافي ومحاولات التغريب وطمس الهوية وهو صمام الأمان في أمنها الثقافي ومستقبلها[٢١]..

إن أخطر ما يمكن أن يستقر في العقل العربي هو الاعتقاد بأن توافر المال والرجال يضمن في حد ذاته مستقبلا مشرقا للعالم العربي، وهذا يعني أن البلدان العربية في الخليج العربي وغيرها تحتاج إلى ترسيخ ثقافة تنموية جديدة تنهض بالإنسان والمجتمع ثقافة تنموية تقوم على أنقاض الثقافة التقليدية المناهضة للتقدم والتنمية وتتجاوزها. فكل النهضات الإنسانية المعروفة تاريخياً بدأت بنوع من الثورة الإبيستيمولوجية التي غيرت من نظرة الإنسان إلى نفسه ومجتمعة وإلى العالم من حوله، سواء تحدثنا عن النهضة الإسلامية أو النهضة الأوروبية أو النهضة اليابانية، ابتدأت هذه النهضات بثورة إبيستيمولوجية غيرت من العلاقة الذهنية بين الكائن والمحيط الذي يعيش فيه فكانت النهضة والإبداع والعقل الخطابي[٢٢]. لم تتم نهضة في التاريخ إلا وكانت مسبوقة بثورة إبيستيمولوجية غيرت من نسق القيم والمفاهيم والتصورات السائدة في هذه المرحلة أو في ذلك المجتمع.

وهذا هو حال الثورة الثقافية التي شهدتها الصين، في عصر ماوتسي تونغ في السبعينات من القرن الماضي، أي عندما أعلن ماوتسي الثورة على الثقافة التقليدية

القديمة المانعة لنهضة الصين وحركتها، وأسس لخارطة ثقافية جديدة تعلي من قيم العمل والجد والنظام وترفض قيم الاتكالية والهزيمة والكسل والقداسة والخرافة والسحر والشعوذة من أجل بناء ثقافة تنموية كبرى تمهد لعملية النهضة الحضارية الشاملة. وهذا هو حال الصين اليوم أمة تفوق الأمم في مدى قوتها وحضارتها وعظمتها.

ونحن في العالم العربي اليوم في أشد الحاجة لثورة ثقافية جديدة من أجل بناء ثقافة تنموية تنطلق بنا جميعا إلى مشهد حضاري إنساني يسمو بالأفراد والمجتمعات إلى آفاق حضارية إنسانية جديدة.

ومن أجل بناء هذه الثقافة أي ثقافة الانطلاق، يمكن «للتعليم أن يلعب دورا كبيرا في تصحيح الخلل الذي يعانيه نسق القيم الراهن، وإرساء قيم تنموية واتجاهات مجتمعية تساعد المنطقة على مواجهة التحدي الذي أفرزه تصدع القيم المتعلقة بالعمل والإنتاج من تغييب الارتباط بين الحوافز والإنتاج، والجهد والإنتاجية، وتراجع القيم المعنوية والمجتمعية لصالح القيم المادية والفردية والأنانية ولاسيما نمط الإنتاج التفاخري الراهن[٢٣].

إن تغيير الذهنية لا يمكنه أن يكون تحولا شكليا يتم من الخارج، بل هو حالة تغير ذاتي تتم في داخل الجسد الاجتماعي، وهذا يعني أن إحداث التحول في داخل الذهنية لا يمكنه أن يكون تحولا في الثقافة بل هو تحول في داخل الثقافة نفسها. ومن أجل ذلك يجب البحث في الجذور الثقافية عن مفاتيح التغير في الذهنية. إن تغيير الذهنية يعني تنشيط منطق ثقافي مضمر من أجل تعزيز طرق جديدة في التفكير عن طريق القيم والمشاعر.

إن الثقافة التي تقتضيها هذه المرحلة التاريخية هي الثقافة العلمية، ثقافة الانطلاق التي ترتكز إلى العقل والتجربة والحرية والقيم الإنسانية الخلاقة، إنها الثقافة التي تنطوي على قيم الحق والخير والعدالة والجمال، ثقافة الإيمان بقيمة العمل والإبداع والمغامرة، ثقافة الرفض لجميع مظاهر الترف والإسراف والمباهاة والاستهلاك والتملك والتزلف والتصنع والاستكبار والغش والخداع والواسطة والمحسوبية والفساد والمفاخرة والاعتزاز والفزعة والتعصب والانكسار واحتقار المرأة والمتعة، إنها ثقافة المواطنة والإيمان بالوطن، ثقافة العدالة والتضحية والمعرفة والإيمان بالعلم رفضا للخرافات والسحر،

إنهـا باختصار ثقافـة النهضة بـل ثقافة الانطلاق في مواجهة ثقافة الممانعة والجمود والانغلاق.

إن تنمية حقيقية في العالم العربي يجب أن تأخذ اليوم توجهات ثقافية بالدرجة الأولى، لقد حققت هذه الدول انتصارات هائلة في مجال تراكم الثروة والمال، وانعكس ذلك على مختلف مظاهـر الحياة في الصحة والدخل والتعليم والخدمـات، ولم يبق أمام الشعوب العربيـة غير التنميـة الثقافية، وهي تنمية في البشـر والإنسان، وتلك هي التنمية التي تشكل أسّ الحضـارة الحقيقية ومنطلقها، وهذا كلـه لا يتحقق إلا بإرساء قيم العدالة والحق والخير والحريـة والمساواة والإيمان بالقيم الإنسانية الخلاقة جميعها.

فالتنميـة الحقيقية التنميـة الشاملة تحتاج اليـوم إلى تثوير العـادات والتقاليد لتنسجم مـع معطيات التنميـة ومتطلبات الحضارات ودواعي التقدم الإنساني، وهذا يتطلب بالضـرورة رفض منطـق التعصب والتحـزب والمباهـاة والإسـراف والبـذخ والتبذيـر والتبديد واللامبالاة، إذ لا بد من تنمية الإحساس بالمسؤولية والإيمان بالوطن فـوق كل الانتمـاءات، وبنـاء الإنسان على قيـم التسامح والمواطنـة، ورفض الطائفية والعشائرية والانتماءات الصغرى، والإيمان بقيمة العمل اليـدوي والفكري والإنساني، والنظر إلى الكـون بعقلانية راسخة وإيمان عظيـم، وتلك هي صورة عامة لثورة ثقافية تنموية خلاقة تقتلـع أورام التخلف وتطهر الثقافة الوطنية من أعشاب الثقافة المرضية التي تثقل على الحياة والوجود في مجتمعاتنا العربية.

الهوامش

1- Kant , critique de la raison pratique trad. J.Giblin. Paris , 1965.

٢- أحمد أبو زيد، الثقافة: الإنسان والتنمية، بحث منشور على موقع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مهرجان القرين الرابع عشر.

www.kuwaitculture.org/qurain14/word/drahmed_bozed.doc

٣- محمـد عباس نور الدين، التمويه في المجتمع العربي السلطوي، قـراءة نفسية للعلاقة بين الذات والآخر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٢٤. (عن صحيفة الحياة تاريخ ١٩٩٨/٥/١٩، ص٦).

٤- عبد الله عبد الدايم، العرب والعلم بين صدام الثقافات وحوار الثقافات. المستقبل العربي عدد٢٠٣، كانون

الثاني/يناير، ١٩٩٦، صص(٢١-٣٣) ص٣٣.

٥- أحمد مجـدي حجازي، أمية المثقف العربي: الإبداع وأزمة الفكـر السوسيولوجي، المستقبل العربي، عدد ١٥١، أيلول/سبتمبر، ١٩٩١(صص ٩٧-١١٣) ص ١٠٤.

٦- علـي خليفة الكواري، نحو استراتيجية بديلة للتنمية الاجتماعية، مركـز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص٣٣.

٧- عبد الله عبد الدايم، نحو فلسفة تربوية عربية. الفلسفة التربوية ومستقبل الوطن العربي. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١ ؟ ص ٢٥٤.

٨- علي عبد الله خليفة، الـتراث الشعبي والتغيرات الاجتماعية السريعة في الخليج، ضمن محاضرات الموسم الثقافي الثاني ١٩٨٦/٨٥، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٨٦.

٩- Foster George M.. Traditional culture and the impact of technological change، Harper Row publisher ، New York ، ١٩٦٢ ، pp ٢٥-٣١.

١٠- أحمـد خضر أبو هـلال، دراسة أنتربولوجية لدور الجامعات العربيـة في تطوير المجتمع العربي: المؤتمر العـام الثاني لاتحـاد الجامعات العربية: الجامعات العربية والمجتمع العربـي المعاصر ٧-٤ شباط ١٩٧٣، صص(١١٣-١٤١)، ص١٣٣.

١١- أحمـد خضر أبو هـلال، دراسة أنتربولوجية لدور الجامعات العربيـة في تطوير المجتمع العربي: المرجع السابق، ص١٣٣.

١٢- عبد الرحمن حمادي، أزمة الثقافة العربية المعاصرة، المعرفة السورية، السنة ٢٠، حزيران/يوليو، ١٩٨١، (صص ١٩٢-٢٢٥) ص٢٠٣.

١٣- ماهر الشريف، رهانات النهضة في الفكر العربي، دار المدى، دمشق ٢٠٠٠-ص١٤٩

١٤- علي حرب، غزو ثقافي أم فتوحات فكرية الفكر العربي، المرجع السابق، ص٦٤.

١٥- عبد الله النفيسي، الكويت: الرأي الآخر، لندن، ١٩٧٨، ص ١٤.

١٦- عبد الله النفيسي، الكويت: الرأي الآخر، لندن، ١٩٧٨، ص ١٤.

١٧- محمد عابد الجابري، مستقبل الثقافة العربية في ظل العولمة الثقافية، الكلمة، العدد ١٨، السنة ٥، شتاء ١٩٩٨، صص ١٣٧-١٣٨، ص ١٣٨.

١٨- محمد عابد الجابري، مستقبل الثقافة العربية في ظل العولمة الثقافية، المرجع السابق، ص ١٣٨.

١٩- تركي الحمد، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير. دار الساقي، بيروت، ١٩٩٣، ص٨.

20- Watfa Ali, l'interallié sociale dans l'enseignement supérieur français, université de Caen Comparée aux universités françaises, Thčse de doctorat, Université de Caen, Caen. 1988,P51.

٢١- كـريم أبو حـلاوة، دور الثقافة في التنمية البشرية المستدامة، موقع كتـاب من أجل الحرية، الأربعاء، ٢٦ مايو ٢٠١٠ ١٠:١١،

http://iwffo.org/index.php?option=com_content&view=category&layout=blog&id=6&Itemid=7

٢٢- تركي الحمد، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير. دار الساقي، بيروت، ١٩٩٣، ص٧٧.

٢٣- علي خليفـة الكواري، نحو استراتيجية بديلة للتنمية الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٠٠.

الدراسات والبحوث

صراع البروتينات في داء الزهايمر ودوائه

د. ماري شهرستان ❁

هل تشعر بنوبة من التوهان المفاجئ وأنت تتحدث مع الآخرين فتنسى ما هــو الهدف من حديثك..؟ تلتقط سماعة التليفون ثم تتساءل من الذي كنت أرغب في محادثته..؟ تنســى معظم الوقت أين ركنت سيارتك..؟ وتخشى أن تكون على وشك الإصابة بالزهايمر..؟

إن دماغنــا هــو كباقي أعضاء جسدنا يتغير مع تقــدم العمر. وغالبيتنا تلاحــظ بعضاً من بطء في التفكير وبعض الصعوبــات بتذكر الأشياء. لكن

❁ مترجمة وباحثة.

فقدان الذاكرة الشديد والتغيرات الكبيرة في أسلوب التفكير وعمل العقل ليست جزءاً من تقدم السن، بل قد تكون إشارات بأن خلايا المخ مخربة وآخذة بالانحلال كما في الأنماط الأخرى من الاختلال العقلي لكنها في الحقيقة أعراض مرض قائم بحد ذاته ويسمى الزهايمر.

اكتسب هذا المرض تسميته نسبة إلى طبيب العلوم العصبية الألماني الدكتور آلويز الزهايمر.[1]

كان الدكتور الزهايمر يدرس أدمغة الأشخاص المصابين بالاختلال العقلي بوساطة تقنية جديدة في التلوين بالآنيلين مع تشريب بالفضة. وفي عام ١٩٠٧ وصف لأول مرة التغيرات التشريحية التي لاحظها في دماغ مريضة عمرها ٥١ عام وهي أوغست ديتر المصابة بالاختلال العقلي، حيث كانت أيضاً تعاني من اضطراب في التوجه ومعرفة المكان مع هذيان وهلوسة واضطرابات في الرؤية. وبعد معاناة مع المرض لسنوات عديدة، توفيت حيث قام بتشريح دماغها، فوجد أن نسيجه يحتوي على كتل غير طبيعية وعقد غير منتظمة من الخلايا الدماغية تسمى اليوم الصفائح والعقد وتعتبر السمات الأساسية لمرض الزهايمر.

مرض الزهايمر ليس له أي علاقة مع الشيخوخة الطبيعية للدماغ، إنه نوع من الخرف المرضي أو نقص الوظائف العقلية الذي يؤدي إلى تدهور عقلي متزايد لدرجة تتعارض مع العمل الاجتماعي والوظيفي، ويمحي الذاكرة الحديثة ويوقف العمليات الفكرية، كما يخرِّب المحاكمة بشكل يطيح بالاستقلالية الذاتية ويبلبل الحياة العائلية.

الإصابة بالزهايمر مرض معقد ربما تلعب فيه مجموعة متنوعة من العوامل دورا في تطوره منها التقدم في السن. ويعتبر مرض الزهايمر مرضا منتشراً الآن وقد كشفت دراسة أمريكية حديثة أمام مؤتمر الجمعية الأمريكية للزهايمر بواشنطن أن عدد المصابين بمرض الزهايمر المسؤول عن تدمير القدرات الذهنية للكبار، سيتضاعف أربع مرات خلال العقود الأربعة المقبلة ويصيب واحداً من أصل كل ٨٥ شخصاً على مستوى العالم. وهو نادراً ما يصيب الشباب، بل يصاب غالباً بهذا المرض الكبار في السن، الستين في العمر فما فوق، حيث تنتشر الإصابات بين سن٦٥-٧٤ سنة، وذلك بمعدل شخص واحد من بين كل ٢٥، أما من تجاوزوا الـ٨٠ من العمر فإن النسبة تصبح على الأقل شخصاً واحداً في كل خمسة أشخاص، أي حوالي ٢٠٪ للأفراد

الذين تجـاوزوا سن الـ٨٠ عامـاً لكن هذا يعني أن ثلاث أرباع من تجاوز الثمانين ليس لديهم أي عرض من هـذا المرض[٢]، وهذا دليل على أنه مرضـ مستقل استقلالاً تاماً عن الشيخوخة؛ وفي عمر التسعين، حسبما يقول الخـبراء، تصل نسبة الذيـن يعانون مـن أعراض الزهايمر إلى النصف. وتشير الإحصائيات إلى أن النساء أكثر عرضة من الرجال للإصابـة بالزهايمر. وهناك عامل الوراثة، حيـث تقول التقاريـر إن احتمال إصابة الشخص بالزهايمر يكون مرتفعاً في حال كان أحد أقارب الدرجة الأولى مصاباً بالمرض .ورغـم أن الآلية الجينية للزهايمر غـير مفهومة بشكل جيـد حتى الآن، تمكن الباحثـون من تحديد عدد مـن (الطفرات الوراثيـة) التي تزيد من احتمالات الإصابة بالزهايمـر في بعض العائـلات. وعلى ما يبدو فـإن البيئة تلعـب دورا مهما في هذا الأمـر، وعليه يعمل الباحثـون على دراسة العوامل البيئية بهدف التوصل إلى الأسباب المحتملـة التي تكمن وراء تطـور الزهايمر وبالتالي الوقاية منه.

ومرضـ الزهايمر الـذي يتسم بتطوره التدريجـي، هو مرض دماغي يذهب إلى ما بعـد مسألة النسيان. وقـد يبدأ مع فقدان خفيـف في الذاكرة والارتبـاك، ولكنه يقود بالنهايـة إلى إعاقـة عقلية حـادة لا يمكن إصلاحها، تقوم بتدمير قدرة الشخص على التذكـر والتعلم والتخيـل والتفكير. ويعاني معظم مرضى الزهايمر من أعراض مشتركة تشمل:

النسيان المتواصل والمتزايد، حيث يتسم المرض في بدايته بنوبات من نسيان الأحداث القريبـة، والاتجاهـات، ومـن ثـم تتفاقم الظاهرة وغالبا ما يميل المصابون بالزهايمر إلى تكرار الأشياء ونسيان فحوى المناقشات والمواعيد، كما أنهم يضعون الأشياء في غير مكانهـا الصحيح بل يضعونها في أماكن تنم عن الافتقار إلى التفكير المنطقي، إضافة إلى ذلك فإنهم ينسـون الأسماء،ومن ثم أسماء أفراد العائلة وأسماء الأشياء التي يتعاملون معها يوميـا مثل مشط الشعر أو الساعة أو تنظيف الأسنان بالفرشاة. كما يعاني المريض من صعوبـة في التفكير التجريدي، وبالتالي يصعـب عليه في البداية التعامل مع الأرقام وفي فهمها وإدراكها؛ كما يعاني المريض أيضاً من صعوبـة في إيجاد الكلمة الصحيحة، إذ تمثل عملية إيجاد الكلمات المناسبة، تحدياً كبيراً بالنسبة لمرضى الزهايمر، للتعبير عن أفكارهـم، حتى إنه قد لا يتمكن من متابعة محادثة ما الأمر الـذي يقود في النهاية إلى تأثـر القدرة علـى القـراءة والكتابة وربما

يفقد مريض الزهايمر القدرة على إدراك المكان والزمان، وقد يجد نفسه تائها في الأماكن التي كانت مألوفة حتى إنه قد يضل طريق العودة إلى المنزل يضاف إلى ذلك، عدم التمكن من حل المشكلات اليومية إذ لن يتمكن من معرفة ما الذي يجب فعله في حال بدأ الطعام الموجود على النار بالاحتراق على سبيل المثال.

ومن سمات مرض الزهايمر، صعوبة القيام بالأشياء التي تتطلب تخطيطا أو التوصل إلى قرار أو المحاكمة العقلية، كما تظهر تغيرات في الشخصية تشمل تقلبات في المزاج، ما قد يؤدي إلى فقدان الثقة بالآخرين، فضلا عن الميل أكثر إلى العناد والانعزال عن المجتمع. وربما يعود هذا الأمر إلى الشعور بالإحباط الذي ينتاب المريض نتيجة إدراكه للتغيرات اللاإرادية في الذاكرة. وغالبا ما يكون الاكتئاب جنبا إلى جنب مع الزهايمر ومع تفاقم المرض ينزع المرضى إلى التوتر والعدوانية والسلوك غير المناسب. كما يصاب هؤلاء المرضى بعدم القدرة على التركيز أو التواصل مع الآخرين، وعدم القدرة على السيطرة على التبول والتبرز، إضافة إلى أن الصحة والعمل سرعان ما يتدهوران حتى يصبح الشخص عاجزاً تماماً عن عمل أي شي، وهو يؤدي إلى الوفاة بعد عشر سنوات إذا لم يعالج.

لهذا المرض مراحل(٣) ومسارات، وسرعة التغيرات الناجمة عنه تختلف من شخص إلى آخر. فتطور المرض من مرحلة النسيان الخفيف إلى مرحلة الخرف، قد يستغرق عند البعض خمس سنوات، في حين قد يستغرق عند البعض الآخر عقدا أو أكثر من الزمن. ويتطور مرض الزهايمر بشكل عام عبر ثلاث مراحل الخفيفة ثم المتوسطة وأخيراً الحادة.

المرحلة الأولى: وهي المرحلة المبكرة والخفيفة فتمتد من العام الأول إلى العام الثالث من بدء المرض، وهي غالباً ما تأتي دون الانتباه لها، فيتجاهلها الأقرباء والناس وقد يرجعونها لتقدم العمر وخلالها يكون بإمكان المرضى تدبير حياتهم من دون مساعدة، ويلاحظ في هذه المرحلة ظهور بعض الأعراض مثل الصعوبة في التعبير، فقدان ملحوظ في الذاكرة خاصة لفترات معينه مع ضعف طفيف في تذكر الأحداث القديمة، عدم تقدير الوقت، نسيان الأماكن المعروفة أو المألوفة إضافة إلى الاكتئاب أو الغضب، وضعف في أداء المهارات وصعوبة في تعلم المعلومات الجديدة ونوبات من الهياج ثم اللامبالاة.

والمرحلة الثانية: أو ما تسمى بالمرحلة

المتوسطة تمتد من العام الثاني إلى العام الثامن من بدء المرض، وهي عبارة عن فقدان الذاكرة بشكل حاد ولافت للانتباه وعدم تذكر أسماء الأشخاص بسهولة، وعجز المرضى عن القيام بنشاطاتهم بسهوله، حيث يجدون خلالها صعوبة في تدبير أمورهم من دون مراقبة أو رعاية؛ لأنهم يصابون بضعف أشد في تذكر الأحداث القريبة والبعيدة إضافة إلى عدم القدرة على الذهاب في نزهة وإيجاد طريق العودة إلى المنزل.

كما يصاب المرضى بضعف في أداء المهارات وعدم القدرة على الكلام وعلى إجراء العمليات الحسابية البسيطة وعلى أداء الأعمال المركبة التي تستلزم تنسيقاً بين الفكر والحركة كإشعال الموقد، ونوبات من الهياج ثم الهذيان، وبطء النشاط الكهربي في رسم المخ وأخيراً ضمور المخ. وفي هذه المرحلة يزداد المرضى تعلقاً بالآخرين حيث يحتاجون إلى المساعدة للحفاظ على نظافتهم.

أما المرحلة الثالثة: أو المتقدمة فتمتد من العام الثامن إلى الثاني عشر من بدء المرض، يصبح المرضى فيها غير قادرين على رعاية أنفسهم البتة بدءاً من صعوبات في تناول الطعام إلى عدم القدرة على التمييز ومعرفه الأقارب والأشياء المألوفة، كذلك عدم القدرة على الحركة وصعوبات في فهم الأحداث وتفسيرها بالإضافة إلى عدم القدرة على التحكم عند قضاء الحاجة، فهم يصابون بتدهور شديد بالوظائف العقلية، وتيبس بعضلات الأطراف وانحناء الجسم وتفاقم البطء المنتشر في النشاط الكهربي للدماغ وبضمور متزايد مع توسيع بطون الدماغ، ونقص التمثيل الغذائي.

قد لا تؤدي الإصابة بالزهايمر إلى الموت في العديد من الحالات ولكن الوفاة قد تحدث بسبب الأمراض المصاحبة التي قد يصاب بها المريض مثل ذات الرئة أو عدوى ما، فصعوبة ابتلاع الطعام والسوائل قد تؤدي بمريض الزهايمر إلى استنشاق بعض مما يتناوله من طعام وسوائل ودخوله في مجرى التنفس ما يقود إلى الإصابة بذات الرئة؛ كما أن عدم القدرة على ضبط البول والغائط يستوجب تزويد المريض بقسطرة، الأمر الذي يزيد من احتمالات الإصابة بزعزعة النظام البولي. والمعروف أن إهمال هذا النوع من الأمراض، يؤدي إلى مشكلات صحية أكثر خطورة بل ومميتة. قد يفقد مريض الزهايمر القدرة على إدراك الزمان والمكان مما يجعله أكثر عرضة للسقوط ما قد يؤدي إلى الإصابة بالكسور، ناهيك عن

إمكانيــة التعرض للإصابــات الرأسية مثل النزف الدماغي. ولا يوجد في الوقت الحالي علاج شاف بشكل كامل من مرض الزهايمر، ولذلك فإن الرعاية والأدوية المتوفرة حاليا والتي تمثل العلاج الرئيسي لا تستطيع وقف العمليــة التحتية للمرض ولكنهــا تستطيع إبطاءها وتخفيف الأعراض.

مثال عن الأعراض يبــوح به أحد أبناء مريض بالزهايمر فيقــول: يقول لقد دخل الزهايمر بيتي من الشباك وخرجت السعادة من الأبواب.. قال: هل تعرف والدي الرجل صاحب العقل الراجح الذي كان يستشيره الناس في مشاكلهم لكي يحلها لهم، والذي كان يدلي برأيه فنسمــع رأي الحكمة والموعظة، هذا الرجل بدت عليه منذ شهور علامات غريبة مثل النسيان، وعدم إيجاد الكلمات المناسبة ليضعهــا في مكانهــا الصحيــح وتدهورت حالته بسرعــة فأصبح البكاء من دون سبب هو سمته منذ الصبــاح وحتى المساء. وهل تتصــور معنى أن تعيشــ تحت سقف واحد مع إنسان تحبه يبكي ليل نهار ومن دون أي سبب وأحياناً يكرر جملة أنا ما عملت شيئاً أنا ما عملت شيئــاً، وأحياناً يخطر لوالدي أن يقوم ليفتح الباب ويخرج إلى الشارع وإذا أراد أحــد أن يمنعه فإنــه يثور ويعلو صوته ويتشنــج.. إنه يصحو كل يوم من نومه على مزاج مختلف أحيانــاً يشكو من ألم في ظهره وعلى الفور لابد أن تعطيه أي دواء وتمثل له أنك تدلك ظهــره بالمرهم وهو يصرخ ويتألم ويبكــي وعليــك أن تعطيه علبة الــدواء أو المرهم ليحتضنها كابنته ويظل طوال النهار يخفيهــا ثم ينسى أين وضعهــا ويبدأ البكاء حتى تحضرها لــه مرة أخرى وهكذا طوال النهار، ويوماً آخر يصحــو من نومه ليسأل أين نقوده ولابد له أن يذهب إلى البنك رغم أنه لم يعد يفرق بين الجنيه أو القرش ويظل يبكي حتى تعطيه أي نقود.. وأحياناً أخرى يصحــو في منتصف الليل ويتوجه إلى الباب الخارجي لكــي يخرج.. لم يعد يعرف الناس وأحياناً يدعوني وأنــا ابنه: يا بابا. وأحياناً لا يعرف أحفــاده أو أبنــاءه وأحياناً أخرى يطالبنــي ألا أتحرك من جانبــه.. وأحياناً أخرى يظل يكرر المناداة على والده ووالدته (رحمهما الله).

التشخيص التفريقي

الضرورة الملحة حالياً هي الكشف المبكر عن المرض ووضع التشخيص الدقيق للتمكن من التأثير على الإصابة قبل تطورها. فعلى هــذا الصعيد حقق العلمــاء الألمان خطوة كبيرة من خــلال جهاز مسح شعاعي يعينهم في تشخيصــ المرض قبل ظهــور أعراضه. ويستخدم الجهاز هو من النوع الذي يستخدم

الرنين المغناطيسي، حقـلاً مغناطيسياً من قـوة ٣ تيسلا في الكشف عن المرض. ويأمل العلمـاء في تطوير نسخة منـه تعمل بـ٩،٤ تيسلا. وممكن لجهاز بهذه القوة من الحقل المغناطيسي أن يصـوِّر أي تغيير في أنسجة الدماغ يهدد بالتحوّل إلى تراكم زهايمري.

أمـا بالنسبـة إلى وسائـل التشخيص الأخـرى فهي تتـم من خـلال استراتيجية معينـة تسمى «عمليـة الإقصاء» أي بمعنى إقصـاء الأمراض والحـالات الأخرى التي يمكـن أن تسبب فقدان الذاكرة. فالسكتات الدماغية الصغيرة وغير المرصودة على سبيل المثال يمكـن أن تسبب الخرف وذلك بسبب التوقـف المؤقت لوصول الـدم إلى الدماغ. فاضطرابـات الذاكرة لا تنذر دوماً بحدوث الزهايمـر[٤] وذلك وفـق البروفسور جان-جاك هوف[٥] Jean- Jacques Hauw.

والاكتئاب أيضا يمكن أن يسبب هفوات في الذاكـرة. وكذلك، فـإن العديد من كبار السـن يضطـرون إلى تنـاول العديـد من الأدويـة التي يمكن أن تؤثر في قدرتهم على التفكير بشكل طبيعي. وعليه يعتمد الأطباء في تشخيص الزهايمـر بعيداً عن الأسباب الأخـرى لفقـدان الذاكرة والتـي غالبا ما تكون قابلة للعلاج.

غـير أن السؤال يظل مطروحاً للمطالبة بمزيد من الوضوح: هل هناك إشارات منذرة لهذا المرض يمكن الاستعانة بها قبل حصول اضطرابات الذاكرة المزعجة؟

مـن أجل التشخيص يطلب الأطباء ما يلي:

التاريخ العائلي: يحاول الطبيب تشكيل صورة واضحة عن الصحة العامة للمريض والمشـكلات الطبيـة التـي كان يعاني منها في السابـق إن وجدت. ومـن المهم جدا أن يكون الطبيب مطلعا على أية مشكلة يعانيها المريض خلال ممارسـة نشاطاته اليومية. وقد يحتاج الطبيـب إلى الاجتماع بعائلة أو أصدقاء المريض للحصول على أكبر قدر من المعلومات.

كما يتـم إجراء اختبـارات للدم والبول لمساعـدة الطبيب على إقصـاء أي أسباب محتملـة للخـرف. وفي بعض الأحيـان يحتـاج الأمر إلى إجـراء اختبار على كمية صغيرة مـن السائل الشوكـي. ويتم إجراء اختبارات الحالـة العقلية، الهدف منها هو تقييـم مستوى القدرة على التذكر ومهارات الحسـاب واللغـة، وقد يلجـأ الطبيب إلى اختبار الذاكـرة القصيرة والذاكرة البعيدة، فيوجـه أسئلـة للمريض مثـل: متى وقعت الحـرب العالمية الثانية؟ أو مـا هو التاريخ اليوم؟ ويطلب الطبيب صوراً للدماغ، إذ من

الممكن من خلال هذه الصور تحديد ما إذا كانت هنـاك أي أشياء غير طبيعية. وهناك عدة تقنيـات لتصوير الدمـاغ منها المسح الدماغـي المقطعي بالكمبيوتـر والتصوير بالرنين المغناطيسي وتقنية التصوير المقطعي بالبوزيترونات.

كما ظهـرت الآن أهمية تقصي وكشف المرض بقياس مناطق القشرة الدماغية. ومن خلال هذه الأساليب والتقنيات، باستطاعة الأطباء تشخيص الإصابة بدقة تصل نسبتها إلى ٩٠٪. بيد أن تشخيص الزهايمر بشكل قاطـع لا يمكـن أن يتم إلا بإجـراء تشريح للدماغ بعـد الموت، للكشف عـن الصفائح والعقد. وأمـا بالنسبة إلى الاختبار الجيني فلا يزال في المرحلة الأولى من التطوير.

وفي البحث عن أسبـاب وآليات حدوث هـذا المرضـ ينبغي دراسة تكويـن دماغنا ووظائف مكوناته: ففي المخ البشري خلايا عصبيـة تسمـى العصبونـات. وكل خلية عصبية تتصـل مع العديد مـن الأخريات لتشكيل شبكة. ولشبـكات الخلية العصبية وظائـف خاصـة، بعضها تقـوم بالتفكير والتعلم والتذكـر، وبعضها الآخر تساعدنا على النظر والسمـع والشم. وأخريات تأمر عضلاتنا متى تتحرك.

أمـا عـن شـرح التبـدلات المرافقـة للزهايمـر[٦] فوفـق الدكتـور فريديريـك شيكلر[٧] قد تم وصف هذا المرض منذ أكثر مـن مئة عام ولسنـوات طويلة، حيث كانت الإضافات الوحيدة الهامة حول معرفة هذا المرض تتناول الوصف التشريحي للإصابات المخية التي تجتاح دماغ الأشخاص المصابين بتناذر الانحلال العصبي، فسميت بالصفائح الشيخوخية والانحلال العصبي – الليفي.

وتظهر هـذه الصفيحـات الشيخوخية غالبـاً قبـل ظهـور العجز المعـرفي، بينما الانحلال العصبي – الليفي يكون أكثر تأخراً ومترافقاً مـع انحلالات مرضيـة نسيجية متعددة، دون تمايز باتجاه مرض الزهايمر. سمحـت البيولوجيا الخلويـة قبل عشرين عاماً فقط بتحديد ماهية المكونات الرئيسية للصفائح الشيخوخية وهي البيبتيد أميلويد peptide amyloîde وبتحديـد السبـب الرئيس للانحـلالات العصبيـة – الليفية الذي هو البروتيئين تو Tau.

وقـد تمكن باحثـون في المجلس الأعلى للأبحـاث العلمية في إسبانيـا من اكتشاف الآلية التي تؤدي إلى انتشار تدهور الخلايا العصبية في جميع أجزاء المخ عند المصابين بمرضـ الزهايمر. وذكـر المجلس في بيان أصـدره أمس أن الزهايمـر، الذي لم تحدد أسبابه بعد، يتسـم بموت الخلايا العصبية

بعد فترة زمنية طويلة تتضرر من خلالها مختلف بنيات المخ بشكل تدريجي.

وأشار البيان إلى أن أصل المرض يكمن في العقد العصبية القاعدية، وهي مجموعة من نوى المخ الخلفي، تتحكم في قدرة المرء على البدء والتوقف عن الأفكار. وقال العلماء إن الإجهاد التأكسدي المرتبط بالسن يعمل على تقوية دورة خبيثة تؤدي إلى امتداد تدهور الأعصاب بقشرة الدماغ والحُصين. واكتشف الباحثون أن هذا الإجهاد يؤدي إلى تحفيز دورة إنتاج وتراكم بروتينات شاذة تدعى «بيتا – أميلويد bêta-amyloîdes» وهي سلسلة حوامض أمينية في الدماغ تعمل على زيادة الإجهاد التأكسدي في مناطق أخرى بالمخ لتبدأ الدورة من جديد بشكل صفائح بين خلايا الدماغ، تمنع العصبونات وعلى الأخص المختصة بالذاكرة، من أن تتصل بشكل طبيعي فيما بين بعضها بعضاً. أما البروتينات «تو tau» داخل الخلايا، فهي تتراكم على شكل خيوط أو شعيرات تؤدي إلى اختناق العصبونات.

والمعروف أن في الدماغ السليم تقوم العصبونات بتوليد إشارات كهربائية وكيميائية تنتقل من عصبون إلى آخر، الأمر الذي يتيح للشخص التفكير والتذكر والشعور بالأشياء. وتنتقل هذه الإشارات بوساطة مواد كيميائية تسمى النواقل العصبية. ويقول الخبراء إن العصبونات في أدمغة الأشخاص المصابين بالزهايمر، تموت ببطء، ما يؤدي إلى انخفاض كثافة النواقل العصبية، وبالتالي إعاقة انتقال الإشارات في الدماغ.

ويقوم الخبراء أيضا بدراسة الدور الجيني في الإصابة بالمرض حيث يقولون إن وجود جينات معينة معطوبة يرفع من احتمالات إصابة الشخص بالزهايمر. وهناك من يعتقد أن العدوى الفيروسية التي تنمو ببطء وتؤدي إلى التهاب دماغي ربما تكون متورطة في ظهور المرض.[٨]

تجدر الإشارة إلى أنه لو أن البيبتيد آميلوئيد يساهم بحدوث المرض إلا أن هناك عوامل عديدة خارجية يمكنها أن تزيد وتفاقم أو أن تخفف من شدة سميته. والدليل؟: هناك مرضى يحملون التغيير الوراثي الفجائي نفسه يمكن أن يتطور المرض لديهم قبل عقود عديدة نسبة إلى غيرهم. هناك إذاً عوامل بيئية وعوامل وراثية تجعل الأفراد أكثر عرضة لتطوّر المرض.

غير أن كل استراتيجية هادفة إلى تثبيت مستويات البيبتيد آميلوئيد أو إيقاف إنتاجه توفر قوة كامنة في تأخير أو إيقاف ظهور أو تطور المرض. ومن جديد أتاحت البيولوجيا

الخلوية والجزيئية حصول تقدم هام في فهم آليات الداعمة لتشكل البيبتيد أميلوئيد. وكان معلوماً أن البيبتيد أميلوئيد يتشكل انطلاقاً من بروتين أكبر مقطع بخميرة أو من عدة خمائر.

ففي أعوام ١٩٩٥ و١٩٩٩ تم وصف واضح وقطعي للخمائر الضرورية لإنتاج البيبتيد أميلوئيد. ومنذ هذا الاكتشاف، مرت ١٥ سنة بمعية هذه الاكتشافات الأساسية حول بيولوجيا هذه الخمائر التي سمحت بتشكل نماذج حيوانية مخلصة للمرض. غير أن هذه الأعمال لم تؤد بعد إلى «الجزيئات العلاجية» المرجوة والهادفة إلى إيقاف تشكل البيبتيد أميلوئيد عند الإنسان.

التحدي هو في تطوير «أدوية» قادرة على إنقاص نشاط هذه الخمائر ومن دون تأثيرات ثانوية قوية المفعول. البديل هو في تحييد البيبتيد أميلوئيد الذي يتم إنتاجه بكثافة كبيرة أثناء المرض. هناك أيضاً جهود كبيرة تتناول مقاربات ممكنة لاختراع لقاحات ضده. وهناك بحوث عديدة تجري الآن حيث ينبغي أن تصلنا نتائجها في غضون بضعة أشهر.[٩]

آمال العلاج والتحكم بالمرض

لا يوجد حتى اليوم معالجة شافية من مرض الزهايمر. يجتهد الأطباء محاولة في تأخير تطوره والتخفيف من أعراضه والمحافظة قدر الإمكان على قدرات المريض. فالمعالجة تتناول التخفيف من القلق والعدوانية والتهدئة.

تكمن الآمال الرئيسية العلمية في تطوير المناعة وفي إنقاص تراكمات الأميلوئيد المسؤولة عن تشكل الصفائح الشيخوخية في أدمغة المرضى.

كما يتركز البحث الحالي حول الوسائل التي تؤدي إلى إتلاف هذه الصفائح. فمن بين الـ٢٠ جزيء قيد التجربة حالياً في المختبرات ربما تخرج أدوية الغد. كما أن هناك دراسة مع معالجة موجهة ضد هذه الترسبات ستعرف نتائجها في غضون ثلاث سنوات، وتهتم البحوث في إيجاد سبيل للتخلص من شعيرات البروتين «تو- tau» وهدف كل هذه الأدوية المستقبلية سيكون: الحيلولة دون موت العصبونات النفيسة.

ويخطط العلماء الأمريكان من معهد هيلث- بيرد للزهايمر في جامعة فلوريدا[١٠] في الوقت الراهن لإجراء تجربة مرشدة قد تضع علاجاً للزهايمر تحت الاختبار في نهاية هذا العام.

فقد أثبتت اختباراتهم بأن الأشخاص الذين يعانون من التهاب المفاصل عندهم وقاية داخلية ضد مرض الزهايمر قوامها

بروتيني أيضاً بحيث يمكن أن يصبح دواءً جديداً واعداً لأمراض المخ. إن البروتين GM-CSF يلعب دوراً في ضعف استجابة الجهاز المناعي الذي يؤدي إلى الاضطرابات المفصلية. وقد برهنت البحوث والدراسات أن هذا البروتين يستطيع أن يقلب أعراض الزهايمر خلال ٢٠ يوماً فقط.

العلماء الذين دهشوا لهذا الاكتشاف يعتقدون أنه يمكن أن يقود بسرعة إلى دواء جديد عملي للزهايمر الذي هو الشكل الأكثر شيوعاً للاختلال العقلي.

لقد تمّ استعمال البروتين GM-CSF بتركيب مخبري تحت اسم «لوكين-Leukine» لأعوام مضت من أجل تقوية جهاز المناعة لبعض مرضى السرطان. ولأن صيغته آمنة غير مؤذية فهو قد انتشر سريعاً وسوف لن يمضي وقت طويل حتى يصنعوا منه علاجاً للزهايمر. وفق رئيس الباحثين البروفسور هنتيغتن بوتر[١١] «إن دراستنا لهذا الدواء وتدقيقنا في سلامة سجله في الاستعمال، تقترح أن لوكين ينبغي أن يتم اختباره على الإنسان كعلاج محتمل وممكن لمرض الزهايمر».

وحسب مجلة «ايمبو جورنال» العلمية، توصل الطبيب جيرد مولتهاوت إلى مادة تبطل عمل بروتين آميلوئيد- بيتا الذي يسبب موت الخلايا، ونال الاكتشاف براءة الاختراع ويتهيأ العلماء لإنتاجه كعقار ويفترض أن يؤدي البروتين المكتشف إلى تجزئة آميلوئيد- بيتا إلى ببيتيدات Peptides بطريقة غير ضارة بجسم الإنسان.

وتأتي دراسة في أعقاب أخرى حيث وجد الباحثون أن للأنسولين القدرة على إبطاء أو منع فقدان الذاكرة، التي يتسبب بها مرض الزهايمر. كما وجد باحثون من جامعتي «نورثويسترن» في ألينوي و«ريو دي جانيرو» بالبرازيل، أن العقار المستخدم لتنظيم معدلات السكر في الدم، يحمي الخلايا المسؤولة عن تكوين الذاكرة وتدعم الدراسة النظرية القائلة بأن الزهايمر قد يتسبب به نوع من السكري المرتبط بفشل الجسم في إنتاج أو معالجة الأنسولين بفعالية، هو الصنف الثاني من السكري.

كشف الدكتور إيتين- إميل بوليو Etienne-Emile Baulieu من إينسيرم Inserm في فرنسا عن التفاعلية بين اثنين من البروتينات الموجودة في الدماغ الـ«FKBP٥٢» وبين البروتيئين «تو TAU» الذي باضطراباته يتدخل في الآلية للعديد من أمراض الاختلال العقلي ومنها مرض الزهايمر.

إن الشكل والكمية الطبيعية للبروتين

تــو Tau يلعبان دوراً هامــاً في حسن سير وظيفة العصبونات. والبروتين «FKBP٥٢ الغزيــر في الدمــاغ، هو جزء مــن العائلة المناعية immunophyllines»التي هي بروتينات قادرة أن تجتمع وترتبط مع أدوية كابتة للمناعة Immunosuppresseurs مثــل التاكروليموس tacrolimus أو الرابامايسين rapamicyne

بعــد أن أقــام فريــق العلمــاء العلاقة بــين البروتينين برهــن الباحثون في المخابر أن كميــة كبــيرة من البروتــين FKBP٥٢ منعت تراكم البروتــين تو Tau في الخلايا العصبيــة. إذ إن الوظيفة التي تسير بشكل ســيء لهذا البروتــين تكون ضــارة لنشاط النبيبات المجهريــة microtubules التي تنقل العناصر الغذائية إلى العصبونات.

الأمل العلاجي سيكــون ربما باستعمال البروتين FKBP٥٢ لكبــح نشاط البروتين تو Tauالــذي شذ عن طبيعتــه ولحماية النبيبــات المجهرية الــ microtubules الضرورية لحياة العصبونات.[١٢]

هناك دراسة جديدة أخرى قد تؤدي إلى إيقاف تطــور المرض لكن الدواء مازال قيد التجربة والاختبار وهو مبني على ما يسميه الباحثــون «الفرضيــة الاميلوئيدية» فحوى هذه النظرية هو أن الأنزيم غاما- سكريتاز gamma-sécrétase قد يكون وراء نشوء تراكم بروتين المسمى بيتا - أميلوئيد الذي يتحــوّل إلى صفائح في الدماغ ويقتل خلاياه مؤديــاً إلى الزهايمر. فالدواء LY٤٥٠١٣٩ تم تركيبه لكبــح الأنزيم الــذي يثير الآلية الارتكاسية وبذلك يؤدي إلى إبطاء المرض.

وفي ألمانيــا أعلن عن نجــاح تجارب في إمكانية غسيل معين للدم يحرر الدماغ من التراكمات الخبيثة.[١٣]

حقــق العلمــاء في جامعــة كاليفورنيا الأمريكية قفزة مهمة في مجال علاج مرض الزهايمر، فقد تمكن هؤلاء من إيجاد طريقة تمنع الألياف العصبية الضرورية في الدماغ والتــي تنقــل السيالة العصبيــة إلى خارج الخلية العصبية والتي تعرف باسم المحاوير أو الأكسونــات axones من التحطم الذي يعتقــد أنه يسبب أعراض المرض. واستطاع الباحثــون مــن خــلال إجــراء الكثير من الأبحاث والدراسات تطوير طريقة تساعد على إبطاء تحطم هذه الأكسونات أو وقفها بل وحتى تجديد نموها.

ويكمن السر في هذه العملية فيما يعرف بعامل النمــو العصبي فقد حصل الباحثون على أدمغة جديدة شابة في القردة بعد حقن أدمغتها التي تشيــخ بالطريقة نفسها التي تشيخ بها خلايا الدماغ البشري بخلايا جلد

خاصة تم تعديلها بحيث تطلق عامل النمو مما أدى إلى إصلاح العصبونات التالفة ونموها من جديد.[١٤]

ساعدت البحوث في العشرين سنة الأخيرة على التقدم في معرفة كيف يتراكم هذا البروتين وكيف يتم استقلابه métabolisée، ومعرفة الأنزيمات الأخرى المتورطة في هذا الداء[١٥]. حدود المعرفة الحالية تسمح لنا ببناء آمال بأنه من الممكن أن يكون لدينا إمكانية عملية وملموسة لإيقاف هذا المرض.

ولكن... إعطاء الأمل[١٦]... وفق الدكتور جاك توشون[١٧] «بين الاكتشاف المخبري والتجربة الحيوانية مسافة كبيرة. وبين التجربة الحيوانية والاختبار العلاجي على المريض هناك أيضاً خطوة عملاقة..».

عوامل بيئية وطبية متهمة بالزهايمر

ويقوم الخبراء أيضاً بدراسة الدور الجيني في الإصابة بالمرض حيث يقولون إن وجود جينات معينة معطوبة يرفع من احتمالات إصابة الشخص بالزهايمر. وتقول التقارير بشأن العامل الوراثي أن احتمال إصابة الشخص بالزهايمر يكون مرتفعاً في حال كان أحد أقارب الدرجة الأولى مصاباً بالمرض. ورغم أن الآلية الجينية للزهايمر غير مفهومة بشكل جيد حتى الآن، تمكن الباحثون من تحديد عدد من الطفرات الوراثية التي تزيد من احتمالات الإصابة بالزهايمر في بعض العائلات. وهناك من يعتقد أن العدوى الفيروسية التي تنمو ببطء وتؤدي إلى التهاب دماغي ربما تكون متورطة في ظهور المرض[١٨]. ويبدو أن من أهم العوامل في حدوث هذا المرض هي العوامل البيئية التي تلعب دوراً مهماً في هذا الأمر، وعليه يعمل الباحثون على دراسة العوامل البيئية بهدف التوصل إلى الأسباب المحتملة التي تكمن وراء تطور الزهايمر وبالتالي الوقاية منه.

ويعتبر بعض الباحثين أن الزئبق هو من بين العوامل المسببة لهذا المرض. وفي يومنا هذا يطرح الزئبق مسألة بيئية عالمية إذ إن تركيزه المتوسط يزداد عند الأسماك في جميع المحيطات وعند اللبونات في جميع القارات، كما أن توزيعه في المحيطات وفي القارات يختلف من منطقة لأخرى. فوفق دراسة حديثة، يزداد معيار الزئبق في أمريكا الشمالية من الشرق إلى الغرب؛ وهناك ظاهرة تسمى «أمطار الزئبق» هي في الوقت الراهن قيد الدرس في القطب الشمالي «Arctique».

وفي جزء كبير من الولايات المتحدة

تحتوي الأمطار الأقل تلوثاً على كمية من الزئبق تفوق المعيار المقترح من أجل سلامة مياه الشرب.

ويصدر سنوياً عن نشاطات الإنسان في العالم حوالي ٣٥٠٠ طن زئبق، يكون ٥٠ إلى ٧٥ ٪ من هذه الكمية ناتج عن احتراق الفحم.

هناك كميات غير مباشرة وغير محسوبة تصدر عن الأراضي الغنية بالزئبق الناجم عن الممارسات الزراعية وعن إزالة الغابات أو عن الرعي أو السقاية الزائدة، أو عن التقاط الذهب من التراب.

ويصدر سنوياً أيضاً بين ١٤٠٠ إلى ٢٤٠٠ طن زئبق من البراكين ومن ينابيع المياه الحارة المتدفقة بشكل متقطع ومن التبخر الطبيعي والتحرك الجوي أي تنقل طبقات الهواء في الجو.

تتعلق نسبة سمية الزئبق بدرجة أكسدته، ومفعول سمية الزئبق عند الإنسان تتجلى بشكل بخار عن طريق الطرق التنفسية، لينحل في البلاسما، والدم والهيموغلوبين. فعن طريق الدم يصيب الكلى والدماغ والجهاز العصبي. كما هناك مخاطر عند المرأة الحامل: لأن هذا السم ينتقل بسهولة ويخترق المشيمة ليصيب الجنين، وحتى بعد الولادة حيث تستمر خطورته طالما أن حليب الأم ملوث أيضاً.

وقد برهنت الدراسات العديدة على الخروف والقرد والإنسان عن تراكم الزئبق خصوصاً في الكلى والدماغ والكبد أو في نسج الفكين ١٠٪ وهو من أبخرة الزئبق التي تذهب إلى الرئتين حيث يمتص منها ٨٠٪ من الزئبق. ثم يتأكسد هذا الزئبق في الخلايا حيث يتم امتصاصه بشكل أفضل.

وعلى غرار الأشكال العضوية، فإن الزئبق المعدني ينحل في الدهون ويستطيع أن يجتاز الغشاء الخلوي والحاجز الدموي- الدماغي barrière hémato-encephalique وهذا ما يفسر انتشاره في الدماغ وفي المشيمة أو في حليب الأم. يحوِّل النشاط الجرثومي في وسط مائي جزءاً من الزئبق المنحل إلى مونوميتل الزئبق $HgCH_3$ حيث بهذه الصيغة يصبح الزئبق ساماً جداً وشديد التراكم.

على الرغم من كل التقارير البيئية التي تحدد كميات الزئبق التي يتعرض لها الإنسان بدءاً من الهواء الذي يتنفسه إلى المزروعات ومختلف الأطعمة الملوثة به التي يتناولها، يعتبر بعض الباحثين أن بخار- الزئبق الذي يصدر عن حشوات الأملغم السنية هو المصدر الأول لتعرض الشعوب الغربية للزئبق، لأنهم يعتبرون أن الأملغم

يفقد حوالي ٥٠٪ من الزئبق (أي حوالي ٢/١ غرام بالاملغم) خلال عشر سنوات!..

فمادة الأملغم هي مادة مرممة مستخدمة بشكل شائع في مداواة الأسنان في جميع أنحاء العالم (عدا النروج) وهي مكونة كما هو معروف من مادتين، مادة مسحوق ذرات الفضة ومادة الزئبق السائل حيث يتم مزجهما الذي ينتج عنه مادة جديدة تماماً تسمى الأملغم. تبدأ هذه المادة بالتصلب في غضون ربع ساعة ولم يعد للزئبق فيها لا قوامه السائل ولا خواصه السابقة المضرة، ومادة الأملغم amalgame سهلة التطبيق ومقاومة لقوى المضغ الكبيرة وساهمت بشكل كبير في ترسيخ المداواة المحافظة في طب الأسنان. أما عن تسرب الزئبق منفرداً إلى الفم فيعود إلى حوادث فردية جانبية نتيجة عدم التقيد بالكميات الزئبقية بشكل دقيق وعدم احترام النسبة المطلوبة بينها وبين ذرات الفضة.

صحيح أن الزئبق معدن ذو سمية عالية لكن كان له في كل العصور استعمالات عديدة في الصناعة وفي الطب والأدوية. وقد استعمل منذ الألف الثالث قبل الميلاد لالتقاط الذهب والفضة أو المعادن الأخرى بطريقة الأملغم، ثم يتم وضع هذا الأملغم بحرارة قدرها بين ٤٠٠ إلى C ٥٠٠ درجة مما يؤدي إلى تبخر الزئبق، ثم يتم استرجاعه بمرور أبخرته ضمن أنبوب بارد. فإذا كان تبخر الزئبق يستوجب حرارة بهذا القدر من الارتفاع أي ينبغي له أفران خاصة عالية الحرارة فكيف يتم تبخره من فم الإنسان الرطب بحرارة C٣٧؟؟؟ سؤال يقلق الطبيب والمريض على حد سواء.

أما بالنسبة إلى العوامل الأخرى المسببة للزهايمر فقد أثبتت الدراسات أن الضغط المرتفع وتناول الأطعمة عالية الدهون عوامل خطيرة تسبب الإصابة بالمرض؛ بالمقابل فإن سوء التغذية هو عامل مسبب للزهايمر وخاصة نقص الأغذية التي لا تحتوي على فيتامينات b١ وb١٢ والزنك.

لقد أجريت دراستان تثبتان أن المرضى المعرضين لسوء التغذية هم معرضون أكثر من غيرهم للإصابة بأمراض الانحلال العصبي. وقد أثبتت هاتان الدراستان عن دور الفيتامين د Vitamine D الذي تم اكتشافه عام ١٩٣٠ في الوقاية من هذه الأمراض أي مرض باركنسن والزهايمرز. كما له مفعول واقي تجاه الكسور والأمراض القلبية- الوعائية وبعض السرطانات والسكري والانهيار العصبي... هناك مليار شخص في العالم مصاب بنقص هذا الفيتامين.

هناك علاقة بين مستوى الفيتامين د في الدم وبين التراجع المعرفي عند ٨٥٨ إيطالي عمرهم يزيد عن ٦٥ عاماً. فبعد مضي ست سنوات على الدراسة بدا أن الأفراد الذين لديهم نقص حاد في الفيتامين د أي يكون معياره في الدم أقل من ٢٥ نانومول باللتر - nmol/l، معرضين للإصابة أكثر بـ١،٦ من الذين لديهم معيار طبيعي لهذا الفيتامين أي ٧٥nmol/l نانومول باللتر. كما تبين أن المرونة الذهنية قد تأثرت واضطربت عند الأشخاص المصابين بسوء التغذية.

هل على الأطباء أن ينصحوا مرضاهم بتناول الفيتامين د بشكل منتظم في سن ٦٥- ٧٠؟ لكن الباحثين لا يعرفون حتى الآن المعيار الأفضل للفيتامين (د) كي يكون له مفعول واقي للأعصاب، كما لا يحددون المعيار الذي فيه يكون ساماً[١٩]....

هناك أيضاً المعالجة المختبرة باستخدام مضادات الالتهاب غير ستيروئيدية أو الاوستروجين.

ويؤكد الباحثون أن أمراض الهضم وسوء الهضم وخصوصاً عند كبار السن، وتعاطي المشروبات الكحولية وبعض الأدوية التي تستنزف الفيتامينات والمعادن، لأن نقص معادن البورون والبوتاسيوم والسيلينيوم، هي من الأسباب الهامة في تدمير الخلايا العصبية. وكذلك نقص مضادات الأكسدة ويلعب فيتامين «سي» دوراً أساسياً كعامل مضاد للتأكسد يحمي الخلايا العصبية. وكذلك الأغذية التي تحتوي على فيتامين «e» لها دور كبير في تأخر تدهور المرض وظهور الأعراض المتقدمة، ومنها: (القمح الكامل - المكسرات - الخضروات ذات الأوراق الخضراء).

في خلاصة الأمر، أصبح لدى العلماء كم هائل من المعرفة التي تخص هذا المرض، لكن الحل ليس مؤكداً بعد رغم أن الاستقصاء يسير بخطى سريعة لأن المجتمع العلمي والمقررين السياسيين فهموا الأهمية الأساسية والاجتماعية والإنسانية للإحاطة بآفة تهدد الصحة العامة للأجيال القادمة في مجتمعاتنا.

الهوامش

١- تعود أصول الدكتور آلزهايمر (آلويز آلتسهايمر) إلى مدينة ماركتبرايت في بافاريا جنوب ألمانيا. أتمَّ دراساته في الطب في جامعات: توبنغن وبرلين وفورتسبورغ وأخيراً فرانكفورت - ماين، التي قدم أطروحته فيها عام ١٨٨٧ وتمَّ تعيينه طبيب مشفى الأمراض النفسية في هذه المدينة. أسس مدرسة الأمراض العصبية

في ميونيخ ومات بعمر ٥١ سنة اثر اختلاطات كلوية وقلبية من جراء التهاب مفصلي رثيوي حاد.

٢- وفق الأستاذ الدكتور برونو دوبوا Bruno Dubois- مدير معهد مرض الزهايمر في أحد مشافي باريس. لوفيغارو.

٣- الدكتور عبد اللطيف موسى عثمان أستاذ المخ والأعصاب بطب الأزهر.

٤- جان- لوك نوتياس Jean- Luc Nothias صحيفة لوفيغارو ٢٠١٠/٥/١٠.

٥- طبيب الأمراض العصبية وعضو الأكاديمية القومية للطب في فرنسا.

٦- فريديريك شيكلر Frédéric Checler– Le Figaro ٢٠١٠/٦/١٤.

٧- الدكتور فريديريك شيكلر، أخصائي البيولوجيا الخلوية والجزيئية للشيخوخة الدماغية في معهد الصيدلة الجزيئية والخلوية في نيس- فرنسا.

٨- الدكتورة ميشيل ميكا Michelle Micas نائبة رئيس جمعية الزهايمر الفرنسية- تقديم الكاتب الصحفي تريستان فه Tristan Vey- صحيفة لوفيغارو، Journaliste Web;le figaro:fr

٩- فريديريك شيكلر Frédéric Checler– Le Figaro ٢٠١٠/٦/١٤.

10- Health Byrd Alzheimer's Institute at Florida State University

11- Journal of Alzheimer's Disease. – online- Huntington Potter

١٢- موقع البروفسور بوليو Baulieu.

١٣- صحيفة دي فيلت الألمانية- بحب رويترز.

14- http://www.9ll9.com/vb/82948.html

15- Dr Martin Farlow, professeur de neurologie l'Université de Médecine de l'Indiana

١٦- ٢١ أيلول «اليوم العالمي لمرض الزهايمر» منذ عام ١٩٩٣.

17- Jacques Touchon, professeur de neurologie au CHU de Bordeaux et vice-président du conseil scientifique de France Alzheimer.

١٨- الدكتورة ميشيل ميكا Michelle Micas نائبة رئيس جمعية الزهايمر الفرنسية – تقديم الكاتب الصحفي تريستان فه Tristan Vey- صحيفة لوفيغارو، Journaliste Web;le figaro:fr

١٩- البروفسور ماريان إيفات Pr.Marian Evatt من جامعة إيموري Emory في الولايات المتحدة الأمريكية.

المصادر

- صحيفة لوفيغارو le figaro.fr.

- telegraph.co.uk.
- SBS.com.au.
- The Press Association.
- Alzheimer-conseil.fr.
- Health News.com 242010/8/.
- www.rmc.fr/une-lueur.
- TF1News.
- money.ninemsn.com.au
- d-alzheimer.

- شبكة النبأ المعلوماتية ٢٢ آب.

الدراسات والبحوث

المخطوطات العربية المترجمة

د. محمد ياسر زكور

(غاية الغرض في معالجة المرض) نموذجاً

الحكمة ضالة المؤمن، أخذها أينما وجدها، والحضارة العربية الإسلامية بدأت بالترجمة عن اللغات الأخرى؛ اليونانية والهندية والقبطية والسريانية وغيرهـا ...، كما هو معروف، وتأثـرت بها وطورتها وأضافـت إليها الكثير مـن العلوم والاكتشافـات، وامتزجت الحضارات وانصهـرت كلها في بوتقة الحضـارة العربية الإسلامية، فتلتها فترة ظهـور إبداعات العرب في العلوم

باحث في تاريخ العلوم الطبية - سورية.

كافة، والتصانيف الغزيرة التي أمدّت العالم بحضارة هي فريدة عصرها، حتى غدا الكثير من العلماء المنحدرين من جنسيات غير عربية يكتبون ويتعلمون ويعلمون باللغة العربية، هذه اللغة التي أضاءت الكون بإشعاع حضارتها وغزارة مفرداتها في التعبير عن كل ما يكنّه العقل.

وحركة الترجمة التي بدأها ماسرجويه البصري في عصر مروان بن الحكم، والتي بلغت أوجها وازدهرت في عصر المأمون على يد ابن ماسويه وحُنين وهلال الحمصي... وغيرِهم، هذه الترجمات يبدو أنها لم تتوقف على الرغم من غزارة التواليف العربية، وخصوصاً عندما يكون الكتاب مهماً، غزيراً في معلوماته، غني الفائدة.

أما في بداية عصر التباطؤ وشح المؤلفات العربية في ظل الحكم العثماني، وبداية النهضة الأوروبية، فلم تعدم بعض المؤلفات بين حين وآخر، إضافة إلى ترجمة الكتب المهمة عن اللغات الأخرى إلى العربية، كما بدأت الترجمة من اللاتينية أيضاً، بعد أن كانت جل المؤلفات العربية تترجم إلى اللاتينية وغيرها. وكان هناك الكثير من الكتب التي ترجمت من الفارسية إلى العربية، فمثلاً من أوائل هذه الكتب كان كتاب «الذخيرة الخوارزمشاهية» للشريف شرف الدين إسماعيل الجرجاني الخوارزمشاهي (ت٥٣٥هـ/١١٤٠م).

والآن سوف نقدم كتابنا هذا موضوع البحث، والذي كان يحمل عنوان «المنهج» لنجيب الدين محمد بن علي السمرقندي، ثم وضع له عنوان آخر بعد ترجمته إلى العربية باسم «غاية الغرض في معالجة المرض» والذي ترجمه الشريف منصور الحسيني الحسني.

مخطوط

«غاية الغرض في معالجة المرض»

إن المؤلِّف الأساسي لهذا الكتاب هو نجيب الدين السمرقندي، صاحب المؤلفات العديدة باللغة العربية، لم نجد له في كتب التراجم ما يشير إلى أي من المؤلفات بغير اللغة العربية إلا كتابه هذا المسمى «المَنْهَج» والذي هو مؤلف على ما يبدو باللغة الفارسية، لغة أهل سمرقند وخراسان، التي عاش فيها، وهذا الكتاب لم تذكره المصادر التي تحدثت عن السمرقندي، وإنما أخذ اسمه من المخطوط ذاته.

والكتاب لأهميته ترجم إلى العربية من قبل الشريف منصور الحسيني الحسني، الطبيب الذي بدوره لم نجد له ترجمة خاصة في كتب التراجم، وإنما استقينا المعلومات عنه من المخطوط الذي بين أيدينا، والذي قمنا

بتحقيقه أيضاً، والذي تحول فيه العنوان إلى «غاية الغرض في معالجة المرض».

ولا عجب من ذلك، فالكثير من المخطوطات، والكثير من الأعلام ما زلنا نجهلهم، والكثير منهم ليس لدينا معلومات عنهم إلا من خلال مخطوطاتهم التي ألّفوها، وكنت قد قدّمت في ندوات سابقة أعلاماً وكتباً لم نكن نعرفهم لولا دراسة المخطوطات التي ألّفوها، مثل علي بن إبراهيم بن بختيشوع الكفرطابي من خلال كتابه «تشريح العين ومداواة أعلالها»، وجمال الدين محمد ابن إبراهيم المارديني من كتابه «الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية»، واليوم أقدم هذا الكتاب نموذجاً لأحد الكتب المترجمة إلى العربية، والكتاب لم يكن معروفاً لنا من قبل، ومترجمه كذلك.

وبداية سنقدم لمحة عن مؤلف الكتاب الأساسي، ثم مترجمه.

نجيب الدين السَّمَرْقَنْدي[1]

(توفي ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)

هو نجيب الدين أبو حامد محمد بن علي بن عمر السَّمَرْقَنْدي، ذكره ابن أبي أصيبعة بين طبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد العجم، وقال: «إنه طبيب فاضل بارع وله كتب جليلة وتصانيف مشهورة، وقتل مع جملة الناس الذين قتلوا بمدينة هَراة لما دخلها التتر، وكان معاصراً لفخر الدين الرازي بن الخطيب[2]».

عاش نجيب الدين السمرقندي في هَراة؛ وهي من أمهات مدن خراسان، زارها ياقوت الحمَوي سنة ٦٠٧هـ وقال إنه لم يرَ أجمل ولا أعظم منها، هاجمها الكفار من التتر سنة ٦١٨هـ فخربوها. وتوفي السمرقندي شهيداً فيها سنة ٦١٩هـ. ويقول الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام: «النجيب أبو حامد السمرقندي الطبيب، نزيل هَراة...». وهذا يشير إلى أن معظم حياة السمرقندي كانت في هَراة.

مؤلفاته[3]:

ذكر ابن أبي أصيبعة من مؤلفاته بقوله: «ولنجيب الدين السمرقندي من الكتب:

١- كتاب أغذية المرضى وقسمه على حسب ما يحتاج إليه في التغذية لكل واحد من سائر الأمراض.

٢- كتاب الأسباب والعلامات (أو النجيبيات في الطب) جمعه لنفسه ونقله من القانون لأبي علي بن سينا، ومن المعالجات البقراطية لأحمد بن محمد الطبري، ومن كامل الصناعة لعلي بن عباس المجوسي، ويذكر فيه أسباب الأمراض وعلاماتها ومعالجتها، وكيفية استخلاص الدواء من النبات. وللكتاب ثماني عشرة نسخة خطية

في مكتبات العالم، كما أحصاها زهير حميدان في أعلام الحضارة.

٣- كتاب الأقرباذين الكبير.

٤- كتاب الأقرباذين الصغير.

وأضاف على تلك المؤلفات البغدادي في هدية العارفين:

٥- أصول التراكيب في الطب.

٦- الأغذية والأشربة للأصحاء.

٧- رسالة في مداواة وجع المفاصل، وغير ذلك.

وذكر خير الدين الزركلي من مؤلفات السمرقندي، واعتماداً على ما ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي بين مؤلفات نجيب الدين السمرقندي:

٨- وله غاية الغرض في معالجة الأمراض (كذا كتبها بروكلمان)، وأضاف: وهو بالأصل باللغة الفارسية بعنوان «المَنْهَج» ترجمه منصور الحسني، في مكتبة برلين برقم ٦٢٨٨).

وأضاف زهير حميدان في «أعلام الحضارة» على هذه المؤلفات ما ذكره بروكلمان وفهارس المكتبات:

٩- كتاب الباه مما وصفه الفلاسفة والحكماء لساداتها، نقله من اليونانية إلى العربية.

١٠- مقالة في كيفية تركيب طبقات العين.

١١- كتاب في الطب.

١٢- الإرشاد في الطب النافع لجميع الأمراض.

١٣- أطعمة المرضى.

١٤- قوانين تركيب الأدوية القلبية.

١٥- المعاجين والأشربة.

١٦- كتاب الأدوية المفردة المستعملة وذكر خواصها.

١٧- الأدوية المسهلة.

١٨- أبدال الأدوية التي وردت في كتاب الأدوية المفردة.

١٩- متن أدب البحث.

٢٠- نوادر الحكمة.

الشريف منصور الحسيني الحسني

(كان حياً سنة ١٠٨٥هـ)

لم تذكر المصادر أي ترجمة لهذا الطبيب العلم، بل إن المعلومات التي استقيناها عنه هي من مخطوطه «غاية الغرض في معالجة المرض» حيث ذكر اسمه في فاتحة المخطوط بهذا الشكل: الشريف منصور الحسيني الحسني. أما العصر الذي عاش فيه فكان اعتماداً على ما ذكر في نهاية مخطوط نسخة الأزهرية، حيث ذكر فيه أن هذا الكتاب تم تأليفه سنة ١٠٨٥هـ.

عائلة منصور الحسيني:

إن هذه العائلة تتمتع بعراقة في الطب وفي علم الحديث، فمن خلال البحث توصلنا

إلى مصطفى بن منصور الطبيب (ولعله ابن المترجَم)، ومنصور بن مصطفى بن منصور المحدث (ولعلـه حفيد المترجَم)، وسنورد ما وجدنا من قرائن، وهي لشمول البحث وليس لتأكيد النسب: [٤]

أولاً: مصطفى بن منصور الطبيب

(١١١٥- بعـد ١١٤٥هـ/١٧٠٣- بعد ١٧٣٢م) لم يترجمـه إلا الشيخ راغب الطباخ في «إعلام النبلاء» بقوله:

ومصطفـى بـن منصـور الطبيب كان حاذقاً مصيبـاً ذكياً جداً، قـرأ على العالم الفاضل الشيخ قاسم البَكْرَجي[٥] وعلى العالم الكامل علـي الميقاتي[٦]، **وقرأ علـى والده فريد عصره علـم الطب**، وألّف «رسالة في علم النبض». خرج مصطفى بن منصور من الشهباء سنـة ١١٤٥هـ وهو في الثلاثين من العمر، ودخل دار الخلافة في إستانبول،.... وله رحلة ذكر فيهـا من لقي في طريقه من الأفاضـل والأدبـاء، ولم يلبـث إلا قليلاً في إستانبول حتى انتقل إلى رحمة الله مطعوناً، فرحمه الله تعالى.

فلا يستبعد إذاً أن يكون هو ابن الطبيب الشريف منصور الحسيني الحسني، فالاسم والفترة الزمنية مطابقة، والله أعلم.

ثانيـاً: منصـور بـن مصطفـى بـن منصور بـن صالح زين الدين، السرميني الحسينـي الحسنـي الحلبـي[٧]، الخلوتي النقشبندي المحدّث، الذي ولد بسرمين سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٣م، ثم ارتحل بين حماة ومصر وحلب ودمشق، وهو صاحب «كشف الستور المسدلة عن أوجه أسرار البسملة»، و«كشف اللثام والستور عن مخدرات أرباب الصدور»، وتوفي سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م ودفن بمدرسته التي بناها في حلب بمحلة الفرافرة.

كذلـك هنا الاسـم والفـترة الزمنية لا تتعارض أن يكون هـو حفيد المترجَم، والله أعلم.

ثالثـاً: ذكـر أمين المحبـي في خلاصة الأثر، وفي نفحة الريحانة، في ترجمة والده فضل الله المحبي (١٠٣١- ١٠٨٢هـ/١٦٢١- ١٦٧١م).[٨]

ففي «خلاصـة الأثر» يقول: ومن رسالة له أرسلها إلى منصور الطبيب العيسوي، أما في «الريحانـة» فيقول: وله رسالة كتبها إلى منصور الطبيب الغزواني[٩]، يشكو إليه علة لزمته وبرداً وقـع في ذلك العام خارجاً عن معتاد أهل الشام:

أنـا أصـبحتُ لا أطيـق حـراكـاً
كيـف أصـبحتَ أنـتَ يـا منـصورُ

قد طالت العلـة، وطابت العزلة، فليس في الحركة هـذا الآن بركة، والانقطاع أربح متاع، والاجتماع جالب الصداع.....

ولعل هنا أيضاً يكون المترجم منصور الحسيني من معاصري فضل الله المحبي، وأن المقصود في الرسالة هو ذاته، فالاسم والفترة الزمنية متوافقة أيضاً، والله أعلم.

النتيجة: للمحقق في حال كهذه أن يأخذ بظاهر ما في النسخة الخطية، ويهمل سائر الأقوال والقرائن فلا يدخلها في الاعتبار، ويتحفظ في ذكرها لشمول البحث فحسب. فإذا فعلنا كان مصدر ترجمة الشريف منصور الحسيني الأصيل هو المخطوطة عينَها.

حياته: نستنتج من المخطوط أن حياة الطبيب منصور الحسيني كانت أكثرها في مصر، حيث تكرر في المخطوط ذكر القاهرة أو ما يدل على أنه كان يعيش فيها حين ترجمته للمخطوط، فمن ذلك قوله:

- في فاتحة الكتاب وفي نسخة دار الكتب (١٣٢) بالقاهرة يقول فيها بأن ترجمة هذا الكتاب كانت بأمر من: الأمير مجد الدين القاهرة، الذي لم نتوصل إلى شخصه بالتأكيد أيضاً.

- في الباب التاسع والثلاثين يذكر نوعاً من الجبن يقول عنه: (المسمى في هذه البلاد بمش...) وهي كلمة مصرية.

- استخدم كثيراً كلمة السنانير، وهي تطلق في مصر على الأملج، ينظر الباب الخامس.

- استخدم كلمة «الماجور» وهي كلمة محلية مستخدمة في صعيد مصر، بمعنى «وعاء» أو «قدر». في الباب التاسع والعشرين.

نسبة المخطوط إلى مؤلفه

إن عنوان المخطوط ذكر في ثلاث نسخ خطية وهي نسخة برلين، ونسخة مكتبة الإسكندرية، ونسخة الأزهرية، وكان العنوان فيها «**غاية الغرض في معالجة المرض**» للشريف منصور الحسيني الحسني، أما النسختان في دار الكتب بالقاهرة فلم يذكر فيهما عنوان «غاية الغرض...» بل بقيتا على عنوان الكتاب الأساسي قبل ترجمته باسم «المنهج» لنجيب الدين، ولكن المحتوى ذاته.

إن ما يرجح كون الشريف منصور الحسيني قد عاش في نهاية القرن الحادي عشر الهجري عدة أمور منها:

- إن النسخ التي بين أيدينا هي مؤرخة بعد هذا التاريخ وهي؛ نسخة الإسكندرية المؤرخة سنة ١٢٠٣هـ، ونسخة دار الكتب بالقاهرة ١٣٢ نسخت سنة ١٢٤٨هـ، نسخة دار الكتب ١٣٩٧ لا يوجد فيها تاريخ النسخ ولكن يتبعها نسخة من كتاب (مغني اللبيب

حيث لا يوجد طبيب) لإبراهيم الأزرقي وهي منسوخة سنة ١١٨٠هـ، ونسخة مكتبة برلين مؤرخة سنة ١٢٠٩هـ. والأهم من ذلك كله نسخة المكتبة الأزهرية كما ذكرنا أكدت تاريخ تأليف الكتاب سنة ١٠٨٥هـ.

- إن المؤلف أضاف الكثير من المعالجات على المخطوط الأساسي الذي ترجم عنه، وهذا طبيعي لأن المؤلف الذي ترجم هو طبيب وأَمَرَه الأمير مجد الدين (الذي لم نتوصل إلى ترجمة له) في القاهرة لترجمة هذا الكتاب، فترجمه وشرحه وأوضح خفاياه كما قال في المقدمة، ونحن لاحظنا أنه أضاف الكثير من خبرته فيه، وهذا كان واضحاً من خلال قوله في العديد من المواضع: وقد جربنا ذلك.... وهذا ما جربناه....

وأهم تلك الإضافات والتي ثبتت في كل النسخ هو ما جاء في الباب الثامن والخمسين؛ **دهن لحب الإفرنجي**، ونحن نعلم أن الحب الإفرنجي لم يكن معروفاً قبل عهد داود الأنطاكي (توفي ١٠٠٨هـ) الذي ذكره لأول مرة في كتابه «نزهة الأذهان في إصلاح الأبدان» ثم في «النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة» وأخيراً في تذكرته «تذكرة داود»، وهذا ما يرجح أن مؤلف «غاية الغرض...» كان بعد الأنطاكي.

- لقد نسب المخطوط خطأً في بعض المراجع إلى غير مؤلفه، يستحسن أن نذكرها:

- جاء في إيضاح المكنون للبغدادي ج٢ ص٩٩؛ غاية الغرض في معالجة المرض للشريف منصور بن أحمد الحسيني الحسني صاحب «عمدة المتطببين» أولها الحمد لله الذي إذا مرضت فهو يشفين... إلخ. في مجلد. وذكر في الكتاب ذاته (ج٢ ص٨٧) عمدة المتطببين في فن الصيدلة المعروف بالأقرباذين تأليف منصور بن أحمد المصري الحسيني المتوفى سنة.... أولها الحمد لله مدبر الكائنات... إلخ في مجلد مطبوع.[١٠]

أما منصور بن أحمد هذا فكان حياً سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م، وهو كيماوي صيدلي من أهل مصر، درّس بالمدرسة الطبية ومدرسة الهندسة، من آثاره: عمدة المتطببين في فن الصيدلة المعروف بالأقرباذين طبعت ببولاق سنة ١٢٨٣هـ في حياة المؤلف في مجلدين، وله اللآلئ السنية في الفوائد الكيماوية، وغاية الغرض في معالجة المرض. كذا ذكره كحالة في معجم المؤلفين، وحميدان في أعلام الحضارة، اعتماداً على ما جاء في فهرس البلدية بالإسكندرية والله أعلم.[١١]

بالطبع يستبعد أن يكون كتاب غاية الغرض لهذا المؤلف لأن أكثر النسخ مؤرخة

قبلـه؛ فمثـلاً نسخـة مكتبـة الإسكندرية مؤرخة سنة ١٢٠٣هـ وناسخها عبد الرحيم القفاوي. والأهم مـن ذلك أيضاً كما ذكرنا أن تأليف الكتاب كان سنة ١٠٨٥هـ كما ثبت في نسخة الأزهريـة. كما ويستبعد أن يكون منصور هذا في العصر الحديث ويضع كتاباً يتحدث عن صناعة الجوارش وما أشبهه من مركبات الطب القديم.

هناك أيضاً الشريف منصور (توفي سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م): منصور بـن ناصر بن محمد الحسني التهامـي أمير صَبيا وكانت تابعة لأبي عريش، وفي أيامه استولى آل سعود علـى صَبيا فرحل إلى الشمال سنة ١٢٣٠هـ مغاضباً عمه ودخل في طاعة الأتراك بمكة وعـاد مع جيشـ منهم لقتال عمـه فانهزم الأتراك وقتل الشريف منصور.[١٢]

ونستبعد أن يكـون هذا أيضاً له علاقة بالكتـاب، للأسباب السابقة الذكر وهي أنه هناك نسخ خطية للكتاب قبل هذا التاريخ، والأهـم طبعـاً أن تأليف الكتـاب كان سنة ١٠٨٥هـ، والسبب الآخر أن الشريف منصور هذا لا علاقة له بالطب. وإنما ذكرناه هنا لأن نسخة دار الكتب ١٣٢ المؤرخة ١٢٤٨هـ جاء في مقدمتها: «... يقول العبد الضعيف.... شريف بن ناصر الحسني الحسيني...» وهو خطأ من الناسخ والله أعلم.

النسخ الخطية لكتاب غاية الغرض في معالجة المرض

إن النسـخ الخطية لهـذا الكتاب التي استطعنا أن نتوصـل إليها والحصول عليها كانت خمس نسخ:

١- نسخـة مكتبـة الإسكندريـة، برقم ٤٧٧٥، (٣٦ ورقة). غاية الغرض في معالجة المرض، النسخـة مؤرخة سنة ١٢٠٣هـ على يد عبد الرحيم حمد طايع القفاوي.

٢- نسخـة دار الكتـب بالقاهرة برقم ١٣٩٧ طـب، مصـورة علـى شريط بمعهد التراث بحلب تحت رقم (١٠٥٠)، (٢٦ ورقة) بعنـوان «غاية الغرض في معالجة المرض» ذكـرت في فهرس الخديويـة[١٣]. يحتمل نسخـت سنـة ١١٨٠هـ، وقـد نوهنا لذلك سابقاً. وهـي مفهرسة باسم «المنهج» للشيخ نجيب الدين ونقله للعربية الشريف منصور الحسيني الحسني.

٣- نسخة أخرى برقم ١٣٢طب- ف٤٤٠، مصـورة على شريط بمعهـد التراث بحلب تحـت رقـم (١٠٥١)، (٥١ ورقـة)، مؤرخة سنة ١٢٤٨هـ على يد صاحب الكتاب، ولعله مالك الكتاب.

٤- نسخة مكتبة برلين برقم ٦٢٨٨، (٥٠ ورقة)، كتاب غاية الغرض في معالجة المرض لمنصور الحسينـي السيد الشريف، النسخة

مؤرخة سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م، الناسخ محمد بن الشيخ مصطفى الكفتاني.[١٤]

٥- نسخة المكتبة الأزهرية برقم (٣١٨ مجاميع) ١٠٢٩٥، (٢٤ ورقة)، بعنوان «كتاب غاية الغرض في معالجة المرض وما يتعلق بالبدن من الأمراض» تأليف الشيخ منصور الحسيني الحسني، من ورقة ١-٢٦، وفي نهايتها ذكر تاريخ تأليف الكتاب سنة ١٠٨٥هـ.[١٥]

يحتوي المجموع أيضاً على عدة مخطوطات منها: «الوقف والابتداء» لم يعرف مؤلفها، برقم (٣١٨ مجاميع) ١٠٢٩٥، من ورقة ٨٨-٩٤. و«ذخر المتأهلين والنساء في تعريف الأطهار والدماء» لزين الدين محمد بن بير علي، وهذا المخطوط ضمن هذه المجموعة التي كتب بعضها سنة ١٢٧٨هـ، برقم (٣١٨ مجاميع) ١٠٢٩٥، من ورقة ٦٩-٧٧. وفي المجموع أيضاً مخطوط «حاشية حجازي»- وهو العلاّمة حجازي بن عبد المطلب العدوي المالكي من علماء القرن الثالث عشر الهجري- على شرح الدردير على رسالته (تحفة الإخوان)، أولها: نحمدك يا من تعالى عن التشبيه والتمثيل...إلخ، نسخة ضمن مجموعة في مجلد بقلم معتاد، سنة ١٢٧٨هـ مسطرتها ٢٥ سطراً (من ورقة ٤٧-٦٨) -٢٤ سم.[١٦]

توصيف الكتاب

الكتاب كما ذكرنا عنوانه بالأصل «المنهج» لنجيب الدين السمرقندي، ترجم من قبل الشريف منصور الحسيني تحت عنوان «غاية الغرض في معالجة المرض»، وكانت ترجمته بناء على طلب الأمير مجد الدين في القاهرة.

يبدأ الكتاب بالفاتحة، بعد البسملة والحمد، والتي يقول فيها:

«... أما بعد فيقول العبد الضعيف... الشريف منصور الحسيني الحسني: لمّا كانت طاعة أولي الأمر واجبة... وأمرني الأمير المطاع... مولانا الأمير مجد الدين... بتعريب كتاب في الطب بلسان أعجمي، المسمى «بالمنهج»، أن أترجم عنه بكلام عربي غير ذي عوج، فأطعته».

ثم يتابع منصور الحسيني في الفاتحة قوله مبيناً ما قام بعمله في هذا الكتاب؛ فهو لم يترجمه فحسب بل شرح ما فيه، وأوضح الغامض منه بقوله:

«وشرعت فيه مريداً أن أشرح ما فيه، وإن قصر الجهد عما يوافيه، وأكشف عن وجوه المخدورات نقابها، وأبرز ما اختفي من الأسرار وأذلل صعابها، لتظهر خباياه، وتشهر خفاياه، فيهتدي إليه كل هاد...».

ثم يتحدث الحسيني عن شرف الطب والمؤلفات التي صنفت فيه، ويقول:

«وفيه مصنفات كثيرة ومؤلفات عديدة غزيرة، ومن جملة ما صنف فيه كتاب «المنهج» للشيخ الإمام... نجيب الدين، تغمده الله بغفرانه...».

وفي نهاية الفاتحة يصف السرميني هذا الكتاب بقوله:

«... وهو كتاب مبوب بحسب **الأمراض والأغراض** والأدوية التي تناسبه، وجعله عدة أبواب، فمنها...».

وهنا نلحظ أنه اختار من هذه الأبواب إحدى وستين باباً، ثم أتبعها بخاتمة تضم أقوال بعض القدماء أمثال سقراط، والشريف إسماعيل الجرجاني الخوارزمشاهي، والرازي.

ينقسم الكتاب إلى قسمين؛ الأول يضم ٤٧ باباً في معالجة أمراض الجسم كلها مبتدئاً بأمراض الرأس ثم العين والأذن... إلخ، حيث يذكر اسم المرض فقط والعلاج المناسب له، دون ذكر أسبابه أو أعراضه أو علاماته، وهو ما يشبه الكتب التي تدعى حاليا «بدليل المعالج». والقسم الثاني: من الباب الثامن والأربعين حتى الحادي والستين يتحدث فيه عن الأدوية المركبة: الترياقات والبادزهرات، والمعاجين، والأقراص... إلخ، وينهي بخاتمة فيها أقوال بعض المتقدمين كما ذكرنا.

أهمية الكتاب العلمية والتاريخية

أولاً- ترجم الكتاب من الفارسية إلى العربية بعد فترة زمنية طويلة بين تأليفه وترجمته التي تمتد إلى حوالي خمسمئة عام، فهذه القفزة الزمنية الطويلة تثير تساؤلات كثيرة؟؟

ثانياً- لقد ترجم الكتاب بأمر من أحد الأمراء، الأمير مجد الدين، الذي لم نتوصل إلى ترجمته، وهذا ما يزيد في أهمية الكتاب والاهتمام به.

ثالثاً- لعل كتاب «المنهج» هو الوحيد الذي كان بلغة غير العربية لنجيب الدين السمرقندي، والذي يعتبر من مشاهير الأطباء في عهد الحضارة العربية الإسلامية.

رابعاً- إن مخطوط «غاية الغرض..» أظهر لنا علماً من أعلام الطب العربي كنا نجهله، كغيره من الكثيرين الذين ما زالوا مجهولين من قبلنا، وهو الشريف منصور الحسيني.

خامساً- يبدو لنا من خلال المخطوط أن منصور الحسيني كان من الأطباء المشهورين في عصره، فلقد أضاف إلى الكتاب الكثير من خبراته الطبية والكثير من الأدوية المركبة، سوف نستعرض بعضها لاحقاً.

سادساً- غناه بالمعلومات الطبية والأدوية المركبة الفريدة، والتي سوف نذكر بعضها لاحقاً.

سابعاً- ولأهمية الكتاب فلقد كان له عدة نسخ خطية موزعة في المكتبات العربية والأجنبية، أحصينا خمساً منها.

مقتطفات من الكتاب

- التفريق بين الإسهال الحقيقي، وبين الإسهال الكاذب، حيث يقول في الباب الستين، في الحديث عن أحد الأدوية المقبضة للإسهال: «... ولكن لا يستعمل إلا لثلاثة أيام تمضي من الإسهال، حتى يعرف أن الإسهال صادق أو كاذب، وطريقة معرفته أن يسقى المستسهل بزر قَطُونا بالماء البارد، فإن خرج من الدبر مع الإسهال، يكون الإسهال صادقاً، وجب قطعه، وإن لم يخرج البزر قطونا، يكون الإسهال كاذباً، فلا يجوز قبضه، فإنه يورث الحمى أو مرضاً يكون أكبر ضرراً من الإسهال».

- معالجة الجروح باللصقات أو بالفتيلة حسب نوع الجرح، فيقول في الباب الحادي والستين في الحديث عن مرهم للجراحات الخبيثة: «... يستعمل في وقت الضرورة فتيلة واحدة على قدر الجراحات؛ إن كانت غائرة بطريقة الفتيلة، وإن كانت ظاهرة بطريقة اللصقة...».

- طريقة معالجة ضعف الشم بالرذاذ الأنفي، حيث يقول في الباب الرابع: «... أو يؤخذ من الحبة السوداء كل يوم مقدار درهم، تدق وتنخل، وتنفخ على الخشم (الخيشوم وهو أقصى الأنف) في قصبة».

- كان المؤلف يستند في الكثير من الأحيان على حجج من السنة النبوية في الكتاب، منها ما جاء في الباب الخامس والثلاثين، في الحديث عن مرض عرق النَّسا بقوله: «... والنَّسا في اللغة العرق نفسه، وفي الاصطلاح هذا المجموع اسم لذلك المرض الذي ذكرته، وصححه الحديث، وهو ما روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: شفاء عرق النَّسا في ألية شاة أعرابية، تذاب ثم تجزأ...». وفي الباب السابع عشر وفي الحديث عن مرض الاستسقاء يقول في معالجته بلبن الإبل وبولها: «... كما ورد في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن أناساً من عُرَيْنة قدموا المدينة فاجتووها[١٧]، فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم في إبل الصدقة، وقال اشربوا من ألبانها وأبوالها».

- جاء في الكتاب الكثير من الأدوية المركبة، ولعل منها لم يذكر في غيره من الكتب، منها: حب النبات، دهن الثوم والبصل،

المرهم الكافوري، جوارش المصطكي... وغيرها.

- ومن المعالجات النادرة التي وجدت في الكتاب مثلاً: معالجة اليرقان بالحيتان، حيث يقول في الباب السادس عشر: «... أو يأخذ حيتاناً صغاراً ثلاثة، ويبلعها بلا طبخ، والله أعلم». وكذلك أيضاً معالجة القوباء (وهي الحزاز حالياً) بوسخ الأسنان، حيث يقول في الباب الثامن والثلاثين: «يؤخذ على الريق من وسخ الأسنان ويمسح بها الموضع».

- كان الحسيني يستخدم الكثير من المعالجات التي وجدها في هذا الكتاب، فجربها على المرضى، حيث تكرر في الكتاب عبارات: «أنا بحمد الله وتوفيقه أعالج أكثر الأمراض بذلك المعجون... والذي جربته مراراً متعددة... ولقد جربته تجربة تامة... وهذه العلاجات جربناها مراراً... وقد جربناه غير مرة...».

- من الإضافات التي وضعها الحسيني على الكتاب مثلاً ما جاء في الباب الخامس قوله في تركيب الإطريفل: «... وجعل له صفة أخرى في منهاج الدكان غير هذه، ونصه...». ومعلوم أن منهاج الدكان صنفه ابن أبي نصر سنة ٦٥٨هـ أي بعد وفاة نجيب الدين السمرقندي.

- ومن الإضافات المهمة أيضاً لمنصور الحسيني ما جاء في الباب الثامن والخمسين، وهو دهن **للحب الإفرنجي**، والداء الإفرنجي لم يكن معروفاً في عهد نجيب الدين السمرقندي، بل أول من ذكره داود الأنطاكي (توفي ١٠٠٨هـ)، وهذا مما يزيد احتمال كون الحسيني كان من أهل القرن الحادي عشر الهجري، وهو يقول في هذا الموضع: «وهذه العلاجات جربناها مراراً فما تخلفت قط، ولبسنا عليها خلعاً كثيرة من السلاطين والأمراء، ولا فخر».

خاتمة

إن تمازج الحضارات كان وما زال عمدة الارتقاء بالبشرية إلى ما هو أفضل، والتأثير والتأثر فيما بينها يبقى موئل كل باحث وكل عالم في المعمورة، ما دام الهدف والغاية دائماً هو الإنسان وسلامته وتأمين أفضل حياة أمينة له. وقد سبقنا أجدادنا الأعلام في توطيد تلك العلاقة السامية ما بين العلماء، وللأسف فما نزال نجهل الكثير من هؤلاء الأعلام ومخطوطاتهم، لذا يترتب علينا أن نبحث في مخزون المخطوطات العربية دائماً، لأن فيها الكثير الكثير مما لم يكتشف بعد، ولا يمكننا معرفته من خلال ما تحدث عنه المؤرخون فقط، بل يجب علينا أن نتوجه إلى هذا المخزون الحضاري الزاخر، لأن فيه

غايتنا ومبتغانا مما قد نجهله، ولانتوصل إليه إلا من خلال دراسة المخطوطات المتناثرة هنا وهناك في بقاع الأرض، والله الموفق.

الهوامش

١- أخذت ترجمته عن المصادر والمراجع التالية: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص٤٧٢. الصفدي، الوافي بالوفيات ج٤ ص١٨٤. الحموي، معجم البلدان ج٥ ص٣٩٦. الذهبي، تاريخ الإسلام وفيات ٦١١-٦٢٠هـ ص٤٢٥. البغدادي، هدية العارفين ج٢، ص٨٨. الزركلي، الأعلام ج٦، ص٢٨٠. كحالة، معجم المؤلفين ج٣ ص٥٢٤. حميدان، أعلام الحضارة ج٤ ص٢٦٦.

٢- هو الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن العمر بن الحسين الرازي، ويدعى بابن خطيب الري (٥٤٤-٦٠٦هـ). ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص ٤٦٢. حميدان، أعلام الحضارة ج٤ ص٢٧٨. الزركلي، الأعلام، ج٦ ص٣١٣.

٣- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص٤٧٢. البغدادي، هدية العارفين ج٢ ص٨٨. الزركلي، الأعلام، ج٦ ص٢٨٠. Brockelman ١: ٦٤٦. أعيان الشيعة، جلد ١٠. حميدان، أعلام الحضارة، ج٤، ص٢٦٧.

٤- الطباخ: إعلام النبلاء ج ٦ص ٤٥٠، ج٧، ص١٣٨. الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٣٠٤. كحالة: معجم المؤلفين، ج٣، ص٩٢٠. البغدادي: هدية العارفين ج ٢، ص٣٦٩. المحبي: خلاصة الأثر ج٣، ص٢٨٥. المحبي: نفحة الريحانة ج ٢ ص ٢١٣. المرادي: سلك الدرر ج ٣، ص١٩٤. مردم بك: أعيان القرن الثالث عشر ص ٣٣، وفيه ولادة منصور السرميني سنة ١١٣٤هـ. كيالي: تاريخ الطب في حلب ص١٣٤ وما بعد.

٥- قاسم البكرجي (١٠٩٤-١١٦٩ هـ) (١٦٨٣- ١٧٥٦ م)

قاسم بن محمد الحلبي، الحنفي، عالم أديب ولد بحلب. من آثاره: العيون الغمزية والإرشادات الرمزية على القصيدة الهمزية للبوصيري، الفوائد البكرجية على القصيدة الخزرجية في العروض، حلية البديع في مدح النبي الشفيع والمطلع البدري على بديعية البكري. (الزركي: الأعلام ج٥ ص ١٨٣).

٦- علي الميقاتي (١١٠٤- ١١٧٤هـ/ ١٦٩٢- ١٧٦٠م)، علي بن مصطفى الدباغ، المعروف بالميقاتي: فاضل من أهل حلب، له «شرح البخاري» و«حاشية على شرح الدلائل للفاسي» وله نظم ونثر. (المرادي: سلك الدرر ج٣ ص٢٤٨-٢٦٠. الزركلي: الأعلام ج٥ ص٢٢).

٧- الطباخ، إعلام النبلاء، ج٧ ص١٣٨، ١٤٠. المرادي، سلك الدرر ص٣٣. البغدادي، هدية العارفين ج٢، ص٣٦٩ وفيه اسمه السيد منصور بن عبد الله السرميني.

٨- المحبي: خلاصة الأثر ج٣ ص٢٨٥. المحبي: نفحة الريحانة ج٢، ص٢١٣.

٩- حاشية في نفحة الريحانة تقول: الغزواني: في نسخة القرواني، وجاء اسمه في خلاصة الأثر (منصور العيسوي) ولم يترجم فيها.

١٠- البغدادي، إيضاح المكنون (ج٢ ص٨٧، ٩٩).

١١- كحالة، معجم المؤلفين، ج٣، ص٩١٢. حميدان، أعلام الحضارة ج٦ ص٣٠٤.

١٢- الزركي، الأعلام، ج٧، ص٣٠٥.

١٣- فهرس الكتبخانة الخديوية ج٦ ص٢٥. الطهراني، الذريعة، ج١٦ ص ١٤ رقم ٥٤.

14- Ahlwardt catalogue p: 552.

١٥- فهرس المكتبة الأزهرية، ج٦، ص١٢٤.

١٦- فهرس المكتبة الأزهرية ج١، ص١٣٥، ج٣ ص٢٦، ج٤، ص٣٦٥.

١٧- أي اجتووا المدينة: كرهوا المقام فيها لسقم أصابهم من الجوى؛ وهو داء في الجوف، (ينظر الطب النبوي لابن قيم الجوزية ص ١٥٢، وينظر قاموس الأطبا للقوصوني ج٢ ص ٢٢٢).

المصادر والمراجع

- ابـن أبـي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بـن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٦٥م.
- ابن أبي نصر، أبو المنى العطار الإسرائيلي الهاروني، منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعـة للأبدان، طبع سنـة ١٢٨٧هـ في عهد الخديوي إسماعيل، على ذمـة الشيخ حسن زغلة، بمطبعة حسين بك حسني.
- الأمين، حسن، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات- بيروت ١٩٨٦م.
- حاجـي خليفـة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفـي الشهير بالملا كاتب الحلبي والمعروف بحاجـي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنـون، ٦ مجلدات، دار الفكر، بيروت- لبنان ١٩٩٢م. المجلدان الثالث والرابع هما (إيضاح المكنون للبغدادي)، والمجلدان الخامس والسادس هما (هدية العارفين أسماء المؤلفين للبغدادي).
- الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م، ٧ مجلدات.
- حميـدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٥م. ٦مجلدات.
- الذهبـي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفـى ٧٤٨هـ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي ١٩٩٣م.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م، دار العلم للملايين بيروت. ٩ مجلدات.
- الصفـدي، صلاح الدين خليل بـن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، الطبعة الثانية باعتناء محمد الحجيري، دار صادر بيروت ١٩٩١م.

- الطبـــاخ، محمـــد راغب: إعلام النبـــلاء بتاريخ حلب الشهباء، صححه محمد كمـــال، دار القلم العربي بحلب ١٩٨٨م.
- الطهراني، أقابرزك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، الطبعة الثانية، بيروت، دار الأضواء.
- فهرس الكتبخانة الخديوية، طبعة مصر ١٣٠٨هـ.
- فهرس مخطوطات المكتبة الأزهرية.
- القوصـــوني، مديـــن بن عبد الرحمن، قاموس الأطبا وناموس الألبّا، مصـــورات مجمع اللغة العربية بدمشق، أوفست دار الفكر، دمشق ١٩٧٩م. من جزأين.
- ابـــن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر: الطب النبـــوي، توثيق عبد المعطي قلعجي، دار قتيبة- دمشق وبيروت ٢٠٠٠م.
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م.
- كيالي، طه إسحق: تاريخ الطب والأطباء في حلب.
- المحبي، محمد أمين (١٠٦١ - ١١١١ هـ) بن فضل الله بن محبّ الله بن محمد محبّ الدين بن أبي بكر تقي الديـــن بن داود المحبي الحموي الأصل، الدمشقي المولد والـــدار، الحنفي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ أجزاء، دار صادر- بيروت.
- المحبـــي، محمـــد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبـــي: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٨م.
- المرادي، محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، تحقيق أكرم حسن العلبي، دار صادر – بيروت ٢٠٠١م، ٤ مجلدات.
- مردم بك، خليل: أعيان القرن الثالث عشر، لجنة التراث العربي، بيروت- لبنان ١٩٧١م.
- AHLWARDT (W.), verzeichniss der Arabischen Handschriften der koniglichen Bibliothek zu Berlin, A. Asher & C, Berlin 1893.
- Carl Brockelmann, Arabischen Litterature, Leiden 1943.

الدراسات والبحوث

المترجمون ناشرون للمعارف

ترجمة د. ملكة أبيض ❁

أدت الترجمة فيما يتعلق بالثقافة العربية ـ الإسلامية دوراً كبيراً في حقبتين تاريخيتين:

الأولى، في بداية تكوّن الثقافة في القرون الأولى للهجرة، وكانت آنذاك تعمل من خارج الثقافة إلى داخلها، وكان مركزها الرئيس بغداد، أما الثانية، فقد قامت في أواخر ازدهار هذه الثقافة، في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وكان مركزها الأندلس،

❁❁ باحثة وأديبة ومترجمة من سورية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

حيث بدأت بعض دويلاته النهوض والإفادة من منجـزات الثقافة العربيـة ـ الإسلامية لتحقيق ذلك.

وهكذا سارت هـذه الترجمة في الاتجاه المعاكس، من اللغة العربية إلى اللاتينة أولاً، ثـم إلى اللغـة المحلية التي كانـت في طور النشوء.

وفي هذا المقال المترجم نقتطف ما يتعلق بهذا الدور المزدوج.

منـذ اخـتراع الكتابة والبشـر يبحثون عن اكتساب المعـارف التقنية والعلمية التي يمتلكها جيرانهم.

مـن هنا يأتي قيـام الترجمات الكثيرة ـ منذ أمد بعيد ـ لامتلاك معرفة «نفعية».

لقـد نقلـت التقنيات والعلـوم وطورت بالاقتباس إلى حد كبير.

ولكـن الترجمـة لم تتـم بغرض دمج معلومات جديدة بتراث قومي، وإعادة إنتاج المكتسبـات فحسب، بل تمـت أيضاً بغرض تطويـر الأبحاث. وإذا كانت المعارف تهاجر عن طريق الترجمة، فإن المترجمين وهم أُناس مثقفون يعلّمون الآخرين، يغتذون منها بغية إبعاد حدود المجهول.

وسيكون من الخطأ الخطير أن يُنظر إلى مترجمـي الأمس على أنهم أدوات سلبية في نقل نصوص متخصصـة. ذلك أنهم نذروا أنفسهم كلياً للأعمـال التي أعادوا صوغها بلغة أخرى.

«لقد كانت الترجمة مفتاح التقدم العلمي، لأنها سمحت للمخترعين والباحثين المتعاقبين بالدخـول إلى الفكر المجدّد لأسلافهم، على الرغم مـن أن ذلك الفكر كان مصوغاً بلغة أخرى» (١٩٩٢، Fischbach). إن الترجمة التقنيـة ـ العلمية عمليـة تحويل وأداة مزج وتقدم، أكثر من أي نـوع من أنواع الترجمة الأخرى، ومن دونها لم يكن من الممكن تصور أشـكال الانتقال التقني ـ كما نسميها اليوم ـ وهذا ما جعل فيلسـوف النهضة الإيطالية جيورد انـو برونـو (١٦٠٠-١٥٤٨) يقول: «إن الفضـل في تطـورات كل العلـوم يعود للترجمة».

فالترجمـة تدفع للتأمـل، وتساعد على الاختمـار الفكـري. وهـي إذ تشكل نقطة انطلاق للتأمـل المتعمق في أحد موضوعات المعرفـة غالباً مـا تذوب في الشـروح التي تصاحبهـا ـ ومن الصعوبة بمـكان عزل ما يدخـل في نطاق إعادة الإنتـاج عن الإبداع في عمل المترجمين القدامى للوثائق التقنية ـ العلميـة ـ ومـن الممكـن ـ في الحقيقة ـ أن نقول عنهم ما قاله المؤلف ـ المترجم الروسي فاسيلي كيريلوفيتش تريديا كوسكي (١٧٠٣-

١٧٦٩) من أن: «بين المترجم والمؤلف لا يوجد فارق إلا الاسم».

هكذا ينشر المترجمون الأفكار والمعارف. إنهم كما قال هنري فيشباس (١٩٩٢ Fischbach): «الملقّحون الكبار للعلم». وربما لم يكن العلم ليكتسب صفة الكلية من دونهم. ثم ألا يمكننا تتبع هجرة المعارف والتجول في المخزونات الثقافية ووضع خارطة بالأماكن التي شهدت تفتح الفكر عن طريق تحليل أنشطتهم؟ إن بياناً دقيقاً بأعمال الترجمة التي تحققت في المراكز الكبرى لثقافة الماضي يقودنا من آسيا (الصين والهند) إلى بلاد اليونان، ومن الشرق إلى أوروبة، ومن ثم إلى أمريكا.

ومنذ العصر اليوناني الكلاسيكي، كانت بعض المدن تمثّل أماكن تجمع للعلماء والمترجمين. ونستطيع القول ببساطة وعلى وجه التقريب إن مشعل المعرفة سار في الطريق التالي:

أثينا ـ الإسكندرية ـ روما ـ بيزنطة ـ أديسا (وهي أورفة الحالية في تركيا) جنديشابور أو (جند يسابور في إيران) ـ بغداد وقرطبة ـ طليطلة وسالرن ـ فلورانسه ـ باريس ـ لندن.

وفي عصرنا الحالي تنتشر ثمرة عمل الباحثين، الماضين أو المعاصرين، على كوكبنا بأكمله.

إن ندرة المخطوطات على البَرديّ أو الرق أو جلد العجل وغلاءها شكّلا منذ

وقت طويل عقبات أمام تقدم الدراسات وأبطآ حركة الترجمة بشكل عام والأعمال العلمية بشكل خاص. من هنا تأتي أهمية الورق، وهو ابتكار صيني يعزى إلى «كي لآن»، في نشر الترجمات. وعندما احتل العرب سمرقند (في أوزبكستان الحالية) في ٧١٢ تعلموا ضرب الكتان ليعملوا منه عجينة تتحول إلى ورقات رقيقة. وقد وُجد المعمل الأول للورق في بغداد في ٧٩٤م. وهذه الصناعة تطورت بسرعة نتيجة التأثير المزدوج لمضاعفة الترجمات والولع الجديد بالكتب. ولم يتأخر الورق في الانتشار في كل العالم الإسلامي، الذي امتد من جبال البرينه إلى نهر الهندوس.

وعلى كل حال يجب انتظار ثلاثة قرون لينتقل الورق إلى أوروبة الغربية التي دخل إليها في القرن الثاني عشر عن طريق أسبانيا. لقد ظهرت المصانع الفرنسية الأولى للورق في منتصف القرن الرابع عشر، وهذا يتوافق مع اختراع الطباعة. فهذه التقنية الجديدة في إنتاج المخطوطات لم تكن تستطيع التطور لو لم يكن الورق منتشراً بصورة كافية وقد أعطت اندفاعاً قوياً لصناعته، ولمضاعفة الترجمات في الوقت ذاته. هل نحتاج إلى التذكير بأن الترجمات. على الأخص. هي الطباعات الأُولى؟

ومن وجهة نظر نشر الأعمال المترجمة فإن الورق حصل في الإمبراطورية العربية على التأثير نفسه، الذي أحدثتهُ الطباعة في أوروبة. فبفضل الورق والطباعة، أصبح وصول المترجمين. العلماء إلى الأعمال العلمية وإغناؤها بإسهاماتهم الشخصية أكثر سهولةً مما مضى. إن نقل التقنية (وهو مصطلح بالٍ لكنهُ ملائمٌ هنا) ذلك النقل الذي حصل بين الصين وروما قبل بدء العصر المسيحي (Needham ١٩٥٤) تطلَّب مشاركة المترجمين. كما كانت الإسكندرية (مصر ٣٢٢ قبل الميلاد) مركز تبادل بين أوروبة والشرق الأوسط والهند، ومركز دراسات هيلنية لعبت فيه الترجمة دوراً لا يمكن إهماله. وإلى الشرق وبالتحديد في الجنوب الغربي، (إيران الحالية) شكل المسيحيون النسطوريون، المطرودون من الإمبراطورية البيزنطية بعد حرمان بدعة البطريرك نسطوريوس في مجمع ايفيز (٤٣١)م، انطلاقاً لترجمة المؤلفين الكبار في الثقافة اليونانية القديمة. وقد تُرجمت أيضاً نصوص طبية هندية وصينية. ثم جاءت بغداد و«بيت الحكمة» فيها الذي حمى المخطوطات اليونانية والسريانية، وركز الجهود على ترجمة هذه النصوص إلى اللغة العربية، وذلك في القرن التاسع،

فمدينة «طليطلة» في القرن الثاني عشر. حيث أن هذه الترجمات العربية عاشت بعد فقدان أصولها ومن ثم نقلت إلى اللغة اللاتينية.

إن عدداً كبيراً من هذه الوثائق اللاتينية، وبالأخص المقالات الطبية، نقلت إلى اللغات المحلية في العصور الوسطى وحتى بداية عصر النهضة. ومن الناحية اللغوية كتب هنري فان هوف عام ١٩٩٣م يقول:

«إن عصر النهضة تأثر باتجاهين: الأول: الرغبة في زيادة الاهتمام باللغات القديمة وكان ذلك ضرورياً لتسهيل ارتقاء اللغات المحلية التي حظيت بالاهتمام نتيجة ظهور النزعات القومية».

ويضيف مؤرخ الترجمة: أن العلم منذ القرن السادس عشر شهد تنافساً مع الدين، ومنذ بداية القرن الثامن عشر لم يعد حكراً على النخبة، بل أصبح يهم كل العقول. لكن هذا الجمهور نفسه كان يريد قراءة كل شيء بلغته الخاصة. وينتج عن ديمقراطية المعرفة هذه، وعن اتساع جمهور القراء، أنه وبالتدريج، مع بداية عصر النهضة، لكن على الأخص في القرنين السابع والثامن عشر، اتخذ نشاط الترجمة في المجال العلمي والتقني بعداً تربوياً.

لقد أصبح المترجم ناشراً للمعرفة مبسطاً لها. إنه يعمل جاهداً للإفهام والتعليم وتثقيف غير المختصين والجاهلين باللغة اللاتينية: كالمخبرين أو المبتدئين الذين يعملون جنباً إلى جنب مع معلميهم في علم الصيدلة وعلم الكيمياء والفيزياء. لقد كان المترجمون إلى حدٍ بعيد في مقام المدرّسين والمقدِّمين للمؤلفات التي يترجمونها.

ومن العصور القديمة إلى أيامنا هذه، أصبحت لغة العلم في الغرب وفي الشرق الأوسط يونانية، فعربية، فلاتينية، فإنجليزية على التوالي. والآن لا يستطيع أي بلد مهما بلغ من القوة، ولا تستطيع أية مدينة مهما بلغت من النفوذ، أن تتباهى بكونها المستودع الوحيد للمعارف العالمية. فقد أدى عمل المترجمين الطويل إلى تعدد مراكز الثقافة.

على أن البحث الحالي سيتوقف عند المراكز العربية.

«بغداد مركز الترجمة في العصور الوسطى»:

في القرنين التاسع والعاشر. كانت بغداد في العراق مركز مشروع ضخم طموح لترجمة الكتابات العلمية والفلسفية القديمة إلى اللغة العربية، لغة الإمبراطورية الإسلامية الجديدة. هذا المشروع الذي ترك أثراً عميقاً في تكوين النظام الفلسفي والعلمي

للعالم العربي والإسلامي، لا يمكن فصله عن امتزاج الشعوب والثقافات والأفكار الذي يميز هذه المنطقة من الكرة الأرضية في ذلك الحين. وفي الحقيقة إن التشجيع الذي لاقاه هؤلاء المترجمون من أنصار الأدباء والعلماء ومن الخلفاء تحت شكل أجور سخية أو حتى رواتب كما يروي المؤرخون العرب يندرج في تقليد طويل للدراسة والترجمة السريانية (الآرامية القديمة) لكنوز اللغة اليونانية. كما ساعد انتشار الكتابة الواضح جداً في الحضارة الإسلامية على تطور هذا النشاط. وقد تمت أيضاً ترجمة عدد كبير من المؤلفات السريانية والفارسية والسنسكريتية.

إن وظيفة النقل التي أداها هؤلاء المترجمون والحجم الهائل للمادة المترجمة، لا يجب أن تنسينا جانب الإبداع الذي ندين لهم به. فالعمل المترجم أصبح مصدراً للتفكير والمعرفة من دون أن يكون ذلك مقصوراً لذاته. والترجمة الأولى ترافقت غالباً مع التفسير والشرح مما أدخل معارف جديدة وغذى مباحث أخرى. وباختصار يمكن القول إن المترجمين باستنادهم إلى المؤلفات التي يترجمونها قاموا بتمرين عبقرية الابتكار الخاصة لديهم.

لقد ظهرت النصوص الأولى المترجمة إلى اللغة العربية في نهاية القرن السابع أي بعد الفتوحات العربية بقليل. وهي تتعلق بالمجال الإداري على الأخص (وثائق وسجلات) وهذا أمر يمكن فهمه. كان المطلوب وضع بنى جديدة، وفرض اللغة العربية كلغة للدواوين. أما ترجمة النصوص العلمية فقد تأخرت بعض الشيء. إن حركة الانتفاع بالتراث الثقافي اليوناني والتي استهلها المترجمون العرب غالباً بواسطة ترجمات سريانية موجودة سابقاً، عرفت ذروتها في القرن التاسع والعاشر وذلك بفضل جهود مترجمي بغداد، ومنهم المترجم الشهير حنين بن اسحق، المعروف أيضاً بالاسم اللاتيني Jo Hannitius، (٨٠٩-٨٧٥). ويلاحظ أن أعمال الطب والفلسفة هي التي أثارت القدر الأكبر من الاهتمام عند العرب. وهناك أيضاً علم الفلك، مما يشير إلى اتصالات أقامها المسلمون مع الهند، هذا البلد الذي ارتبطوا معه بعلاقات تجارية متصلة. وإذا كان اختيار النصوص المقدمة للترجمة مفروضاً أحياناً بحسب مصلحة الدولة (تعريب بنى الإمبراطورية)، فهو يتعلق أيضاً إلى حد بعيد باهتمامات الخلفاء والشخصيات الكبيرة في البلاط. وهكذا فإن الخليفة المنصور، الذي اعتلى السلطة عام ٧٥٣ والذي كان مولعاً بعلم الفلك، وكان

قد حصل على مخطوطات هندية تعالج موضوعه المفضل، عمل على ترجمتها. كما أن الخليفة المأمون المؤيد والنصير للحركة (اللاهوتية) للمعتزلة، عمل على التوفيق بين العقل (بمعنى الأرسطوطالية) والإيمان، وشجع بقوة ترجمة الكتابات الفلسفية اليونانية إلى اللغة العربية، وشرحها.

إن حنين ومعاونيه العديدين ترجموا أو أعادوا ترجمة نسخ عربية أو سريانية قديمة لعدد كبير من المؤلفات الهامة: (لأفلاطون: الحوارات والجمهورية)، و(لأرسطو. المنطق الذي عرف تحت اسم Organon الذي تتضمن موضوعاته فيما تتضمن المقولات، والتحليلات ما وراء الطبيعة) و(لفورفيريوس ٢٣٤-٣٠٥م) وهو أحد المؤسسين الرئيسيين للأفلاطونية الحديثة كتاب «الايساغوجي» وهو مقدمة لمقولات أرسطو، وأخيراً كتاب «الأسباب» الذي كان يعزى إلى أرسطو في القرون الوسطى، ولكنه يستمد وحيه في الواقع من «مبادئ اللاهوت» لآخر الفلاسفة الأفلاطونيين الحديثين اليونانيين الكبار وهو بروكليس ٤١٢-٤٨٥م. وكان يحدث أن تتم الترجمات مباشرة من اليونانية إلى العربية، إذا توافرت للمترجمين المخطوطات اليونانية وكانت كفاءاتهم اللغوية تسمح بذلك.

وفي الحقيقة إن عدد المترجمين الذين كانوا يتقنون اليونانية والعربية معاً إلى حد كاف كان قليلاً وخصوصاً في بداية الفترة المدروسة. وكانت اللغة السريانية تعمل غالباً كلغة وسيطة بفضل أعمال الترجمة السابقة من اليونانية إلى السريانية، والتي أنجزها النسطوريون المنفيون من بيزنطة في القرن الخامس. وفي المجال العلمي كان اهتمام المترجمين ومعاونيهم ينصب على مجموع آثار ايبوقراط وجالينوس وعلى أعمال لا يمكن الاستغناء عنها كـ «العناصر» لاقليدس و«المجسطي» لبطليموس وأعمال أخرى أقل أهمية.

كان المترجمون عديدين، والترجمات العلمية والفلسفية الأولى إلى اللغة العربية تعزى إلى مترجمين محترفين من القرن الثامن مثل «يوحنا ماسويه» و«ابن البطريق» و«ابن جبريل».

وفي القرن التالي تظهر في قائمة المعاونين أسماء: «الحجاج بن مطر» و«ابن لوقا» (٨٢٠-٩١٢) و«ابن ناعمة الحمصي» و«ثابت بن قرة» (٨٣٤-٩٠١). وهناك تلميذان مبتدئان ومترجمان وهما «اسحق ابن حنين» و«حبيش الأعسم» وهما على التوالي ابن حنين وابن أخيه اللذان عملا تحت إشرافه. ثم يأتي مترجمون مثل «يحيى

ابن عدي» و«متى بن يونس» اللذين عملا في مراجعة الترجمات السابقة، من حيث المضمون والشكل.

وقد أسفر هذا النشاط عن إنماء اللغة العربية العلمية وتقويتها. لذلك يمكن القول إن الترجمة كانت إبداعاً بمعنى أنها أسهمت في وضع الأسس لنظام فكري متكامل هو نظام الحضارة العربية. الإسلامية، على صعيد الأدوات الفكرية ومن حيث إنماء اللغة العربية. وهي إبداع أيضاً لأن المترجمين أنفسهم فهموها على هذا النحو، فراحوا يرفقون ترجماتهم بالتعليقات والملخصات والنصوص التفسيرية. هذه التقديمات الشخصية تهدف لا لجعل العمل المترجم أكثر قابلية للفهم فحسب، بل إلى إكمال عملية النقل بتقديم إجابات للأسئلة التي يثيرها. ومن المناسب التوضيح بأن المترجمين كانوا على وجه العموم مختصين في المجال الذي يترجمون فيه، في الحدود التي كان من الممكن الحديث فيها عن «التخصص» في تلك الفترة، فالمعرفة لم تكن مجزأة كما هي عليه اليوم. وهكذا فإن «يوحنا ماسويه» و«حنين بن اسحق» كانا يتمتعان بشهرة مرموقة في مجال الطب. وقد أبرز المؤرخون كفاءات حنين الطبية ليوضحوا المستوى الجيد لترجماته. فبالإضافة إلى كونه مترجماً لجالينوس، كان له أيضاً مؤلفات شخصية وهي: المسائل الطبية، مسائل العين، وكتاب عن الأسنان. وربما كان قد وضع أسس طب العيون التي استند إليها الرازي في قسم كبير من عمله.

وجدير بالذكر أن المترجمين السريان كانوا قد أضافوا قبل قرن أو اثنين معلومات من قبلهم في النصوص الفلسفية اليونانية التي طبعوها بمفاهيم من الأفلاطونية المحدثة. وفي القرن الثاني عشر رغب الفيلسوف والمترجم لأرسطو «ابن رشد» (١١٢٦-١١٩٨) في إعادة الفكر الارسطاليسي الأصلي بتخليصه من تفسيره الأفلاطوني المحدث الذي أثقله به المترجمون السريانيون والعرب.

إن الترجمة إبداع أيضاً على صعيد خطة تكوين المفاهيم، وعلى الأخص عندما يجب أن يكون على النص المترجم أن يندمج في نظام فكري ما. وهكذا فإننا نجد في الترجمة العربية لعمل «بروكليس» أن اسحق بن حنين يتكلم عن الله ويصفه «بالعالي المقام» وذلك بدلاً من استخدام المفهوم اليوناني «السبب» أو «المبدأ» (Badawi ١٩٦٨).

إن إبداع المترجمين يظهر كذلك على صعيد المصطلحات. فقد لجأ المترجمون العرب الأوائل غالباً إلى تثبيت الكلمة

الأجنبية بحروفها لأنهم لم يكونوا يتقنون اللغة العربية بدرجة كافية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن اللغة العربية نفسها لم تكن قد كوّنت بعد مصطلحاتها الفلسفية والعلمية. ولدى مراجعة هذه الترجمات بعد مضي قرن واحد، جرى التخلي عن المصطلحات العلمية المنقولة لحساب المبتكرات التي هي أكثر مطابقة للبنى الأساسية للغة العربية. ومثال ذلك أن حنين اقترح لدى مراجعة الترجمة العربية لكتاب «المادة الطبية» لـ «ديوسكوريدس»، مصطلحات عربية مقابلة لتحل محل المصطلحات المنسوخة عن اللغة اليونانية والتي أدخلها المترجم الأول «استيفان بن باسيل».

إن المترجمين، عملاء نشر المعارف، قاموا بهذا الدور أيضاً عن طريق بحثهم عن المخطوطات الثمينة. والمؤرخون يقدمون أمثلة كبيرة تبين أن المسؤولين والمترجمين بذلوا جهوداً هائلة من أجل الحصول على مخطوطات يونانية قديمة وتحقيق أصالة النصوص وشرعيتها قبل المباشرة بالترجمة.

بقي أن نذكر أخيراً أن المترجمين العرب لم يتوجهوا إلى القراء المتعلمين فحسب. فبالتأكيد أن الترجمات تحققت في الغالب بطلب من شخص معين. (نصير للأدب والعلوم أو أحد رجال العلم) لكن كان لها في بعض الأحيان هدف إرشادي تعليمي أيضاً. فالمترجم الطبيب حنين على سبيل المثال كثيراً ما وجّه ترجماته لطلابه في الطب، ونصح معاونيه بإعطاء أهمية خاصة للوضوح وقابلية الفهم في ترجماتهم. وهو يؤكد في إحدى رسائله أنه «أضاف تفسيراً لتوضيح بعض المقاطع الصعبة»، في ترجمة سريانية لتعليق على (قَسَم) ابقراط. إن اهتمامه بالتعميم يظهر أيضاً في رغبته بإنتاج ترجمات بأسلوب «يستطيع أن يفهمه غير المختص بالطب أو من لا يعرف شيئاً من طرائق الفلسفة» (ابن أبي اصيبعة، ١٩٨٢).

ولنقل على سبيل الخلاصة، عن هذه الفترة، إن تأسيس «بيت الحكمة» في عام ٨٣٠م أعطى إشارة الانطلاق للعرب لفهم التراث الثقافي للصينيين والهنود والفرس، لكن على الأخص لليونانيين. هذا النشاط الكبير للترجمة استمر في كل أنحاء الإمبراطورية حتى سقوطها في القرن الثالث عشر. فالمؤلفات المترجمة زودت المترجمين والعلماء العرب بالمادة الأولى التي استندوا إليها في ممارسة إبداعهم الخاص، وموهبتهم الخلاقة في البحث، وعملت على تقدم المعارف العلمية، قبل أن

يوروثها بدورهم للعالم الغربي. وتلك الخطوة الجديدة في نقل المعارف البشرية من حضارة إلى أخرى ستتم في أسبانيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وتنتقل الترجمة وعاصمة الترجمة بذلك من بغداد إلى طليطلة.

طليطلة ملتقى التبادل الثقافي والتجديد الفكري:

إن «أعمال مدرسة طليطلة» صيغة تطلق عامة على الأعمال المترجمة والمنفذة في أسبانيا في منطقة «طليطلة» على الأخص، لكن أيضاً في «بارشلونه» و«تاراقون» في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. هذه الأعمال تُكوِّن واحدة من المعالم الهامة لنقل المعرفة الفلسفية والعلمية في العصور الوسطى. وهي تستند إلى الكتابات الفلسفية والعلمية للتراث اليوناني. العربي. ويشغل الطب والرياضيات وعلم الفلك وعلم التنجيم مكانة مميزة فيها.

هذه الأعمال تمت بشكل جوهري من العربية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، ومن العربية إلى اللغة الأسبانية العامة في القرن الثالث عشر. ولا يوجد خلاف في أن هذه الأعمال طورت الوضع العلمي في جميع المجتمعات الغربية. فإعادة اكتشاف أرسطو بوساطة تفسيرات ابن رشد وابن سينا غذّت التفكير الفلسفي المدرسي الذي جرى في أوروبة في الجامعات الناشئة. وارتياد المؤلفات العلمية العربية الكبيرة سمح لهؤلاء الغربيين بتوسيع معارفهم وفهمهم للعالم. وعن طريقها تمكنوا من الإلمام بالحساب العربي وبعلم الجبر واكتشاف نظام العالَم لـ «بطليموس» والاتصال بمجموعة مؤلفات ابيوقراط وجالينوس في الفكر الطبي اليوناني. العربي. لقد بلغ تجديد الفكر واتساع المعارف اللذين حدثا بفضل هذه المؤلفات حداً كبيراً حتى إنه يمكن الحديث عن «نهضة القرن الثاني عشر».

على أنه يجب الاعتراف بأن تأثير هذه المؤلَّفات المترجمة عُرِفَ على الأخص بفضل الأبحاث التي تمت منذ منتصف القرن التاسع عشر بوساطة مؤرخين أمثال «أمابل جوردن»، وهي قليلة لئلا نقول نادرة. هذه البحوث أعطت للصناع الرئيسيين لهذه النهضة كل المكانة التي ترجع لهم. ويجدر بنا، أن نضع في مقدمة هؤلاء «أنطوان بيرمان» وهو الذي أسماهم «المنسيين الكبار» في كل الجدل الدائر بشأن الترجمة، وقال إن من الضروري تحديد الطبيعة الحقة لدورهم بصفتهم الرواد لكل خلق، ونشر، وتعميم للمعارف، والتنبيه إلى الضغوط المادية والمعنوية التي عانوا منها.

إن الصلة بين الترجمة والإبداع تعد

أساسية نظـراً لأن الأعمـال التي نتحدث عنها هنا تتـم في سياق تاريخي يتسم بخلل كبـير في التـوازن بـين وضع المعـارف في المجتمع الأصلي «أسبانيا العربية» والمجتمع المستقبل لهـا «أسبانيا العائدة إلى السيطرة الأسبانية».

وفي الحقيقـة يجـب أن نذكر أن مكتبة «ديركلـوني» المسيحية لا تـكاد تضم بضع مئات من المجلدات، بينما كانت المخطوطات العربية في طليطلـة، تعد بالآلاف، حتى إن البعض يرفع هـذا الرقم إلى ثلاثمئة ألف. ويمكننا أن نفهـم أن المتعلمين الذين أخذوا علـى عاتقهم نقـل هذه المـادة الغزيرة إلى اللاتينيـة يشكلون جزءاً هامـاً في العملية: فقـد كان عليهم اكتشاف هـذه المكتسبات العلميـة واستثمارها من جهـة، ونقلها في الوقت ذاتـه، من جهة أخـرى. ولكن عدد المتعلمـين، في المجتمـع المستقبِـل، الذين يستطيعـون فهم المعارف العلمية، كان قليلاً جـداً. أضف إلى ذلـك، أن الشروط المادية التـي كان المترجمـون يعملـون فيها لم تكن دومـاً مساعدة على اكتساب المعرفة أو على نشرهـا، وكانت تتوقف بصـورة عامة على علاقات المترجمـين بالسلطة. ولنذكر بهذه المناسبـة أن المجتمـع والثقافـة التي تمت هـذه الأعمـال في إطارها كانـت ترزح في القرن الثاني عشر تحـت سيطرة الكنيسة، واحترام النصوصـ المقدسة الذي فرضته، أعني النصوص الأساسيـة التي تنتمي إلى التقاليد اليونانية ـ اللاتينية: الكتّاب الكبار في العصور القديمـة، العلماء واللاهوتيون وآباء الكنيسة.

إن الشخصية البارزة لـ «الفونس» العاشر (١٢٢١-١٢٨٤)، وهو نصير للآداب والعلوم شديد الإيمـان، تسيطر على تلك الأعمال. وفي هذا الصدد فإن تطور مكانة المترجمين اليهود بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر أمـر شديد الدلالة ففي القرن الثاني عشر، كان هـؤلاء الأخـيرون إذا وجـدوا أنفسهم خارج شبكـة الكتّاب، يحاولون إيجاد السبل للاندماج بها عن طريق اعتناق المسيحية، أو القبول بدور الوسيط، سواء أكان معلناً أم لا، بإتاحة الوصـول إلى النصوص العربية عن طريق ترجمتها إلى اللغة المحلية.

أما في القرن الثالث عشر فإن المترجمين اليهود لعبـوا دوراً رئيسياً في تلك الأعمال، ولو ظهـروا في علاقة مكشوفـة بالسلطة. وتتجلى هـذه العلاقـة في التسميات التي أطلقـت عليهم بصـورة عامـة في مقدمة المؤلفات «يهودينا» «طبيبنا».

إن الأسلـوب المتبع لـدى المترجمين في تنـاول النصوص يتمثل في ذلـك الأسلوب

المبدع البنـــاء الذي يستند في جزء كبير منه إلى الروابط القائمة بـــين المعرفة والسلطة ومن ثم إلى خضوع المترجم لهذه السلطة.

إن دوره كوسيـــط نشط يقوده في القرن الثـــاني عشـــر إلى استعادة جملـــة المعارف والعلـــوم الإغريقيـــة ـ العربيـــة، وفي القرن اللاحق إلى وضع المعرفة التي حصل عليها عـــن طريق الترجمة في خدمـــة أحد أنصار الآداب والعلـــوم، ثم التصـــرف بالمادة التي جمعت على هذا النحو بحسب رغبات هذا النصير. أمـــا بخصوص أساليـــب اكتساب المعارف ونقلها، فهـــي تستند في تلك الفترة إلى الاقتباس والتفسير. أما الإبداع فلم يكن يحصل إلا بصفته تقليداً لنماذج معترف بها؛ ذلك أن رجل الفكـــر كان عليه الاستناد إلى سلطة مثل القديس أوغسطين، أو أرسطو.

وهكـــذا فـــإن التبديلات التـــي أجراها المترجمـــون في النصوصـــ ليست تعبيراً عن الإرادة الشخصية بقـــدر ما هي دلالة على الضغوط المادية والمعنويـــة المحيطة بالنقل إلى اللاتينية أو إلى اللغة الإسبانية المحلية: كانت هذه التبديلات شكلية في القرن الثاني عشـــر بغية إنتـــاج كتابات تطابـــق الطريقة اللاتينية في تقديم المعارف بإسقاط مقاطع تتصـــل بحقائق تاريخية أو جغرافية خاصة بالتقاليد العربية، مما يجعلها غير مناسبة.

وفي القـــرن الثالث عشر كان هناك عمل هام للتعريف والإبداع اللغوي. على أنه يجب رؤيـــة أنه إذا كانت التوجيهات تحت إشراف الفونســـ العاشر فإنها – نـــادراً – ما كانت تـــترك مجالاً للمترجم الذي كان عليه تقديم النسخـــة التي ستصبح «كتـــاب الملك»، فإن الضغوطات المفروضة على عمل المترجم في القرن الثالث عشر لا تمارس بنفس الطريقة ولا بنفس الدرجة في جميع الحالات. ونحن نريـــد إثبات مقدار الاختـــلاف في المقاربة بملاحظـــة عملين مترجمـــين لنفس النص، بسبب الانتقـــادات أو التحذيرات المصاغة من مترجم ما إزاء زميل له.

ونستطيع تحديد مثال لنموذجين باللغة اللاتينية أنجز الأول في عام ١١٣٣ بوساطة «جـــان دوسيفـــل» (١١١٠–١١٨٠) والثاني عام ١٢٤٠ بوساطة «هيرمان الدلماسي». إن مقدمة Tractatus Primus في الترجمة الأولى المتقيـــدة بحرفية النص تتضمن مئة صفحة بينما يقتصـــر النص الثاني Libre Primus علـــى أربـــع وعشريـــن صفحة. وبصدد «هيرمان» نعرف أن معاونه «روبرت دوريتـــين» وجه إليه تحذيـــرات شديدة إزاء الاقتطاعـــات الكبـــيرة في النصـــ الأصلي. وهذا الإغراء بالاقتطاع كان يحصل في تلك الفترة لأن المترجـــم اللاتيني يجهل النماذج

التاريخية والبيانية للتقاليد العربية. وكان يبرر اقتطاعاته بما يعتبره إطناباً في الكتابات العربية. ويذكر «روبرت دوريتين» بأن كل قارئ يحق له أن يشكك بأمانة المترجم حين يراجع الأصل.

والخلاصة، إذا كانت أساليب نقل المعرفة، المتمثلة في النسخ وهو الأسلوب الوحيد في إعادة الإنتاج في تلك الفترة، أو في المبدأ الفضفاض للملكية الفكرية؛ إذا كانت تلك الأساليب تسهم في جعل الترجمة نشاطاً إبداعياً مستنداً إلى نص ما، فإنها لا تقتصر عليها. ذلك أن هناك السياق السياسي الذي تنفذ فيه هذه الأعمال وهو الذي يحدد الطريقة التي يقارب بها المترجمون النصوص الأصلية.

إن مسألة انتشار المعارف تطرح بعبارات مختلفة بعض الشيء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ولنقل بادئ ذي بدء إن الظروف المادية للمترجمين في القرن الثاني عشر إضافة إلى طريقتهم في العمل تشجع نشر المعارف. ومن المعروف على سبيل المثال أن على المترجم في تلك الفترة، نظراً لعدم انتشار المادة التي يريد الوصول إليها، أن يبحث عنها بنفسه. وقد ترك بعضهم بلده الأصلي وسافر بحثاً عن «المجسطي» لبطليموس، كما فعل الإيطالي جيرار الكريموني (١١١٤-١١٨٧) والاسكتلاندي «مايكل سكوت» (١٢٧٥-١١٣٤) والإنجليزي «اديلارددوبات» المتوفى سنة ١١٣٠، وهناك آخرون يعودون بعد حصولهم على دراسة في الخارج مثل «مارك دوتوليد». وإذا كان المترجمون اللاتين أسهموا في تنقلاتهم بنشر النصوص (ولا سيما أنهم كانوا يعودون أحياناً إلى بلادهم الأصلية ويعلّمون ما اكتسبوه)، فإن الطريقة التي تم إنجاز قسم كبير من هذه الأعمال، (وهي العمل المشترك) تتضمن مجالاً للتبادل وتسهم في نشر المعرفة. والمهم في هذا الصدد، على وجه الخصوص هو نموذج المشاركة بين «ابراهام بارهيه» و«بلاتون دجوتيفولي»: اللذين أنجزا، على منوال طواقم أخرى من نفس العصر، ترجمات عربية . لاتينية لكنهما نقلا أيضاً من العبرية إلى اللاتينية بوساطة اللغة الإسبانية الدارجة، كتاباً في علم الهندسة لابراهام نفسه (Liber Embadorum). هذا النوع من الإنجاز يظهر بصورة متزايدة بصفته تعبيراً عن المصالح الشخصية، وشاهداً على الصلة بين الترجمة والبحث (فكل يغذي الآخر) أكثر منه دليلاً على سياسة منهجية لنشر هذه الأعمال.

وفضلاً عن ذلك، فإن تحليل أصناف

متنوعة من الأعمال التي كُتبت على يد (اديلاردوباث)، وهو أحد المثقفين اللاتينيين الأكثر شهرة في هذا العصر، يتيح التمييز بين أعمال الترجمة وأعمال الإبداع: فالأولى تظهر كنسخ خام أقل صقلاً، وأقل جهداً، أو كوثائق عمل موجهة بالدرجة الأولى إلى المترجم نفسه أو إلى المختصين، وهم على ما يبدو الطلاب. أما الثانية فهي أعمال منجزة ونهائية. وهذا التمييز يتجلى لدى مترجمين ـ مؤلفين آخرين في تلك الفترة ومنهم «دومنيك كونديسالفي». فالترجمة من العربية إلى اللاتينية ظهرت كوسيلة لنقل معرفة ما بين المختصين، أكثر منها عملية انتشار كبير وتعبير سابق لأوانه في ذلك العصر.

في القرن التالي، ومع تطور ظروف ممارسة الترجمة وتوزيع المهام الذي نتج عنها (التمييز بين المترجمين الأساسيين والمعاونين)، يظهر اهتمام متزايد بالتعميم. وتذكر المقدمات بكثرة الفائدة الكبيرة لنص ما مكتوب بلغة مألوفة للمتعلمين. وبعد إعلانات المبادئ هذه، تجدر ملاحظة أن النقل إلى اللغة الأسبانية يشكل خطوة في سبل تكوين ما سيظهر في النهاية تحت اسم «كتاب الملك». وبصفتها نماذج، تشكل الترجمات إلى اللغة الإسبانية التي أجريت بإشراف «الفونس العاشر» أحد المشاريع الكبيرة الأولى للترجمة إلى اللغة العامية في الغرب.

بقي أن نرى إلى أي حد كان المترجمون في هذا العصر معمِّمين للمعرفة. مع أخذ الفترة المدروسة بالحسبان، يجب أن نفهم مبدأ تعميم المعرفة بشكل محدود. فإن مفهوم «الجمهور الواسع» الحالي لم يكن له أي صدى في مجتمع القرون الوسطى. وفي الواقع فإن أعمال القرنين المذكورين تدور بشكل خاص حول هذه النقطة. ففي القرن الثاني عشر، لا تكشف لغة الوصول المتبناة. وهي اللغة اللاتينية لغة الكنيسة والمتعلمين. ولا استراتيجيات الترجمة المطبقة، أقل اهتمام بتعميم مادة الدراسة، يعني تسهيل الوصول إليها. فالرجوع المكثف إلى النسخ (أي كتابة الكلمة المنقولة من لغة الترجمة بحروف اللغة المترجم إليها) أدى إلى ظهور عدد كبير من المفردات غير المعروفة وغير المفهومة في اللغة اللاتينية. إن كثرة الاقتباس اللغوي (وهو إجراء يقضي بإعطاء معنى علمي خاص لكلمات موجودة في اللغة المترجم إليها) ووجود الكلمات المختصرة مع (عدم وجود معجم أو مسرد يساعد على فهمها)، إضافة إلى عدم إبداء اهتمام بالوضوح. كل ذلك يشير، على العكس، إلى أن المترجم يجد

في نشاطه وسيلة لإغنـاء معارفه الخاصة. على أننا نجد في القرن التالي أن تبنِّي اللغة الإسبانيـة كلغة للترجمـة يفيد في تعميمها على الآخريـن. وأن متطلبات الوضوح التي يفرضها نصير الآداب والعلماء أمثال «الفونس العاشر»، الذي يصرُّ على أن النصوص يجب أن تكون سهلـة الفهم، تمثل عناصر شاهدة علـى الرغبـة في عـدم حصـر المعلومات المنقولـة عن طريق الترجمة بطائفة الكتّاب وحدها. كما أن الأفضلية الممنوحة في هذا العصر لوضع المصطلحات، لا يمكن فصلها عن السيـاق السياسي الذي نُفِّذت فيه هذه الأعمال: إنها إرادة توكيد الهوية القومية.

والخلاصة:

إن تحديـد مبـادئ الإبـداع، والنشر، والتعميم المطبق على أعمال مترجمي طليطلة يعيدنا إلى مفهوم امتلاك المعرفة عن طريق الترجمـة. وأمام نقص المؤلفـات اللاتينية في مجالات العلـم والفلسفة، فإن المسؤولين عـن أعمال الترجمـة «رجـال الكنيسة في القرن الثاني عشر والملك في القرن اللاحق» والمترجمين الذيـن يخدمونهـم، عملوا في القرن الثاني عشر على صب معرفة أجنبية في قالب التقاليد اللاتينيـة. أما في القرن الثالـث عشر فـإن هـؤلاء المترجمين بذلوا قصـارى جهدهـم لتكوين ثقافـة إسبانية استناداً إلى تلك المعرفة المتراكمة.

الحواشي

- Fischbach (1992), «Translation, The Great POllinator of science», Babel, 38,4.
- Needham (1954) Science and civilization in China, Cambridge University Press, T.1
- Badawi A. R. (1968) La Transmission de la philosophie grecque au monde arabe, paris, Vrin.
- ابن أبي أصيبعة (١٨٨٢)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة.

المصدر:

Delisle, jean et woodsworth, Judith (1995) Les tradu cteurs dans L'histoire, Les presses de l'universite d'Ottawa.

الدراسات والبحوث

حروف الجر من خلال معجم لسان العرب

أحمد بن عجمية ❁

تعد دراسة حروف الجر من أهم القواعد التي يحتاجها كل متعلم ودارس للغة العربية، ولا يستقيم من دونها المحتاج إليها.

وقد تختلف معاني الأفعال بتعـدد استعمالات هذه الحروف معها، ومن أمثلـة ذلك الفعل. رغب. فإذا وظفناه مع الحرف (في) مثلا. دل على طلب العمـل به نحو: (رغب في الشيء)[1] أراده، فهو راغب، والشيء مرغوب فيه، أما إذا وظفنـاه مع الحرف (عن) دل على الترك نحو: (رغب عن الشيء)[2] أي تركه متعمدا.

❁ أستاذ مساعد بجامعة حسيبة بن بوعلي/ الشلف/ الجزائر.

أعـددت هذا المقـال للتعريف بحروف الجر، وما يتعلق بها من أحكام ووظائف في استعمالاتهـا المتنوعـة في اللغة العربية من خلال معجم لسان العرب لابن منظور.

أولا- تعريـف الحـرف لغـة: الحرف: الطـرف، وحرف كل شيء: حـده كالسيف وغـيره، ومنه الحرف: الوجه، وهو عند ابن منظور: «حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده، ومنه حـرف الجبل، وهو أعـلاه المحدد... وحـرف الشيء ناحيتـه، وفلان على حرف مـن أمره، أي ناحيته، كأنـه ينتظر ويتوقع، فـإن رأى من ناحية مـا يحب، وإلا مال إلى غيرها»[٣] ومن هذا المعنى قوله تعالى ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ**﴾[٤] أي يعبـده على السـراء دون الضـراء، فيؤمن بالله مادامـت حاله حسنة، فإن غيرها الله وامتحنه كفر»[٥].

ثانيـا - تعريفه اصطلاحـا: «الحرف الأداة التـي تسمـى الرابطـة، لأنها تربط الاسـم بالاسـم والفعـل بالفعل، كـ (عن) و(على) ونحوهما» كل كلمة بنيت أداة عارية في الكلام لتفرقة المعاني فاسمها حرف، وإن كان بناؤها بحرف أو فوق ذلك مثل: (حتّى، وهل وبل)[٦]

وحده احدهم فجعل سواه فاسدا بقوله «وعنـد النحاة ما جـاء لمعنى ليس باسم ولاالفعل وما سواه من الحدود فاسد[٧]».

يعـد التعريفـان السابقـان مـن أشهر التعريفات لأصحـاب المعاجم، أما تعريفات النحويين، فنقتصر على اثنين هما :

١/ سيبويـه (تـ ١٨٠ هـ) القائل «وأما ما جـاء لمعنى وليس باسـم ولا فعل، فنحو ثم وسـوف وواو القسم ولام الإضافة ونحو هذا»[٨]

٢/ابـن جني(ت٣٩٢هـ) القائـل عـن الحـرف ((فالقول فيـه كان من لفظة. أن: ح. ر. ف أينمـا وقعت في الـكلام يراد بها حرف الشيء وحدته من ذلك حرف الشيء الواحدة وناحيته))[٩]

ثالثـا - تصنيـف الحـرف مـن حيث تعريفـه الاصطلاحـي: قال أبـو القاسم الزجاجـي في تبيينه للحـروف وأنواعها : الحروف ثلاثة أضـرب حروف المعجم التي هي أصل مدار الإنسـان عربيها وعجميها وحروف الأسماء والأفعال التي هي أبعاضها نحـو العين من جعفـر، والضاد من ضرب، ومـا أشبه ذلك نحو النون مـن: أن، واللام من: لم، وما أشبه ذلك، وحروف المعاني التي تجيء مـع الأسمـاء والأفعال لمعـان، فأمّا حروف فأصوات غير متوافقة ولا مقترنة ولا

دالة على معنى من معاني الأسماء والأفعال والحروف إلا أنها أصل تركيبها»[١٠].

وتوضيحا لما ورد في القول، يمكننا أن نصنف الحرف من حيث تعريفه الاصطلاحي إلى ثلاثة أضرب:

١/ من حيث المبنى: إنّ كل حرف من حروف المباني الثمانية والعشرين التي تدخل في تركيب الكلمة، وتسمى الحروف الهجائية وهي حروف تعليمية.

٢/ من حيث المعنى: وهو «ما دل على معنى في غيره» نحو من إلى. .. وشرحه أن من تدخل في الكلام للتبعيض، فهي تدخل على تبعيض غيرها لا على تبعيض نفسها، وكذلك إذا كانت لابتداء الغاية، كانت غاية غيرها»[١١].

وهو كذلك «ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل[١٢]، نحو: لام الجر وبائه و(هل) و(قد) و(ثم) و(سوف) و(حتى) و(أما) أو جاء لزيادة ضرب من التأكيد» أو «لفظ يدل على معنى مفرد لا يمكن أن يفهم بنفسه وحده دون أن يقرب باسم أو كلمة»[١٣].

إن المقصود من التعاريف هي حروف المعاني، وليست حروف الهجاء، ولذا فإن حروف الجر من أقسام حروف المعاني لأنها أحد أقسام الكلام.

٣/ من حيث الوظيفة التركيبية: يعرف ابن منظور الحرف بقوله: «الأداة التي تسمى الرابطة، لأنها تربط الاسم بالاسم والفعل بالفعل كعن وعلى ونحوها[١٤]».

يتضح من التعريفات السابقة أن الحرف نوعان: حرف مبني ويشمله التعريف الأول، وحرف معنى وينطبق عليه التعريفان الثاني والثالث، وحرف المعنى قد يأتي لإضافة معنى جديد أو يأتي لتوكيد معنى موجود.

والنحاة حينما يقسمون الكلمة إلى ثلاثة أقسام: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى[١٥] «يقصدون النوع الثاني، ويتضح ذلك من خلال قول ابن هشام معللا حصرهم الكلم في الأقسام الثلاثة قالوا: ودليل الحصر أن المعاني الثلاثة: ذات وحدث ورابطة للحدث بالذات، فالذات الاسم، والحدث الفعل، والرابطة الحرف، وأن الكلمة أن دلت على معنى في غيرها فهي حرف، وإن دلت على معنى في نفسها، فإن دلت على زمان محصل فهي الفعل وإلا فهي الاسم[١٦]».

وهذا التعريف يتطابق والتعريف الذي أوردناه لابن منظور، كون الحرف أداة ربط تربط الاسم بالفعل والفعل بالفعل... لايظهر معناه إلاّ بوصله بغيره.

١- حروف الجر: اختلف النحاة في الحرف، فهناك من يرى أن الحروف ليس

لها معنى في نفسها، وإنما هي دالة على معنى في غيرها من الأسماء والأفعال، ولذلك خصوها بوظيفة التعلق لإيصال معنى الفعل الذي قبلها إلى الاسم الذي بعدها، ويتزعم هؤلاء سيبويه وتبعه كثير من النحاة على حين يرى السيوطي أن الحرف دال على معنى في نفسه مخالفا بذلك ما اشتهر بين النحاة من أنه دال على معنى في غيره.

وخلاصة رأيه أن المعنى المفهوم من الحرف في حال التركيب الكلامي أتم مما يفهم منه في حال الأفراد. والرأي الأرجح هو أن حروف الجر تدل على معان وظيفية تعرف من السياق، وقد ذكر النحاة أن لكل منها معنى أصليا، قد تخرج عنه إلى فرعية يفهم من السياق، وذلك نحو قولهم: إن (الباء) دالة على الإلصاق في الأصل و(من) دالة على التبعيض في الأصل و(إلى) معناها الانتهاء واختلفوا أيضا في تسميتها، فالبصريون يسمونها (حروف الإضافة) لأنها تضيف معاني الأفعال إلى الأسماء، كما يسمونها (حروف الجر) لأنها تجر ما بعدها من الأسماء أو تخفضها.

ويسميها الكوفيون (حروف الصفات)، لأنها تقع صفات لما بعدها من النكرات، وهي متساوية في نقل دلالة الأفعال إلى ما بعدها من الأسماء وعمل الخفض فيها، وإن اختلفت معانيها»[١٧].

٢- حروف الجر ومعانيها: الملاحظ لاستعمال حروف الجر يجد أن الأساسية منها سبعة وهي على الترتيب: إلى، الباء، على، عن، في، اللام، ومن، ولكل منها دلالة أصلية واحدة هي على التوالي: انتهاء الغاية، الإلصاق، الاستعلاء، المجاوزة والظرفية، الملك وابتداء الغاية، وظيفتها توضيح العلاقات التي تربط الحدث بالمكان الحقيقي أو المجازي أو الحدث بالظرفية الزمانية، والحروف هي:

أ- حرف إلى معانيها واستعمالاتها التراثية: إن دلالة (إلى) الأصلية هي انتهاء الغاية تقول : «خرجت من الكوفة إلى مكة» وجائز أن تكون بلغتها ولم تدخلها، لأن النهاية تشمل أول الحد وآخره، وإنما تمنع مجاورته»[١٨].

اتفق سيبويه وابن جني والرماني على اعتبار انتهاء الغاية دلالة أصلية لحرف الجر (إلى)[١٩].

ب - الباء: اقتصر سيبويه على معنى الإلصاق زاعما أنه لا يفارقها، قال: «وباء الجر إنما هي للإلزاق والاختلاط، وذلك نحو قولك: خرجت بزيد ودخلت به وضربته بالسوط، ألزقت ضربك إياه بالسوط، فما

اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله(٢٠)» وهذا الإلصاق الوارد في حديثه إما حقيقي كما في (خرجت بزيد)، وإنما مجازي نحو: (مررت بزيد) أي ألصقت مروري بمكان يقرب من زيد.

وهذا المثال الأخير هو ما أشار إليه المبرد ويوضحه بقوله: «ومعنى الباء الإلصاق بالشيء وذلك قولك مررت بزيد، فالباء ألصقت مرورك بزيد، وكذلك لصقت به، واشمت الناس به»(٢١).

ويضيف ابن منظور: «الباء من عوامل الجر وتختص بالدخول على الأسماء، وهي الإلصاق الفعل بالمفعول به، تقول مررت بزيد، كأنك ألصقت المرور به»(٢٢).

و يقول في مقام أخر: «الباء حرف هجاء من حروف العجم وأكثر ما ترد بمعنى الإلصاق لما ذكر قبلها من اسم أو فعل بما انضمت إليه»(٢٣).

فالإلصاق ههنا هو المعنى الشائع عند القدماء الغالب عند المتأخرين، وإن تنوعت تفسيراتهم وشواهدهم له.

٢- على: حرف جر معناه الاستعلاء، قال سيبويه: «أما على فاستعلاء الشيء، تقول هذا على ظهر جبل، وهي على رأسه، ويكون أن يطوي أيضا مستعليا كقولك (مر الماء عليه)، و(أمررت يدي عليه)، وأمّا مررت على فلان فجرى هذا كالمثال، و(علينا أمير) كذلك، و(عليه مال) أيضا، وهذا لأنه شيء اعتلاء، ويكون مررت عليه إن يريد مروره على مكانه، ولكنه اتسع، وتقول عليه مال، وهذا كالمثال، كما يثبت الشيء على المكان كذلك يثبت هذا عليه فقد يتسع هذا في الكلام ويجيء كالمثال(٢٤) » وهكذا يرد الاستعلاء حقيقيا أو مجازيا أو معنويا، ففي المعنى الأول نورد المثالين الاثنين: ١/ هذا على ظهر جبل. ٢/ هي على رأسه.

ومن ههنا يمكننا القول إن الاستعلاء يكون حقيقيا إذا كان العلو على نفسه المجرور حسا وفي المعنى الثاني، نورد المثال الآتي: مررت على فلان، يكون المعنى ههنا مجازيا إذا كان العلو على مايقرب من مجرور وليس على المجرور نفسه، لكونه غير صالح للاستقرار عليه أو الحركة فوقه ،ومنة قوله تعالى (أو أجد على النار هدى)(٢٥)، فالعلامات الأساسية للاستعلاء المجازي هي ألا تكون (على) بمعنى فوق، فالمرور بفلان أي بجواره، وليس فوق ظهره.

وفي المعنى الثالث نسوق المثالين الآتيين.

١- علينا أمير، ٢- عليه مال

إنّ (على) في المثالين السابقين يفيد الاستعلاء المعنوي منها قوله تعالى (ولهم

على ذنب)[٢٦] وقول عز وجل(تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض)[٢٧] ويعتبر الاستعلاء معنى أصليا لـ (على) في حال كونها اسماً وفعلاً.

قال المبرد ((وقد يكون اللفظ واحدا ويدل على اسم وفعل،نحو:زيد على الجبل يا فتى، وزيد علا الجبل، فيكون (علا) فعلا، ويكون حرفا خافضا والمعنى قريب))[٢٨]

عن: هو حرف يجرما بعده، قال سيبويه ((وأما ،عن فلما عدا الشيء وكذلك قولك: أطعمه عن جوع، جعل الجوع منصرفا تاركاله وقد جا وزة[٢٩])) ذكر لها النحويون معاني عدة، أشهرها: المجاوزة: لبعد شيء عن المجرور بها بسبب إيجاد مصدر المعدّى بها،نحو: رميت عن القوس أي: بعد السهم عن القوس، لأنه يقذف عنها بالسهم ويبعده، ويسمى احد النحويين[٣٠] هذا المعنى: «المزايلة» قائلا: «المزايلة» نحو قولك: رميت نحو القوس... ومن ذلك: تجاوزت عن فلان، وكفرت عنه»[٣١].

وتأتي حرفا واسما بدليل قولهم من عنه، قد سبقت بحرف جر»[٣٢].

هـ / في: المعنى الأصلي لهذا الحرف هي الوعاء، قال سيبويه: «وأما في فهي الوعاء، تقول هو في الجراب، وفي الكيس، وهو في بطن أمه، وكذلك هو في الغل، لأنه جعله إذا أدخله فيه كالوعاء له، وكذلك في القبة، وفي الدار، وإن اتسع في الكلام فعلى هذا، وإنما تكون كالمثال يجاء به ويقارب الشيء وليس مثله»[٣٣].

ونقل ابن منظور عن الجوهري قوله: (في) حرف خافض، وهو للوعاء والظرف، وما قدر تقدير الوعاء، تقول: الماء في الإناء، وزيد في الدار، والشك في الخبر[٣٤]» والوعاء في اللغة هو الظرف يوعي فيه الشيء.

ونصل مع ابن منظور فتجده يفسر معنى (الوعاء والظرفية) بمعنى وسط، وتأتي بمعنى داخل، يقول: (في) تأتي بمعنى وسط وتأتي بمعنى داخل كقولك: عبد الله في الدار، أي داخل الدار ووسط الدار»[٣٥].

وللدلالة على أن (في) للوعاء وبمعنى (وسط) قوله تعالى ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾[٣٦] لم يقل (على) جذوع النخل، لأن (على) للاستعلاء، والمطلوب لا يجعل على رؤوس النخل، وإنّما يصلب في وسطها، فكان (في) أليق وأنسب من (على).

و- اللام: يتشكل صوت اللام بالتصاق إحدى حافتي اللسان والحنك الأعلى، مع ترك الحافة الثانية سائبة، يتسرب على جانبيها الهواء الخارجي من الجوف إلى النفس»[٣٧] وحول معانيها واستعمالاتها يقول ابن منظور: «نبدأ بالحروف التي جاءت لمعان

من باب اللام لحاجة الناس لمعرفتها، فمنها اللام التي توصل بها الأسماء والأفعال، ولها فيها معان كثيرة، فمنها لام الملك، كقولك: هذا المال لزيد، وهذا الفرس لمحمد، ومن النحويين من يسميها لام الإضافة»[٣٨]. وهي إشارة إلى سيبويه الذي يسميها (لام الإضافة) ويوضح معناها بقوله (ولام الإضافة ومعناها الملك واستحقاق الشيء، ألا ترى أنك تقول الغلام لك والعبد لك، فيكون في معنى عبدك، وهو أخ له، فيصير نحو هو أخوك، فيكون مستحقا لهذا كما يكون مستحقا لما يملك، فمعنى هذا اللم معنى إضافة الاسم »[٣٩] وسميت لام الملك، لأنك إذا قلت أن هذا لزيد علم أنه ملكه»[٤٠].

و يعرفها الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) بقوله: «لام الملك موصولة لمعنى الملك إلى المالك، وهي متصلة بالمالك، لا المملوك، كقولك: هذا الدار لزيد، وهذا المال لعمر وهذا ثوب أخيك».

ز- من: حرف جر: «ابتداء الغاية هو أصل معانيها الدلالية، وقد خصها سيبويه بابتداء الغاية المكانية، فقال: «وأما (من) فتكون لابتداء الغاية في الأماكن، وذلك قولك من مكان كذا وكذا، وتقول إذا كتبت كتابا من فلان إلى فلان، فهذه الأسماء سوى الأماكن بمنزلتها»[٤١].

ويقتصد بقوله: «ابتداء الغاية» معاني الأفعال التي تسبق (من) ونستشف المعنى نفسه من قول الرماني «فأما التي لابتداء الغاية فنحو (خرجت من بعداد إلى الكوفة) عنيت أنّ بغداد ابتداء الخروج والكوفة انتهاؤه»[٤٢].

وهناك أحرف لم يتبناها العرب أصلا للجر، وليس ثمة علاقة بين خصائص الأحرف العربية التي تشارك في تركيبها وبين معانيها واستعمالاتها التراثية.

هي أحرف أقحمت في فئة حروف الجر إقحاما، بدليل أن مجروراتها تنصب محلا على الاستثناء، ممّا يجعل جرّها لما بعدها اختياريا وضربا من الاصطلاح على أيدي الشعراء لضرورة الأوزان والقوافي الشعرية، وهذه الحروف هي: حاشا، خلا، وعدا.

١- خلا: تكون حرفا جارا للمستثني، ويستفاد ذلك من روايات سيبويه، اذا روى عن بعض العرب قولهم: «ما أتاني القوم خلا عبد الله» فيجعل خلا بمنزلة حاشا[٤٣].

و تستعمل (خلا) في الجر مجردة من (ما).

و أورد ابن منظور أنها: «كلمة من حروف الاستثناء، تجر ما بعدها وتنصبه، فإذا قلت: ما خلا زيدا، فالنصب لا غير»(٤٤) لقد قدم في تعريفه دلالة (خلا) في كلتا

الحالتين (الجر والنصب) على الوظيفة النحوية، وقدم الجرّ على النصب معللا وجوب النصب بدخوله (ما) عليها، في حين لم يضرب مثلا للجر، وكأني به يؤكد حرفية الكلمة.

فمن الجرّ بـ (خلا) استشهد في مكان آخر بقوله الشاعر:

خلا الله لا أرجو سواكا وإنما

أعد عيالي شعبة من عيالكا[٤٥]

وأجاز عباس حسن، اعتبار (خلا) وأخواتها حروف جر أصلية، والمستثني مجرور بها.

و الجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما أو بما يشبهه[٤٦].

هذه أهم الأقوال في (خلا)، وما يهمنا ههنا هو ما يتعلق بحرفيتها ودلالتها.

ففي المثال الأول: (ما أتاني القوم خلا عبدا لله) دخلت (خلا) على اسم علم مركب وسبقها حدث (عدم إثبات القوم) فأزالته عن مجرورها.

وأمّا المثال الثاني: (خلا الله لا أرجو سواك) دخلت (خلا) على لفظ الجلالة (الله)، ولحقها (عدم رجاء غير المخاطب) فأزالته عن مجرورها، وهذا هو ضابطها.

٢- عدا: نقل ابن منظور عن الأزهري قوله: «عدا من حروف الاستثناء قولهم: ما رأيت أحدا ما عدا زيدا، كقولك ما خلا زيدا، وتنصب زيدا في هذين، فإذا أخرجت خفضت ونصبت، فقلت ما رأيت أحدا عدا زيدا، وخلا زيدا وخلا زيد، النصب بمعنى (إلا) والخفض بمعنى (سوى)»[٤٧].

وابن منظور يرى أن (عدا) إذا خفضت كان بمعنى سوى، و(عدا) لفظ مشترك بين الفعلية والحرفية، وهي عند سيبويه، فعل فقط، فيه معنى الاستثناء[٤٨].

ومن الشواهد الجر بـ (عدا) قول الشاعر:

أبحنا حيّهم قتلا وأسرا

عدا الشمطاء والطفل الصغير[٤٩]

الشاهد فيه (عدا الشمطاء)، حيث استعمل (عدا) حرف جر، فجر الشمطاء به، ولم يحفظ سيبويه الجر بعد[٥٠].

و(عدا) مثل (خلا) تأتي حرف جر إذا لم تتقدم عليها (ما) وتكون بمعنى سوى، وتأتي لتزيل عن مجرورها معنى حدث سبقها.

٣- حاشا: قال ابن منظور: «وحاشى من حروف الاستثناء تجر ما بعدها كما تجر (حتى) ما بعدها»[٥١].

و في قوله إشارة إلى ما قاله سيبويه عنها: «حرف يجر ما بعده كما تجر (حتى) ما بعدها وفيه معنى الاستثناء»[٥٢].

يتفق العالمان بالتعريف بالحرف ولكنهما

يختلفـــان، فابن منظور يقدم الدلالة ويؤخر الوظيفية، في حين يقـــدم سيبويه الوظيفية ويؤخر الدلالتها.

ويرى الزمخشري أنها «كلمة تفيد التنزيه في باب الاستثناء، تقـــول: أساء القوم حاشا زيدا[٥٣] وهي (حاشـــا) مستعملة كثيرا عند العامـــة في الآداب العامة والاحترام المتبادل بين الناس.

وتتجلى حرفيـــة (حاشا) من فعليتها إذا استثنينا بها ضمير المتكلم، فإذا قصد الجر قيل (حاشاي).

قـــال الشاعر: في فتنة جعلـــوا الصليب إلههم: حاشاي إنني مسلم مغدور[٥٤]

(وحاشـــا) حرف جرّ لأنه لو كانت فعلا لقال: (حاشاني) ولا تظهر (نون الوقاية) إلا متصلة بالفعل، ومن دونها في البيت السابق (حاشاني) دلالة على حرفيتها.

القسم الثاني من حروف الجر ومعانيها: حصـــر أحد النحـــاة المحدثين الحروف التـــي يجر الظاهـــر في عشرة(*)، وهي: مذ، منذ، حتى والكاف، والواو، و رب، والتاء، وكي،ولعلّ،ومتى).[٥٥]

نستعرض آراء العلمـــاء القدمـــاء والمحدثـــين، وذلـــك للوقوف علـــى حقيقة هذه الحروف، وربطها بشواهدها التراثية، ترسيخا للفهم. والحروف هي على التوالي:

١/حرف التاء =التاء حرف جر معناه القسم، وتختص بالتعجب وباسم الله تعالى[٥٦]، وهى بمنزلـــة الواو والتاء. قـــال سيبويه ((والواو التي تكون للقسم بمنزلة الباء ،وذلك أقولك: والله افعـــل، والتاء التي في القسم بمنزلتها، وهي تا الله لا أفعلنّ))[٥٧]

وبين ابـــن منظور إن (التـــاء) في القسم بدل مـــن الواو كما أبدلـــوا منها في (تترى) و(تراث) و(تخمـــة) و(تجاه) والواو بدل من الباء تقـــول :تا الله لقد كان كذا، ولا تدخل في غير الاســـم)) [٥٨] و تـــرد مرتبطة باسم الجلالة نحـــو قولة تعالى (وَتَـــاَاللّه لأكيدنّ أصنامكـــم)[٥٩] كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يـــده، ففيها زيادة علـــى القسم معنى التعجب.

ويختلـــف ابن منظور مع سيبويه في كون التاء بدلا من الواو ،ويوافق ابن هشام لكون ارتباطها بلفظ الجلالة دونها غيره.

٢/حـــرف الـــواو = (الـــواو) أكثر حروف القسم توظيفا،وتصدر الكلام، ولهذا ذكرها سيبويـــه في مقدمة حروف القسم قبل الياء والتـــاء، ((والقســـم والمقسم بـــه أدوات في حـــرف الجر وأكثر الواو ثـــم الباء، يدخلان علـــى محلوف به، ثم التـــاء، لا تدخل إلا في واحد، وذلك قولـــك «والله لأفعلن» و«بالله لأفعلن» و«تالله لأكيدن أصنامكم»[٦٠].

لقد حصر دخول (التاء) على لفظ الجلالة، بينما جعل (الواو) تدخل على لفظ الجلالة وغيرها من الأسماء، ولها ميزة الصدارة في السوق القرآنية ((والصافات) والطور). بيّن ابن منظور أن (واو) القسم تتصدر الكلمة حتى لا يوهم أن كل واو تليها كلمة تعد(واو)قسم ،وقدم دلالتها ،ثم بيّن وظيفتها النحوية ،وهي (الجر) وأكد مرتبتها ومثل لها من التنزيل (والطور وكتاب مسطور)[٦١]. فالواو الأولى للقسم والثانية ليست كذلك.

٣/حرف رب[٦٢] ليس من بين حروف الجر ما يشبه هذا الحرف ،فقد تعددت الآراء فيه ،واختلف النحاة واللغويون في أحكامه ونواحيه المختلفة (معناه، حرفية، زيادته أو شبهها، وتعلقه، وعدم تعليقه)، ولابد من الوقوف على هذه الآراء والأحكام النحوية والدلالات. ومعناها التكثير والتقليل، وعلى هذه الآراء والأحكام النحوية والمعاني والدلالات، ومعناها التكثير والتقليل، وعلى أشهر الأقوال أنها للتقليل.فهي ذلك قول الشاعر:

ألا رب مولود وليس له أب: ..وذي ولد لم يلده أبوان[٦٣]

قال المبرد ((وربّ معناها شيء يقع قليلا، ولايكون ذلك الشيء إلا مذكورا لأنه واحد يدل على أكثر منه))[٦٤]: ويوافقه ابن منظور القائل: من قال ربّ بها الكثير، فهو ضد ما تعرفه العرب))[٦٥]

وهكذا فربّ حرف جر له وظيفة تتعلق بالعدد كثرة أو قلة، لاتجر إلا المفرد النكرة، ويجب في مجرورها الظاهر أنّ يوصف نحو: ربّ كتاب نافع قرأته.

٤/حرف الكاف: الكاف حرف جرّ تخفض ما بعدها، ومن معانيها:

التشبيه: زيد كالأسد.

والتوكيد: (ليس كمثله شيء)[٦٦].

والتعليل: وَيْكَأَنَّهُ لا يفلح الكافرون)[٦٧] أي: أعجب لعدم فلاحهم.

٥- حرف كي: يستخلص من أقوال النحاة أن الدلالة الأصلية لكي هي السببية أو التعليل، وفيه يقول سيبويه: «وأما كي فجواب لقولك كيمه كما يقول لمه، فتقول ليفعل كذا وكذا»[٦٨]، فهذا سيبويه يلتقي مع أحد اللغويين المحدثين القائل: «وتسمى كي التعليلية لأنها تدخل على استفهام يسأل به عن العلة والسبب»[٦٩] ولمّا كانت كي لا تدخل إلا على الأفعال، فإن خاصية الجرّ ألصق بها لتخريج إعراب ما بعدها، فيبدو أنهم لم يجدوا تخريجا إلا بجعلها أداة وما بعدها جملة فعلية في محل جربها، على ما ذكر ابن هشام[٧٠].

وهكـذا تكـون وظيفة (كـي) في الجر مصطحة، مما يخرجها من فئة حروف الجر الأصليـة ويؤكد المعنى نفسهـا ابن منظور القائـل: «كي من حـروف المعـاني ينصب الأفعـال بمنزلـة (أن) ومعناها العلة لوقوع شيء، كقولك: «جئت كي تكر مني»[٧١].

٦- **لعل:** لعلّ حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر[٧٢]، وهي في لغة عقيل حرف جر شبيه بالزائـد[٧٢]، لا يتعلق بعامـل، يخفضون به المبتـدأ نحو: «لعل الغائب قادم» جر الغائب لفظا وهو مرفوع محلا على أنه مبتدأ.

وفي معناهـا أوضـح سيبويـه أن: «لعل وعسى طمع واشفاق»[٧٣].

ويوافقـه ابن منظـور في أنهـا بمعنى (عسى): «وعسى ولعل من اللّه تحقيق»[٧٤].

غير أن ابـن هشام قد احتفـظ لنفسه بمعنى التوقـع، فقال: «هو ترجي للمحبوب والإشفاق من المكروه»[٧٥].

ويـرى عباس حسـن أنهـا للترجـي والتوقع[٧٦].

ونـرى أنه لا يأبه لخاصيـة الجر فيها، لأنها لغة لدى بعضـ القبائل العربية، ولأن معنى المسند إليهـا لا يتوافق مع خصائص أحرفها.

٨/٧-**حرفا مذ ومنذ:** قال المبرد: «فأما (منـذ) - جررت أو رفعـت - واحد وبابها الجـر[٧٧] فمنذ لفظ مشـترك تكون حرف جر، وتكون اسما،» فـإذا كانت اسما ارتفع ما بعدها على نحو مـا ارتفع بعد مذ، وإن انجـر ما بعدها كان حرفـا، وحكمها حكم مـذ، إلا أن الاختيـار أن نجـر بها على كل حال، مـا مضى، وما أنت فيـه، تقول: من ذلك: ما رأيته منذ يومين، ومنذ يومنا، ومنذ اليوم، وإن جعلتـه اسما قلت: ما رأيته منذ يومـان، أي بيني وبين لقائـه يومان، ومدّة فراقه يومان»[٧٨].

إذا فمتـى تكون (منـذ) حرفا ينجر ما بعدها، ومتى تكون اسما يرتفع ما بعدها.

قال ابن منظور: «منذ مبني على الضم، ومذ مبنـي على السكـون، وكل واحد منها يصلح أن يكون حرف جر فتجر ما بعدهما، وتجريهمـا مجرى (في)، ولا تدخلهما حينئذ إلا على زمان أنت فيه، فتقول: ما رأيته منذ الليلة»[٧٩].

وهكـذا فمذ ومنـذ يكـثر استعمالهما اسمين غير ظرفيـين، كما يكثر استعمالهما حرفين أصليين للجر»[٨٠].

ويشترط لمجيئهما حـرفي جر أصلي أن يكـون المجرور اسما ظاهـرا لا ضميرا وأن يكـون وقتا وأن يكون هـذا الوقت مقتصرا معنيا لا مبهما ماضيا أو حاضرا ولا مستقبلا نحو ما رأيته مذ يوم السبت الأخير.

وهكذا يكون (مذ ومنذ) حرفين أصليين للجرّ بمعنى (في) للدلالة على الزمن، ويجب أن يتضمّن مجرورهما هذه الدلالة ولا يفارقها أبدا.

٩- حرف حتى: [٨١] اعلم أن (حتى) معناها الغاية في جميع الكلام إلا أنها تكون تارة حرفا جارا للأسماء، وتارة ينتصب بعدها الفعل المضارع، وتارة عاطفة تشترك بين الأول والثاني في اللفظ والمعنى»[٨٢].

وهي عند النحاة المحدثين حرف جر أصلي وهو نوعان:

نوع لايجرّ إلا الأسماء الظاهرة، والصريح[**] ومعناها في هذا النوع الدلالة على انتهاء نحو: تمتعت بأيام الراحة حتى آخرها.

ونوع آخر لا يجرّ إلا المصدر المنسبك من (أن) المضمرة وما دخلت عليه من الجملة المضارعة، وأشهر معانيها الدلالة على انتهاء الغاية أو الدلالة على التعليل[٨٣] أو الدلالة على الاستثناء نحو: أتقن عملك حتى تشتهر[٨٤]. نلاحظ أن معنى الفعل بعد (حتى) الاستقبال الذي هو سمة من سمات (حتى) الجارة، وأما إن دلّ على الحال فيكون سمة لـ (حتى) الابتدائية. قال امرؤ القيس:

مطوت بهم حتى تكلّ مطيهم
وحتى الجياد ما يقدن بأرسان[٨٥]

الشاهد في البيت أنه جاء بـ (حتى) التي تنصب مابعدها، وأراد أن بعدها ما لايجوز أن يعطف عليها لمجيء بـ (حتى) في الشطر الثاني، وما بعد الأول منصوب، لأنه غاية، وما بعد(حتى) في الجملة الثانية مبتدأ وخبر.

ولـ (حتى) الجارة معنيان:

١- مرادفة (إلى) نحو: سأقيم في المدينة حتى يأتي الربيع.

٢- مرادفة (كي) نحو: أسلم حتى تدخل الجنة.

نقل ابن منظور عن ابن سيدة قوله: «وحتى حرف من حروف الجر ك (إلى) ومعناه الانتهاء الغاية كقولك: سرت اليوم حتى الليل، إي الليل إلى الليل»[٨٦].

ونقل كذالك عن الجوهري قوله «(حتى) بمعنى فعل من حتى وهي حرف تكون بمنزلة إلى لانتهاء الغاية»[٨٧]

ويبين ابن منظور ما يتصل به للدلالة على أصالة حرفين، نحو (ما) وضرب لذلك مثلا «حتّام ؟ حيث فككها إلى (حتى) و(ما) فحذفت ألف ما الاستفهامية - كعادتها- [٨٨] عند اتصالها بحروف الجرّ، وهدا الحذف دليل على حرفيتها، مثل باقي

حروف الجر نحو فبم تبشرون؟ وفيم كنتم؟ وعمّ تتساءلون؟ ولم تؤذونني؟ وتكون حتى الجارة للاسم الصريح بمعنى (إلى) وتدل على منتهى ابتداء الغاية إذا سبقت بفعل أو شبيهه، وتفضي هذا العمل شيئا فشيئا إلى نهاية الاسم المجرور في قوله تعالى (ليسجننه حيى حين)[٨٩] يستمر السجن زَماناً ما. قال الزمخشري: «كأنها اقترحت أن يسجن زمانا حتى تبصر ما يكون منه»[٩٠].

١٠- حرف متى: متى حرف ثلاثي الأصول، مبني على السكون، يعمل الجر في لغة هذيل ومن كلامهم: «أخرجها متى كمه»، أي من كمه، فتاتي بلغتهم في المعنى (من).

وحكي أبوزيد الأنصاري[٩١] عنهم: «وضعته متى كمي» أي (في) كمي، وهي في هذا المثال بمعنى (في) ومنه قول الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت
متى لجج خضر لهن نئيج[٩٢]

أي (من) لجج. من أشهر أمثلة ما رواه ابن هشام لحرف (حتى) قولهم: (أخرجها متى كمة)[٩٣] أي (منه).

و لكن ابن منظور روى عن الأصمعي أنها قد تكون بمعنى وسط، وقال أن أبا زيد سمع بعضهم يقول: «وضعته متى كمي، أي في وسط كمي»[٩٤].

و أرى جواز كون (متى) بمعنى (وسط) ومعنى (في) مثل قولهم: (وضعته متى كمي).

يظهر من الشواهد المنتقاة أن (متى) في لغة هذيل تقع موقع عدد من حروف الجر (في) و(من) بمختلف معانيها.

عن الفراء: ومتى بمعنى (من) وأنشد يقول:

إذا أقول صحا قلبي أتيح له
سكرا متى قهوة سارة إلى الرأس[٩٥]

أي (من) قهوة.

نستخلص مما سبق ذكره أن كتاب سيبويه يعد أول كتاب شامل في اللغة ومستوياتها: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وصل إلينا وضم بين دفتيه بابا خص به حروف الجر التي سمّاها حروف الإضافة، كما يعد معجم لسان العرب من أهم المعاجم العربية التراثية التي أولت أهمية لحروف الجر دلالة ووظيفة وأن هذه الحروف كلها مبنية، وحقها البناء على السكون، لأنه أصل علامات البناء، وهي تختص بالعمل في الأسماء، فتصل ما قبلها بما بعدها، وتوصل الاسم بالاسم، وهناك حروف اختلف حولها النحاة منهم من عدها حروفا، ومنهم من أخرجها من حروف الجر.

يلاحظ الدرس لحروف الجر أنها تتعدد وظائف مثل (حتى) كما تشترك (حاشا وخلا وعدا) في وظيفة الجرو دلالة الاستثناء.

ويتفق البصريون والكوفييون في جواز الجر بخلا، وهناك بعض الحروف تختص بالجر في لغات بعض القبائل العربية (متى).

الهوامش

١- لسان العرب -رغب - ٢٥٤/٥.
٢- المصدر نفسه، ٢٥٥/٥.
٣- المصدر نفسه، ١٢٨/٣.
٤- سورة الحج، الآية ١١.
٥- مقاييس اللغة، ابن فارس. حرف. ١٤٢/٢.
٦- المصدر نفسه.
٧- القاموس المحيط - حرف ١٢٦/٣.
٨- الكتاب ٤٠/١ ، علق عليه أميل بديع يعقوب،ينظر الصاحبي ابن فارس، ص٥٣.
٩- سر صناعة الإعراب، ٣١/١. ١٤.
١٠- الإيضاح في علل النحو. تح/أبو مازن المبارك، ص٥٠.
١١- إصلاح الخلل الواقع في الجمل للزجاجي، ص٢٧. ينظر شرح شذور الذهب. ابن هشام، ص١٤.
١٢- الكتاب لسيبويه، ٩/١.
١٣- شرح المفصل. ابن يعيش، ٤/٨.
١٤- لسان العرب. حرف، ١٢٧/٣.
١٥- شرح شذور الذهب. ابن الهاشم، ص ١٣.
١٦- المصدر نفسه، ص ١٨.
١٧- شرح المفصل ابن معيش، ص ٧/٨.
١٨- اللسان. إلى ١٩٦/١، بنظر النحو الوافي - عباس حسن، ٢ /٤٦٨.
١٩- الكتاب، ٣٧٣/٢- ٣٧٤ اللمع في العربية - ابن جني، ص ١٢٨ ـــ معاني الحروف الرماني، ص ١١٥.
٢٠- الكتاب، ٣٦٥/٢.
٢١- المقتضب، ١٤٢/٤.
٢٢- اللسان. الباء، ٢٩٨/١.
٢٣- المصدر نفسه، ٢٩٧/١.
٢٤- الكتاب، ٣٧٣/٢ معاني الحروف ص١٠٣، لسان العرب. على. ٣٨٠/٩، مغني اللبيب ١٩٩/١.
٢٥- سورة طه، الآية ١٠.
٢٦- سورة الشعراء، الآية ١٤.

٢٧- سورة البقرة ، الآية ٢٥٣.
٢٨- المقتضب، ٤٦/١.
٢٩- الكتاب، ٣٧١/٢ لسان العرب ـــ عنن ٤٤١/٩، مغني اللبيب، ١٩٦/١.
٣٠- أحمد بن عبد النور المالقي- رصف المباني، ص ٤٣٠.
٣١- رصف المباني ،٣٦٧، ينظر مغني اللبيب ١٩٦/١.
٣٢- الكتاب ٣٧١/٢.
٣٣- لسان العرب ـــ فيا ٣٧٢/١٠.
٣٤- لسان العرب ـــ فيا ٣٧٢/١٠.
٣٥- سورة طه، الآية ٧١.
٣٦- المحيط في أصوات عربية ونحوها وصرفها ـــ محمد الأنطاكي، ص٢٥.
٣٧- لسان العرب ـــ لام كي ـــ٣٦١/١٢.
٣٨- اللامات الزجاجي ص٤٧.
٣٩- الكتاب، ٣٦٩/٢.
٤٠- المصدر نفسه، ٣٦٩/٢.
٤١- معاني الحروف للرماني، ص ١٦٥.
٤٢- الكتاب، ٤٤٢/١ شرح ابن عقيل ٦٦٩/١، شرح الاشموني على الفية ابن مالك، ٤٥٩/٢.
٤٣- لسان العرب ،خلا ٢٠٩/٤.
٤٤- شرح ابن عقيل ٦١٨/١،شرح الاشموي ٤٥٨/٢، لسان العرب ٢٠٩/٤النحو الوافي ٣٥٥/٢.
٤٥- اللسان – عدا ٩٦/٩.
٤٦- الكتاب ٣٥٩/١، المقتضب المبرد ٣٩١/٢، ولم يحكيا فيها الحركية.
٤٧- قبلـه: تركنا في الحضيـض بنات عوج :. عواكف قد خضعن إلى النسـور وردفي شرح ابن عقيل ٦١٩/١ وشرح الاشموي ٤٦١/٢.
٤٨- المصدر السابق.
٤٩- لسان العرب ـــ حاشا ١٩٥/٣.
٥٠- الكتاب، ٤٤٢/١.
٥١- الكشاف، ٤٦٥/٢.
٥٢- الجني الداني: المرادي ص٥٦٥، ينظر كشف السر عن حروف الجر: ناصر حسين على ص٤٧.
٥٣- ينظر السمات الدلالية لحروف الجر ـــ ميلود منصوري، ص١٠٠.
٥٤- النحو الوافي ـــ حسين عباس، ٤٣٣/٢.
٥٥- مغني اللبيب، ١٥٧/١.
٥٦- الكتاب ـــ سيبويه ١٦٥/٢.
٥٧- لسان العرب – تا – ٥/٢.

٥٨- سورة الأنبياء، الآية ٥٧.
٥٩- سورة الأنبياء، الآية ٥٧.
٦٠- سورة الطور ، الآية ٢٦١.
٦١- الجني الداني، ١٧٦- أسرار العربية، ص١٠٤ـــ ينظر الإنصاف في المسائل الخلاف ٨٣٢.
٦٢- الكتاب، ٤٩٥/٢، الخصائص ٢٤٤/٢، رصف المباني ص١٩٨، مغني اللبيب ١٨١/١.
٦٣- المقتضب، ١٤٠/٤.
٦٤- لسان العرب. ربب ١٠١/٥.
٦٥- سورة الشعراء الآية ١١.
٦٦- سورة القصص الآية ٨٢.
٦٧- الكتاب ٣٦٨/٢، ولسان العرب ـــ كي ٢٠٦/١٢.
٦٨- النحو الوافي ـــ عباس حسن ٤٥٦/٢.
٦٩- مغني اللبيب، ٢٤٢/١.
٧٠- لسان العرب ـــكي ٣٠٦/١٢.
٧١- مغني اللبيب ٣٧٧/١، وحروف المعاني –الرماني ١٢٤.
٧٢- الكتاب نفسه، ٣٧٤/٢.
٧٣- المصدر نفسه.
٧٤- لسان العرب ـــ لعل ٢٩/١٢.
٧٥- مغني اللبيب، ٣٧٩/١.
٧٦- النحو الوافي، ٤٥٧/٢.
٧٧- المقتضب، ٣١/٣.
٧٨- المصدر نفسه.
٧٩- لسان العرب، ٥٨/١٣، ١٩٤/١٩٣.
٨٠- النحو الوافي ـــ عباس حسين ٥١٨/٢.
٨١- الكتاب سيبويه، ١٧/١٦/١٣
٨٢- المصدر نفسه، رصف المعاني ص ١٨٢.
٨٣- المراد بالظاهر ما ليس ضميرا والصريح ما ليس مصدرا مؤولا وما بعدها.
٨٤- الدلالة على أن ما قبلها علة وسبب فيما بعدها.
٨٥- لسان العرب حتى، ٤٦/٣.
٨٦- ديوان أعلم الشنتمري ـــ تح ـــ ابن شنب ص٢١٦،ينظر شرح أبيات سيبوية ص٦١ـــ ينظر لسان العرب ـــ مطا ١٣٤/١٣، والكتاب سيبوية، ٥٩٨/٣.
٨٧- لسان العرب ـــحتى، ٣٩/٣.
٨٨- لسان العرب، ٣٩/٣.

٨٩- المصدر نفسه، ٣/٤٠.
٩٠- سورة يوسف، الآية ٣٥.
٩١- الكشاف، ٢/٤٦٨.
٩٢- شرح رضي على الكافية، ٣/٢٠٤.
٩٣- البيت في ديوان الهدليس، ١/٥١ لأبي ذئيب، الخصائص ٢/٥٦ سر صناعة الإعراب ١/١٣٥، ١٤٢ لسان العرب ـــ شرب ٤/٦٤، متى ١٣/١٩ مغني اللبيب ١/١٤٠، ى رصف المعاني ص١٥١.
٩٤- شرح الكافية، ٢/٢٠٤.
٩٥- مغني اللبيب، ١/٤٤٠.

سيكولوجية المال

السلوك الاستهلاكي وهوس الشراء وفوبيا المال

د. محمد قاسم عبد الله*

يلعب المال دوراً مهماً في الحياة،كما أن له مكانة خاصة في حياتنا النفسية التي تمتلئ بالأمل، والألم، والاستثارة، والنشاط، والسعادة، وذلك لأنه يرتبط بالكثير من الدوافع والحاجات، والقيم، والاتجاهات الفردية والاجتماعية. فالتجربة المالية جزءٌ لا يتجزأ من خبرتنا النفسية، وكثيراً ما يكونُ المال مشكلةً وليس حلاً، فقد يكون المال ذا طابع سلبي مؤلم على الرغم من أنه يرتبط في أذهان الكثيرين بالسعادة والإيجابية، والأمل. وإذا كان البعض يربط

* أستاذ الصحة النفسية كلية التربية- جامعة حلب

بين المال والسعادة، ويرى أنهما وجهان لعملة واحدة، فإن تلك السعادة مشروطة بالنتائج الإيجابية للمال، وهي نتائج غير مضمونة دائماً. وهناك الكثير من التساؤلات التي يطرحها علماء النفس حول المال، منها: متى ينفق الناس المال ومتى يدخرونه؟، ومتى يصبح المال رمزاً للقوة والسلطة، والشعور بالسعادة؟ ومتى يصبح المال من مصادر القلق والألم، والخوف؟ فإذا كان علماء الاقتصاد ينظرون إلى المال بوصفه مجموعة أوراق مالية وعملات معدنية، ومعادن ذهبية أو فضية، فإن علماء النفس ينظرون إلى المشاعر والوجدان المرتبط بهذه الأوراق وتلك العملات، إنهم يبحثون في موضوعات: البُخل، والادخار، وهوس المال، وسلوك الرشوة، وسلوك النصب والاحتيال، والتهرب من الضرائب، وفوبيا المال، وعلاقة المال بكل من السعادة والأمل من جهة واليأس والضيق من جهة أخرى. لكن مثل هذه التساؤلات تبقى من الموضوعات التي تتداخل في بحثها علوم الاقتصاد، والنفس، والاجتماع، والتي توصلت إلى نتائج مهمة عنها. إلا أن هناك تساؤلات مهمة عن المال في مرحلة الطفولة والمراهقة، ومن أبرز التساؤلات التي يسعى علماء النفس للإجابة عنها هي:ماذا يعرف الأطفال عن المال؟ ومتى يدركون معناه؟ وما هي المحددات النفسية، والمعرفية، والاجتماعية التي تؤثر في إدراكهم للمال؟ وهل يلعب النمو العقلي والمعرفي دوراً مهماً في ذلك؟ وما علاقة متغيرات العمر، والجنس، والمستوى الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في هذه المدركات؟ وما هي الدلالة النفسية لمصروف الجيب لدى الأطفال؟ كيف ولماذا يدخر الأطفال المال أو يصرفونه؟ تعتبر هذه التساؤلات محور البحوث النفسية حول سيكولوجية المال لدى الأطفال. وبسبب التغيرات الاجتماعية السريعة والمعاصرة، التي رافقت العولمة وسيطرة القيم المالية، واقتصاد السوق، والمعرفة،والتي انعكست على عملية التربية، ونمو الطفل، فقد زاد الاهتمام ببحث علاقة الطفل بالمال، هذه العلاقة التي تبدأ على شكل لعب ولهو وتسلية في مراحل النمو الأولى أكثر منها علاقة جدية، فإن المال يمثل عدداً من الدلالات النفسية والاجتماعية التي تعمل على تدريب الطفل للكثير من الأنشطة والسلوكيات الموجودة لديه بالقوة أو بالفعل، هذه العلاقة وجدانية، وتتغير معها الكثير من سمات الشخصية لدى الطفل، كما يكتسب من خلالها الكثير من القدرات، وتتسع خبراته ومدركاته من خلال اكتسابه لمفاهيم مثل: الادخار، والمصروف، والإنفاق،

والبيـــع، والشـــراء، والاستهـــلاك، والثروة، والغنى، والفقر، إضافة إلى الكثير من المعاني المجـــردة التـــي تتضمنها هـــذه السلوكيات مثـــل الاستقلالية، والاعتمـــاد على الذات، والإحساس بالأمـــن، وإذا اضطربت علاقة الطفـــل بالمال فإن هـــذه العلاقة المضطربة ستمتـــد آثارها إلى مراحـــل النمو اللاحقة وخاصة المراهقة لتتحول إلى حالات مرضية منهـــا البخل أو الإســـراف، وحب التملك أو الأنانية والجشع، وســـلوك الرشوة، والغش، والسرقـــة، والنصـــب، أو ســـلوك المقامـــرة والاحتيال في مرحلة الرشد[1].

يعتبر سلوك الاستهـــلاك لدى الأطفال من أبـــرز الموضوعات التـــي يبحثها علماء النفســـ لارتباط هذا الســـلوك بالعديد من المحددات النفسية، والاجتماعية. فهو يرتبط بدرجة إشبـــاع الطفل لاحتياجاتـــه المادية والفسيولوجيـــة مـــن مأكـــولات ومشروبات سواء داخل المدرسة أو خارجها، وبمصروف الجيب، كما يرتبـــط بسلوك الحرص الذي يظهر لدى الطفل حـــين استخدامه لمصادر الطاقة من كهربـــاء، وماء،أو محافظته على أثاث المنـــزل أو المدرسة وبيئتها، كما يرتبط من جهـــة ثانية بإشباع الاحتياجات النفسية والاجتماعيـــة للطفـــل مـــن الاستقلاليـــة، والاعتماد على النفس، والمكانة، إلا أن هذا الســـلوك قـــد يتحول إلى ســـلـــوك غير سوي بحيـــث يظهر من خـــلال سيطـــرة مشاعر الخـــوف والقلق من المـــال لدى الطفل حتى يتحول إلى حالة مرضية تسمى هوس المال، هـــذه الحالة تؤثر في تفاعله الاجتماعي مع الآخرين، وفي سلوكياته التكيفية[2].

مفاهيم أساسية:

ما هو السلوك الاستهلاكي؟: هو كل فعل أو نشاط يستخدم فيه الفرد منتجاً ما بغرض إشباع حاجاته ورغباته ومتطلباته. وبما أن المتطلبات والاحتياجات تتزايد باستمرار مع التطور التكنولوجي والتغيرات الاجتماعية، فقد سيطرت نزعة الاستهلاك على الفرد في مختلف مراحل نموه وفي مختلف المجتمعات. ويرتبـــط ســـلـــوك الاستهـــلاك بالعديد من الأنشطة التي لا تقتصر على إشباع الحاجات الفردية والدوافع البيولوجية والنفسية (مثل المأكولات، والمشروبـــات، والألبسة،والألعاب، والأحذيـــة، والأثـــاث المنـــزلي،والأدوات المنزلية)، بل تمتد لتشمل كيفية تعامل الفرد مع مصادر البيئة والطاقة بأشكالها المختلفة (مثل الماء، والمصابيح الكهربائية، والحفاظ على البيئة المدرسية، وأثاثها..إلخ)،[3].

الاتجاهـات النفسيـة نحو المـال: يعرف الاتجـــاه بأنه استعـــداد ثابـــت نسبياً يدفع الشخص للتصـــرف بطريقـــة معينة حيال

شخص أو قضية معينة «وهو تنظيم مركب يدفع الشخص لاتخاذ موقف نحو موضوع معين أو شخص ما». والاتجاه نحو المال هو موقف الشخص نحو المال، حيث يحدد سلوكيات الأفراد المالية في الماضي والحاضر، وما يرغبون فيه في المستقبل، كما يحدد معتقداتهم وأفكارهم نحو المال[٤].

هوس المال: وهو اضطراب نفسي يسيطر على الفرد نزعة قوية تدفعه بصورة مبالغ فيها إلى تملك المال، بغض النظر عن حاجته ومتطلباته. وقد يدفع هوس المال الفرد إلى أن يستدين أو يقترض أو يسعى للكسب بشتى السبل، وذلك لأنه يشبع حاجات نفسية وهمية أو إحساس وهمي بتقدير الذات والمكانة الاجتماعية. والفرد الذي يعاني من هوس المال تسيطر عليه مشاعر القلق حين ينفق المال في أي وقت، كما يمتنع عن الحديث عن المال وعن الدخل أمام الآخرين، وقد يستيقظ ليلاً لدراسة خطة الادخار، وفي مواقف أخرى قد يستخدم المال بغرض التحكم في الآخرين. من جهة ثانية تظهر لدى هذا الفرد أعراض القلق حين يدفع الفواتير، أو يذهب للتسوق[٥].

المال والسلوك الاستهلاكي والاضطرابات النفسية:

على الرغم من أن علاقة الطفل بالمال هي في بادئ الأمر علاقة لعب ولهو وتسلية أكثر منها علاقة جدية، فإن المال يمثل عدداً من الدلالات النفسية والاجتماعية التي تعمل على تهيئة الطفل للكثير من الأنشطة والسلوكيات المتعلقة بالمال عنده. فمن خلاله يكتسب الطفل مفاهيم الإنفاق، والادخار، والبيع، والشراء، والثروة، والغنى، والفقر، كما تتشكل لديه مفاهيم مجردة تتعلق بشخصيته منها: الاستقلالية، والاعتماد على الذات، والإحساس بالأمن، والتملك، هذه العلاقة إذا اختلت فإنها تنحرف بالطفل عن السلوك السوي، وقد تظهر لديه حالات مرضية نتيجة ذلك من أبرزها: فوبيا المال، و الهوس بالمال، والأنانية،، والبخل، والغش، والسرقة، والتزوير، والاحتيال، والمقامرة[٢].

وحين يتحدث علماء النفس عن سيكولوجية المال لدى الأطفال، فإنهم يركزون على الشكل التقليدي الذي لا يتعدى النقود الورقية أو المعدنية، أما عدا ذلك من أشكال المال التي يدركها الراشدون، فإن الأطفال يدركونها على أنها بمثابة حلي وزينة،أو من مصادر اللهو. ويدرك الطفل المال ليس في حدود الإحساسات من ملمس ولون، وحجم،

وشكل فقــط، بل يضفي عليها رموزا معينة مع تقدمه بالعمر، وخاصة حين يسيطر على مخيلته الكثــير من الخيــالات والتصورات المتنوعة. وقد أشارت العديد من الدراسات النفسية الخاصة بإدراك الطفل للمال، إلى أن الــدور الذي يلعبه المال في تحديد البناء النفســي للطفل ينطوي علــى ثلاثة عناصر أساسيــة هي: يتشكل لــدى الأطفال بعض المفاهيم الماليــة والاقتصادية التي تنمو مع تقدم الطفــل بالعمــر، وأن المفاهيم المالية تنمو وفقــاً للنمو المعرفي الــذي ذكره جان بياجيه، كما أن العوامــل الاجتماعية تلعب دوراً مهماً في إدراك الطفل للمال(٢).

عادة مــا يتعرف الأطفــال على النقود حين يشاهدون الآباء يتعاملون بها في سلوك البيع والشــراء، وحين ينفقونها أو يحصلون عليها، ولكنهم لا يدركــون المعنى الحقيقي المجــرد لهــا إلا في الطفولــة المتأخرة، كما يتفاوت هــذا الإدراك من ثقافة إلى أخرى، ومن طفــل إلى آخــر، ويتوقــف ذلك على طبيعة المعلومات التي يحصل عليها الطفل مــن والديه والمحيطين به، ولا يدرك الطفل القيــم المختلفة لهــا إلا في مرحلة الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة(٧).

مستويــات معتقــدات الأطفــال ومدركاتهــم نحو المــال: لقد أشارت بعض الدراسات إلى أن معرفة الأطفال ومعتقداتهم التي تحــدد استجاباتهم نحو المال تمر عبر أربعة مستويات هي:

المستــوى الأول: حيث لا يدرك الأطفال ما هي طبيعة المــال، وكل مايعرفه الأطفال هنــا أن الأب يحصل على المــال من جيبه الخاص، وأن المال يوضع في الجيب، وتكون هذه المدركات بــين سني الرابعة والخامسة من العمر.

المستوى الثاني: يعتقد أكثر الأطفال أن المال يأتي عن طريق بعض الأشخاص الذين يمنحونــه لكل من يطلبــه، ولكن القليل من الأطفال هم الذيــن يعتقدون بأن البنك هو المسؤول عن إعطاء المال، كما يعجز الأطفال في هذا المستوى عن إدراك العلاقة بين المال والعمــل. ويسيطر هذا المستــوى بين سني الخامسة والسادسة من العمر.

المستــوى الثالــث: وفي هــذا المستــوى ينمــو إدراك الطفل قليلاً حــين يعتقد بأن باقي النقــود التي يعطيها البائعون والتجار للمستهلك عند الشراء هي المصدر الأساسي للمال، ويسيطــر هذا المستوى بين السادسة والسابعة من العمر.

المستــوى الرابــع: وفي هــذا المستــوى تحدث نقلة نوعيــة في مدركات الطفل عن المال، حيث يعرف المصدر الأساسي للحصول

على المال، كما أنه يميز بين الأنشطة التي تعتبر عملاً يكافأ عليه بالمال، وبين الأنشطة العادية التي لا تستوجب الحصول على المال. وتسمى هذه المرحلة باسم «الطفرة الإدراكية للمال» وهي طفرة تحدث مع نمو معتقدات الطفل ومفاهيمه المتعلقة بالمستويات الثلاث السابقة. وتسود هذه المرحلة سني السابعة والثامنة من عمر الطفل[٨].

السلوك الاستهلاكي ومصروف الجيب عند الأطفال: بما أن الخبرة بالمال والإنفاق في الطفولة تؤثر في خبرات الفرد في سنوات العمر اللاحقة، فقد أصبح مصروف الجيب من الأساليب الجيدة التي يمكن للوالدين أن يستخدماها في تطبيع الطفل اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً، خاصة وأن الطفل يضفي على المال الكثير من المعاني والدلالات النفسية والاجتماعية والشخصية، حين يشعر بالاستقلالية والاعتماد على النفس، والمسؤولية، والمساواة مع الآخرين، فضلاً عن الشعور بالخصوصية التي يتمتع بها الكبار. وهكذا فإنه خطوة مهمة في تكوين ذات الطفل وشخصيته، مما يتيح له أن يتفاعل مع الآخرين وفق مفاهيم البيع والشراء، والاستهلاك، والادخار، والإنفاق. وعلى الرغم من أهمية مصروف الجيب بالنسبة للطفل، فإن كثيراً من الآباء يجهلون قيمته النفسية والاجتماعية والشخصية، ويركزون فقط على الجانب الاقتصادي، ويمنح الآباء أبناءهم مصروف الجيب للأسباب التالية:

١- حتى لا يشعر الطفل بالنقص أو الدونية بين أقرانه. ٢- بدافع المسايرة الاجتماعية لما هو سائد. ٣- بدافع الافتخار والاستعراضية، وهو ما يظهر لدى الطفل الذي يكون مصروف جيبه كبيراً جداً وزائداً عن حاجته، كما لا يتلاءم مع عمره.[٢]

وحين نتحدث عن مصروف الجيب نرى أن بعض الآباء يشددون على أنه ليس له قيمة، طالما أن الطفل تتحقق له جميع احتياجاته ومتطلباته من مأكل، وملبس، ومشرب، ووسائل لعب، وترفيه، ومستلزمات مدرسية وغيرها. ولكن بالمقابل يشدد علماء النفس على أنه من الصحيح أن الطفل قد تتحقق حاجاته المادية والفسيولوجية، ولكن تغيب عنه مطالبه ورغباته، وحاجاته النفسية الاجتماعية، لذا يجب على الوالدين أن يدركا الأهمية النفسية والاجتماعية لمصروف الجيب، لأنه يساعد في تنمية الذات والشخصية من خلال تعليم الطفل كيف يتعامل مع المال (٩). وحين تتكون مفاهيم المصروف وتلبية الاحتياجات المادية العضوية، والنفسية الاجتماعية للطفل تنمو لديه سلوكيات الاستهلاك، هذه السلوكيات

المتعلقة بالتسوق والشراء، والتعامل مع مصادر البيئة، تحدد خبرته في التعامل مع المال وكيفية استخدامه، وكذلك تشجيعه على الكسب المالي خارج المنزل، إضافة إلى الخبرات المتزايدة في مدركات الطفل عن الادخار والاستهلاك، والإنفاق.

هوس المال ونزعة الشراء: كثيراً ما يقع الفرد ضحية للديون حين يكون مدفوعاً بصورة مبالغ فيها لشراء الأشياء والرغبة في التملك لكل شيء، سواء كانت هذه الأشياء ضرورية أم غير ضرورية، يحتاج إليها أم لا يحتاج إليها، تناسب إمكاناته المادية أم تعوق هذه الإمكانات. إن هؤلاء أفراداً مهووسون بالشراء والاستهلاك ويعانون من جنون التسوق، كلما اشتهى الفرد شيئاً اشتراه بماله أو مال غيره عن طريق الاقتراض، المهم أنه اشتراه. إن هذا الهوس يدفع الفرد إلى الاستدانة من الآخرين، واقتراض الكثير من المال، ولكنه في الوقت نفسه يمنح صاحبه إحساساً وهمياً بتقدير الذات والهيبة والمكانة الاجتماعية، وكثيراً ما يلبي بعض الخيالات الطفولية لديه، كالإحساس بالقدرة المطلقة والسيطرة على البيئة المحيطة به. إن المهووسين بالشراء والاستهلاك إذ يشترون اليوم أشياء لايحتاجونها، سوف يضطرون غداً – تحت وطأة الديون- إلى بيع أشياء قد يكونون في أمس الحاجة إليها[١٠].

في عام ١٩٨٩ أجري مسح شامل عن معدلات الاستهلاك ومصروف الجيب في بريطانيا، وتبين أن متوسط هذا المصروف أسبوعياً بعادل ١,٤٠ دولار، ويزيد كلما تقدم الطفل بالعمر. كما تبين أن الأطفال الذكور يحصلون على مصروف جيب أكثر قليلاً من الإناث، وأن أعلى معدل لمصروف الجيب هو في اسكتلندا. وقد لوحظ أن مصروف الجيب قد تزايد في بريطانيا في الفترة بين ١٩٧٥ حتى ١٩٨٩ بنسبة ٢٥٪، وتفاوتت نسب الزيادة في الفترة بين ١٩٨٩ حتى ١٩٩٦ بسبب التضخم.

وقد أجري عدد من الدراسات المسحية على الاستهلاك ومصروف الجيب لدى الأطفال الفرنسيين، وتبين أن الآباء يمنحون أطفالهم قليلاً من المصروف، ولكن الأطفال أشاروا إلى أنهم يحصلون على المزيد منه، وجاءت هذه المفارقة لأن الأطفال يجمعون كل ما يحصلون عليه من أموال من الوالدين والأقارب. وقد ظهر أن المصروف يعد عاملاً مهماً بالنسبة للفرنسيين، إذ يمثل ١٠٠٪ من الدخل للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٤-٧ سنوات، ويمثل ١٤,٥ من الدخل

بالنسبة للأفراد الذين تراوح أعمارهم بين ١٣-١٤ سنة،[١١]

وقد أجرى فرنهام وتوماس دراسة في عام ١٩٨٤ بعنوان «مدركات الراشدين عن التطبيع الاجتماعي-الاقتصادي للأطفال» وتكونت عينة الدراسة من ٢٠٠ مفحوص من الراشدين والمراهقين البريطانيين من الذكور والإناث. طبق عليهم مقياس خاص بالسلوك الاستهلاكي والمصروف، ويقيس معتقدات الراشدين والمراهقين بشأن الطريقة التي يعطى من خلالها المصروف: هل هي يومية، أم شهرية أم أسبوعية؟ وهل يجب تشجيع الأطفال على المصروف مقابل بعض الأعمال البسيطة أم أن نعمل على ادخاره لهم؟ وقد أظهرت النتائج أن الإناث يعتقدن أنه من الأفضل أن نعطي الكبار من الأطفال في مرحلة الطفولة المتأخرة مصروفاً شهرياً، أما الذكور فكانوا يفضلون مصروف جيب يومي للطفل ولاداعي لمحاسبته عليه. وقد تبين وجود فروق دالة إحصائياً بين مدركات الذكور والإناث نحو المصروف والاستهلاك، ويرجع ذلك إلى طبيعة العلاقة مع الطفل. فغالباً ما تكون علاقة الرجل بالطفل علاقة قائمة على تشجيع الاستقلالية والانفصال حتى يعتمد الطفل على نفسه، أما علاقة المرأة بالطفل فإنها تميل إلى الارتباط والاتصال الدائم المستمر بهدف التعرف على قدراته باستمرار وما يحققه من إنجازات.

أما بالنسبة للعمر فإن كل مرحلة عمرية لها معتقداتها ومدركاتها نحو الاستهلاك والمصروف، فقد تبين أن هناك فروقاً دالة إحصائياً بين مدركات المراهقين والراشدين، حيث يعتقد المراهقون أن الأطفال الذكور ينفقون مصروفهم في شراء الأطعمة وبعض الحاجيات التي لا تلزمهم، من دون أن يتعلموا منه أي مهارات، وذلك بخلاف الإناث اللائي يحرصن غالباً عليه وينفقنه في ما يفيدهن، كما أنهن تعلمن مهارات الادخار من خلاله. لذا يرى المراهقون أنه يجب إعطاء الإناث مصروفاً أكبر قليلاً من الذكور، وأن يكون ذلك مقابل قيامهن ببعض الأعمال المنزلية البسيطة حتى يتعلمن قيمة العمل، وأن المال لا يأتي من دون مقابل. أما بالنسبة للعمر الذي يجب أن يحصل فيه الطفل على المصروف للاستهلاك الشخصي، فقد تبين أن الطبقة الوسطى تمنح أطفالها مصروفاً في سن مبكرة بخلاف الطبقة العاملة التي تمنحه في سن متأخرة. ويعتقد ٩٠٪ من أبناء الطبقة المتوسطة أن الطفل يجب أن يحصل على مصروف في الثامنة من العمر، وهناك نسبة ٨٠٪ من الطبقة العاملة يرون أن الطفل يجب أن يحصل على المصروف

في بداية الثامنة من العمر أيضاً. ويتفق الجميع على أن الطفل يجب أن يكون قادراً على الاستهلاك من مصروفه الشخصي حين يناهز العاشرة من العمر،[٨].

وفي دراسة لميللر وبينغ حول «دور مصروف الجيب والاستهلاك الشخصي في التطبيع الاجتماعي للمراهقين»، تبين أن كثيراً من المراهقين يعتقدون أن مصروف الجيب فرصة تربوية لتنمية السلوك الاستهلاكي والاعتماد على النفس، ويساعد في اتخاذ الكثير من القرارات الاقتصادية، كما أنه وسيلة لدعم الفرد وتطبيعه اجتماعياً وخاصة فيما يتعلق بتنمية مفهوم الذات وتنمية الدور الجنسي[١٢].

في دراسة للباحثين سنوج وويبلي عام ١٩٩٣ بعنوان «ادخار الأطفال: دراسة في نمو السلوك الاقتصادي » اتضح أن الأطفال يدركون سلوك الادخار بوصفه شكلاً جيداً من أشكال توفير المال والحفاظ عليه، كما يعلم الطفل الدلالة الوظيفية للمال، ويشبع الحاجات المادية والفسيولوجية للطفل وللوالدين. وحين يدخر الأطفال أموالهم يتم لك بدوافع عديدة أبرزها:

- الرغبة في انتزاع الإعجاب من المحيطين بهم، خصوصاً الوالدين، مما يساهم في دعم الوالدين للطفل، ب- يدخر الأطفال بدافع من الأنانية وحب التملك، ج- الرغبة في منافسة الأطفال والتفوق عليهم مالياً،د- إغاظة أقرانهم بامتلاكهم نقود تفوق نقودهم[١١].

وفي دراسة أمريكية على عينة مكونة من ٤٩ شخصاً يبلغ متوسط دخلهم السنوي ١٠ ملايين دولار أمريكي، أجريت مقارنة بينهم وبين عينة ضابطة مكونة من ٦٢ شخصاً. أظهرت النتائج أن الأفراد شديدي الثراء لديهم ارتفاع بسيط في الشعور بالسعادة عن عينة المجموعة الضابطة، وأن المشاعر السلبية كانت أقل لدى الأغنياء. ولكن الأغنياء كانوا أكثر اهتماماً بالمال وحصلوا على درجات عالية فيما يتعلق بعامل الاحتياج إلى المال حيث ظهر ذلك من خلال عبارات مثل «أعتقد أن المال يستطيع حل جميع مشكلاتي»، «أشعر بالقلق على أموري المالية»، «أقدم المال على المتعة». وتبين أن الاتجاهات النفسية لدى الأغنياء نحو المال تشير إلى أن المال قوة، كما ظهر من خلال عبارات مثل: «أشتري أشياء لا أحتاج إليها، حتى يشعر الناس بأنها أشياء ضرورية لهم»، «أحياناً أشتري الصداقات بالمال»،[١٣].

في دراسة قام بها الباحث على عينة من الأطفال والمراهقين، تم التوصل إلى النتائج التالية:

١- يسود السلوك الاستهلاكي لدى الأطفال بدرجة مرتفعة كما عبرت عنه استجاباتهم على مقياس الاتجاهات النفسية نحو المال.

٢- يسيطر على الأطفال هوس المال كما عبرت عنه استجابتهم على مقياس هوس المال.

٣- وجدت علاقة موجبة بين أبعاد السلوك الاستهلاكي: السلوك القسري، والإنفاق، والادخار، والإحساس بالأمن، والقدرة والاستهلاك من جهة، وكل من هوس المال، والخير، والإنجاز وتقدير الذات، والحرية والقوة من جهة ثانية.

٤- وجدت علاقة سالبة بين الادخار والشر، وبين الإحساس بالأمن والشر. كما وجدت علاقة سالبة بين عدم الكفاية وكل من: الإنجاز، وتقدير الذات، والقوة.

خلاصة:

يعتبر السلوك الاستهلاكي ومصروف الجيب من العادات الأسرية المتأصلة في مختلف المجتمعات حيث يقوم الآباء بطريقة روتينية في ذلك دون معرفتهم أن هذا المصروف يساعد في تشكيل سلوكهم الاستهلاكي وتكوين نمط شخصيتهم، ويرى علماء النفس أن هذا المصروف مهم لأنه يمثل درساً عملياً للأطفال حين يعلمهم القيم الاستهلاكية والسلوكية المهمة، والسلوك الاستهلاكي مظهر حضاري يختلف من شعب لآخر بل يختلف من فرد إلى آخر في المجتمع نفسه تبعاً للوعي والثقافة الاستهلاكية السائدة في المجتمع ومدى تقدمه ودرجة تحضره وقيمه الاجتماعية. تتطلب التربية السليمة إكساب الأبناء حقائق ومهارات واتجاهات سليمة نحو ترشيد الاستهلاك وحسن الإنفاق بحيث تتسم بالتعقل والاتزان[١٥].

لقد تبين من أن السلوك الاستهلاكي لدى الأطفال والمراهقين يرتبط بمصروف الجيب وبالقيم السائدة، حيث ينفق الطفل مصروفه على سلع كثيراً ما تكون كمالية بأسلوب التباهي والتفاخر أمام الأقران، وقد يصل إلى مرحلة مرضية كما ظهر من خلال سيطرة ظاهرة هوس المال الذي يؤدي إلى مخاطر نفسية واجتماعية لا يتوقف عند استهلاك المال فقط بل يمتد ليشمل نواحي أخرى من الحياة البشرية مثل: الماء، والكهرباء، والأثاث المنزلي، والممتلكات العامة والبيئة. وهناك عدة عوامل تسهم في جعل الطفل استهلاكياً:

١- التعلم والمحاكاة وتأثير القدوة وخاصة سلوك الوالدين الاستهلاكي.

٢- مستوى الدخل النقدي، لأن هناك علاقة موجبة بين دخل الأسرة وزيادة الاستهلاك.

٣- وسائل الإعلام والإعلانات الدعائية والتجارية التي ترسخ لظاهرة الاستهلاك.

٤- تعليم الأم للطفل، واتخاذ القرارات الاستهلاكية.

٥- البيئة الاجتماعية، وخاصة الأهل والأقران داخل المدرسة وخارجها.

٦- العوامل النفسية مثل: الغيرة.

ومن الجوانب المهمة التي يجب أن تؤخذ بالاعتبار تربوياً ونفسياً:

١- تدريب الطفل على ضبط نزعاته ودوافعه وخاصة شهوة حب الشراء، لأن التربية السليمة تتطلب إكساب الأبناء قيم ومهارات نحو ترشيد الاستهلاك وحسن الإنفاق اللذين يتسمان بالتعقل والاعتدال.

٢- مناقشة الطفل بالمبلغ الذي سيقدم له، وبمصروف الجيب، وهل هو مناسب لاحتياجاته والميزانية الشهرية.

٣- مناقشة الطفل في الأشياء التي سيشتريها وهل سعادته آنية أم مستمرة.

٤- تشجيع الأطفال على التوفير والتكافل الاجتماعي، فهو طرق الضبط الذاتي والتحكم بالسلوك والذي يساهم في تكوين شخصيته الناضجة لاحقاً.

٥- إدخال موضوعات الاستهلاك، ومصروف الجيب وسمات الشخصية وسيكولوجية المال في المناهج الدراسية.

٦- إجراء المزيد من الدراسات حول هذه الظاهرة خلال مراحل النمو المختلفة، ودراسة السلوك الاستهلاكي وعلاقته بمتغيرات نفسية أخرى في الشخصية.

المراجع

١- أكرم زيدان (٢٠٠٥) سيكولوجية المقامر: التشخيص والتنبؤ والعلاج. عالم المعرفة، العدد٣١٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٢- أكرم زيدان (٢٠٠٠) سيكولوجية المال: هوس الثراء وأمراض الثروة. عالم المعرفة. العدد ٣٥١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٣- شارلوت سميث (١٩٩٨) موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية. ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع. الهيئة العامة لشؤون المطابع: القاهرة.

٤- أسماء عبد العزيز الحسين (٢٠٠٢) المدخل الميسر إلى الصحة النفسية والعلاج النفسي. دار عالم الكتب: الرياض.

٥- كمال الدسوقي (١٩٩٨) ذخيرة علوم النفس،المجلد الأول. الدار الدولية للنشر: القاهرة.

6- Berti ,H and Bombi,A.(1981)The development of concept of mony and its values, Child Development,Vol.(8(2).pp1178

7- Furnham,A. And Thomas.(1984)Pocket- mony;astudy of economic education. British Journal of Development Psychology,Vol (2),205

8- Furnham,A. And Thomas.(1984)Adult perception of economic socialization of children. Journal of Adolescence,Vol (7) pp 217231-

9- Miller,G (1990)The role of allowances in adolescent socialization, Youth and society,Vol (22),pp 137156-

10- Song,B. And Webley,P.(1993)Children saving; A study in the development of economic behavior.Lawernce

11- Elbram Association.

Compbell,A.(1999) The Quality of American life. New York.Sag.

١٢- محمد رابح وسلوى ساوي (٢٠٠٣).مقياس السلوك الاستهلاكي (الطفولة المتأخرة). في : أسماء عبد العزيز الحسين» المدخل الميسر إلى الصحة النفسية والعلاج النفسي «دار عالم الكتب: الرياض.

13- Furnham,A. And Thomas.(1984)Pocket- money: A study of economic education. British Journal of Development Psychology,Vol (2),205

14- Tang.T.(1995).The Development of a short money ethics scale: Attitudes toward money. Personality and Individual Differences.Vol (19),pp 809816-.

١٥- سلوى مرتضى (٢٠٠٨) الأبناء ومصروف الجيب، مجلة المعلم العربي العددان (٢ ،٣) صيف وخريف ٢٠٠٨ن ص ١٦-١٩.

الإبداع

شعر :

- إرثُنا الخالد هذا — سليمان العيسى
- وصايا الحب — د. ثائر زين الدين

قصة :

- ورد ورماد — نيروز مالك
- تشبهك تماماً..! — غانم بو حمّود

إِرْثُنا الخالدُ هذا

شعر

سليمان العيسى ❁

حين تلقى الشاعر دعوةً لحضور معرض للكتاب.

لَيْسَ بدْعاً ما أرَى..
ليسَ جديداً..
إِرْثُنا الخالدُ هذا
إِرْثُنا الحاضرُ والماضي.. طريفاً وتَلِيدا
نحنُ مَنْسِيُّون في رُكْنٍ من الدنيا..

❁❁ شاعر العروبة والطفولة الكبير.
ℰ العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع.

أقولُ..
نحــنُ مَنْسِيُّــونَ فيهِ
-رُبَّمَا-
دَعْ قَمَري يَأْكُلُ جَنْبَيْهِ
الأُفولُ
نحنُ مَنْسِيُّونَ.. لكنّي
أنَّــا ألاّ عطَيْتُ للدنيا
الكِتَابَ الأوَّلاَ
والهجَاءَ الأوَّلاَ..
والضياءَ الأوَّلاَ
أنــا لا أشكو ضَيَاعي
في المَتَاهَةْ
قَدَرٌ..
أسْلَمَني يوماً إلى ليلِ
المتَاهَةْ
وسَأخْرُجْ..
في يَمينــي أبــداً أوَّلُ
حَرْفِ
نَوَّرَ الدنيا..
ولم يَبْرَحْ حفيدَ النورِ طَرْفِي
أيقِظُوا كُلَّ عَشِيَّات العَرَارْ

من هنا كان إلى الخلدِ السِّفارْ
أنْشُروني.. دارةً لِلْكُتُبِ
بين سُورِ الصينِ والأنْدَلُسِ
لم تَزَلْ تَرقُدُ
في أعماقِ لَيْلِي
كُتُبي..

بينَ سُورِ الصينِ والأنْدَلُسِ

❁ ❁ ❁

سوفَ أصْحُو ذاتَ يومٍ
عالَماً بدْعاً منَ الضوءِ جَديدَا
ليسَ بدْعاً مَعْرِضٌ أُدْعَى له
ليسَ جَديدَا..

❁ ❁ ❁

كنتُ طفلاً.. حينَ تحتَ التوتةِ الخضراءِ
أشْعَلتُ حروفي..
كنتُ طفلاً.. أتَهجَّى سورةَ الفتح،
وكَنْزي في يَدِي.. داني القُطوفِ
يــا حــروفَ الســورةِ الأولى، ويــا زادَ الطفولَةْ
لا تغادِرْني، فَعمري لم يكن لولاكَ شَيَّا
خَلّني طفلاً بإرثي الضخم، طفلاً، أتفَيَّا

الإبداع

وصايا الحب

شعر

د. ثائر زين الدين ❁

هبطَ الملاكُ مُجلّلاً بالغيمِ
نفَّض عن يديهِ ومنكبيه غبارَ عالمِهِ البعيدِ
فطارَ تبرٌ ضواً الغبشَ المخيمَّ
في حنايا الغرفة الملأى
كبيتِ النملِ – بالكتبِ الكثيرةِ –
رفّ قربي،

❁❁ شاعر وأديب ومدير ثقافة السويداء.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

عبأتْ أنفي عطورٌ كنتُ أعرفُ أهلها؛
فهمستُ بينَ الصحو والإغفاءِ:
- هلْ عادتْ؟
وعاد الصوت:
- لم يرجعْ من الماضي أحدْ!
هبطَ الملاكُ وها هو ذا يحدّقُ بي
ويهمسُ حانياً:
- قمْ يا صغيريَ
إنَّ عندي ما أبلّغُهُ!
فركتُ جفونيَ التعبى من السهرِ الطويلِ
تبسَّمتْ شفتايَ ساخِرةً:
- ملاكٌ في سدوم؟!
إنّها الخمرُ الرديئةُ والوساوِسُ؟!
واستــدرتُ إلى الجدارِ، وغبــتُ في نومٍ غريبٍ
قالَ:
- قُمْ.. هي بضع أفكار تسِّجلُها
وأمضي،
لن أظلَّ إلى جوارِكَ للأبَدْ!
أيقنتُ أنيَّ لستُ في حُلم
وأنّ الضيفَ ليسَ سوى ملاكٍ، أو....؟
وقاطَعَ فكرتي:
- بل إنني مبعوثُ رَبِّ الحُبِّ
فانهض من سُباتِكَ
وانتضي قلماً وسجّلْ ما أقولُ؛
وجلستُ ملتاثاً،
يضيءُ فضاءَ غرفتي الصغيرةِ
وجهُ زائريَ الجميلُ:
- الحبُّ روحُ اللّهِ؛ فاعشقَ ما أردتَ وما استطعتَ
فإنما تهوى الإلهَ مجسّداً فيمن تحبُّ
وإنما تبصرُ نورَ بهائِهِ في وجهِ من تهوى
وليسَ إليهِ من دربٍ سواها
ليسَ إلاّ عبرَ عينيها الوصولُ!!
- سجّلــتُ يا أبتي، ولكــن النساءَ كحقل فاكهةٍ؛
هناكَ الحلوُ والمرُّ
الخبيثُ يُطلُّ
والحَسَنُ الجليلُ
- هذي إذاً ثاني الوصايا:
لا تقــلْ أحببتُ تلكَ لِحُسْنِهــا، أو تلكَ ينقُصُها الجمالُ
فليسَ في المرأةِ إلا الحسن
حدق جيــداً ولســوفَ تبصِـرُ أفرُديتَ وراءَهنَّ
وعشتروت وربَما إيزيس
مُتْ في الحب في أحضانهنَّ
وسوفَ نكتُبُ في سجلّاتِ السما:
نعمَ القتيلُ!!
- دوّنت يا أبتي
- ودوّن:
- قد ترى نفسكَ عاديّاً

ككل النملِ من حولك يسعى
لا تميّزكَ المواهب،
لا الثراء
ولا الوسام
فلا تخفْ؛ ستكــون أنت الكون،كل الكون لامرأةٍ
تخبّئها الفصول.
– سجّلت يا أبتي
– وسجّلْ:
ليســَ أبغضَ عندَ ربّــكَ من رجالٍ لانساء لهمْ
ومن قلبٍ يعيشُ العُمرَ؛ لم تغسلهُ نارُ الحُبِّ
لمْ تُسْكِرْهُ خَمْرَتُهُ الشمولُ
– دوّنتُ
– أحسنتَ الصنيعَ.. أضِفْ إذاً:
لا تترك امرأةً تنامُ وحيدةً!
فالربُّ يغفرُ ما ارتكبتَ جميعَهُ
إلا هروبَــكَ من نداءِ جميلــةٍ موحودةٍ تدعوكَ
كيفَ تَفرُّ من وردٍ يُعتّقُ عِطَرهُ
وإلى متى؟؟
و«مقامكُمْ فيها قليلُ!»
واعلمْ بأنْ
لا شيءَ أخطَرَ من دموعِ العاشقاتِ
فلا تدعْ أنثى تحبّكَ تذرفُ الدمعاتِ

إنكَ لو فعلتَ فسوفَ تحرقكَ الدموعُ
وسوفَ تجرفكَ السيولُ!
وتنهّدَ المَلَكُ المشعُّ كنجمةٍ
و توقّدت عيناهُ شوقاً:
– لا تدعْ للكون أن يلهيكَ عَنْها
كُلَّما غوّصتَ في خلجانها
أوذبتَ في عسلٍ حماهُ النحلُ
من طمعِ الغُزاةِ
وقــلْ لها: فوقَ البسيطــةِ ليسَ من أحدٍ سوانا

هاهي الأمواهُ ترجِعُ
ثم ينكشفُ الترابُ، الصخرُ
بَدْءُ خليقةٍ يا حلوةَ العينينِ
هذا آدَمُ المطرودُ.. بينَ يديكِ
هــذا آدَمُ التائــهُ يغفــو كالغــزالِ على سفوحِكِ
إنه المكبولُ ليسَ لهُ إلى غيركِ
دربٌ أو سبيلُ...
- ثُمّ حاذرْ يا صغيريَ أن تبيعَ حِليّها
امرأةٌ لأجلك!
أن تبيعَ عطورها..
فالــربُّ يرفضُــ كُلَّ أضحيــة بهــذا الحجمِ...
أضحية تهزُّ ركائز الدنيا
وينتشر الذبولُ!
- لا لستُ أفعَلُ
- واحذرِ الغيرةَ..
قد يُدميك نصلُ دهائِها
فترى فؤادَك في حقولِ الحقدِ!
هذي المرأةُ الحسناءُ نبعٌ باردٌ
يُغري العِطاشَ؟!
شربتَ منهُ وما ارتويتَ
وسوفَ يحلُمُ آخرٌ بالماءِ
هل ستفرُّ بالنبعِ النميرِ على الجمالِ؟
وهل سيسعِفُكَ الحجابُ
أمِ الرحيلُ؟!
- دونتُ يا ملَكَ السماءِ
ولم أدعْ حرفاً يفرُّ!
- تباركت كفّــاكَ... بالكلمات ياولدي- تدوّنها
وتطلقها إلى الدنيا- تعيشُ الدهرَ
يهربُ من طريقكَ ماردُ الموتِ الثقيلُ.
دخلتْ ذؤاباتُ الصباحِ من الستارة...
وارتمت جذلى على الأشياء من حولي..
وسقسقت العصافيرُ اللهوفَةُ للضياء..
كأنها- الساعةَ قدْ قدمتِ إلى الدنيا...
رفعتُ عيوني التعبى عن القرطاسِ!!!
أينَ الزائرُ العلويُّ؟؟!
كيفَ مضى؟
ولم أسَمْعَ رفيفَ جناحِهِ الذهبي..
بابي موصدٌ بالقفلِ...
كيفَ أتى؟؟
تَبسّمَ قلبي الحيرانُ ثانيةً...
وتمتمَ لاهجاً بالشكر...
- عش طلقاً....
وزرْ يا أيّها الضيفُ
النبيلُ

الإبداع

ورد ورمـــاد

قصة

نيروز مالك

تساءل مصطفـــى وهو يرتشف من فنجان القهـــوة رشفته الأولى، إن كانت القصة قد انتهت؟

أجابه يوسف عبد الله: «نعم.. ولكن هناك إضافة!».

«هاتها، ولكن أرجو أن لا تطول.. فأنا على موعد بعد عشرين دقيقة».

هز يوسف عبـــد الله رأسه وقال: «لا بأس». ثم تابع: «أما الإضافة فكانت عن ثلاثين السنين الماضية عندما كان شاباً.. لم أعرفه في يوم من الأيام إن كان

أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

من أصحاب الشهادات. فأنـا لم أسأله أبداً عن هـذا الأمر.. ولكني أذكـر: كان في كل نقاشاتنـا، إن كانت حول الأوضاع السياسية أو القضايـا الاجتماعيـة، ذا آراء بعيدة كل البعد عن الأفـكار والآراء السائدة في تلك المرحلـة. آراء ليـس فيها انغـلاق أو نزعة تقليدية تقوم على الفهـم والتحليل. علاوة على هـذا كان شاعراً.. فهـو بعد أن ينهي حديثـه كان يقـول لي: «في المـرة القادمة سأجلب لـك بعض قصائـدي، لتقرأها لي وتبـدي رأيك فيها.. فأنـا أحياناً أسرق من الزمـن بعضاً من لحظاتـه، لأكتب شعراً أو ما شابهه. أخفـف بذلك عن نفسي المعاناة والضغوط». ثم كان يبتسم لي ويتابع: «لست شاعراً.. ولكنـي، كما يقال، أحاول أن أكون شاعراً، أو..».

يسكت بعد أن يلجمه الخجل، ثم يمضي عني.

خلال السنـوات الثلاثـين التي عرفته فيها، لم ألتق بـه إلا عدة مرات، كان يفصل بين المـرة والأخرى سنوات، حتـى إن المرة الأخـيرة التـي رأيته فيهـا، كان قد مضى على لقائنا الذي قبله أكثر من ست سنوات. كان في كل مـرة التقيتـه فيها يبتسم لي، ثم يسألني عن حالي وأحوال الأولاد. ويستفسر إن كانـوا مبدعين مثلي؟ ثـم يسأل إن كنت أكتب أعمالاً جديدة في القصة والرواية؟ ما يلبـث أن يخبرني بأنه قرأ لي قصة في مجلة (...) منذ عدة شهور.

كان خـلال حديثـه هذا يظـل ممسكاً براحـة يـدي، لا يتركهـا، رغـم محاولاتي المتكررة لسحب يـدي من يده، كان حريصاً أن يبقيهـا بين أصابعه. أمـا عندما ينتهي من تساؤلاته فأسأله عـن أحواله المعاشية، وأحوال أولاده.

كان يبتسم بأسى ويقـول: «لا بأس بها. إلا إنهـا ليست على ما يـرام». ثم يضيف: «أنت تعرف لقد أصبحت الأحوال المعيشية صعبـة، والعمـل، خاصة «الصنعـة» التي أعمـل فيها، تقوم على مواسم، أحياناً تكون مربحـة جداً، وأحياناً أخرى لا تكفي كفاف العيش، هـذا إلى جانب قساوتها ومردودها المـادي الذي لا يوازي التعب المبذول فيها». ثـم يضحك ويتابع: «ولكن ليس باليد حيلة، فهي «الصنعة» الوحيدة التي أجيدها.. إنها صنعة الأجداد والآباء». ثم يسكت، ما يلبث أن يتابـع: «الله يرحم والـدي. لقد أخبرته أكثر من مرة: أريـد أن أكمل تعليمي. فكان المرحوم يغضب ويرد علي: صنعتنا ذهب إن عرفنا كيف نخلص لها. ثم إن التعليم الذي تتحـدث عنه لم يكن في يوم من الأيام تقليداً في أسرتنا أباً عن جد».

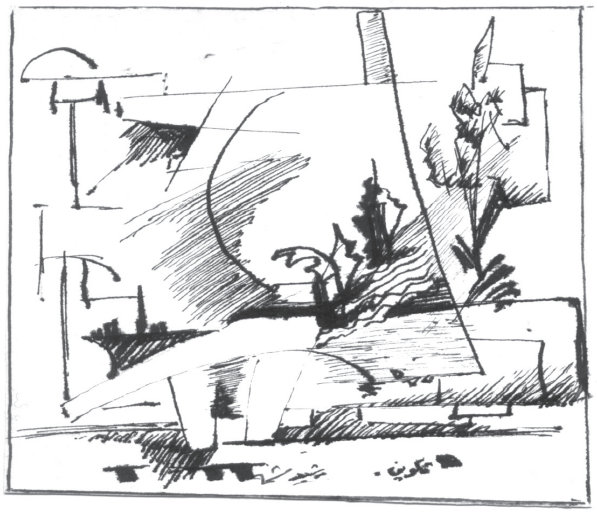

كان يسكـت وكل واحد منا ينظر إلى الآخر، ما يلبث بعد قليل أن يشعر كلانا بأن الحديـث قد نضـب بيننا، لم يعـد لدينا شيـئ نضيفه للحوار الذي تبادلناه. لهذا كان يشد علـى يدي التي لم يكن قد تركهـا، يشد عليها بمحبة وهو يبتسم ويقول لي مذكراً: «لا بد أن أجلب لك القصائد التي كتبتها.. أريد منك أن تقرأها لي، وتقدم رأيك فيها.. فأنا بصراحة أثق بذوقك الأدبي».

أقول له: «هذا لطف منك». ثم أضيف: «أنا تحت أمرك. اجلبها متى تريد سأقرأها بـكل عناية ومحبة». ثم يذهب كل واحد منا في طريق..

وهكذا ما أن تمر عدة سنوات حتى ألقاه من جديد، فأسأله بعـد التحية عن أحواله وأحوال أولاده.

كان يضحك بحرج: «لولا شيء من التفاؤل الذي أحس به لقلت لك، إنه وضع سيء، إلا أني رغـم ذلك أنظر إلى الحيـاة بشيء من الأمل. ولكن الأولاد .. نعم الأولاد هم الذين يفقدوني حب الحيـاة في بعض الأحيان!». يطـرق وجهه إلى الأرض، ثـم ما يلبث بعد حين أن يرفعـه إلي وفي عينيه أسى ويتابع: «عندما تزوجـت كنت أمنـي نفسي بحياة رائعة سأشيدهـا رغم كل الظروف الصعبة التي تحيط بي، ومـا أن يأتي الأولاد، حتى أدفعهم إلى العلم دفعاً، سأحاول أن أبعدهم عن «الصنعة» التي أرهقتني وسممت حياتي. صحيح هي صنعـة الآباء والأجداد، إلا إني كنت أود أن أقطـع نسل هذه «الصنعة» من أسرتـي.. يجب أن يدرس كل واحد منهم، نعم يجب أن يدرس الجميع.. خاصة الإناث منهم، لأن الشهادة، خاصة إن كانت جامعية، تحمي المرأة من ظلـم الرجل وعسفه، ومن ظلم الحيـاة أيضاً. ولكـن..»، سكت قليلاً وتابـع: «مـع الأسـف، رغـم كل محاولاتي وقـف الأولاد موقفاً معاديـاً للعلم! أفضل

واحد منهـم لم يحصل سوى علـى الشهادة الإعداديـة، إنه الحظ.. حظي هكذا.. منذ بداية حياتي.. لقد تشرد الأولاد، هذا ذهب إلى الخليـج وذاك إلى أوروبة وآخر ضاع في المقاهي والحانات.. أما الإناث فخطفن مع أزواجهـن ليس بأفضل مـن حظي في هذه الحيـاة المقيتـة». قاطع نفسه ثـم سألني: «سمعت أن أولادك، بلا حسد، حصلوا على أفضل الشهادات الجامعية؟».

ابتسمـت لـه وقلـت: «ليـس أفضـل الشهـادات. ولكـن جميعهـم حصلوا على شهادات جامعية».

هز رأسه وقال: «مبروك. أنا.. أحسدك وأحسـد أي أب استطـاع أن يعلـم أولاده تعليماً عالياً محترمـاً». ثم قال: «ولكن.. ما أحمد الله عليه، أن جميعهم، يقصد أولاده، يتصفون بالأخلاق الحميدة، وهم يفرقون ما بين الحلال والحرام.. فهذا الأمر يعزيني».

قلـت لـه: «هـذه الخصال هـي أيضاً نـوع من أنواع الشهـادات. ففي هذا الزمن الرديء يا صاحبي من الصعب على الإنسان أن يحافظ على كرامته».

هـز رأسه وهو يبتسـم لي. ثم شد على راحة يدي قائـلاً: «لقد قرأت لك مجموعة قصص جميلة في الآونة الأخيرة».

شكرته علـى بادرته هذه ثم قلت: «هذا الأمـر يسعدني جداً، أنـا فخور بك كقارئ لي».

ظل يهز رأسه ثـم قال: «تمنيت لو كنت أحمـل بعض قصائـدي لأعطيك إياها من أجـل أن تقرأها لي. ولكن مع الأسف لم أكن أتوقـع أن ألقاك، لو كنـت أعرف، لحملتها معي إليك».

قلت له: «كما يقال، خيرها بغيرها».

هز رأسه وقال: «صحيح.. ولكنها قديمة، أقصد القصائد، فأنا منذ مدة لم أكتب شيئاً جديـداً.. ولكن الشعر دائمـاً يعيش معي. ويتنقل حيث أكون».

قلت له: «هذا أمر جيد».

هز يدي مودعاً وهـو يتمنى لقاء قريباً بيننا.

قلت له: «إن شاء الله».

تابع يوسف عبـد الله: «مر على لقائي الأخـير به عدة سنـوات، لا أذكر مقدارها، ولكنـي على قناعة بأنها لا تقل عن عشرة.. فأنـا عندما لقيته، وكان ذلك في سوق ضيق معتم. أمـا كيف وصلـت إلى السوق المعتم هذا فلا أعرف، ولكنـي أعتقد أنه الشرود لاغير؟ رأيت نفسي وجهاً لوجه مع صاحبي: «من؟». هتـف بي. ثم هرع إلي مـاداً يديه باتجاهي. وصلت إليه وأنا أسأله: ماذا تفعل هنا؟ ضحك وقال: «هنا المكان الوحيد الذي

أزوره بحكـم الحاجة، فهو مـكان تبضعي الأسبوعـي.. للبيت». ثم غمـزني وسألني: «ولكن أنت ماذا دفعك لهذا السوق؟».

ابتسمـت له محرجاً وقلت: «لو أخبرتك، قد لا تصدق!».

ظل يبتسم وهو يمسـك براحة يدي ثم قال: «هات أخبرني..».

أجبتـه: «الشـرود.. نعـم الشـرود يـا صاحبـي.. لعنـة الله عليه.. لقـد أصبح آفة حياتـي في الآونة الأخـيرة». ثم تابعت موضحاً: «أتوجه إلى مكان ما.. ولكني فجأة أجد نفسي في مكان آخر تماماً».

هز رأسـه وقال يسألنـي: «هل هذا له علاقة، أقصد شرودك، بحالة الإبداع أم؟».

أجبته: «في معظم الأحيان هو كذلك».

قـال طالباً: «هات أخـبرني عن الإبداع الجديـد الذي دفعك اليوم إلى هذا الضياع الذي رأيتك فيه».

ضحكت وقلت: «مع الأسف. هذه المرة لا علاقة لها بأحوال الإبداع».

هـز رأسه وقال: «مع الأسف. كان بودي لـو كان الأمـر غير مـا أخبرتني بـه». ثم تابـع يسألني عن أحـوالي، الأسرة، الأولاد، الصحة.. أجبته عما سألني بصورة عامة لا تفاصيل لها. ثم سألته: «وأنت، هات أخبرني عن شؤونك وأمورك؟».

ظل ينظـر إلي طويلاً ثم قـال: «أستاذ يوسـف، لن تصدق إن قلـت لك: أن أموري الخاصة لم تعد تهمني، لأنها باتت لا تختلف عن أحوال معظم الناس الذين أنتمي إليهم، أقصد إلى فئتهم.. كد وشقاء من أجل حياة كريمـة، وصراع قوي ومريـر ضد السقوط والانزلاق إلى الأسوأ.. هذا هو حالي.. ولكن ما يهمني اليوم يا أستاذ: هذا الخراب الذي لا يريد أحد أن يوقفه! هذا هو الأمر الذي أعـاني منه اليوم وأفكر بـه.. والأمر الثاني الـذي بدأت أعاني منـه في الآونة الأخيرة، فهو خراب الروح قبـل خراب الجسد». ثم أنهـى كلامه بصوت حزين: «هذا هو حالي، حال الموات المستمر منـذ أكثر من خمسين سنة يا أستاذ».

شد على يدي وأدار ظهره لي ومضى من دون أن يودعني، مضى عني كأنه لا يريد أن أرى الدمـع الذي لمع بين أهدابه، مضى بين ذهـولي وخيبتي، إلا أني لم أدعه يبتعد عني، فصرخت به أن يرجع..

توقـف، ثم التفـت إلي ينتظـر مني أن أسألـه. إلا أني لم أجد سبباً أسأل فيه سوى أن يحدثني عـن قصائده، أنا الذي لم يأخذ أمـر كتابة صاحبي للشعر على محمل الجد في يوم من الأيام!

قطب ما بـين حاجبيه وقـال يسألني:

«قصائد! أي قصائد تقصد؟». ثم استدرك وقال، بعد أن ابتسم ابتسامة مريرة شاحبة: «أمـا زلت تذكـر حديثي عـن الشعر؟ لقد نسيتـه منـذ زمن بعيـد. لم تعد لـدي روح تشجعني على كتابة الشعر والقصائد و..». لم أسمع الكلمة الأخيرة منه، لأنه كان قد دار حـول نفسه ومضى متابعـاً طريقه في تلك السوق المعتمة حتى اختفى عن عيني.

عندما أنهى يوسف عبد الله حديثه. قال له مصطفى: قصة صاحبك هذا غريبة! ثم سأل: كم من الزمـن مر على لقائك الأخير به؟

أجابـه يوسف عبد الله: منـذ أكثر من سنة.

تساءل مصطفى بشـيء من المزاح: عن مـاذا سيحدثك يا تـرى إن قابلك في المرة القادمة؟.

أطـرق يوسف عبـد الله وأجاب بشيء من الحزن: لن يلقاني أبداً. لقد رأيت اليوم ورقة نعيه معلقة على حائط المقهى.

ارتبـك مصطفى ثم قام عـن الكرسي وشيء من الحزن يجوب صدره، ومضى عن يوسف من دون كلمة وداع.

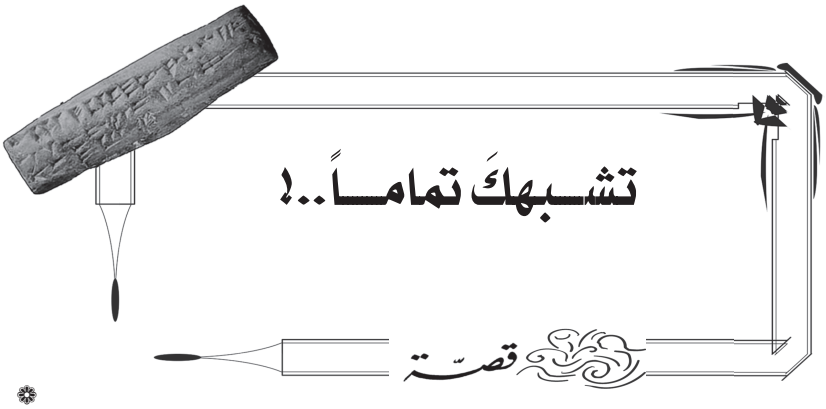

تشـبهكَ تمامـاً..!

قصّة

غانم بوحمّود

(١)

لم تستـدر، لو فعلت ذلك لبكيت، كثيرون هم الذين يستديرون، يرون الدموع في محاجـر آبائهم، أمهاتهم، يضعفون أمام جلال لحظة الوداع، تخور العزائم، ترتفع دقّات القلوب، وأمام الأبواب الخشبيّة، هكذا.. تشتعل الذكريات.

مضيتَ واثقاً من خطاك، كلّ ما تتذكّره من أحداث تلك اللحظات الموجعة،

قاص سوري.

العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

أنّهــم كانوا وراء الباب، لكنّهــم ما لبثوا أن خرجوا منــه.. يتبعونك بخطاهم، يتابعونك بأعينهم، ويحيطونك بعواطفهم النبيلة.

نجحت في أنّك لم تستدر، لكنّ صرير باب الــدار ظلّ مقيماً في أذنيــك، مشى وراءك، كمــا أصواتهم، أحــاط بك كمــا أنفاسهم وصورهم.

يسألونك:

«ما الــذي تفضّل سماعــه من الألحان والأغاني؟!»

هــم مدركون تماماً، أنّك لم تدّخر جهداً، ولا مــالاً، ولا وقتاً من أجــل اكتشاف العالم، والتجديف في بحــور لغاتــه، والغوص إلى مكامن موسيقاه.

تتأخر قليلاً في الإجابة، وهم على دراية أكيــدة بأنّك تجيــد العزف علــى أكثر من آلــة موسيقيّة، يغبطونــك على موهبتك في الغناء.

لا يخفى عليهــم شيء من سيرتك، حتّى ذاك الــذي أردت أن تخفيه عنهم، لكن.. في سيرة كلّ رجل أيقونات كثيرة، ومواقع.. غالباً ما تبقى عصيّة على الوصول.

هي أشبه بماسات ثمينة محاطة بالسواد، والحمّى، والوجع.

تتأخّر كثــيراً في الإجابة - تأخّرك - لا يمنعهــم من تكرار السؤال - نفسه - تعرف جيّــداً مــا يتوقّعون سماعه منــك، تجيبهم بشجن:

«صرير باب دارنا.!»

«هذا ما لا يتوقّعه أحد.!»

(٢)

في جلســة خاصــة لــك مــع موسيقار نمساوي معروف، كنت قــد اجتمعت به في مدينــة (كارلــو فيفاري) غامــرتَ في طرح سؤالك:

«هل يأتــي يوم يتمكّن فيه أحد العباقرة المخترعــين من تصميم جهاز إلكتروني يقوم بتسجيل أصوات تستوطن الذاكرة.؟!»

يدهشــ سؤالــك الموسيقــار الصديق، فيطرح عليك سؤالاً آخر:

«أيّ الأصــوات، تريــد استخلاصها من ضجيج يرهق الذاكرة؟!»

تجيبه متلهفاً، متحسّراً:

«صرير باب دارنا - الباب - الذي خرجت منه يوماً، ولم أزل في قبضة الغياب.»

ترفع النظّارة عــن وجهك، تضعها على طاولــة مجــاورة، تجــري لرقبتــك تمارين (سويديّة) تردّد في داخلك:

«كلّ هــذه التمارين، التــي تعلّمتها منذ الصغــر، لا تفيــدك في شــيء، إذ لا تعالج مناقير الرقبة بهذه الطريقة.»

هــذا ليس كلامــك - إنّه كلام الطبيب المعالج.!-

بعيداً عن صــدرك، تدفع بالطاولــة الخشبيّة، التي كنت قد صنعتها من أخشاب سقف البيــت، الذي هدّمتــه، لترفع مكانه صرحــاً يليق بغرورك.. تقــف منتصبــاً.. رافعاً يديك فوق رأسك، تستدير قليلاً إلى اليمين، ثمّ إلى اليسار، أكثر من مــرّة تكرّر الاستــدارة، تمشي على طرف السجّــادة الكبيرة، التــي تتوسّط صالــون الصرح الجديــد، تعــاود النظــر إلى الصور التــي ثبتت بعناية على الجــدران، كأنّك تراهــا لأوّل مرّة، الصورة الكبــيرة، تضمّ العائلتين، أهل العروســين، بجوارها ساعة حائط تشير إلى العاشــرة ليلاً. على بعــد أقلّ من متر واحد منهــا، تبدو صورة أخيك، ذاك الشاب الذي مات منذ أكثر من عشرين عاماً.

هــي صورة كنت قــد التقطتها له أمام باب مصعد في واحد من أشهر فنادق جبال (التاترا) في جمهورية (سلوفاكيا).

بينما أنــت منشغل في استعادة ذكريات قديمة لك مع أخيك، تــدور سبع مرّات، أو

أكثر، وفي كلّ استدارة لك، يقع بصرك عليها، فتراها، كما لو أنّها صورته اليتيمة.

يظــن الزائــرون أنّ الصــورة لك، وقد أُخذت لك أيّــام فتوّتك، أنت لست مضطرّاً أن تشــرح، أو أن توضــح لهــم، أو أن تقصّ عليهم شيئاً، يُقال:

«ما بتروح إلاّ على من يروح.!»

وأنت ترى أنّها:

«ما بــتروح إلاّ على من يحملون السلام بالعرض..!»

لقد حمل السلّــم - بالعرض - وحملته

– أنت – موارباً.

«ألم يحــن وقت استبدال (براويظ) صور الأولاد والأخوة والوالدين. ؟!» تسأل نفسك أكثر من مرّة.

(٣)

يأتــي صــوت من الخــارج، تفتــح باب الصالــون الذي كنت قــد أوصدته لتحبس حرارة المدفأة. سريعــاً.. تتجه إلى المطبخ.. تفتح بابــه الحديدي البارد.. تصفع وجهك ريح غربيّة محمّلة بحبّات مطر ثقيلة.. أنوار مصابيــح الشرفات القريبــة تتساقط على أوراق الليمــون الخضــراء.. يأسرك مشهد اغتسالهــا بالضــوء والمطر.. تلتمــع أوراق شجرة (الكريفــون) العريضــة، كما المرايا المصقولة صابّةً لمعانها البريء فوق بركة الماء – تلك – التي تشكّلت فوق قبو النبيذ – ذاك القبو – الذي لم تنته من إنجازه بعد.

تــراودك فكرة فتيّــة.. أن تخرج تحت حبّــات المطــر، لتقطــف كعادتــك ثمــار الليمون.. لكنّ غزارة المطر المتساقط تمنعك من الخــروج.. تغلق باب المطبخ.. تفتح باب الثلاّجة.. يقع اختيارك على شوربة العدس، فهي الطبق المفضّل لديك في فصل الشتاء.

(٤)

رنين الهاتف.. يقطع عليك تأمّلك. إنّه صوت النّجار:

«هل أعجبتــك فكرتــي.. فاقتنعت بها سيّدي الجنرال ؟!»

«– ما شاء الله.!–

أليســس من الأفضل لو استخدمت مكان هذه الكلمة مــا يقابلها في العربيّــة، أم أنّ أصحاب المهن في بلادنا راحوا يحذون حذو التجــار، الذين يستوردون مئــات المفردات الأعجميّة في كلّ عام.»

«جنرال..! إنّها تملأ الفم أكثر، ليس مهمّاً يا سيّدي، هل اقتنعت بفكرتي؟!»

بعصبيّة تجيبه:

«وهل من جنرال يقتنع بغير فكرته؟!»

«أفهــم مــن كلامــك، أنّــك لا ترضى بديلاً.»

«قلت لك أكثر من مرّة، لن أغيّر رأيي.!»

«لكنّ هذا يشوّه منظــر البيت.. أقصد مدخله.»

«البيــت بيتي، والبــاب.. أيضــاً بابي، وأنــا مرتــاح لرؤيّة هذه القطــع الخشبيّة، وهي تجــاوره.. أخبرني متى سيصبح الباب الجديد جاهزاً.!»

«مادمت قد حسمت الأمر – لك ما تشاء

- لكن لا تنس أن توصي العمال في الصباح برفع القطع الخشبيّة المتبقية من باب داركم القديم، ما أعلمه أنّ لا مكان لها في مستودع الحبوب، ولا في مستودع العدد الزراعية.

نصيحتي لك أن تحملها إلى مكان آمن، لكنّ ما يجعلني أتحفّظ، هو أنّ رفعها إلى صالون البيت، أو إلى حجرة نومكم قد يثير لكم مشكلة مع أفراد الأسرة، وأنتم أكثر من يعلم، أنّه قد مضى عليها عشرون عاماً، وهي ملقاة في أقصى الحديقة.»

«أبداً لا أسمح لك..!

أفهم من قولك أنّنا أهملنا باب دارنا.!»

«معاذ اللّه سيّدي الجنرال، ما تناهى إلى مسمعي قبل أن أتشرّف بمعرفة حضرتكم يجعلني أحترم كلّ مسمار دُقَّ في باب داركم العالي.»

تقول في نفسك:

«حريفٌ متملّق، وابن سوق مداهن، يرغب في التزلّف مني، ليحظى كغيره باهتمامي في قادم الأيّام.»

يستطرد النجار قائلاً:

«أرجو أن لا يفهمني خطأً سيّدي الجنرال، الأمر في غاية الأهميّة، المنخفض القطبي يستمرّ إلى أكثر من ثلاثة أيّام، ما أخشاه هو أن تسوّل للعمّال أنفسهم، فيحرقون ما بقي على هيكل الباب من قطع خشبيّة، أسوة بمن سبقوهم من عمال، كانوا يستخدمون قطع صغيرة منها لإضرام الأغصان الخضراء، والرطبة.»

«لم يخبرني أحد بالأمر، أهكذا إذاً؟!»

يستطرد النجار قائلاً:

«كنت أتمنّى لو بقيت حال باب داركم كما كانت عليه في سالف الأيام.!»

«وما الاختلاف بين أيّام زمان، وهذه الأيّام، قل أيّها الرجل.؟!»

يقول النجار في نفسه:

«ربّما لا تختلف الأيام عن بعضها، ما يختلف، ما يتغيّر.. وما يتبدّل هو - نحن البشر - فلماذا نحمّل الأيام مسؤوليّة انكساراتنا المتلاحقة..؟!» يتمتم وجلاً:

«إنّها مسؤوليّة...!» تقطع عليه الحديث:

«وأيّ مسؤوليّة تعنيها يا رجل، أم هل أثار باب دارنا الخشبي أشجانك، فجئت تقدّم لي المواعظ العرجاء، لقد كان أبوك - ذاك - الذي عرفته منذ أكثر من أربعين عاماً، كان - رحمه اللّه - أقلّ منك كلاماً، وأكثر منك إخلاصاً لحرفته.»

(٥)

لا تبــدو عليه الدهشة، فهــو يتوقّع من الجــنرال أكثر من ذلــك، لكنّــه تغلّب على مخاوفه، فأراد أن يكون منصفاً في شهادته:

«كان أبــوك أكثر حكمة من أبي، لمّا فعل ما فعل..! – رحم الله الشيخين–»

«كيف، ومتّى – رحمهما الله – ؟!»

«لمّــا استقدمه غير مــرّة لإصلاح نافذة ،آنئذٍ.. وجد أبي باب داركم مفتوحاً، جرّب أن يغلقه، فلم يستجب له إلا بصعوبة.»

«وما الغريب في الأمر أيّها الرجل.!»

«المدهشــ في الأمر، أن أبي قام بإصلاح النافــذة، ولمّا جــاء كي يصلح بــاب الدار، فيجعله يغلق ويفتح بسهولة.. منعه أبوك.!»

«وهل أخبرك أبوك، لماذا فعل أبي ذلك. ؟!»

«لم يخبرني وحدي أيّها الجنرال، بل أشاع الخبر في كلّ الأمكنة، فتناقلته الألسن.»

«أهكذا... إذاً ؟!»

«نعم هكــذا سيّدي الجــنرال.! لو كنت تركــب الحافــلات التي تقلنــا إلى المدينة، وتعيدنا منها، لكنت سمعت كلام الناس.»

«وأيّ كلام تقصده يــا هذا، ها أنذا في وسط الناس أسمعهم، وأراهم.. وليس بيني وبينهم من حاجز أو بوّاب.»

«لكنّك لست في أحاديثهم، لكنت سمعت بقصّة باب داركم.»

تكاد تغلق سماعة الهاتف.. لأنّك لا تعلم إلى أين يقــودك هذا النجار الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره، متسائلاً:

«هل هو جادٌ في كلامــه، أم أنّه يضعك – الليلةَ – أمام امتحان، كي يتبجح بأجوبتك الساذجة في المجالس.»

تسأله.. وأنت على حذر.. وشكّ.. وريبة في آن:

«وما القصّة.!

هاتِ ما عندك يا (يونس) إنّك تشوّقني إلى سماعها يا رجل.!»

(٦)

«لمّا كنت طفلاً سمعتها من أبي، أمّا اليوم فقد سمعتها من فــم (جابر) معلّم البيتون، لمــا كان منــذ أيــام، ينظر إلى بــاب داركم متحسّراً.»

«ولِمَ التحسّر يا يونس؟!»

«علــى ما آلــت إليه حال البــاب، الذي فعل ما لم تفعله الفرسان، لمّا تعرّضت القرى المجاورة للنهب والسلــب من قبل عصابات مسلّحة في ذلك الزمن الصعب.»

«إنّــك تهذي أيّهــا الرجل، وهل بمقدور هذه القطــع الخشبيّة المتعبــة أن تفعل ما لاتستطيع فعله فرسان أيّام زمان.

ألست محرجاً من سرد خرافتك – هذه – أمام جنرال له من الخبرة ما لا يخطر لك في بال.؟»

ينقل (يونس) سمّاعة الهاتف من يد إلى يد أخرى، ويجيب الجنرال:

«طبعـاً، استطاعـت قطع بـاب داركم – تلـك – عندما كانت واقفـةً.. متراصّة.. تستند على ذلك الجدار القوي الذي هدّمته فأسك.

لـو أنّ لها شفاه لتكلّمت، لكن – لحسن الحـظ – تجـد الحقيقة دائماً مـن يشهد علـى انتصارها، أمّا الشهـود على فروسيّة بـاب داركم، فلم يزل منهم من هو على قيد الحياة، وليس فيهم من يكتم الشهادة.!»

«تشهدهـم علـى حقيقـة أيّ شـيء يا (يونس)؟!»

«اسمع من فضلك أيّها الجنرال.!

لمّا قصـدوه رجال القريـة سائلين، ما العمـل يا أبا علـي، واللصوص يحيطون بنـا من كلّ جانب، يسلبـون المال، ويأخذون الحـلال، سلاحهـم البنـادق، وسلاحنـا العصي، والمعاول، فماذا تفعل أسلحتنا أمام بنادقهم؟!»

«ماذا كانت حكمة أبي ؟!»

«خيّبت حكمته الشهيرة آمال الجميع.!»

«إنّـك تعود لتسيء إلى أبي، انتبه إلى كلّ كلمة تتفوّه بها يا يونس..!»

«لا بـل أمتـدح أبـاك، الذي قـال لهم يومئذٍ.!»

«أبوابكم كفيلة بحمايتكم.!»

«سألـه البعض، كيف يكـون ذلك يا أبا علي.؟!»

أجابهم بجرأة:

«اتّحدوا، واتركوها مفتوحة..!»

«سخر البعض من أبيـك، لأنهم توقّعوا منه إجابة أخرى، كأن يضع خطّة مستعجلة، لنشـر الحرّاس على الطرقـات، واستبدال معاولهم ببنـادق، وهذا يعني أنهم سيبيعون مواشيهـم، وغلالهـم ليـكلأوا الخيـول، ويطعموا الحرّاسـ، ويشتروا أسلحة باهظة الأثمان.»

«هل اقتنع بفكرته أحد.؟»

«قـال لي أبي، أبداً لم يقتنع بفكرته أحد، وسألنـي وقتئذٍ، لو كنـتَ واحداً منهم، هل كنتَ لتقتنع بفكرة أبي علي يا يونس.؟!»

«بماذا أجبت أباك.؟»

«طبعـاً، قلت له سأكون مثلهم، أيعقل أن نـترك أبوابنا مفتوحة أمام الطامعين بمالنا وحلالنـا، بينمـا تُخلع الأبـواب المقفلة في القرى المجاورة، ويُسرق كلّ شيء –أتراه كان

على حق في ما اقترحه في تلك الليلة، سيّدي الجنرال؟!-»

«من جهتي، لم يكن محقّاً.!»

«أنـت تقول هذا أيّها الجنرال..! أكاد لا أصدّق، لم أخطـئ إذاً، لمّا قلت لك يوماً، أنّ أباك كان أكثر منك حكمة، لمّا....!»

«لمّـا... مـاذا يـا يونـس، أكمـل مـن فضلك؟!»

«لمّا عقل الثـيران والبقرات على جذوع أشجار الدار، وترك بابه مفتوحاً..!

ليلتها..هاجـم اللصوص القريـة من الشرق، فلمّا سمع وقع حوافر خيولهم، نهض سريعاً مـن فراشه، وقف في فم باب البيت، تماماً على العتبة.. بحيث يسمع ما يقال في الخارج ولا يراه أحد.»

«وهل سمع شيئاً.؟!»

«سمـع أحـد اللصوص يحـدّث رفاقه محـذّراً بعـد أن رأى بـاب الـدار مفتوحاً والغنائم وفيرة.!»

«ومـاذا قال ذلك اللصـ، هل تتذكّر يا يونس ما قاله أبوك لك.؟»

«هـذه القريّة عصيّة علـى شياطينكم، وبنادقكم، أيّها الرجال..!»

ولمّـا سألـه آخـر، لماذا هـي عصيّة.؟ أجابه:

«لأنّ أبـواب دورهـا مفتوحة، وفي هذه الأيّـام العصيبـة، لا يكاد يفتـح باب داره غـير الرجل القوي الحازم الصـارم المسلّح – الواثق من مقدرتـه على الدفاع عن ماله وحلالـه ونفسه – والـذي لا يخشى أحداً. استديروا أيّها الرجـال إنّ في الأمر شيئاً لم أعهده في أي قرية سطونا عليها.!»

«وهل انسحب اللصوص.؟»

«طبعاً انسحبوا..!

لكـنّ لم تكـد تبتعـد أصـوات حوافر خيولهمً، حتّى صـاح أبوك صيحته الشهيرة – متجاهلاً كونهم لصوصاً –

«لمـاذا تغـادرون أيّها الضيـوف، بيوتنا مشرّعة لكم، أنتم أهل لكلّ مكرمة؟!»

(٧)

سمع رجال القرية المتحفّزين في بيوتهم المتلاصقة مـا دار بين أبيك وبين اللصوص من حوار.. أعاد باللصوص من مشرق القرية مترجّلين عن خيولهـم إلى أمام باب داركم، ليدخلـوا بيتكم مندهشين، ويتحلّقوا جميعاً حـول مائدة طعام كبيرة، أعدّتها لهم أصابع أمّـك الكريمة – تلك المائـدة – التي ظلّت عامرة حتّى الصباح، حيث كشف (الخيّالة) عن هويّتهم ومآربهم معتذرين.

طبعـاً.. على أثر ذلك الاحتفاء المنقطع النظـير من جميع أهل القريـة، ما كان من

اللصوص إلاّ أن أقسموا على أن يقلعوا عن عاداتهم، ويصبحوا أناساً فاعلين.

منذ تلك الليلــة المشهودة.. أقسم أبوك أن لا يغلق باب داره أبداً.»

تعيد سمّاعة الهاتــف إلى مكانها، وأنت مدرك أنّ النّجار أصابك بسهامه في الصميم، وأنت أضعف من أن تعلي صوتك فوق صوته أمام مديحه لباب داركم الجسور.

(٨)

تحاكم نفسك:

عشرون شتاءً، والباب مخلوع من مكانه، أنــت لم تتعب نفســك في حفظه، وصيانته.. أوكلــت المهمّة إلى من ركنــه بقرب الجدار القصي من الحديقــة،.. لم ترحمه الفصول المتعاقبة، ولا الأيدي المخرّبة.

غالبــاً ما كنت تمرّ به، ترفعه عن جدار لتلقــي به على جــدار آخر، حتّــى صغرت أبعاده، ورقّ خشبه، وخف وزنه.

لكــن، بقــي في نفسك شــيء، لو بحت به، لن يلومك النجــار، وستكون راضياً عن خطّتك الجديدة.

مــا أسهل أن تحمــل ما بقي من خشب الدار إلى يونس.. هناك تطلب منه أن يصنع منها (براويظ) لصور العائلة، وشهادات لك تفخر بهــا، عندئذ تكون قــد استفدت من خشبــه، وجعلته في مكان بــارز من جدران البيــت، وهكــذا يرثــه الأبنــاء والأحفاد، وستغــيّر (برواظ) صورة أخيــك المستوردة، لتكون (البراويظ) كلّها محليّــة المنشأ، ربّما يكون القرار صائباً، يدهش يونس، ويرضي الشيخين في قبرهما..!

لم تستيقــظ كعادتــك في السابعــة، لأنّ أحــداً لم يقــرع الجرس، ولم يطــرق عليك البــاب، كما جرت العــادة، لكنّ رنين هاتف النجــار المتواصل أيقظــك في العاشرة من صباح ذلك اليوم الماطر، تنظر إلى الكاشف، فلا ترفــع السماعة، عليك أن تنزل درجات سبع، وتتفقّد بقايا خشب باب الدار المركونة على جدار الحديقة الشمالي، فلا ترى شيئاً، تمضي مسرعــاً إلى كهف النبيذ المحفور في عمق الدار، حيث يلجأ إليه العمال في الطقس الماطر.

تقترب من الباب، يستقبلك دخان كثيف حاد، تدمــع عيناك، فلا تــكاد تميّز وجوه الرجــال الذيــن منعهم المطــر الشديد من العمل في الخارج، فتحلّقوا في زاوية الكهف حــول مدفأة الحطب القديمــة، التي كانت تحتفي بأخر قطعــة خشب متبقية من باب داركم الجسور.

أنــت لا تعلم هل حيّيــت العمال تحيّة الصباح، أم ألقيت عليهم تحية الوداع، وأنت

تتسحــب من أمامهم من دون أن تنبس ببنت شفة، أو تظهــر على محيّاك علائم عتب أو دهشة.

تعــود أدراجك متعباً مــن حيث أتيت.. تتسلق درجات البيت السبع، يستقبلك رنين متواصــل عند بــاب حجرة الطعــام، تعبر موزّع الحجرات الأربع، لكنّك تفضل العودة إلى صالــون البيت، حيث تجــد فيه مكاناً للجلوس المريح، والرد علــى المتصل، تنظر إلى الكاشــف.. إنّه رقم بائع المازوت.. ترفع السمّاعة، تضعها على أذنك..

«لن يتوفّر المازوت.. دبّر حالك..!»

لم يلق عليــك تحيّة الصبــاح، ولذلك لم تجد لديــك رغبة في التحدّث إليه، تغلق في وجهــه الخطّ البارد، بينمــا لم تغادر عيناك إطار الصورة التي تشبهك تماماً.

آفاق المعرفة

من جديد.. لغة الجسد وقديمها ..... د. خير الدين عبد الرحمن

الشبع والجوع النفسي ..... د. معمر نواف الهوارنة

من تاريخ الشعر في سورية ..... د. محمد رضوان الداية

أكثر من وجه واحد ..... د. عبد الكريم الأشتر

كائن أدبي حداثي.. هل يحمل هُويات القرن الجديد ..... د. بغداد عبد المنعم

المركيزة مدام دو بامبادور ..... إبراهيم سلوم

التوحيدي وسؤال الصداقة ..... رزاق كريمة

النابغة الشيباني.. حياته وشعره ..... د. نزار عوني

الذكرى الخامسة والسبعون لرحيل الموسيقار الأرمني كوميداس... د. نورا أريسيان

حلب في سيرة الملك الظاهر بيبرس ..... د. أحمد فوزي الهيب

هل العلم يخدم العدالة ..... المحامي هائل منيب اليوسفي

الثورة المعرفية الكونية ..... د. منير سويداني

الإبداع الفني.. وبناء التاريخ ..... إسكندر نعمة

حقيقة الأكوان المتوازية ..... موسى ديب الخوري

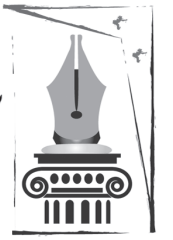

آفاق المعرفة

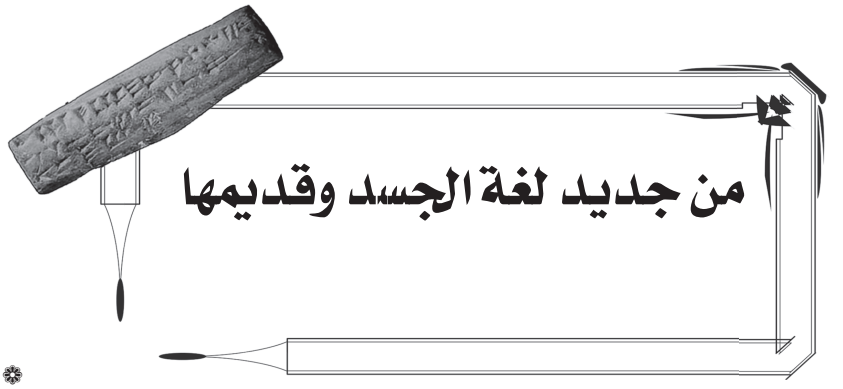

من جديد لغة الجسد وقديمها

د. خير الدين عبد الرحمن

لعل من أول ما يخطر في بال المرء إزاء مصطلح (لغة الجسد) هو قول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (فصّلت: ١٩-٢١)

۞ أديب وناقد ودبلوماسي سابق.

العمل الفني: الفنان عماد كسحوت

بعدئـذ لا يلبث المرء أن يستعيد ذكرياته عـن مشاهـد يوميـة لا تحصـى لحديث العيـون، وما حدثت به حـركات الأيدي أو بعضـ أصابعهـا، أو ما أوحـت به حركات الشفاه أو الرأس إلخ.. فمدلولات حركات هذه الأعضاء، سواء مـا تماثل منها في كل مجتمعـات كوكبنا على امتـداد الأزمان، أو مـا تبايـن مدلوله بين مجتمـع وآخر، ومن زمن إلى آخـر، تستحق اعتبارها لغة قائمة بذاتها وإن كانت غير منطوقة، إذ لا حروف فيها ولا كلمات. أكثر من هذا، أكد كثير من علماء النفس، وخاصة منهـم أولئك الذين تخصصوا بلغة الجسد وبرعوا في تحليلها، أن حـركات عيني الإنسـان وشفتيه ورأسه وكفيه وذراعيه وقدميه أكثر صدقاً من اللغة المنطوقة.

وصفـت د. زكية مـال الله اللغة عموماً فقالـت أن اللغـة مسكـن وحضـن، وهي تسكننـا ونحن نسكنها، وهـي البيئة الأولى التي يتفتح في آفاقها الذهن وينتعش الفكر وينشط الخيال.. بها نتحدث ونكتب ونناقش ونختلف ونقبل ونرفض، وبها نتعلم ونتأدب ونسافر ونتغير ونتطور، وباللغة نحب ونكره ونسامح وننتج وننجـز وننمو ونتعرف وهي موجـودة بداخلنـا وتحاصرنـا في العمـل والمنزل وعلى المكتب وفوق الأرفف والأدراج والخزائـن والمبـاني والمحـلات والشوارع والمطارات وبكل موقع نعيش فيه أو نتحرك خلالـه نجد كلمـات وإشـارات وإعلانات ولافتـات ومصطلحات[1]. لكـن هذه اللغة المنطوقة مهما اختلفت من مجتمع إلى آخر، ومن قـوم إلى قوم، ليست وسيلـة التفاهم الوحيـدة بـين الناس. صحيـح أن الخالق عزّ وجلّ قد «علّـم آدم الأسماء كلها»، لكن الصحيـح أيضاً هو أن ما قد تعلمه آدم من خالقه، ليعطي الملائكة درساً بعدما سجدوا لآدم تنفيذاً للأمر الإلهـي، لم ينتقل تلقائياً لذريـة آدم. فالإنسان الأول كان يعتمد على حركات جوارحه، وجسده عموماً، في التعبير والتفاهم مع الآخرين قبل أن ينطق الأصوات التـي تطـورت إلى كلمـات، ومن ثـم إلى لغات. وحتـى بعدما نشأت اللغات المنطوقة وتشعبت وتباينت، ظلت حركات الأصابع أو كلا اليديـن والعينين والحاجبين والجفنين، والرأس بأكملـه، والكتفين والقدمين تواكب كثيراً من كلمـات كل اللغات، أو تنوب عنها في التعبير والتفاهـم. كما أن هذا هو حال الطفل في شهـوره الأولى قبل أن ينطق بأي كلمة، فأعضاء جسده سبيله للتعبير والتفاهم والتواصل. وهكذا بات مصطلح لغة الجسد، أو مدلولات حركاتـه، سائداً في المجتمعات كافة. ظلت هذه اللغـة رديفاً للغة المنطوقة غالبـاً، وبديـلاً عنهـا في أحيـان وحالات كثـيرة. وكما أن الكلمة وسيلة رئيسة للحوار

والتعبير والتخاطب والتفاهم والتواصل والتعايش، كذلك هو شأن الألحان الموسيقية والأنغام، ومثلهما الحركات التعبيرية للجسد وأعضائه أو بعضها. كلُ هذه الوسائل -وكلٌ منها- جاذبٌ عندما يحسن استخدامه، ومنفّرٌ طاردٌ إن أسيء استخدامه. وقد نقل الفيلسوف البارز لودفيج فنجنشتين عن أوغسطين قوله شارحاً نظرية المعنى التي أطلقها: «كنت أستنتج من حركاتهم الجسدية، التي هي اللغة الطبيعية لجميع الشعوب، مثل تعبير الوجه وحركة العينين وبقية أجزاء الجسم..»[٢]. وقد عرف بعض القدامى هذه اللغة، ودخلت موهبة قراءة لغة الجسد آنذاك ضمن القدرات التي يدلّ عليها مصطلح الفراسة. لكن أهمية قراءة مدلولات حركات الجسد قد ازدادت منذ أولى سيجموند فرويد اهتماماً كبيراً لحركات اليدين وتعابير الوجه، باعتبارها وسائل للكشف عن اللاشعور، وأطلق علماء النفس على هذه الحركات اسم (لغة الجسد)، واعتبروها وسيلة شديدة الفاعلية لكشف أفكار الإنسان وبواعثه[٣] التي كثيراً ما يحاول إخفاءها أثناء حديثه، وللدلالة على مدى صدق هذا الحديث. وقد صدر حديثاً كتاب للدكتور فيكتور سنودون، أستاذ العلاج النفسي، عنوانه (لغة الجسد) قال فيه إنك تستطيع الحصول على كمية كبيرة من المعلومات عن محدثك، بمجرد مراقبة حركات يديه أثناء الكلام، وإذا عرفت ما ينبغي أن تبحث عنه في هذه الحركات، فإنك تستطيع معرفة ما إذا كان المتحدث يؤمن بما يقول أم لا، بل تستطيع معرفة ما إذا كان يكذب أم يصدق في كلامه.

أعطى البروفيسور سنودون في هذا الصدد مؤشرات عديدة عن مدلولات لغة اليدين وفقاً لأوضاعهما أثناء الحديث، هذه بعض تلك المؤشرات:

- عندما يكون الإنسان صادقاً في حديثه، ويعرف أنه يقول الصدق، يبسط راحتي يديه بصورة تلقائية أثناء الحديث. بينما إذا رغبت في طلب خدمة من صديق فراقب ما إذا كانت راحة يده مبسوطة، وتتجه إلى أعلى، أثناء حديثه، فذلك يعني أنه سيتجاوب مع طلبك على الفور. ويتفق الخبراء على أن الإنسان الواثق من صحة قوله، يبسط كفيه بشكل تلقائي أثناء الحديث، بحيث يتجه الإبهامان إلى الأعلى، وهذه حركة تعرفها كل الشعوب والثقافات، في شتى أنحاء العالم.

- ينبغي التزام الحذر من الشخص الذي يضم قبضته، أو يخفي يده في جيبه أثناء الحديث، فذلك يعني أنه غير آبه بك، وأنه يلجأ للمناورة، وإن حاول التحدث بحرارة لإيهامك بإخلاصه.

– عندما يضع الشخص إصبعه، أو يده قرب أنفه، أو على الأنف، أثناء حديثه، عليك أن تـدرك فوراً كذبـه، أو أنه غير واثق مما يقولـه، وإن غطى فمه بيـده أثناء الحديث فهو يخفي شيئاً عنك.

– إن احتجت رأيـاً قاطعاً في أمر ما أو معلومات دقيقة حوله، لا تطلبها من شخص يقف مكتـوف اليديـن، أو يشبـك أصابع كفيـه،أو يضع باطن كفه علـى فخذه، فهو يعللك بتلبية طلبك لكنه لن ينفذ.

– تتميز المرأة بلجوئهـا إلى وضع يدها على الرقبة، أو قرب الرقبة، أثناء الحديث، وهذه إشارة إلى صدق حديثها، حتى لو كانت روايتها لا يصدقها العقل.

– تدل الإشـارة بالإصبع الشاهد، بينما الأصابـع الأخرى تتراجـع إلى الخلف أثناء الحديـث، على أن المتحـدث قرر المواجهة، وأنه يشعر بالضيق ممـن يحادثه، وبالتالي من العبـث استخدام المنطق مـع من يقوم بهذه الحركة، لأنه لن يكترث به.

كما تحدث البروفيسور فيكتور سنودون عن المصافحة سبيـلاً للكشف عن كثير من خصائصـ شخصية الإنسـان، فقال: «إن الانطبـاع الذي يأخذه الناس عن شخص في مقابلـة مـا، يتقـرر من اللحظـة التي تصافحـه فيها..فالمصافحة بحـزم، بينما عينـاك تنظران في عينـي الشخص الآخر

تدل على الثقة بالنفس، والانفتاح، وأن هذا الشخصـ لا يلجأ للذرائـع، وجدير بالثقة، ويصلـح للمناصب القياديـة.. والمصافحة بيـد مرخية تشـير إلى شخص خجول، غير

اجتماعـي، دائرة أصدقائـه محدودة جداً، ونـادراً ما ينجـح في الوظائـف القيادية، والمهنة التي تتعلق بالتعامل مع الآلات أفضل بكثير لشخص من هذا النوع من المهنة التي تتعلق بالتعامل مع الناس». هذا عن حركات اليدين، بينما يؤكد خبراء أن نظرات العينين وأوضاعهما تعكس المشاعـر والأفكار على نحو أشد وضوحاً وأكثر عفوية وصدقاً. ولا يقتصر الأمر على اليدين والعينين، فلحركة الرأس في الاتجاهات المختلفـة مدلولاتها وفقـاً لما أدى إليها. ينطبق هذا على الكتف والذراع والقدمين والساقين، أثناء الجلوس أو الوقـوف أو المسير، فلـكل وضع وحركة لأعضـاء الجسد مدلولهـا حسب الظرف ووفقـاً لوضـع وسلـوك وموقـف الطرف الآخر.

نتعمق أكثر في مسألـة التعبير ووسائله، فنتمعن مثلاً بتجربة أجريت سنة ١٩٩٩ في باريس بإشراف لوك ستيلز من مختبر سوني لعلـوم الكومبيوتـر Sony Computer Science Laboratary لرجلين آليين من نوع (آيبو) Aibo، يسيران على أربع قوائم، كانا يتدربان يومياً على اللعب بكرة برتقالية اللـون. لاحظ العلمـاء أن الرجل الآلي كان يتوقّف فجأة عن الحركة بعد أن يكتشف كلّ منهما، بفضل الكاميرا الصغيرة المجهّز بها، وضعيّة تمكّنه من مشاهدة الكرة البرتقالية وشريكـه في الوقت نفسـه! وعندما يتوقّف الروبوتان عن الحركة يطلقان إشارة صوتية. بعد ذلك يركل أحد أعضاء الاختبار الكرة، فتبدأ بالتدحرج على الأرض، ويتبع الرجلان الآليان مسـار الكرة بعيونهمـا الإلكترونية بدقّـة. عندما تتوقّـف الكرة يطلـق أحد الروبوتين عبارة لا معنى لها على الإطلاق، عبر المُرسل الصوتي المدمج فيه. وبعد بضع ثوانٍ يهزّ زميله رأسه من الأعلى إلى الأسفل كأنـه يقول (نعم). عندئذ يـركل المختبِرون الكـرة مُجـدداً، فيتبادل الرجـلان الآليان الأدوار. تشير هذه الرقصة بكلّ بساطة إلى أنّ هذيـن الرجلين الآليـين هما في خضمّ صنع لغة جديدة. وفسّر ستيلز هذه الظاهرة بالقـول إنه بفضل هذه الحـوادث المتكررة كثـيراً، يصنع هـذان الروبوتـان بنفسيهما شيئاً فشيئاً لغة مشتركة تسمح لهما بوصف حركات الكـرة. فكلما ركل رجـال المختبِر الكرة ينطـق أحد الرجلـين الآليين بعبارة تعني مثلاً: (لقد تحرّكت الكرة عن يساري) أو (لم تتحـرّك الكرة كثيراً)، فيشير الروبوت الآخـر عندئذ بإشارة مناسبـة بالرأس، إن كان فهم الجملة المنطوقـة أولاً. ثمّ يحفظ كلّ واحـد منهما الجواب وتُـركل الكرة من جديد... وإذ بالنتيجـة مذهلة. فعلى رغم أن التجربة لم تنته، استطاع الرجلان الآليان ابتـكار عبارات منطوقة مـن خلال خمسة

آلاف ركلــة كرة... والأهمّ مــن ذلك أنه في مطلــع تجربة بدأت عــام ٢٠٠٤، لم يكن في ذاكرة الرجلين الآليــين أي كلمة أو قواعد، مــا يعنــي أن لغتهمــا نشأت مــن لا شيء تقريباً!.. لقــد وضع الباحثــون مسبقاً في القرص الصلب لكل رجل آلي ثلاثة أنواع من القُدرات. تتضمن الأولى قدرة الروبوت على (تكســير) الحقيقة البصرية التي يراها عبر إعادة تصنيف الأشيــاء التي يتعامل معها؛ ثمّ يُعطي كلمــات لكلّ فئة من هذه الفئات. فمثلاً يخلــق الرجلان الآليان فئات لوصف وضعيات الكرة أو المسافة التي تعبرها عند كل ركلــة. وتمكن القــدرة الثانية من صنع كلمــات وقواعد بشــكل عشوائــي، عندما يتواجــد الروبوت أمام وضع جديد لا يملك وسيلة لغوية لوصفه. وتعطي القدرة الثالثة الروبوت إمكان مناغمة آلاته مع آلات الآخر بشكل دائم. أدى وجود هذه القدرات الثلاث وحدهــا إلى ظهور لغة مشتركــة. وفي هذا السياق، تسهل ملاحظــة الدور الذي لعبته العشوائية في تلــك العملية. للروبوتين ملء الحرية في ابتكار الكلمــات التي تخطر في بالهما لوصــف وضعيّة جديدة. ولو تكرّرت التجربــة سيكوّنان كلمــات أخرى بما يؤدّي إلى لغة مختلفة تماماً .شرح ستيلز هذا قائلاً: «القدرات الإدراكية الثــلاث التي منحناها لرجلينا الآليين موجودة أيضاً لدى الإنسان.

ففــي الواقــع، نحن نحظى بذاكــرة تسمّى ذاكرة مشتركة، تمكّننا من تقسيم الواقع إلى فئات مختلفة وإعطائه عوامل مرمّزة شفوية أو حركيــة مثــلاً. كما نتمتّــع بالقدرة على ابتــكار عوامل مرمّزة حين نرغب في وصف حقائــق مستجدة. ونملك أيضاً القدرة على مناغمــة تصرّفاتنا الخاصــة مع تصرفات الآخرين..».

يظن الباحثون أن الإنسان الأول الناطق كان يتمتّــع بهذه القــدرات أيضاً. ذلك «إن الظروف الأولية التي نما فيها مشابهة لتلك التي يوجد فيهــا الرجلان الآليان في بداية الاختبــار». لدعم هذه الفكرة التي يستحيل في الواقع التحقّق منها، يقدّر علماء الإنسان القديم أن قدراتنا الإدراكية الحالية ظهرت منذ زمن طويــل. وذلك أمر تحاول الإجابة عنه الأبحاث على تطــوّر الأدوات القديمة أو علــى حجم الدمــاغ في الهياكل العظمية المنبوشة وغيرها. لكنّ تجربة ستيلز المذهلة لا يمكن التحقّق منها سوى في قلب مجموعة بشرية. ويمكن التفكير في مثل هذه الفرصة فعلياً في ضوء الأعمال التي قامت بها عالمة اللغة الأميركية جودي كيغل التي وصفت في الثمانينات من القــرن الماضي ما سمي لغة الإشارات النيكاراغويــة. ظهرت هذه اللغة بعد تأسيس أوّل مراكز للأطفال الصمّ عام ١٩٧٩. ففــي هــذه المراكز، تجمّــع وللمرّة

الأولى أطفال كانوا يعيشون منفصلين عن بعضهم بعض، ولم يتعلم أحد منهم لغة معيّنة بسبب إعاقتهم. ولكن تجميعهم أدّى إلى بروز ظاهرة غير متوقعة. فبينما باءت كل المحاولات الرسمية لتعليمهم أساليب تواصل مختلفة بالفشل، ابتكر هؤلاء الأطفال بأنفسهم لغة إشارات جديدة بالكامل ومختلفة في كل النواحي عن اللغات التي يُقال عنها (شفوهية)، وتختلف أيضاً عن أي (لغة إشارة) أخرى. وقد مكّنتهم هذه اللغة من التواصل في ما بينهم خلال بضعة أشهر. هكذا استطاع أفراد يرغبون في التحدّث في ما بينهم استخدام قدراتهم الإدراكية، في فترة قصيرة للغاية، لتكوين لغة لم تكن موجودة قبلاً. وتدعم فرضية ستيلز هذا الأمر الذي يزيد من هشاشة الفرضية القائلة بوجود لغة أمّ شكّلت أساساً لكلّ اللغات المنطوقة.(٤)

لقد نشرت مجلة (VSD) الفرنسية بحثاً جاء فيه إن الرئيس الأمريكي (آنذاك) بيل كلينتون لم يكشف الحقيقة في الإفادة التي قدمها حول علاقته العاطفية مع مونيكا لوينسكي. بنى كاتب البحث استنتاجه على أن كلينتون كان يكثر دعك أنفه أثناء استجوابه، وذلك يعني، وفقاً لتأكيد العارفين بلغة الجسد، أنه يكذب. كانت مونيكا لوينسكي على علم بهذا، أو لعل هناك من لقنها هذه المسألة وسواها، عندما نشرت مذكراتها عن علاقتها بالرئيس السابق بيل كلينتون. لذلك دعت كبريات الصحف الأمريكية إلى تتبع حركاتها أثناء الحملة الدعائية التي أجرتها مروّجة للكتاب، لكي يتأكدوا من نظراتها وحركات يديها وجسدها ما إذا كانت قد ذكرت الحقيقة كاملة أم لا. ولعلّ أكثر من طالعوا قصص الأطفال المشهورة عن(بينوكيو) يذكرون كيف تروي قصة منها أن أنف بينوكيو كان يستطيل كلّما كذب. فهذه الإشارة إلى استطالة أنفه كلّما قال كذبة إنما يستند إلى ما قرره علماء لغة الجسد من أنه كلما أكثر المتحدث من ملامسة أنفه أثناء حديثه يكون أشد كذباً! لقد انطلقت مجلة كوريير الرصينة من فرضية علاقة حك الأنف بممارسة الكذب، فنشرت تحقيقاً مصوراً عن لجوء رؤساء دول العالم إلى هذه الحركة بالذات في مؤتمراتهم الصحافية، فتوصلت إلى تأكيد أن معظمهم لا يقول الحقيقة على الإطلاق. وبينما يعتبر بعض الناس أن الشخص الذي يتجنب النظر بشكل مباشر إلى عيني محدثه خجولاً، أو ضعيف الثقة بنفسه، يقول خبراء لغة الجسد أن الإنسان في هذه الحالة يحاول الظهور بصورة تناقض حقيقته، ولأنه

يخشى أن يقرأ محدثه ذلك في عينيه، تجده يهرب بحركة مائلة من عينيه، إلى اليمين أو اليسار، أو ربما إلى تحت.. أما في حالة الغيظ فإنه ينظر دائمـا إلى أعلى. هذا واحد من مفردات لغة الجسد التي اكتسبت مصداقية عالية. نتيجـة لهذه المصداقيـة، تستخدم أجهزة الأمـن في الولايات المتحـدة خبيراً في لغة الجسد هو بـول إيكمان، إلى جانب جهـاز كشف الكـذب، للتحقيق في الجرائم الغامضة أو ذات الأهمية الاستثنائية. يجلس هذا الخبير إلى المتهم ويحاوره لبضع دقائق، فيكتشـف في نهاية الحوار ما إن كان المتهم قـد أدلى بإفادة صحيحة أثناء استجوابه أم لا. ومثلمـا عرفت اللغات المنطوقة عمليات تطوير وتهذيـب وتحديث مستمـرة، وكما أفرزت هذه إبداعات فكرية وجمالية وعلمية متنوعـة فإن لغة الجسد قد عرفت بدورها التطويـر والتهذيـب والتحديـث وأفرزت إبداعـات جماليـة عـبر الرقصـ أساساً، الذي صـار لغة تفاهـم وتواصـل عالمية. ولعـل رقصـ السماح، الذي نـراه نموذجاً راقياً للرقص الرزيـن المحتشم الذي يسمو بالروح والمشاعـر من خلال كلمات أناشيده وموشحاتـه وقدوده وألحانهـا، ومن خلال ثياب محتشمة تشارك في الأداء، وأساساً من خلال حركات أجسادهـم وتعبيراتها، يقدّم صـورة جميلة لإبداع لغـة الجسد عبر تلك الحركات المدروسة المتناسقة. لقد تم تدوين حـركات القدمين مثلاً في رقصـ السماح قديماً وشرح مدلولاتها كما يلي:

١- الدم: وهو ضرب القدم اليمنى على الأرض.

٢- التك: وهو ضرب القدم اليسرى على الأرض.

٣- القفلـة: وهي مدّ القدم اليمنى على طرف القدم اليسـرى وإلحاقها بها، أو مدّ أي مـن القدمين إلى الأمام وإتباعها بالقدم الأخرى.

٤- النهزة: وهي نهز الجسم بأكمله عن الأرضـ والبقاء وقوفاً علـى رؤوس أصابع القدمين.

٥- اللوحة: وهي سحـب القدم اليمنى يمينـاً، وسحب القدم اليسـرى إلى جانبها، وبالعكس.

٦- البصمة، وهي التقدم بالقدم اليمنى إلى الأمام، ووضع القدم اليسرى جانباً.

٧- الخطوة: هي الخطو بالقدم اليمنى على طرف القـدم اليسـرى ولفت الجسم نحوها.

٨- النقرة: هي إرجاع القدم اليمنى إلى الخلف، ولمس رؤوس أصابعها الأرض.

٩- الربـاط: هو ضرب القـدم اليمنى

بالأرض مع تأخير مسافة الرباط، ثم تهوي القدم اليسرى مسافة قصيرة.

١٠- التهواية: إرجاع القدم اليمنى للخلف ومثلها القدم اليسرى مع ثبات الراقص في مكانه.

أما حركات اليدين، وهي أكثر استخداماً ونشاطاً وتعبيراً ولفتاً للأنظار من حركات القدمين في رقص السماح، كما في سواه، فلم يعرف لها أي تدوين. ربما لكثرتها وتنوعها وتلاحقها على نحو يصعب حصره. فمنها مثلاً حركة شائعة تكثر الراقصات أداءها هي رفع الساعد الأيمن واليد اليمنى طبعاً مع بسط الساعد الأيسر واليد اليسرى بحركة انسيابية نحو الأمام. ومنها أيضاً رفع ساعده ويده مع استقامة الساعد الآخر ويده عند مستوى الفم أمام الصدر، إنزال اليدين ثم رفعهما إلى مستوى الصدر ثم سحبهما إلى الخلف ثم رفعهما إلى مستوى الوجه أو ما فوقه مع تحريك الأصابع بغزل انسيابي. أما بالنسبة للراقصين الرجال فالوقفة النموذجية والحركة الرئيسة هي تلك التي يفتتح الرقص بها، أي مد اليد اليمنى أماماً إلى مستوى الصدر. ومن المبادئ الرئيسة في كل نماذج رقص السماح تحريك اليد اليمنى مع القدم اليمنى، واليد اليسرى مع القدم اليسرى بتناسق وانتظام. وقد عرف هذا الرقص في المرحلة الوسيطة التي انتقل فيها من التكايا الصوفية إلى المقاهي، قبل انتقاله إلى المسارح والفرق الفنية المتخصصة الذي واكبه تطوير وتجديد كبيرين، أن الرجال الراقصين في تلك المقاهي كانوا يؤدون بعض رقصاته على ركبهم، أو جلوساً، أو وقوفاً ثابتاً أو جلوساً على الأرض، إن لم يسمح الحيز المكاني بالخطو أماماً وخلفاً أو يميناً وشمالاً. إضافة إلى ما سبق، تم تدوين أصول هامة أخرى لحركات الجسم في أداء رقص السماح، مثل: دمين الزحف، رجل للخلف، رجل للأمام، رجوع، مشي للأمام (أي عكس الرجوع)، مشي (تكين) لليمين، مشي (تكين) للشمال، صادايه (خطو موضعي سريع مأخوذ من الإيقاع الصادايه)، (دقرة أس)، رجل (فاضي)، زحف نقرة، قفلة بنهر، تهواية باليمين.. لكن ما تم تدوينه من حركات على هذا النحو لم يشكل توثيقاً علمياً يوضح حركات هذا الرقص وأوضاع الجسم في نماذجه العديدة، وفي المراحل المختلفة لكل منها، وتسلسل حركات القدمين والسير الموضعي أو الجانبي ومدة كل حركة، وهو ما يتم تدوينه اليوم في معظم أنحاء العالم بما يماثل النوتة الموسيقية ويواكبها. فقد ظل تناقل أصول ومصادر وحركات رقص السماح وتداوله وتعليمه مرهوناً بالنقل الشفاهي والرواية والحفظ غالباً، إلا فيما ندر. ولعل اكتظاظ رقص السماح بالحركات

والالتفاتات والإيقاعات السريعة المتلاحقة يجعل هذا التدوين بالغ الصعوبة. مع ذلك، ابتكر عدنان بن ذريل طريقة تدوين أبجدي موزون موقّع لهذه الحركات، بحيث دوّن بالكتابة الأبجدية العادية المصطلحات الأساسية لرقص السماح تدويناً زمنياً موزوناً لمواقع وحركات كل رقصة، موزعة على أزمنة الإيقاع الناظمة لها، بحيث تظهر زمن كل حركة وخطوة والتفاتة،على نحو يرجع المدربون والمؤدون إليه. وهنا يتم التمييز بين أنواع التشكيل الجمعي في رقص السماح: أول هذه الأنواع الصف الواحد الذي يكون بدوره إما صفاً ساكناً يرقص دون أن يغادر مكانه في المسرح، وإما صفاً متحركاً يدخل راقصاً إلى خشبة المسرح من أحد جانبيها، أو يخرج راقصاً كذلك. وثانيها تشكيل متعدد الصفوف، اثنان أو أربعة. سواء تقابل التشكيلان أو تعاكسا أو تداخلا أو تفرعا في حلقات جزئية، وهما يتفرعان من تشكيل الصف الواحد أصلاً في خطواته أو حركاته. وثالث الأنواع التئام الصف بأكمله في دائرة تتفرع منها دائرة صغرى داخلية ثم يعود المؤدون إلى مواضعهم في الدائرة الكبرى. ورابع الأنواع دائرتان مستقلتان تتشكلان من التئام صفين متقابلين أو أربعة صفوف. ولكل حركة وخطوة وتشكيل من حركات وخطى وتشكيلات هذه الصفوف مدلول يعبر عن معنى أو مقصد، بما يصح معه اعتبار هذه التعبيرات الجمعية بدورها لغة أجساد!

الهوامش

١- د. زكية مال الله، اللغة والتواصل مع العصر، الوطن، الدوحة، ٢٠٠٨/٢/١١.

٢- لودفيج فنجنشتين، بحوث فلسفية، ت. عزمي إسلام،وكالة المطبوعات، الكويت،١٩٩١، القسم الأول، ص ١٦٢.

٣- أبو خلدون، لغة الجسد، الخليج، الشارقة، ٢٠١٠/٢/١٩.

٤- نشأة اللغات: بين المصادفة والضرورة والحرية، الحياة، ٢٠٠٧/٤/٢٠.

٥- عدنان بن ذريل، معجم رقص السماح، مطابع ألف باء - الأديب، دمشق ١٩٧٠.

٦- د. خير الدين عبد الرحمن، لمحات من فيض الإبداع المتنوع لجلال الدين الرومي، الندوة الدولية عن مولانا جلال الدين الرومي والمولوية، جامعة قونية، تركيا، ٢٠٠٧/١٠/٢٨.

آفاق المعرفة

الشبع والجوع النفسي

د. معمر نواف الهوارنة ❁

الشبع والجوع النفسي

الإنسان قيمة وأمل وإنجاز يتجلى من خلال سلوكه وتصرفه الذي يعد إشعاعاً كونياً يظهر من خلال التفاعل والتبادل بينه وبين الإنسان الآخر، وتتسع دائرة العلاقات الإنسانية وتتشابك، ويكثر العطاء وينمو النسيج البشري ويتماسك، فالإنسان وفق فطرته الطبيعية التي أرادها الله له هو ذلك المخلوق البشري الذي خلق ليبحث عن الإنسان الآخر، بحيث يصبح

❁ باحث ومدرس في كلية التربية - جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الوجـود الحقيقي بالنسبـة للإنسان الفرد إنمـا يتحقق من خـلال تلاقيـه مع غيره من الأشخاص وليس مـن خلال تعامله مع مجموعة من

الأشياء! هذا هو السر في ذلك الاستمرار العظيـم للكيان البشري الذي يرفض أولئك الذيـن يتميزون بالأنانيـة ويفضلون العزلة عـن الجماعة وعـدم المشاركـة الفعالة في أمورها.

الإنسان قيمة وأمل وإنجاز إلا أن بعض الأشخاصـ من خلال التعامـل غير السوي خرجوا علـى السائد المألوف فظهرت منهم سلوكيات عجيبة تثير الدهشة والنفور، لأنها تخفي وراءها انفعالات وهواجس واتجاهات تبعـد صاحبها عـن دائرة الخـير والنماء وتدفعه إلى دائرة الشر والجدب.

أما الشبع النفسي قيمة يخلعها الإنسان على تصرفاته، فهو إحساس يعبر عن يقظة الضمير الذي يدافع عن الحق بمروءة ويتقن العمل بجودة ويتفاعل مع الآخر بمودة.

الشبع النفسي غرس فاضل يزرع في أرض الحياة بإرادة لا تتوقف وعمل جاد يعبر عن الأمل والإضافة الخصبـة المشبعة بالرضا والقناعة والأريحية.

الجوع النفسي بين الأنانية والأريحية

يتميز أي فعـل إنساني أو أي عمل يقوم به الشخص بطبيعته المعرفية، فهذه الطبيعة توجه السلـوك الوجهة الملائمـة إذا كانت سليمة أو يبعده عن المسار الصحيح لينخرط في زحمة السالكين في طريق الانحراف.

ويكتسب السلـوك المعني عندما يفصح مـن خـلال نتائجه بمـا يدل علـى وعي صاحبه، والوعي الـذي نقصده يتجلى من خلال ثمار الأفعـال أو ما نجنيه من خلال مجموعـة التصرفات التي نقـوم بها، وكأن الإنسان الشخص شأنه في ذلك شأن الشجرة التي تطرح ثمارها وتقدمها للقاطفين، ومن ثمارها نعرفها! ويحتاج السلوك الواعي هذا إلى حركة تفاعليـة تبادلية متدفقة في أكثر من اتجاه، حركة تتجه في صالح الآخر، ومع الآخر، ومن أجل الآخر.

وبطبيعـة الحال فـإن السلوك الموقوت «الأنـاني أو المصلحجـي» يمنع صاحبه عن العطاء المخلصـ ولا يريد له أن يسلم وعيه أو مدركاتـه أو معلوماتـه للآخـر بسهولة ويسـر، حتى لو كان محباً له أو أنه يدعي له الحب! فهـو يمتنع «لمرض نفسي» قد يتعلق بظـروف حياته وتنشئتـه، أو قد يرجع إلى اضطراب وخـوف وتوجس من هذا الآخر، فـنراه يعيش تحـت وطأة حاجتـه، ولهفته

على إنجازها ودقته الواعية بمصلحته فقط، وحرصه على أن تكون كل أموره على خير وجه، حتى يستشعر من خلال هذا الإنجاز المصنوع بجهود الغير أنه يستحوذ على احترام الجماعة أو تقديرها، ولكنه ينسى في زحمة هذا الضلال أنه يهدم في ثنايا هذا الإنجاز الهش أعظم ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان من خلال الوجدان الصافي المخلص الذي كان يعمل له ولا ينتظر منه سوى الإحساس بمقدراته، ووعيه المخلص بوفائه وحبه.

ولكن الإنسان السوي لا بد وأن يقضي على هذا الشعور الطاعن للجوع النفسي لأنه قيمة وأمل وإنجاز طالما هو بتصرفاته الأخلاقية يعبر عن الشبع النفسي وملتزم بالقيم الدينية ومتطلع إلى المثل الأعلى وهو مستبشر منشرح الصدر لا يعرف السأم أو الانعزالية، ولا تجرحه حوافر اليأس الجامحة فتقذف به في دياجير الظلام وهواجس القلق والتوتر.

هذه الخسارة الفادحة تدفعنا إلى أن نظهر قبح السلوك الأناني وكيف يقتل هذا السلوك متعمداً ومترصداً كل معاني الخير والعطاء والإنجاز والأمل الذي كانت تنسجه خيوط المحبة التي تعمل بأمانة واعية وتفاعل مثمر، وتضحية شجاعة ومروءة حانية، وفكر صادق، وحرص نبيل.

هكذا تكون الأريحية فهي عطاء وتضحية إرادية واعية وعياً تاماً بأهمية وقيمة وأمل الإنسان، تضحية لا يشعر فيها الإنسان بالقسر أو الضغط، ولكنها تضحية ينطلق من خلالها الإنسان الواعي بوجوده كله في سبيل الإنسان الآخر، وهي التضحية التي تعبر عن:

نمو الشخصية، وعلى قوتها، وعلى الدرجة القصوى من تحكم الإنسان بنفسه وحرية إرادته؛ لأنه في هذه الحالة العظيمة من الأريحية يضحي بحياته طوعاً في سبيل الخير... وتلك أقصى درجات النمو البشري.

ولأن الشخصية النامية نمواً قوياً، والمقتنعة اقتناعاً كاملاً بحقها في الحياة، الشخصية التي لا تخاف على نفسها من شيء، فلا يمكن أن تنذر ذاتها لشيء غير أن تهب نفسها لإرادة العطاء السمحة، حتى تسهم بأريحية في تقديم كل ما من شأنه «بقدر المستطاع» أن يسعد الآخر. فالشخصية صاحبة سلوك الأريحية ترى سعادتها في عيون الآخرين، أولئك الذين أسهمت في تحقيق سعادتهم.

سلوك الأريحية هو الهدف المنشود

والغاية التي تعبر عن قيمة الإنسان الحقيقية، فهو سلوك التضحية التي لا بد وأن تكون تامة دون أمل في ثواب، ودون أن يدفع أحد فداء. هذا السلوك يعتمد على «الحب» الذي يشرع هذا السلوك ويحدده؛ لأن المحب صاحب الإيثار الحقيقي هو الذي يهتف على مسامع الجميع لحبيبته قائلاً:

خذيني كلي إذا كنت في حاجة إلي، ولا تعطي بالاً لكل ما يمكن أن يقف حجر عثرة في طريق العطاء الصافي وليس أن تداري هذا العطاء، فهو منزه عن الأخذ المتبادل. فالعطاء لا يطلب مقابل والسعادة القصوى هي أن يضحي الحبيب دون أي ضرر، لأن العطاء في مجمله يجعل صاحبه رابط الجأش، فهو يسعى إلى أن يزدهر الآخر ويبقى سعيداً.

ذلك هو الوصال الحقيقي بين الإنسان والآخر، وصال يتم في إطار الأريحية ذلك الذي يجعل المحب يستمع إلى ذلك النداء، فتردد في آذانه أصواتاً عذبة تدغدغ السمع وتشنف الآذان، وتتجسد في مجموعة العبارات الصافية المعبرة عن الفهم والوعي وإرادة الخير، أصواتاً تعزف أنشودة الأمل في الإنسان فتخرج أنغامها الراقية لتعبر عن قيمة الإنسان، وتؤكد على أهمية العطاء المنزه عن الغرض، والهادف إلى سعادة

الإنسان، عطاء يتعامل مع الواقع برقة وهوادة وبصيرة نفاذة وقلب مفعم بالمودة يبتعد عن دائرة الأحلام الواهمة التي قد تأتي إلينا فجأة بعد طول نعاس؛ لأن هذه الأحلام لا بد وأن نتنبه إليها فهي أحلام مفروضة لا تعبر عن الاختيار الواعي المقصود، لأن الإنسان الراقي هو الذي في مقدوره أن يختار حلمه، وهو الذي في استطاعته دائما- اعتماداً على إرادته الوثابة وفعاليته المثمرة وحرصه على العطاء- أن يوظف إرادته في صنع أحلامه حتى لا يترك لهواجسه أن تعبث بمقدرات إرادته فتفسد عليه واقعه وتطمس من خلال أضغاث هذه الأحلام كل ما يمكن أن يخططه لهذا الواقع المعاش.

حب التملك آفة الشعور بالجوع النفسي

يعيش الإنسان الفرد في حياته وهو يسعى سعياً حثيثاً لكي يمتلك الأشياء التي تجعله يشعر بقيمته، ويؤكد من خلالها ذاته، ويصبح الإحساس بالتملك من الأساليب المقبولة بين الإنسان والآخر طالما يراعي كل منهما الحقوق والواجبات المتبادلة بينهما في عدل ويسر وسهولة. وهنا لا بد من طرح سؤال مهم هل يمكن أن يملك الإنسان حباً؟ فإذا كانت الإجابة «بنعم» فإن الحب هذا سيكون في حوزة الإنسان يملكه ويقتنيه ويصبح شأنه شأن «قطعة من الأرض التي سوف يقيم عليها فيلا المستقبل، أو سيارة فارهة يستشعر من خلالها أنه يملك النواصي والأقدام»!

الحب لا يعرف التملك، لأن التملك فيه خنق وإهلاك، الحب لا يعرف إلا العطاء، لأن الحب نشاطاً إيجابياً مثمراً يتطلب أن تكون العلاقة بالمحبوب علاقة رعاية ومعرفة، وتجاوباً وفرحة، ومسرة ومتعة.

هكذا يكون الإنسان الراقي في تعامله مع أعظم تجاربه، لأن وهم التملك في الحب يجعل المحبين يستشعرون وكأنهم وقعوا في حب بعضهم، وبطبيعة الحال فإن كلمة «الوقوع» تنطوي على تناقض، لأن المحبة نشاط إيجابي مثمر والإنسان في هذا النشاط ومن خلاله ينهض، ويخطو، ويسير، ولا يمكن أن يقع، لأن الوقوع أو السقوط لا يعرف إلا السلبية، فلا وقوع في الحب!

حب التملك تعبير عن شخصية نرجسية

إن حق الاقتناء وتحقيق الأرباح والسعي اللاهث وراء المقدرات المالية والمادية قد أصبح من أهم الحقوق التي يتطلع إلى تحقيقها الإنسان في حياته- ولكن الإنسان في زحمة هذا الولع بالمقدرات المادية قد

ينسى أن هناك من يفكر على شاكلته. وهناك أيضاً من يريد كما يريد هو أن يحقق لنفسه، فكل فرد يحاول المحاولة نفسها، ويسعى بنفس المهمة، ومن هنا إما أن تصطدم الرغبات وينشأ الصراع النفسي نتيجة عدم احترام الفرد لحقوق الآخر، أو يحقق كل فرد مصلحته مع التجاوب والتفاعل والعمل على مساعدة الآخر في تحقيق مصالحه أيضاً.

والسؤال متى تتحول هذه الملكية إلى تصرفات تؤدي بصاحبها إلى العدوان على الآخر، أو إلى أن يتصف بالتطرف في حبه لمصلحته فتظهر هذه النرجسية المسرفة في الذاتية. فتضيع مع ظهورها المتطرف كل المعاني المعبرة عن الذوق والاعتراف بحقوق الآخرين؟

ولعل الإجابة تتلخص في النقاط التالية:

- عندما يتحول السلوك الذي يتركز حول الملكية والربح السريع إلى سلوك يصبغ اتجاهات الشخص، ويدفعه إلى أن يعمى عن رؤية حقيقة الآخر في مصالحه وحقه أيضاً في الحصول على مطالبه وحقوقه.

- عندما يمعن الإنسان المتطرف في نرجسيته في الحصول على السلطة «بأي شكل من الأشكال» ويشعر من خلالها أنه يملك الأمر، وله حق السيطرة، وله كل المقدرات، فينسى تحت وطأة هذا الشعور الضاغط كل معاني الإنسانية المعبرة عن «الخير والحق والجمال».

- عندما ينسى الإنسان في زحمة نشوته بإحساسه بذاته فقط، وحرصه على أن يكون هو المفضل دائماً، وصاحب الرأي السديد غالباً، وهو أيضاً صاحب الكلمة التي لا يجوز إغفالها، أو عدم الاعتراف بسلامتها وصدقها ومنطقيتها. حتى وإن كان الاعتراف لا يعبر إلا عن النفاق، أو المسايرة المعبرة عن المهادنة والاستكانة! إن الآخر له الحقوق نفسها وله الاعتبارات نفسها.

وهكذا يعتدي الإنسان بنرجسيته - في بعض الأحوال وعند بعض الأشخاص - على الآخر فيعبر عن هذا الاعتداء بشعوره الضاغط، وحقه غير الإنساني، فهو يريد لنفسه فقط ولا يريد لغيره، ويحب لنفسه، ولا يحب لغيره وتلك علامات الاضطراب النفسي، الذي يعبر عن شخصية غير سوية لا تقوى على فعل الخير، ولا تعترف إلا بمصلحتها فقط.

الشباب يعبر عن الجوع النفسي من خلال مشكلاته

من الممكن أن يخسر بعض الشباب حيويتهم لو ظلوا يعيشونها من وراء ستار

القلق والخوف من المستقبل أو عاشوا يكتمون بين جوانحهم كل الآراء بحيث لا يستطيعون التعبير عنها إلا همساً، أو في صور السلوك التي قد تبدو منحرفة أو متطرفة فنفقد بذلك الوسيلة والغاية معاً.

والسبيل الوحيد لإنقاذ الشباب يتحدد من خلال الاستماع إلى شكواهم ومطالبهم والتعرف على وجهات نظرهم وتوظيف طاقاتهم التوظيف السليم، مع الاعتراف بهم كقوة هائلة تصنع الأمل للوطن العزيز بفضل التوجيهات السليمة والإرشادات القيادية الواعية تلك التي تمكنهم من التفاعل مع واقعهم وتعودهم على الانغماس الإيجابي في وضع الحلول للمشكلات ببصيرة ونفّاذة ورؤية ثاقبة.

إن ما نشاهده اليوم في بعض الشباب من تصرفات يبدو عليها التطرف إنما مرده إلى أننا لم نقابله بالمناقشة والإقناع ولكن قوبل بالتسلط والقمع بحيث قد يقوي هذا الفكر المتطرف المعتمد على أفكار واهية على مدى السنين، لأن طريق رفضه كان يعتمد على الضغط والقمع، في حين أن مقاومته بالمناقشة والإقناع كان يمكن القضاء عليه في لحظات معدودات. ومن هنا تنشأ أزمة التعبير لدى بعض الشباب، فإما الصمت أو التطرف وكلاهما شر، حيث أن وسيلة التعامل مع الشباب لا بد وأن تعتمد على الحجة والإقناع والمناقشة الموضوعية الواعية بمشكلاتهم.

وأزمة التعبير لدى بعض الشباب قد تأتي من تضافر مجموعة من العوامل، لعل من أهمها ما يلي:

- عندما يجد الشاب أمامه شكلين من أشكال التعبير، فإما أن يعبر بأسلوب مباشر، وإما بأسلوب غير مباشر، فنجده في الحالة الأولى يستطيع أن يعبر عن مضمون فكره صراحة، وأن يكون مقياس التعبير عنده هو المضمون. ويصبح التعبير المباشر صدمة واقعية يقدمها الشاب من خلال معرفة الحقائق بطريقة صريحة بحيث لا تستطيع أن تمتد إليها لمسات النفاق الاجتماعي فتخفف من ضراوتها وتهذب من صراحتها ودقتها. وهناك الأسلوب غير المباشر الذي قد يصطنع لغة الرمز، وما يصاحبها من تأويلات قد لا ترتقي إلى مستوى الحقيقة أو يعبر عنها في سفور ووضوح، بل قد يستخدم غمزات ونكات وتعليقات قد تكون مغرضة خوفاً من المصارحة أو المكاشفة.

- التغير السريع الذي شمل جوانب الحياة بحيث لا يقوى بعض الشباب أن يتابعوه أو يحذو حذوه مما أدى عند البعض إلى الشعور بصراعات نفسية حادة دفعت

بعضهم إلى التمرد تارة وإلى التطرف تارة أخرى وما قد يتبع كل ذلك من عوامل التوتر والاضطراب النفسي.

- التطلع إلى الكسب السريع دون أن يفكر الشاب في حدود إمكاناته وقدراته. ولكن أصبح محور اهتمام الشاب كيف يحصل على دخل مناسب يمكنه من الصرف على ضرورياته تلك التي خرجت على حدود الضرورة المتعارف عليها من مأكل وملبس ومشرب وفكر وثقافة وتكوين الأسرة في المستقبل واتجهت إلى بعض الأساليب التي قد تتعلق بسلوك التدخين، والسهر في الأماكن التي قد يجد فيها الشاب متنفساً لحاجاته العضوية إلى جانب شعوره بالرضا وهو يتصور وهماً أنه يلعب دوره كاملاً غير منقوص. وإلا وقع الشاب فريسة للهم والقلق والتوتر النفسي.

- وقد نجد الشاب يصارع نفسه بين ما يراه من نظريات متعارضة متضاربة، لأن معظم هذه النظريات من بيئة ثقافية وحضارية تختلف مع بيئتنا، ومن ثم نجد الشاب يتأرجح بين الولاء لها وبين الاعتراض عليها خاصة تلك النظريات التي أباحت لبعض الشباب الحرية المفرطة دون أن تكون هناك قيم وأصول أو تلك النظريات التي ضربت بعرض الحائط كل العقائد الدينية، أو تلك التي تحجرت بهم في قوالب لاهوتية أو إطارات فلسفية تعصف بأفكار بعض الشباب وتجمح بهم إلى طرق ومسارات غير سليمة من حيث الشكل وما يواكبه من سلوكيات، أو من حيث المضمون وما يتبعه من أفكار وعقائد أو ما يسمى بلغة العصر «أيديولوجيات».

الحب وبهجة الحياة

يستشعر الإنسان ضرباً من الراحة النفسية يصاحبها ذلك الشعور الجميل الذي يحسه الإنسان الفرد عندما تقوم حياته العضوية بوظيفتها السوية، هذه الراحة تأتي من سلامة التعامل مع الجزئيات ودقة التفاعل مع مكونات الجسم، وصفاء النفس التي تحرك سائر الأعضاء في هدوء وراحة ووئام.

والحب يمثل الانفعالات البشرية التي يمر بها الإنسان لما يحتويه من شحنات وجدانية تنطوي على خبرات ومواقف وأحاسيس يواكبها انفعالات هي مزيج من الغبطة والسرور والسعادة، ولكن هذه التجربة الشاقة المجهدة تستلزم بالضرورة هذا السياج المتين الذي نتطلع إليه عندما نتكلم عن الحب وما يصاحبه من انفعالات وأعني بهذا السياج المتين «الوفاء» فمشكلة الحب أن المحب يضع كل ثقته في المحبوب.

وينتظـر حصاد هذه الثقة من خلال الوفاء الذي يعنـي الاستمرار ويعبر عـن الالتزام والثبات على المبدأ.

وما أقسـى مـن الناحيـة النفسية أن يستشعر الإنسان في لحظة أنه كان مخدوعاً أو أنـه قد وقع ضحيـة لضرب من الخيانة أو عـدم الوفاء، وليس أقسـى على النفس البشرية من أن تتحقق يوماً من أن كل الآمال التـي نسجتها وزرعتهـا في أرض الحب قد ذهبـت ولم تؤت بثمارها المتوقعة. وأن كل ما قد عايشته مـن أحاسيس لا يعدو أن يكون مجرد أوهام قد كشفـت الحقيقة المرة عن زيفها، وأظهرت خداعها!

هكـذا لا بـد للحـب كتجربـة بشرية نفسية تعبر عـن رقي الإنسان من أن تقترن «بالإيثـار» بوصفه يحول الأنانية إلى عطاء، ويبدل الجفاء إلى تعاون ووصال، لأن الحب الحقيقي يفسح دائماً للآخر مكاناً كبيراً في أعمـاق نفسه، بل يضـع الآخر بوعي وفهم تحت تصرفـه فيتفانـى في خدمته- ويعد الحب المخلص الوفي أعظم دليل على الشبع النفسي ويقظة الضمير وحسن الخلق ونبل القصد.

المراجع

- صبحي، سيد .(١٩٩٨)، الشبع النفسي، القاهرة، ميديا برنت.

- Kosslyn, Stephen M.. & Rosenberg, Robin S.: Fundamentals of Psychology; the brain, the person, the world, Second edition, pearson educatin, Inc, (2005).

آفاق المعرفة

من تاريخ الشعر في سورية

د. محمد رضوان الداية

عبد القادر بَدران وديوانه: تسليةُ اللّبيب عن ذِكرى حبيب

عُــرف اسم عبد القادر بــدران واشتهر من جهتــين: إحداهما اشتغاله بالتّعليم، وبُروز عدد من تلامذتــه وطلاّبه، وإشاعتهم أخبار علمه، وتمكُّنه، ومعارفه، والثاني عدد من المؤلفات ذات الأثر، وخُصوصاً كتابه: تهذيب تاريخ دمشــق الذي كان ألّفه ابن عساكر، وكتاب (المدخل)، وهو في الفقه الحنبلي،

❁ أديب وناقد وأستاذ جامعي (سورية).

ℰ العمل الفني: الفنان جورج عشي.

وكتاب: (منادمة الأطلال ومسامرة الخيال)، الذي عُني فيه بذكر معاهد الشام العلميّة القديمة.

وكان من طلاّبه النّابهين: محمد سليم الجندي أحد الأدباء الشعراء من أعضاء المجّمع العلمي العربي وصاحب كتاب أخبار أبي العلاء، وفخري البارودي أحد ساسة الشام وأدبائها وظرفائها، وخير الدين الزّركلي الشّاعر الأديب المؤرّخ صاحب كتاب (الأعلام) والشّيخ محمد أحمد دهمان: العالم الباحث والآثاري المؤرّخ. وتجد في المواد التي درسوها على عبد القادر بدران كتباً في البلاغة، والعروض، والفقه، والأصول، والأدب والشعر (مثل شعر المتنبي، ومقامات الحريري...) إلخ .

وقد طُبِعَ عدد من كتبه بعد وفاته، ومنها ديوانه الذي سمّاه: (تسلية اللبيب عن ذكرى حبيب) الذي صدر بعد وفاة (بدران) بثمانين عاماً.[1]

عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمّد بدران. ولد في مدينة دومة (دوما) وكانت آنذاك بلدةً يرأسها قائم مقام (لقبه الآن مدير منطقة) وكانت ولادته سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٨) وكان جدّه مصطفى من أهل العلم المشهورين. وقد أخذ علومه الأولى في بلدته على عدد من الشيوخ، وقَصد إلى دمشق فدرس على كبار علمائها نحو ستّ سنوات: استقصى فيها العلوم السائدة. وعكف على المصادر والمراجع يتمم ثقافته بنفسه -بناء على وصية أحد أساتذته- وما لبث أن نبغ في الفقه وسائر العلوم الشرعية، وأتقن علوم العربيّة، وآدابها. وتدل أخباره، وكتبه التي ألفها على امتداد يده بقوة إلى علم الهيئة، والميقات، والحساب، وسائر العلوم العقلية والرّياضيّة، ومنها علم الفلك، والذي ذكره الزّركلي من أوصافه الأعلام (٤: ٣٧- ٣٨) أنه فقيه أصولي حنبلي عارف بالأدب والتاريخ وأضاف جانب الشعر أيضاً.

وكان لعبد القادر بدران صلةٌ وصحبة مع الأمير عبد القادر الجزائري. وكان من آثار هذه الصُّحبة أنّ الأمير طلب إلى ابن بدران مرافقته في رحلة غرّب فيه فدخل عدداً من دول أوروبة، وبلاد المغرب العربي (الجزائر وتونس).

وقد انفعل بهذه الرحلة، وحمل للجزائر ذكرى طيبة، ونجد في ديوانه (ص ١٤٥) قوله:

يانسمة الأسحار عني بلغي
أرض الجزائر ألف ألف سلامِ
واهدي تحياتي لأهل مودتي
مَنْ حُبُّهمْ بين الجوانح نامِ

وله قصيدة نظمها عن تونس لم تتمّ (ص ١٤٥).

وقد سجل مجريات هذه الرحلات، وانطباعاته عنها، نظماً في ديوانه.

وكانت مناسبة ليرسل الرسائل شعراً ونثراً إلى أهله وأصدقائه، وأن يعبر عن عنصر الارتباط بالوطن الصّغير (دومة) والحنين إليه إذا ابتعد عنه، ومن اللاّفت للنّظر أنّ هذا الشّاعر المرهف الإحساس من المشغوف ببلدته وما فيها (وهي من مدن الغوطة الشّرقية الفاتنة المناظر والأحوال) سوف يضّطر إلى الابتعاد عنها مُرغماً لا راضياً. وأن يسجّل هذا (الإبعاد) في كلامه المنثور والمنظوم، مع قدر عظيم من اللّهفة والحسرة.

وقد كتب لأمه رسالة من مدينة الجزائر جاء في مقدمتها هذان البيتان (ص ١٣٥):

بلغ سلامي لها يا أيها القاري
واشكي لها لوعتي والبعد عن داري
واشرح لها حالتي من بَعْدِ بُعدهمُ
وقل نسيم الصبا ينبيك أخباري!

ذلك أن عبد القادر بدران، وقد نضح

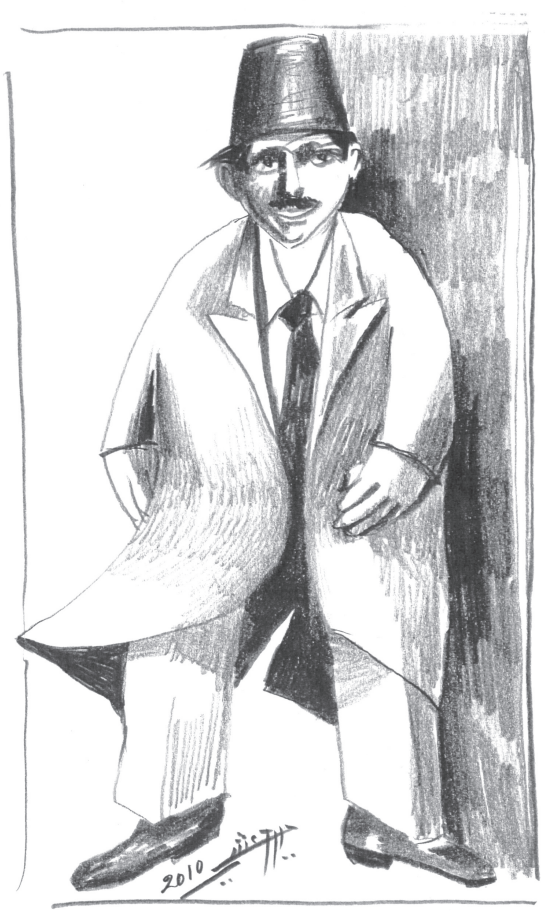

علمياً وفكرياً وثقافياً، جلس في مسجد دومة الجامع (المعروف بالجامع الكبير) يُقرئ، ويدرّس، ويعظ، ويوجّه. ووجد بعضهم في محاضراته جرأةً، ومخالفةً للمألوف. فقد كان ذهنه منفتحاً: درس المنطق، وشدا شيئاً من الفلسفة، ودعا إلى تعليم البنات، وحارب الخرافات ويبدو أنه دخلت عوامل أخرى شخصية أدت بالمجلس البلدي إلى استصدار

أمر من الوالي بإبعاد ابن بدران عن وطنه وعن مدينته، وقصد إلى دمشق واستقبله الوجيه محمود البارودي (والد فخري البارودي) وبقي في ضيافته ورعايته سنتين ونصف السنة حتى انتهت مدة الإبعاد، ولكن ابن بدران آثر البقاء في دمشق، وأُعطي غرفةً عُلويّةً في مدرسة عبد الله باشا العظم (جنوب المسجد الأموي) فكان مقامه فيها نحو خمسين عاماً، إلى يوم وفاته.

وقد تفرَّغ ابن بدران للعلم، فلم يتزوج، وعاش بين الكتب، ومع الطّلبة، والدّارسين، والعلماء، يدرّس، ويحاضر، ويناقش ويؤلف. وكان إلى ذلك يسجل خواطره في قصائد ومقطّعات شعرية يطلق فيها العنان لنفسه، ويجامل بعض أصدقائه، ويمدح بعض رجال عصره ممن يَعرِف ويذكر بعض أساتذته بالثناء والمدح والإطراء ويرصد بعض الظواهر الاجتماعية.. واضطرب هذا في السّنوات الأخيرة عن حياته بعد مرضه والفالج الذي أصابه. كما سنذكر بعد قليلٍ في الحديث عن شعره.

وقد شغل ابن بدران جزءاً مهما من وقته في التّدريس، وعُيّن عضواً في شعبة المعارف بدومة، وتولّى إفتاء الحنابلة، وعمل مصحّحاً ومحرّراً في جريدة الولاية ومطبعتها بدمشق، وكتب في عدد من الصّحف، واهتمّ بالآثار وألّف كتاب: (منادمة الأطلال) ويُعدُّ ابن بدران من المؤلفّين البارزين في عصره.

يجمع ديوان عبد القادر بدران الشّعر والذي تذكّره، وهو يسجّل شعره في ديوانه لأنّه كان قد فقد معظم شعره. فهذا الذي نقرؤه في (تسلية اللبيب..) إنّما هو ما حفظتْه ذاكرته، وما نظمه بعد الشّروع في التدوين.

والديوان في أربعة أبواب: فالباب الأول مخصص لما قاله في دمشق أثناء طلبه للعلم، فقسمه إلى خمسة فصول، الأول في المدائح، والثاني: في الفخر والحماسة، والثالث في الغزل وما يناسبه، والرابع في المراسلات، والخامس في موضوعات شتى.

والباب الثاني في الرحلة المغربية، والباب الثّالث بما نظّمه أثناء إقامته في (دومة) وفي تنقله منها، والباب الرابع في ما أنشده بعد مرضه في شؤونه وأحواله، وما عرض له من أمور في تلك المدة.

وسنة ١٩٢٧ التي توفي فيها عبد القادر بدران هي السنة التي احتفل فيها الأدباء والشعراء وسائر الفعاليات الثقافية من الأقطار العربية. بإعلان أحمد شوقي أميرا للشعراء، وكانت حركة الشعر في عدد من الأقطار العربية (مثل سورية والعراق ومصر ولبنان) قد بلغت مرحلة عالية من

التألّق والنّضج، وظهرت مذاهب فنية يقدّم أصحابها آراءهم في الأدب والفن عامة وفي الشعر خاصة، وكان من شعراء الشام آنذاك بدوي الجبل وعمر أبو ريشة وخير الدين الزّركلي وأنور العطّار وشفيق جبري..

ولكن ابن بدران كان يمثل المرحلة السابقة وهي مرحلة تجمع بين أواخر العصر العثماني وأوائل العصر الجديد. ومعظم حياة ابن بدران كانت في:

- ظل العصر العثماني، في أواخره من النّاحية التّاريخية والفنيّة.

- وكانت موصولة بالمتداول من أشعار الشعراء المتأخرين (في الزّمان) إلاّ القليل.

- وكانت مشغولة بالعلوم العربيّة والإسلاميّة غالباً، ويعدّ الشعر مشاركة منه، ونفثات وجدانية، ومناسبات اجتماعية.

ومن هنا فإن المتوقع من شعر ابن بدران، وطبقته مثل معاصره وابن بلده: صالح طه أن يكون ممثلاً لحياة الشعر ففي تلك المدّة التي هي ذيلٌ على العصر العثماني الأخير، وإن لم تخل من ومضات جديدة وإلماعات شخصيّة متميّزة.

وجاء نَظْم الديوان من حيث الشكل والقالب مشتملاً على:

- القصيدة (وهي المسماة الآن بالقصيدة التقليدية)

- والمقطعة أو المقطوعة التي تعالج فكرة قصيرة، سريعة فيكتفي الشاعر بالبيتين والثلاثة وما فوق ذلك.

- والموشحة، وهي نظام أندلسي للنظم عرف قديماً وحديثاً باسم الموشّحة الأندلسية

- وتجد في الديوان نوع التشطير، والتّخميس، وهو نظم يأخذ الشاعر فيه بيتاً أو أكثر من شعر غيره، ويبني عليه قطعة أو «قصيدة».

وهي ملامح نجدها في دواوين شعراء هذه المدّة من القرن التاسع عشر وشطر من القرن العشرين.

ملامح في شعر عبد القادر بدران

١- عبد القادر بدران والعلم، والاعتكاف من أجله

شغل العلم بال ابن بدران. فافتخر بانصرافه إلى العلم وذكر من أمجاد العرب التاريخية في رقي العلم والعلماء ونشر العلم في أنحاء الدنيا، والتفت إلى الزمان الحاضر فأفاض في ضرورة تحصيل الأمة أعلى درجات العلم، ومنجزاته مما يؤدّي إلى الاختراع والاكتشاف كما صنع الغربيّون، وسمّى عددا من الآلات الحديثة كالطائرات والبواخر واكتشاف الكهرباء..

وله قصيدة يذكر فيها بعض أيام العزّ

العربيّة، وتفوق العلماء العرب في العلوم والفنون والآداب، ضارباً المثل بالمأمون العباسي (ص ٢٩٣)

يا زمن المأمون عَوْدك أحمدُ
طوبى لأنفاسٍ به تتردّدُ

ولعل ابن بدران قد لخص سيرته الذاتية، ومطامح نفسه في قطعة عليها دلائل شعر البديهة والارتجال (ص ٦٤) فقال:

وقفتُ النّفس في طلب المعالي
وفي نشر العلوم مدى الزَّمانِ
أحرّر كل مُعضلةٍ بشوقٍ
كشوق الوالهين إلى الأغاني

وقال في أثناء قصيدة رفعها إلى مفتي دمشق أبي الخير عابدين، منوّهاً بجانب العلم من خصاله: (ص ١٧٩):

بحر العلوم وبدر المجد منه زهت
أيامنا فرحاً في أبهج الحُلَلِ

وقد تنبّه ابن بدران لقضيّة الإرث الحضاري العربيّ في الآداب والفنون والعلوم، وعرض من ذلك لأمور مهمة في كتابه (منادمة الأطلال) وهو يذكر المدارس والمستشفيات ومعاهد الطب، وبحوث العلماء في جوانب العلم المختلفة، ولاحظ أهمية تحصيل العلم الحديث ليكون أساساً لبناء نهضة عربية حضارية جديدة، ولا يكفي أن نتعلم في الغرب، ونبقى عالة عليه، نقرأ له من قصيدة (ص ٢٨٨) وهو يتحدّث عن العلم الذي كان في بلادنا وعند علمائنا ثم انتقل إلى الغرب:

فاستردّوه من الغرب فقد
كان فيكم آمنا ثمّ انتقَلْ
إن سعي المرء في نيل العلا
كالهلال كلما سار اكتملْ

ابن بدران والتعمق في طلب العلم، وتعليم البنات

أشار ابن بدران إلى حوار جرى مع بعض الأطباء (وفيهم فتاةٌ دارسةٌ للطب) عن تعليم البنات، وما كان شائعاً آنذاك من منعهنّ من ذلك، وأنشد قصيدة طويلة: نبّه فيها على مكانة العلم في حياة الناس ورفعة الوطن وضرورة مزج العلم بالعمل ثم قال (ص ٢٨٦)

واغترِبْ للغرب في تحصيله
واهجُر العذال أرباب الزلَلْ

وفي القصيدة:

فمتى يا شرق تحذو حذوه
طارحاً من فيك أفيون الكسلْ
ياحماة الدار احموا مجدكم
بالقنا من قَبْل (سوف) و(لعل)

إن سعي المرء في نيل العلا
كالهلال كلما سار اكتملْ

وقال في قصيدة أخرى يحثُّ على تعليم البنات (الديوان ص ٢٠٩).

يا رجالاً علّموا غادتكم
إنّها في الدار أمٌّ وأبُ
ارفعوا عنها حجاب جهلها
قبل أن ترفع عنها الحجبُ

والغادة هي: الفتاة

٢- على نهج الشعراء

وكان وهو في المستشفى تقرأ عليه طبيبة بعض الشعر على سبيل مذاكرتها وإفادتها معاني الشعر وكان مما قرأت عليه قصيدة ابن زيدون المشهورة

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فأعجبها الشعر، فنظم ابن بدران قصيدةً يعارضها (أي في الموضوع وعلى الوزن والروي: يعني من البحر نفسه وحرف القافية نفسه أيضاً) ومما قال في هذه القصيدة:

ياجنة عن رياضِ الخلد تغنينا
شرع الغرام بها قد صار لي دينا
من قبل كنت وليس الغيد تأسرني
واليوم ساحرةُ الألحاظ تسبينا

وشطّر أشعاراً، أو خَمّسها[٢] لشعراء من القدماء والمحدثين كابن سهل الإشبيلي وفرنسيس مرّاش الحلبي. ولسان الدين بن الخطيب. وشهاب الدين الخفاجي.

٣- ابن بدران وفن التوشيح

نظم ابن بدران الموشّح، وأكثر موشحاته تجري على مثال موشحة لسان الدين بن الخطيب: (من أدباء الأندلس توفي سنة ٧٦٧ هـ)

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلك إلا حُلما
في الكرى أو خلسةَ المختلسِ[٣]

ومن المألوف عند الوشّاحين أن ينظموا على مثال موشحات سابقة، وأن يستعيروا منها آخر (قفل) وهو الذي يسمى الخرجة، وممّا قاله في هذا الباب(٢٩١):

يا رعى الله زماناً سَلفا
بربوع الشام وقت الغَلس
فيه وقتي طاب مع أهل الوفا
وكؤوس الودّ فيه نحتسي
ظبية من آل غسّان لها
مرتعٌ ما بين علمٍ وأدبْ
ما رآها ناسكٌ إلا لها
للجوى والوجد صلى واقتربْ

وبنو بلقيس قالوا إنها
في(سَبا) قد قلّدت مجد العربْ
آه لو كان زماني مُسعفا
ورداء البرء فيه أكتسي
ومكان مرضي حلّ الشفا
لسريتُ نحوها في الغَلسِ

والموشّح فن أندلسي استمر على ألسنة الشعراء إلى اليوم، جرى على نهجه شعراء كثيرون، واستفاد منه الشعراء المعاصرون في الوطن العربي وفي المهاجر الأمريكية أيضاً.

ويبدو أنّ نظم ابن بدران للموشحات كان عن إعجاب بالأدب الأندلسي وبالتراث الأندلسي جملةً، فإننا نقرأ في ترجمة الشيخ العلامة محمد بهجة البيطار لابن بدران في مقدمة كتاب (منادمة الأطلال) قوله (صفحة: م) «وكان لي شرف ضيافة الأستاذ المترجم (يعني عبد القادر بدران) ليلةً مع صديقه الرحالة الجليل الأستاذ الشيخ خليل الخالدي المقدسي، فأخذ الأستاذ بدران يسأله عما رأى من نفائس الكتب الإسلامية الخطية في ديار الغرب لاسيما الأندلس..».

٤- الوطن والشرق والغرب

أنشد في مدينة (الجزائر) وهو في صحبة الأمير عبد القادر قصيدة يتشوق فيها إلى (دوما): و(دمشق) وما بينهما

حَيّا الحَيا (دوما) البديعة إنها
أضحت جمال الغوطة الفيحاء

يدعو للديار بالسُّقيا: تحببّاً وتشوّقاً على طريقة الشعراء العرب وهو دعاء بالخير.

وقال في القصيدة مفضلاً بلاد الشام خاصة وبلاد العرب على أوروبة:

و(المرجة) الخضراء أفديها بما
في الغرب من جبل ومن صحراءِ
ما (جلق) إلا رياض محاسنٍ
ومفاخر ومكارم وهناءِ
هي جنة الدنيا ودرة تاجها
ومعادن العلماء والأدباءِ

وفي هذا الشعر بيت القصيد، المشهور:

من قال إن الغرب أحسن موطناً
فلقد رآهُ بمقلةٍ عمياءِ!

ونقرأ له في مقدمته لكتاب منادمة الأطلال ومسامرة الخيال محاورة بينه وبين مدينة دمشق وقد تخيلها غادة حسناء تطلب منه أن يتحدث بأخبارها، وينقّب عن آثارها، وتسأله أن يعتني بها كما اعتنتْ به ورفعت من شأنه بالعلم والمعرفة والشهرة ومحبة الطلبة وأهل العلم، وطال الحوار الخيالي بينهما وهو طريف، وعاطفي مؤثّر إلى أن قال:

ما بعد جلّق للغرام مرامُ
وغيرها من وطن عليَّ حرامُ

لكنْ هي الأقدار تفعل ما تشا
صبراً جميلاً، والكلام كِلامُ!

ثم شرع في الحديث عن موضوع كتابه، وعنايته فيه بآثار دمشق المتعلقة بالمدارس والمعاهد في مدينة دمشق، وهي مدارس القرآن الكريم والحديث الشّريف، ومدارس العلوم الفقهية والأدبية، ومدارس الطب والحكمة والزوايا والخوانق وسائر ما يتعلّق بذلك.[٤]

٥- مفردات العلم ومصطلحاتها

وقد أورد ابن بدران في أشعاره، وخصوصاً ما نظمه في آخر حياته أسماء علوم وفنون كثيرة، وهو يحثُّ على طلب العلم وينوّه بالتقدّم العلمي الذي خطته البشرية، ونقلت الحياة من حالٍ إلى حالٍ، وأورد مفردات من الطب والصيدلة والكيمياء، والفيزياء، والفلك، ومسمّيات حديثة كالطّائرة والسيّارة والمدفع وربّما أدخل مصطلحات العلوم في نسيج شعره على سبيل الإطراف، وانسجاماً مع استعمال تلك المفردات في الأغراض المختلفة كقوله على سبيل المداعبة والإطراف (ص ٢٩٦)

وغادة تسألني
ما الجَبْرُ من فن الحسابْ؟
فقلت يا كل المنى
أن ترفعي عنّا الحجابْ!!

وذكر في مرضه عدداً من الأطباء والمعالجين، وبعض المفردات الطبيّة من الأشربة والعقاقير، وذكر الأشعة السينية، وكانت مشهورة باسم مكتشفها (رونتجن)..

٦- شخصية ابن بدران في ديوان شعره

ديوان ابن بدران الذي كتبه بنفسه، يُضيف إلى تراجمه التي ذكرها المؤرخون معلومات إضافة، ويسجّل نبضاً حيّاً للمراحل الأخيرة من حياته خاصة. فإنه لمّا أصيب بالفالج عولج في المستشفى الرئيسي آنذاك المعروف قديماً بمستشفى الغرباء، وهو مشفى جامعة دمشق الآن.. وقد دَوّن قصائده وسائر ما كتبه في تلك المدة بيده اليُسرى بعد أن تدرّب على ذلك، وإن كان خطه آنذاك مضطرباً، وربما جاء غير واضح في بعض الكلمات.

وأُضيفت مأساة مرضه هذه إلى ماكان يعاني منه، من ظلم أهل بلده له، وإخراجه منها قسراً، وشعوره بالغُربة عن بلدته التي أحبّها، وبالأسى الشديد لأنّ مكافأتهم له على نشر العلم فيهم وخدمتهم كانت طرده، وإبعاده.

- وله قطعة في شكوى الزمان من أواخر شعره يقول فيها (ص: ٣٠١)

دهرنا دهر الغبيّ الجاهلِ
والعليمُ صار منه في مِحَنْ

حكمة لم ندر ما أسبابُها
حَيّرت أهل العقول والفِطنْ

– وكان مقامه في (مستشفى الغرباء) قريباً من ضريح الإمام ابن تيمية، فتحدّث في إحدى قصائده عن مجاورته له، وجعلها مناسبةً ليذكر حاله في مرضه، وانصراف الناس (حتى المقربين منه سابقاً) عن زيارته أو السّؤال عنه (ص ٣٠٤) وقال إذا كان ذلك العالم قد سُجِن، فإنّه هو سجين، ولكنْ من نوعٍ آخر:

وإذا سجنيَ دائي
فيه قد حارَ الطبيبْ
والأخلاّء جَفَوْني
مُمعنين في المغيبْ
لا كتاب اليوم عندي
لا ولا خِلّ أريبْ
كل شيء قد جرى لي
ليس بالأمر الغريبْ
هكذا الدّهر يعادي
كل مقدام لبيبْ

وكما عاش ابن بدران غريباً عن بلدته، غريباً في داخل نفسه، مات أيضاً غريباً، وللمصادفة المدهشة كانت وفاته: في مستشفى كان يسمى: مستشفى الغرباء!!

الهوامش

١- صدر عن دار النوادر بعناية نور الدين طالب ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م في طبعة معتنى بها مزودة بعدد من الفهارس.

٢- التشطير: أن يأخذ الشاعر بيتاً لشاعر آخر ويضيف إلى صدر البيت صدراً جديداً من عنده، وإلى عجز البيت شطراً آخر (على الوزن والروي) – والتخميس: أن يأخذ بيتاً لشاعر ثم يضيف على الوزن والروي ثلاثة أشطار قبل شطري البيت الأصلي فتصبح الأشطار خمسة، وتتوالى المنظومة على هذا النحو.

٣- هذه الموشحة للسان الدين التي اشتهرت جداً تجاري موشحة سابقة لابن سهل الإشبيلي، لكن الناس ذكروا موشحة لسان ونسوا موشحة ابن سهل.

٤- منادمة الأطلال: ٢ – ٤.

آفاق المعرفة

أكـــثر من وجـــه واحـــد

د. عبد الكريم الأشتر ❁

-١-

كانـــت العودة إلى حلب إيذاناً ببداية فصلٍ جديـــد، يُخيَّل لمَن يتتبّعه، في حيـــاة الأسرة، أن الأحداث التي شهدتْها فيـــه تجمَّعتْ علاماتها، في انتظار الساعة التي تغادر فيها دمشق.

ففي الأيـــام الأولى، من عام (١٩٩٠)، تلقيتُ اتصـــالاً من السيدة وزيرة التعليم العالي، يومذاك، أعربتْ فيه عن رغبتها في أن أوالي العمل في جامعة

❁ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

حلب، بما يتفق مع ما يرى المسؤولون فيها من قدرة الانتفاع بوجودي إلى جانبهم. فهكذا عدتُ أوالي الدرس مع طلبة الدراسات العليا، في جامعة حلب، ساعة واحدةً في الأسبوع، لزمنٍ طال فامتدَّ، على غير توقُّع، ثلاثة عشر عاماً!

لم يكن عدد طلاب الدراسات العليا، آنذاك، يزيد كثيراً على العشرة، فأخذنا نجتمع في المكتبة، من حول طاولةٍ كبيرة، في الجناح الذي يضمُّ مكتبة أستاذي عبد الوهاب الصابوني التي أهداها إلى الجامعة. وكنتُ، كلما دخلتُه، ارتسمتْ أمامي إحدى صور المرحلة الإعدادية التي عرفتُه فيها، حتى أصبحتُ أراها تتحرك!

على أن الطلبة لم يكونوا من طلبتي، في المرحلة الجامعية الأولى. فكان عليَّ أن أُحسن الدخول عليهم، إذ ما أزال إلى اليوم أستشعر الحاجة إلى إعادة النظر في مناهج الدراسات العليا، في جامعاتنا، فإنا جعلنا القصد فيها لا يختلف عن قصد الدراسات، في المستويات الجامعية الأولى! وقد كان ينبغي أن نقف أساساً، في هذه المرحلة المتقدمة، على مناهج الدرس، من خلال ما نعرض لدرسه من الموضوعات، فنقوِّمها في ضوء النتائج التي ننتهي إليها، ونقول رأينا فيها.

على أني وجدتُ العمل، مع توالي الأيام، ما يزال يشعرني بغبطة القدرة على العطاء، مهما يكن قدْره، وغبطةِ الشعور الحيّ بما يدور من حولي! ولحظتُ انعكاس هذا الإحساس في وجوه الطلبة. وأعانني هذا على فهم ما كنت أسأل نفسي فيه، أيام التحقتُ بجامعة القاهرة، فأطيل السؤال: ما الذي يدفع أستاذاً في مكانة الدكتور طه حسين، في أواخر أيامه، إلى التبرع ببعض الساعات يقضيها مع الطلبة، في المستويات الجامعية الأولى التي عرفها قبل سنين كثيرة، غير ما كان يقوله، من تقديره لجميل الجامعة التي وضعته على أولى الدرجات، فارتقاها، من بعد!

-٢-

بعد زمن قصير، كان عليّ أن أستقبل الفجيعة بفراق السيدة نديمة المنقاري، الأم التي عوَّضتني حنان الأم، صاحبةِ ثاني مجلة نِسْوية في سورية، أمّ زوجتي وجَدّة أولادي. لقد وسِعتْ، بعلوّ مداركها، ما كان يعترض حياتنا من عثرات الزمان. ما أذكر، على مدار حياتها إلى جانبنا، كلمةً فرَطَتْ منها، وحفظتُها لها، وتمنيتُ لو لم تقلها!

إن أكثر ما يعاني منه الشاب الذي ينتسب إلى ثقافة العصر وأفكاره وقيَمه، من المرأة

التـــي ولَدت زوجته، يقع، في أغلب الأحيان، مـــن انتسابها إلى ثقافـــة متخلِّفة تقرب من الأميَّـــة أحياناً، وتملي عليهـــا مواقفها من الشـــاب الـــذي استأثـــر بابنتهـــا! فقد كان من نِعَـــم الزمان عليَّ، أن تتـــم صلتي بهذا الصنف النادر من نساء الجيل. كانت تملك من ثقافـــة العربية وأدبهـــا، وثقافة العصر وقيَمه، مـــا أهَّلها لمخاطبة المـــرأة والنصْح لهـــا، وإغرائها بالاتصـــال بمصادر المعرفة الإنسانيـــة والاجتماعية، ومكَّنها من إصدار مجلتها التي سمَّتهـــا (المرأة)، واستكتبتْ لها بعضاً من أرفع الأقلام التي عاصرتْها!

وكانـــت، من جانـــب آخـــر، تتكلم، غير العربيـــة التـــي أخذتْها عن شيـــوخ زمانها، وقعـــدتْ لها في مجالسهـــم، لغتين أخريين: التركية والفرنسيـــة! وتلجأ إليهما في بعض مواطـــن الحاجة إلى تلوين إحساسها وإغناء فكرتها. وتملك، من جانب المعاملات، وحدة الفكر والسلوك، في كل موقف رأيتها تقفه من نفسها، ومن أولادها، ومن الناس جميعاً!

وتـــلا هذا الفراقَ، فراق آخر، مرٌّ شديد المرارة، وقـــع بعد مرض حـــادّ أصاب أخي (الدكتـــور صالـــح) الذي عاد مـــن المغرب، وسكن بناءه الذي بناه في حلب، بعد الأعوام الطويلة التي أمضاها في جامعاته المختلفة. وكان أشدُّ ما أحسسته من مرارة فقْده، يعود إلى إدراكي العقباتِ التي حالت دون أن نبلغ منه ما هُيئ له من قُدُرات الإنتاج والعمل.

أعرف أن الموت وجه الحياة الآخر. ولكنه يبقـــى، على طول الزمان الـــذي عاينتْه فيه

الكائنات، على اختلافها، أحدَّ الشفَرات، وأمضاها وأنفذها معاً!

-٣-

عدتُ إلى البيت، في أحد الأيام، بعد رحيله، أحمل هذه المعاني الكئيبة، فوجدتُ ولدي الأول اختار لنفسه الاختصاص في الأمراض النسوية والتوليد، وقد كنت أريده لاختصاصاتٍ أخرى أراه أكثر تهيؤاً لها! ولكنْ خفف عني ما وجدتُه، وقوعي على مشفى صغير عام، يريد أصحابه أن يبيعوه، في حيّ مختار من أحياء حلب. فأخذتُ أجعلُ من استكمال حاجاته، بعد أن اشتريناه، فبعنا له الدارة التي أسكنها، وخصصناه بالتوليد والمعالجات النِسْوية، ما لفتني حيناً عما كنتُ فيه! واضطررت، بعدها، إلى أن أبيع البيت الذي سكنته في دمشق، في السنوات الأخيرة، لأشتري مسكناً في حلب، قريباً من المشفى.

وبلغت الأسرة، بما وصلتْ إليه، أقصى ما كانت تتمناه! وأذكر أنَّا خرجنا من المشفى يوماً، فلما جاوزناه التفتتْ زوجتي تتطلع في البناء، وسمعتها تقول، كمَن يحدث نفسه:

- أسأل الله أن يردّ عنا العين، فهو أعرَف، بالذي بذلناه فيه!

ولم تمضِ أيام قليلة بعدها، حتى استقبلنا، برحيلها، في إحدى أزماتها القلبية، الفاجعة الثالثة!

تبدّت لنا الحياة، بعد دفنها، فارغة لا معنى لها. وبدا الإنسان ريشةً تهزها الريح الهيِّنة. أخذنا نسأل أنفسنا: علامَ كل هذا الاحتفال بالوجود؟ وهل تعني الحياة غير الإدمان على اليقظة والمنام، والدخول والخروج؟ وهل الأحلام التي يحلَمها الإنسان، غير تعلاّتٍ يستعين بها لإكساب الحياة الجدّيةَ اللازمة ليستمرَّ فيها؟

وقد غذّى هذه الحال التي كنتُ فيها، تتابع حلقات الفراق عن أناس عرفتُهم وأحببتهم، بلغني خبر رحيلهم في بضع كلمات، بدت لي، يومذاك، أقرب إلى الحديث الدارج الذي يخلو من معانيه الجادّة: أحمد راتب النفاخ، وقد شاركتُ في تأبينه (١٩٩٢/٤/٨) في مجمع اللغة العربية، وأديب النحوي (١٩٩٨) الرومانسي الحالم الذي عرفته ونحن على أبواب الجامعة، قبل أن ندخلها.

قاربتْ السنة أن تنتهي، وأنا، في هذه الغمرة، وحيدٌ لا أَقَرُّ على قرار. فذُكرتْ لي إحدى المدرِّسات، في ثانويةٍ قريبة للبنات، تتفق ظروف حياتها مع ما أنا فيه، فاسترحتُ إليها. جرى الحفل في سكونٍ أشبه بالصمت. وتجلّى لي بعدها ما انطوتْ

عليه من سَعَة الإدراك، وجمال الروح، وعمق النزوع الإنساني في تعاملها مع الآخر.

-٤-

وتهيأت لي، في هذه المرحلة، سُبُلُ الاتصال بالمستشارية الثقافية الإيرانية، فاستجبت لدعوتها للسفر إلى لندن (١٩٩٠) وحضور ندوة أقامها بعض المقيمين فيها من العراقيين، للاحتفال بذكرى يوم «غدير خم»، وحضرها معي، من المدعوين، الأستاذان عبد الكريم اليافي ومحمد سعيد رمضان البوطي، وازددت قُرباً فيها من الشاعر العراقي الدكتور مصطفى جمال الدين.

تناولتُ، في كلمتي، موقف الإمام عليّ من المرأة. فما نزلت عن المنبر، حتى أقبل عليّ الدكتور جمال الدين، يقول لي، وهو يضحك:

- أرْضيتَ، في كلمتكَ، أهل السنَّة والشيعة معاً!

فأجبته: ما إلى هذا قصدتُ أبداً، وما قلتُ إلا ما رأيت فيه الحق!

أنستُ، في السفر، برفقة الدكتور اليافي أُنْساً لا أنسى بعض مواقفه. وبلغنا، في بعضها، زيارة الريف الإنجليزي. وبلغ منا الأنس بالصحبة، أن أغراني وهو يضاحكني في الطريق، بالدخول من باب موارَب، أفضى إلى قاعة فسيحة، رأيت فيها رجالاً يحتضنون فتياناً يداعبونهم ويطعمونهم بأيديهم! مشهد أدركتُ ما فيه، وحكيته، للدكتور اليافي. فهزَّ كتفيه وقال:

- لو عشتَ زمناً حيث عشتُ لم تجد غرابة فيما رأيت!

وعرض يوماً، لبعض القضايا النحوية، والدكتور مصطفى جمال الدين - واختصاصه الأول في النحو- يستمع إليه، فأعجب به إعجاباً لم يكتمْه عنه. فردَّ اليافي في تواضع:

- إنما أردت أن أثبت جدارتي، وأدفعَ عنها!

دُعيت، بعدها، إلى الأهواز للاشتراك في الاحتفال بتجديد ضريح شاعر آل البيت «دعبل بن علي الخزاعي» المدفون، كما تقول روايات التاريخ، في سوسه (شوشة) عاصمة العيلاميين القديمة. فوقفنا على قبره المجلَل بستار كثيف، أردت أن أرفعه لأرى ما تحته، فأسدلوه عن يدي! وبدت، في طريقنا إليه، أعمدة تاريخية ضخمة من آثار الإخمينيين (دارا ومَن بعده من بناة الإمبراطورية الفارسية). ونزلنا إلى قبوٍ رأينا فيه قبراً أحاطوه بالرخام الأخضر، دفن فيه، كما

قالوا، النبي «إيليا» الذي صحب اليهود أيام نفاهم البابليون إليها.

كنا، يومها، في الشتاء. ولكن الجو، في الأهواز، كان ربيعياً. وقد عُقدت جلسات الندوة في فندقٍ يطلّ على «نهر قارون»، عند الجسر الحديدي الذي يربط بين الضفتين. فكنت، حين أفيق، أطلُّ على النهر، فأرى جماعات الطير تحوم فوق مياهه، قريباً من سطحه. ويميل بعضها فيغمس جناحه فيه، ويأخذ يرفّ به، وهو يتجاوزه، كأنما انشقت عنه مياه النهر!...

ألقيتُ في الندوة كلمة كنت هيأتها، عن الشاعر العباسي الذي كتبت فيه رسالة الدكتوراه، وتمسكتُ فيها بأخباره التي حققتُها، فلم تلق قَبولاً، فيما بدا لي، لدى بعض مَن حضرها، إذ انحرفتُ فيها عما أحيطَ به من هالات الرضا العميق عمّا قاله وما فعله على السواء!

وتعددتْ زياراتي، من بعد، إلى المدن الإيرانية، فزرت أصفهان. دخلتها ليلاً فرأيت الأشجار محلاّة بقناديل من الأنوار المصبوغة بالخضرة، حتى كأنها تشعُّ من أغصانها، فتولِّد إحساساً تضيء له النفس بالبهجة، يناسب ذكرى مولد السيدة فاطمة الزهراء، بنت النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عليه السلام.

ثم لما دخلنا المدينة، في ساعات الفجر الأولى، بدت لنا أقواس الجسور المنصوبة على نهرها (زايندة)، وفيها جسر (خاجو) المنصوب على طابقين، يقوم في منتصفه البرج الكبير، حيث تحلو الإطلالة على بساتين المدينة وأرباضها!

وزرنا، في النهار، بستاناً يقوم، في وسْطه، بناء تنعكس أعمدتُه العشرون في بناء النهر، فيتضاعف عددها في العين. وسمَّوه لهذا «قصر الأربعين عموداً». وقد زُينت جدرانه بألواح تاريخية تصوِّر بعض مراحل التاريخ الإيراني، وأُلحقتْ به قاعةٌ عُرضتْ فيها بعض الآثار الصغيرة وقطع النقود القديمة. تمنيتُ، وأنا أقلِّب النظر فيها، بيني وبين نفسي، لو أننا سلكنا هذا المسلك في بعض مواطن السياحة عندنا!

وألقيتُ أيضاً، بدعوة من المستشارية الثقافية عدداً من المحاضرات، في المناسبات التاريخية المختلفة، في دمشق وطهران وقُم، منها (١٩٩١) محاضرة عن فكر المفكر الإسلامي «مرتضى المطهَّري» الذي وصل، بدعوة الإسلام، إلى مستوى الدعوات العالمية، ووزنها بها، على نحوٍ يقود إلى فتح باب الحوار والتقريب بين الحضارات الإنسانية قاطبة. ومحاضرةٍ أخرى (١٩٩٢) عن الشيخ المفيد «محمد بن محمد بن النعمان» من

الوجهة الفنية، أبديتُ فيها استغرابي من بعض ما يقوله، مما ينفيه العقل ومنطق الدعوة. إذ لا يُعقل أن يدعو الإمام، بأمر من النبي عليه الصلاة والسلام، الفلَك فيستجيب له!

وأكثر هذه المحاضرات يجمعها كتاب «الملتقى» الذي طبعته المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق (٢٠٠١). ويمثِّل لروحه العام كلمة ختمتُ بها محاضرتي عن واقعة كربلاء في مدينة «قم» (١٩٩٣): «إننا لا نريد أن نظل أسرى هذه المأساة، وما خلَّفتْ من جراح تاريخية، ننزلق معها إلى وحل الخلاف المذهبي. فإن الإسلام كله هو المستهدفُ، وبوقوف المسلمين وراءه، في معسكر واحد، يحققون انتصارهم على المأساة»!

-٥-

وأتيحت لي زيارة القاهرة (١٩٩٤) للاشتراك في مناقشة رسالة أشرفتُ على كتابتها، حول «المسرح في سورية»، قدمها إلى معهد البحوث والدراسات العربية طالب من حمص كان من طلابي، في جامعة دمشق، قبل ثلاثين عاماً (طاهر التركماني). وشاركني في لجنة المناقشة الدكتور عز الدين إسماعيل، فمال علَيّ، حين رأى الطالب، في سنِّه المتقدمة، فهمس في أذني:

- أراه يصحّ فيه المثل القائل: اطلب العلم من المهد إلى اللحد!

كانت نبوءة حزينة صادقة أطلقها في لحظة دعابة عارضة، لم يتعدّ الطالب زمناً بعدها، فرحل وأبقى رسالته يتيمة لم تُطبع إلى اليوم!

وكنتُ نزلت، مع الطالب، يومها، منزلاً في مصر الجديدة هيأه لنا أحد موظفي المعهد، مكثنا فيه أسبوعاً، زرتُ خلاله بيت الدكتور مندور، فقطعتُ إليه الطريق التي كنت أقطعها، قبل سنين كثيرة، على شاطئ النيل. أذكر أني طرقت الباب، فسمعتُ طرقاتٍ خفيفة لعصا تدبُّ على الأرض، قبل أن يُفتح وتظهر لنا الأستاذة ملك عبد العزيز، تتوكأ على عصاها! كانت في سنواتها الأخيرة، قبل أن تميل عليها، في الطريق، كما حدثوني من بعد، شجرةٌ عاتية، هبت عليها ريح شديدة، فضربتْها ضربة مميتة!

جلسنا في غرفة المكتبة. أخذتُ أجيل نظري في خزائنها وكتبها، وأسترجع وقوفي أمامها، وفي المكتب والكرسي الذي كنتُ أقعد عليه، أمامه. لم يتغير شيء خلال السنين الطويلة، بعد رحيل الرجل الذي لا أنساه، ولا أنسى الأيام التي أمضيتها في صحبته!... واستعدتُ موقفاً كنا فيه في بعض الرياض، نتأهَّل لالتقاط إحدى الصور،

والدكتور مندور يقف فيها إلى جانب زوجته. نظرتْ زوجتي، في الدكتور مندور، وهي تلتقط الصورة، وقالتْ له بصورة تلقائية:

– يا دكتور! خذ الآن، إذا سمحت، وضعاً رومنسياً يناسب الظهور في الصورة، إلى جانب الأستاذة ملك!

ضحك يومها مندور «أستاذ الرومنسيات والكلاسيكيات» ضحكةً طويلة مجلجلة لم أسمعه ضحكها من قبل!

-٦-

ودُعيتُ مرتين، بصفة محكَّم في بعض المسابقات الثقافية، لاختيار الفائز بجوائزها، لقيت في الأولى منهما الدكتور عبد القادر القط، فشهدتُ من تواضعه وغيرته على الحق، مشاهد أذكرها إلى اليوم. ومَن يخبُر ما يقع في مثل هذه الأحوال، يعرف قدْر الحقيقة فيما أقول.

ودُعيتُ أيضاً، للغاية نفسها، مرتين أخريين، لقيتُ، في الأولى منهما، الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان، وحضرتُ تكريمها في المهرجان نفسه الذي أعلنت فيه نتائج المسابقة، ووُزعتْ جوائزها. وبقي في نفسي، مما لمستُ من حزنها، مما نحن فيه، قدْرٌ لعلّي ما عرفتُ مثله، في أحزان مَن لقيت من الناس! ولمّا أبلغتُها أنّا ندرس، في الجامعات، بعض النصوص من شعرها، انفرجتْ شفتاها عن ابتسامةٍ شاحبة ولم تعلِّق على الخبر!

موقفان لا أنساهما، وقفتُهما وتمسكتُ فيهما بما كنتُ أراه:

الأول: خبرٌ تلقتْه لجنة التحكيم يقول: ينبغي أن لا يقع حكم اللجنة على مَن لا ترغب الإدارة في أن تمنحه جائزتها!

والثاني: همسةٌ همسها في أذني أحد أعضاء اللجنة، برغبته في توجيه الجائزة إلى أحد المتسابقين، تكريماً للقطر الذي ينتسب إليه!

شاركتُ، من ناحية أخرى، في إلقاء بعض المحاضرات، تحت عناوين مختلفة، في مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجمع اللغة الأردني، وهي المحاضرات التي اشتمل عليها كتاب «العربية في مواجهة المخاطر»، وجرى توزيعُه في دمشق، أيام الاحتفال بالعربية اللغة الأم. وقد وقفتُ فيها، من اللغة المحكية، وأدبها الشعبي المكوَّن منها، موقفاً يدعو إليه التعقُّل، مع المسعى الدائم إلى تقريب الفصيحة السهلة منها، مفرداتٍ وصياغات، عن طريق التسهيل والتيسير، واتساع حركة التعليم، وتوظيف أجهزة الإعلام بوعي وحكمة. وهو موقف لم يرضَ عنه بعض مَن استمع إليها، بدعوى أن الباب

يلزم ألا يُفتح مصراعاه للاحتفال بالأزجال والمواويل، في الساحة العربية، حتى لا يقوى، من ورائها، النزوع الإقليمي إلى ترسيخ العامِّيات العربية، وإضعاف وعي شعوبها بوحدة لغتها، بداية لنموّ إحساسها بضعف رابطتها القومية.

وفي الردِّ على ما قالوا، مع التسليم به جملةً وتفصيلاً، ذكَّرتُ بأقوال الشاكين من تعقُّد قواعد النحو والصرف، وما تولِّد من الحَيرة في الإملاء والهمز، وفي الألف اللينة والعودة فيها إلى أصل الكلمة، وغياب الحروف الصائتة (Les voyelles)، ووقوع الحَيرة في قراءتها، وتحريك أواخر الكلمات بالحركة الصحيحة، إضافة إلى الافتقار إلى المعجم الحديث المركَّز المتصل بمعارف العصر العلمية المتطورة.

وقلتُ: ستظل المحكيَّة، في النهاية، لغة الحياة اليومية، وستضيق الفُرجة بينها وبين الفصيحة، يوماً بعد يوم، مع العمل على تيسير اكتساب الفصيحة، والإلمام بثوابتها، وانتشار أجهزة الإعلام، وأُلفة القراءة. ولن يُكتب الفوز أبداً، في لغة الكتابة، لغير الفصيحة السهلة الميسّرة، إذ لا يقرأ الناس ما يُكتب بغيرها. وتجارب مَن حاولوا أن يكتبوا بغيرها لم تنتهِ إلى غير الندم على ما أضاعوا من أوقاتهم، والعودة إليها.

أما الأدب الشعبي فهو اليوم جزء من تراثنا الثقافي العام، كما تعدُّه الشعوب الأخرى جزءاً من تراثها (folk – lore)، إذ ينفعنا في دراسة تطورنا اللغوي والتاريخي والاجتماعي، فضلاً على ما نذوق فيه من جماليات التعبير والتصوير، على مثال الخَرْجَة، في الموشحات الأندلسية قديماً، ومثال بعض نماذجه في شعر شعرائنا المحدَثين الكبار، مثل شوقي وأبي ريشة وغيرهما، إضافة إلى شعراء المحكيَّة المعروفين اليوم، في الساحة العربية.

على أن هذا شيء، وعجز المحكيَّة عن الارتفاع إلى مستوى لغة الثقافة والإبداع شيء آخر. وما نستطيعه حقاً: أن نحتفظ لأدبها بحقلٍ خاص يملك خصائصه المنفردة، بصفته أدب اللغة المحكيَّة.

وألقيتُ، من بعده، محاضرة تناولتُ فيها هذا الموضوع، وجئتُ بنماذج جعلتها أمثلةً لِما أريد بيانه. وشدّدتُ على كون الخطاب الثقافي خطأً أحمر، كما نقول اليوم، لا تتجاوزه المحكيَّة أبداً، في غير مواضع التمثيل، أو مواضع التذكير بواقع الحياة القائم!

تلك، في كل حال، مسألة يلزم أن نقرَّ بأن لها، كما لغيرها من مسائل الإبداع والثقافة، أكثر من وجه واحد!.

آفاق المعرفة

كائنٌ أدبي حداثي
هل يحملُ هُوياتِ القرنِ الجديد؟

د. بغداد عبد المنعم

حملَ القــرنُ العشرون بكائنــاتٍ أدبية كانت جديــدةً في وقتها.. وتتابعَ ذلــكَ مع ريادات عربيــة أدبية وفكرية.. كان منها ريــادةُ الشاعرة العراقية نازك الملائكة للقصيدة الجديــدة.. قصيدة التفعيلة.. وسُجِّلَتْ هذه الريادةُ باعــتراف بها على طول المنطقــة الأدبية العربية وعرضهــا. والحديثُ عن الريادة وأصحابها هو حديث حق حين تبدأ العمليةُ التأريخية والنقدية.

لقــد أثَّرَ الحضورُ الكثيفُ للكومبيوتر على بَدْء ظهور أجنة أدبية أعتقد

باحثة في التراث العربي، فلسطين.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

أنها ستضيف مورثات جديدة إلى سلالات الأدب في كل العالم، فبدأت تُخلَقُ مساراتٍ جديدة لها علاقة بسهولة وتسارع الاتصال.. ولها علاقة بتكاثف التغطيات الفضائية لمجمل المنجز البشري في الأرض..

قبل هذا الانفجار الالكتروني الاتصالي بقليل حمل الأدبُ بجنين نوعي كأنه إرهاصٌ لهذه المرحلة.. كان هذا الجنين هو (القصة القصيرة جداً).. بشروطها وأدائها الدقيق.. وهي تسكنُ منطقةً ليستْ هي فضاءاتُ الشعر.. ولا هي منطقةُ المقال ولا مجالات القصة بأحجامها..

نَفَسُها القصير حَمَّلَ كاتبَها أو مبدعَها مسؤوليةَ الكلمة.. وحِسَّاً جديداً يتوازن بين الدقة والخَلْق.. فليس مكانٌ لكلمة قادمة من خارج زاوية اللقطة القصصية.. فلا كلمة تزيد.. ومع ذلك يقدمُ القاصُّ هنا ومضةً وارفة غنية شديدة الخصوصية.. فقد يُوظِف المجاز بكل أنواعه الاستعارية والرمزية ليُتمَّ بلورةَ الصورة القائمة على الإغراب والإدهاش.. وقد يستند إلى كثيرٍ من الإضمار والاختزال والحذف.. فيبدو أنَّ المساحات الوجدانية اللانهائية تحتملُ تجربةً أدبية جديدة.. تجربةً في مس مساحات لم تُمَسّ من قبل!

ما إنْ أضاءَ المصطلحُ.. أي مصطلح «القصة القصيرة جداً» أولاً خجولاً منذ أواخر الستينيات ثم بقوة بدءاً من التسعينيات حتى حضر إلى ساحتها كثيرٌ من الفرسان والمتفارسين والتائهين.. طالبين تجربتَهَا متوهمين سهولةً سيكونُ بإمكانهم السير فيها والتحليق بها لخفتها!!

مُلابَسَات التجربة

لقد أتاها شعراءٌ ليجربوها فما عرفوا مفاتيحَهَا حقَّ المعرفة.. ولم يستطيعوا قيادةَ اللغة على مسارها وسرعتها.. ولعلهم لم يدركوا السحرَ الكامن في شروط غموضها النوعي..

وأتاها القاصون فحسبوا أنها مُلخص قصة طويلة..وأتاها الصحافيون فحسبوا أنها (قفشة) أو (صدمة).. غير أن كل هذه المسارات المستسهلة لم تؤدِ إليها.. وتعثرتْ النصوص وأضحى الأمر بحاجة إلى أسبابٍ متراكبة تدعمُ بعضها بعضاً.. منها التأريخ لهذا النوع الأدبي الجديد والنقد لنصوصه الصادرة تساندُها الدراسةُ الأكاديمية التي تكرسُ له المصطلحات والإطارات الواسعة والشرعية..وكان لا بد لهذا الكائن من ظهور لافت قبل كل شيء يحملُ نيةَ وهدفَ ووعي ذاتهِ ودورِهِ الجديد..

ففي اللحظة التي انطلق فيها محمود درويش إلى السماء السابعة في الشعر

فتجاوز السماءَ العربية إلى السماء العالمية.. وكـوَّنَ رَحِمَاً شعريـاً حداثياً وعربيـاً بآنٍ معـاً وبعيداً عن عُقَـد الحداثة حين تحملُ علاقـاتٍ مَرَضِيّة مـع الثقافـة الغربية.. ويجب أن نكـون الآن بانتظار أن يولد جيلٌ شعري من هـذا الرحم.. الجيل الأشد دقةً والأشد حداثـةً على الدرجة نفسها أيضاً.. ولكـي نتابع سلالةَ اللغة التي خَلَّقَها وكبَّرَها محمود درويش..

في لحظـاتٍ مُواكبـةٍ لذلـك المفصـل الشعـري تقريباً انبثقـت (القصة القصيرة جداً) بنَفَسِهـا القصير الواضح وبومضها.. ويبدو بضرورتهـا في تلك اللحظة، فما كان الواقعُ ليحتملَ دوماً

طيراناً..كنا نحتاجُ نصاً يضيءُ التفاصيلَ وبسرعة..

وعلى الرغـم من أن بعضـ الدراسات جعلت القصـة القصيرة جداً مـن مواليد التسعينيات من القرن الماضي.. غير أنَّ لديَّ ما يعيدُهـا إلى ما قبل ذلـك بعشرين سنة وبالتحديد إلى أواخـر الستينيات وبدايات السبعينيات..

بَـدْء ظهـور المصطلح في المشهـد الأدبي السوري

أذكـرُ وأنـا لمـا أزلْ طفلـةً صغيرة في أوائـل السبعينيات من القـرن الماضي هذا المصطلـح.. وأذكرُ أكـثر أني سمعتُهُ مبكراً جـداً من الشاعر محمود السعيد بينما كنتُ أتردد بصحبة أبـي إلى مقر النادي العربي الفلسطينـي في مدينة حلـب.. كنت أسمعه منه مباشرة وخـلال الأمسيات الأدبية التي كان يقيمهـا النـادي.. وفيما بعد في (مجلة المقاومة) التـي أصدرتها إدارة النادي.. إذاً خرجَ هـذا المصطلحُ من الجـو الثقافي في حلب بذلـك التألق والتوهج الـذي تحملُهُ عادةً التجربـة الأدبية في علاقتها الجدلية مع الواقـع ومع النبض الثقـافي الذي كان عالياً..

وسوف يمرُ عقدُ السبعينيات كله قبل أنْ يبدأ النقدُ بالانتباه إلى هذا الكائن الجديد بهويته المختزلة وهدوئه.. فأبعدُ الانطباعات والكتابات عنه لا تتعـدى أوائل الثمانينات من القـرن الماضي وهي تُجمِـعُ على ريادة (محمـود السعيـد) للقصة القصـيرة جداً وربما على مستوى المنطقـة العربية كلها.. فقد اعترف له بهذه الريـادة الدكتور نعيم اليافي[1] والدكتور سمر روحي الفيصل الذي عدَّ (الشاعر محمـود السعيد) أول الكاتبين في هذا النوع وأكثرهم شجاعةً وكون تجربته الأدبيـة تستحق قـراءةً متأنيـة[2] وكذلك الناقد يوسف سامي اليوسف الذي قال «في السنوات العشرين الأخـيرة طرأ تغيير كبير

على بنية القصة القصيرة في سورية وربما في العالم العربي كله، فظهرت أنواع من الصياغة أو التشكيل الفني لم تكن مألوفة من قبل.. ومن هذه الأنواع نوع يسمونه (القصة البرقية) ومن نماذجه ما يكتبه محمود علي السعيد ..»[٣]

..إلى أنْ بدأتْ تصدرُ الدراساتُ عنها فتعترف بالريادة للمدينة وللشاعر القاص معاً.. فالدكتور يوسف حطيني يذكر في كتابه الذي خصصه لدراسة معمقة في القصة القصيرة جداً «..وفي هذا الإطار تندرج التجربة المبكرة للكاتب والشاعر الفلسطيني محمود علي السعيد الذي بدأ بنشر هذا الشكل والتبشير به منذ بداية السبعينيات.. يعد محمود علي السعيد من أوائل الذين استخدموا مصطلح القصة القصيرة جداً، فقد أصدر مجموعات عديدة في هذا المجال وهو تاريخياً من رواد هذا النوع»[٤]

وقد تمت الإشارة إلى أن الشاعر السعيد هو أول من ثَبَّتَ على غلاف مجموعته القصصية الأولى (الرصاصة) مصطلح قصة قصيرة جداً [٥] وقد اعترفتْ له بذلك

معظم الندوات التي عُقِدَتْ عن القصة القصيرة جداً.. وحتى توالتْ الكتاباتُ من أوروبة فكتب سلامة عبد الرحمن من باريس في جريدة (كل العرب) قائلاً «الميني قصة أو القصة القصيرة جداً نوع أدبي جديد يظهر في حياتنا الأدبية العربية الشاعر محمود علي السعيد يحاول التجديد في هذا النوع فتجربته (الشكل - المحاولة) تجد صداها في الساحة الأدبية العربية» [٦] ومبكراً وفي فاتحة الثمانينات كتب الدكتور

رياض نعسان آغا «يبدو أن نظرية الأجناس الأدبية التقليدية لم تعد قادرة على احتواء هذا الخليط المتباين من التقنيات والأشكال الأدبية المحدثة والتي تتجه إلى الاستقلال والتفرد بقيم خاصة بعد أن رفدتها تجارب متقنة أعلنت عن خروجها على الحدود والمعايير التي فرضها النقاد على المبدعين.. إنها مغامرةُ الفن وقد خاض غمارها مجرباً بثقة وصدق فني محمود علي السعيد..[٧]

ويبدو أن القصة القصيرة جداً والتي أخذت رمزاً يليق بها هو (ق.ق .ج) قد بدأت النبوءاتُ حولها وحول أهميتها كفن أدبي جديد سيتم التأريخ لولادته عبر مجموعات (ق.ق.ج) المبكرة للشاعر وهي: الرصاصة – المدفأة – القصبة..وقد ذكر الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين موقفه من كل ذلك حين قوله « .. القصة القصيرة جداً لدى محمود السعيد تأكل اللغة من حدثها وتُكثف لحظاتها إلى درجة مضغوطة حتى يصبح العنوان أحياناً لديه رمزَ الرمز حتى نحس بأن الكاتب يتمنى لو أنه اختصر أكثر وأكثر في اتجاه تقطير أخير مرتجى»[٨]. فهذا التعريف الخارج من ذهنية شعرية يشكلُ مع الدراسات التعريفية والنقدية رؤيةً مهمة في هذا الكائن الجديد وكاتبه ومبدعه..في حين تبدأ الدراساتُ بالتَشَكُّلِ حوله.. نقرأ «وممن أخلص لهذا الفن إخلاصاً كبيراً حتى كان رائد القصة القصيرة جداً بلا منازع الأديب الفلسطيني محمود علي السعيد الذي أصدر تسع مجموعات قصصية خلال عقدين من الزمن» [٩] وكان ثمة جيلٌ من الدراسات والمقالات بدأتْ من أواخر التسعينيات تناولَتْ الكائن الجديد[١٠].

قراءة في بعض القصص (ق.ق.ج)

لعلها القصة الأقدم للكاتب الشاعر محمود السعيد وعنوانها (عبد الرحمن موقت)[١١] كُتِبتْ قبل أربعين سنة.. فتاريخها يعود إلى ١٢/ ٥/ ١٩٧٠ وهي من مجموعة (القصبة): «لم تكن عجينته الفنية تسلس القيادة بسهولة القبلة، فالجلسة الفولاذية بين حرارة الفكرة الملتهبة وتوجسات الفشل اللاطئ في منعطفات القطعة الحجرية الشابة تقدحُ كلما لامست المطرقة وجنة الإزميل وعبد الرحمن موقت الجواد الريفي محترق لدرجة الجرأة في معادلات تتأرجح بين موسيقى الولادة السليمة والاجهاض الخفي (يرفع يده احتجاجاً)». نلاحظُ هنا كيف وَجَّهَ الكاتبُ عناصرَ القصِ نحو مستوياتٍ عدة من معالجة الحدث الفني.. فثمة تسجيلٌ سكيولوجي يضبطُ الحدثَ الجدلي بين النحات والحجر!!

ومن مجموعته القصصية القصيرة جداً والتي حملت عنوان (الرصاصة) قصةٌ

عنوانُها (الفنان) مُهداة إلى لؤي كيالي «الفرشاة تجوس واجهة القماشة البيضاء بجسارة والألوان الشمسية تكسو أجنحة الأشكال الهندسية بريش بلوري من نسيج الفصول المكهرب، وأصابع الفارس في انسجام صوفي بين مد وجزر بينما شرارة الانهيارات تقدح في هشيم الجسد الخشبي وكبريت الشرايين الصدئة يصفي مع حبات الفاليوم المشاكسة حسابه وهو يشرح للأغصان الحريرية رقصة الحب».

أليسَ العنوانُ جزءاً أساسياً من النص؟؟ فمنه ومن دون مقدمات يلتقطُ الكاتبُ حدثاً فنياً: فرشاة وقماشة وألوان.. ثم دخول مكثف ودقيق في كنه اللوحة وضمير الفنان.. ثم أصابع الفنان وانهياره.. تنتهي القصةُ برقصة الحب. خمسون كلمة حَكَتْ حدثاً تشكيلياً وحَرَّكَتْ شخصيةً حمَلَت المكانَ والحدث والفعلَ.. فعلَ التكوين اللوني التجريدي.. والمكانُ حقيقةٌ قائمة من القُماشة إلى الفرشاة إلى أصابع الفنان المتحركة منهما إلى حبات الفاليوم.. ليس إلا مثل هذه اللغة تستطيع أن تؤرخَ مثل هذا الحدث – المشهد – القصة ولكنّ القصيرة جداً والمشبعة بالأهمية وبإرادة الكاتب.

تلكَ أمثلةٌ من مجموعات من القصص القصيرة جداً المكتوبة والمنشورة منذ أواخر الستينيات(١٢) كانت في حينها النبرةُ الخطابية صوتاً طربياً عاماً لمعظم النتاج الأدبي.. وغير الأدبي.. منذ تلك اللحظات وفي توازٍ عجيب مع الاختراعات التي اهتمت بنبش التفاصيل والاشتغال بصمت وخفوت.. ولدتْ هذه المساحةُ الصغيرةُ حاملةً رسالتها المُرهفة الدقيقة والتقنية إلى حدٍ بعيد..

إنها محاولةٌ واعية لبناء دربٍ أدبية بعيداً عن الالتفافات الكثيرة والمقدمات والتشبيهات وغطاءات الاستعارات.. كأنها تريد إقصاء التقاليد إسقاطاً للحجم والأبعاد .. كأنها تريدُ إقصاء الضجيج ونبرة الوعظ .. ولكونها شديدة القِصَر قطعتْ رأسَ الخطابية .. ولكونها شديدة الاختزال فقد تثبتتْ بالدقة والتوهج.. تكرهُ الزخرفةَ لكونها قائمة بالروح.. ربما توجهُ بشكلها وحضورها رسالةً لكل ما هو شديد الضخامة والانتفاخ..

لعلها تحملُ السردَ كرمز تقليدي في القص.. غير أنها تتجاوزه ربما بعد ثلاث كلمات.. وتُكَسَّرَهُ لتخرجَ مارداً من بضع كلمات.. تسلكُ مُنعرجاتٍ لم تُسلك من قبل.. وأحياناً لم تُرَ من قبل.. بل أحياناً تصنع مُنْعرجَهَا الجديد تماماً.. فمن المجموعة الأخيرة للكاتب والتي حملت عنوان (من قيس أرمينيا إلى ليلى فلسطين) نقرأ هذه

القصــة القصيرة جداً وهــي بعنوان (آني) (١٣) «الهــلال الجميــل الذي فتــح قمراً جوريــاً على حرارة الموقف والتجربة، ينوس كقارب الصيد البحري وهو يجوب شواطئ فلسطين خريطة الجرح الذي أينعت أوراقه على إيقــاع قبلات (شمس ومطــر) لتُشرِق من خاتمة (الجسر الذهبي) عشيقة الكلمة الأرمنية (آني) وهــي تُقبِّل تشظيات غسان كنفاني الموزعة ما بين الأرض والعشق فتنوء الساعــات بحمل القرنفل الــبري بتويجاته الدموية وكأس من الخمرة الرديئة تُدلَقُ في وجه سماسرة الوطن».. تقدم القصةُ ظلالاً ممتزجة بين تجربتين ثقافيتين نضاليتين في حلم ابداعي طويل للغايــة بزمنه التاريخي قصير جداً بالرغبة إليه.

ثم توالــتْ توجهاتُ الأدبــاء إلى الكائن الجديد فقد حمَلَتْ الرحلةُ الأدبية الشاسعة للكاتــب الكبير زكريا تامــر – في منتصف السبعينيات – قصاً قصيراً غير أنَّ الكاتب لم يُحَمِّلْهُ بشهادةِ ميلادٍ ولا باسم.. بل أبدع نصاً حداثياً قصيراً شديد المواجهة والاحتجاج..

ويبــدو أنَّ الكائــن الجديــد برشاقتــه وحداثته لفتَ انتباه كبار الكتاب.. فقد ذكر غــالي شكري في كتابه عــن نجيب محفوظ (من الجمالية إلى نوبــل)(١٤) أنه وجه سؤالاً لنجيــب محفــوظ: مــاذا تكتب يــا أستاذ؟ فأجاب: القصة القصيرة جداً.. هل تسمعني يا غــالي القصة القصيرة جداً.. ثم صَدَرَتْ لاحقاً ثلاثُ مجموعاتٍ للكاتب الكبير نجيب محفوظ حملت مصطلــح: القصة القصيرة جــداً على غلافهــا وهي: أصــداء السيرة الذاتيــة – صــدى النسيــان – أحلام فترة النقاهة.

وكان مــن الكتاب الكبــار الذين اقتربوا منهــا وجربوهــا: عبــد الســلام العجيلي – عادل أبو شنــب – ياسين رفاعية – عبد الستار ناصر – عبد الرحمن مجيد الربيعي.. وكذلك الروائي الكبــير المخضرم حنا مينا الذي صرح إلى جريدة الرياض (١٥) بأنه كتب قصة قصيرة جداً بعنوان (طفلة للبيع)..

فهذه القصة القصيرة جداً (ق.ق.ج)(١٦) كائــنٌ أدبي جديد ولد داخل المشهد الثقافي السوري.. وفي مدينة حلب حيث وَقَّعَهَا مُبكِراً على أغلفة مجموعاتــه القصصية أي كتب لها شهادة ميلادها وبجرأة اسماً ومضموناً ومشروعاً الشاعر القاص (محمود السعيد) الذي أتمَّ إنجاز هــذا التبلور والظهور لهذا الومضــ الأدبــي الحداثي.. وقــد ظهرتْ خلال العقد الأول من القرن الجديد وعلى طول المنطقــة العربية أسمــاءٌ لامعة كتبتْ بعمق وبخصوصية في هذه الكينونة الأدبية الجديــدة.. بعضُــ هؤلاء الكُتَّــاب ينشرون

نتاجهم في مواقع الكترونية، وهذا ما حوَّلَ نصَّهم القصصي إلى نصٍ تفاعلي يُقرَأ ويُؤوَل بسياقات مختلفة، وأدخَلَ من ثم بعداً جديداً في الحركة الثقافية والأدبية هو البُعد الالكتروني الذي بدأ بالظهور والتأثير الواسع ويبدو أنه في طريقه لأخذ الشرعية الكاملة وذلك حين تنضمُّ إليه المساراتُ الأدبية الأساسية..ومنها المسار النقدي.. ومسار البحث الأكاديمي الأدبي الذي قد يتضمن عملية تشريحية ونقدية واسعة في مجال زمني طويل.. ومسارات التلقي الذي كان في شبه مَسْرَحةٍ ما بين الكاتب والجمهور أو الكاتب والمجلة والصحيفة مما سيسمح بانتقالات أشد سرعةً للنبض والحركة.. وهناك مسارُ الصحافة الأدبية أو الإعلام الأدبي..

تلوحُ في الأفق ظلالٌ وومضاتٌ لكائناتٍ أدبيةلعلهابتكوينهاودقتهاتُواكبُخصوصياتِ وهُوياتِ القرن الحادي والعشرين خاصةً مع وجود مواقع على الانترنت بدأت تتجه نحو الاختصاص الأدبي والنقد وتلقي الحوارات (منتديات).وسيدخل الإبداعُ الأدبي سريعاً في تسارع الإبداع الاتصالي فهل سنكونُ حيال نصٍ جديد شديد الانفتاح والشفافية وشديد التحمل لعملية النقد المستمرة التي ستكون معه وفيه بنفس اللحظة؟؟.

الهوامش

١- مجلة البيان الكويتية – عدد ٢٩٩- حزيران – ١٩٩٥

٢- وقد نشرت الدراسة نفسها في كتابه (أطياف الوجه الواحد) الصادر عن اتحاد الكتاب العرب – سورية .

٣- مجلة صوت فلسطين – ت١ ١٩٨٩ وجريدة البعث – ١٩٨٠ عدد ٥٤٣١/ الدكتور سمر روحي الفيصل .

٤- الناقد يوسف سامي اليوسف – مجلة إلى الأمام – ١٩٩٥- عدد ٢٢٨٥

٥- القصة القصيرة جداً بين النظرية والتطبيق . د. يوسف حطيني – دمشق – ٢٠٠٤.

٦- جريدة تشرين- ١٨الات٢ – ٢٠٠١ ، القاص باسم عبدو

٧- جريدة كل العرب – باريس – العددان ٥٠ و ٨٠ في عامي ١٩٨٤ و١٩٨٥ سلامة عبد الرحمن .

٨- جريدة تشرين ١٩٨٠/١٠/٢٨ د. رياض نعسان آغا

٩- الشاعر محمد علي شمس الدين – الكفاح العربي – ٢٠ /١٩٨٥/١٢

١٠- فن القصة القصيرة (مقاربات أولى) . محمد محي الدين مينو . ط٢ – ٢٠٠٠- دبي .

١١- منها: القصة القصيرة جداً لأحمد جاسم الحسين ١٩٩٧. وفن القصة القصيرة – مقاربات أولى ٢٠٠٠. وشعرية القصة القصيرة جداً للدكتور حسن المودن . والقصة القصيرة جداً عند زكريا تامر للدكتور يوسف حطيني .. بالاضافة إلى عدد كبير من المقالات والدراسات تناولت القصة القصيرة جداً بمقاربات تجنيسية وتاريخية وفنية.

❁- نحات وهو من أشهر النحاتين في مدينة حلب.

١٢- صدرت للشاعر والقاص محمود السعيد المجموعات التالية من القصص القصيرة جداً:

❁- الرصاصة- قصص قصيرة جداً - حلب - ١٩٧٩- النادي العربي الفلسطيني - اللجنة الثقافية.

- المدفأة . قصص قصيرة جداً - ١٩٨٠ - اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين.

- القصبة . قصص قصيرة جداً - ١٩٨٢

- المنقل . قصص قصيرة جداً - ١٩٨٢

- المحاولة - ١٩٨٣

- الشكل - ١٩٨٣

- نصف البرتقالة - ١٩٨٥

- بطاقة رقم /٥/ - ١٩٨٥

- إلى فراشة البحر - ١٩٨٧

- من قيس أرمينيا إلى ليلى فلسطين - شعر وقصص قصيرة جداً . دار الحوار - اللاذقية -١٩٩٤.

١٣- هو اسم مجلة أرمنية كانت تصدر في بيروت وآني زوجة الكاتب غسان كنفاني .

١٤- غالي شكري ، من الجمالية إلى نوبل . دار الفارابي - بيروت - ١٩٩١ .

١٥- جريدة الرياض / عدد ٥ يوليو / ٢٠٠١/ زاوية ثقافة اليوم.

١٦- لقد تم اعتماد هذه التسمية (ق.ق.ج) أي القصة القصيرة جداً بعد مخاض من تسميات شتى كان منها: ومضـــات قصصية - لوحات قصصية - مقطوعات قصيرة - مشاهـــد قصصية - أقصوصة - القصة القصيرة الشاعرية - القصة القصيرة - الخاطرة .

آفاق المعرفة

المركيزة مدام دو بومبادور

حامية الأدب والفن في البلاط الملكي الفرنسي

(١٧٢١-١٧٦٤)

إبراهيم سلوم

جان - انطوانيت بواسون التي عُرفت باسم مدام دو بومبادور، كانت سيدة موهوبة وجميلة ومثقفة، وأثرت بشكل عميق في النواحي الثقافية والفنية والسياسية في بلاط الملك الفرنسي لويس الخامس عشر (١٧٤٥-١٧٧٤). إن عودة إلى سيرة حياتها تطلعنا بأنه عندما بلغت سن الرشد عُنيت أمها بتعليمها وتثقيفها وتهذيبها، فدربتها على فنون الرقص والموسيقى والغناء والرسم. ثم قامت بتزويجها من أحد النبلاء «شارل لونورمان» فاتخذت جان من زوجها

ناقد ومترجم سوري.
العمل الفني: الفنان وفاء كريدي.

ومركزها المرموق وسيلةً للتقرب من القصر الملكي بشتى السبل والوسائل، وحصل لها ما أرادت. فبعد محاولات للَفْت انتباه الملك، استطاعت أخيراً أن توقعه في حبها، ليتخلى الملك عن خليلته الرسمية «دوقة دوشاتور» وتحل مكانها في قلبه. منحها الملك لقب مدام دو بومبادور. وعندما احتج زوجها على ذلك أُبعد عن باريس وحصلت «بومبادور» على قرار رسمي بالانفصال. ومنذ ذلك الحين أصبحت في العام ١٧٤٥ خليلةً للملك لويس الخامس عشر. وهكذا تحقق حلمها الذي كان يراود ذهنها بعد أن استمعت إلى إحدى العرافات وهي تقرأ فألها عندما كانت في عمر الورود: أمامك طريق مغروس بالورود وسوف ترتقين إلى أعلى درجات المجد لدرجة أنك ستصبحين ملكة من دون أن تضعي تاجاً على رأسك. والعرش سيخضع لك من دون أن تجلسي عليه، سيكون سلطانك مستمداً من جمالك فحافظي على هذا الجمال الذي هو كنزك الذي لا يفنى!! هذا ما قالته العرافة وما كانت تردده جان-أنطوانيت بواسون وهي تحلم بمستقبل مفروش بالورد، وتطيل النظر إلى قسماتها الفاتنة. وبالفعل تحققت هذه النبوّة حين اتخذها الملك لويس الخامس عشر خليلةً له. ولما كانت الخليلة لدى الملك بمثابة وظيفة رسمية مميزة إلى جانب منحها لقباً تشريعياً هو المركيزة دو بومبادور، فقد سمح لها بذلك أن تقيم في قصر فرساي، وتمارس نشاطاتها بشكل علني وكأنها رديفة للملكة لا بل أشد نفوذاً منها. ونتيجة حبها للأدب والفن وجنوحها إلى عالم السياسة أصبحت راعية الأدب والفن في البلاط حيث فتحت صالونها لاحتضان فناني وأدباء عصرها مثل: فولتير، ومونتسكيو، وجان جاك روسو، مارينو، الذين تغنوا بجمالها وأناقتها، وأشادوا برعايتها لهم وأفضالها عليهم. كما وساعدت الملك من الناحية السياسية على التقارب بين فرنسا والنمسا ليقاوم مطامع روسيا وانكلترا. لكن حرب السبع سنوات التي خاضها مع انكلترا أفقدته كندا والهند في معاهدة باريس (١٧٦٣) نتيجة عبثه بالنفوذ الملكي وانهماكه في حياة المجون التي كان يعيشها مع خليلته دوبومبادور، والتي كلفت الخزينة الفرنسية أموالاً طائلة، الأمر الذي أجبره على بيع بعض المستعمرات الفرنسية إرضاءً لنزواتها الطائشة. توفيت في العام ١٧٦٤ بعد إصابتها بمرض عضال تاركةً البلاط الملكي يعاني حالة من العجز والإحباط نتيجة أهوائها وإسرافها في تبذير المال العام، مما حمّل الخزينة العامة أعباء كثيرة. وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية

التي أشعلت نيران الثورة الفرنسية ضد النظام الملكي الذي تهاوى في عهد حفيده لويس السادس عشر في العام ١٧٨٩.

❁ ❁ ❁

وُلدت جان -أنطوانيت بواسون التي اتخذت فيما بعد لقب المركيزة مدام دو بومبادور- في باريس عام ١٧٢١ في أسرة شريفة ومتواضعة، من أبٍ يدعى «فرانسوا بواسون» الذي كان سائساً ومراسلاً لدى دوق أورليان. ثم حدث في العام ١٧٢٥ أن شحّت الحبوب في فرنسا فكلّف القصر الملكي أحد التجار وعميله فرانسوا بواسون، والد جان- انطوانيت بتأمين حاجات الشعب، واستطاع حل الأزمة بحنكة نادرة جنى على إثرها فائدة مادية كبيرة. مما جعل وزير المالية الفرنسية «فاكون» يستوضح عن الأسباب التي جعلت التاجر وعميله يملكان ثروة هائلة. وهكذا تشكلت لجنة وأقرّت بأن فرانسوا بواسون استغل حظوته لدى البلاط الملكي لمآرب شخصية بعيدة تمام البعد عن النفع العام.

وبعد مناقشاتٍ طويلة حُكم على فرانسوا بالإعدام بعد دَفْع مبلغ قدره ٢٣٢ ألف فرنك لصالح الخزينة الملكية. عندئذ هبّ التاجر صاحب النفوذ القوي لدى الملك لنجدة عميله حتى استطاع أن يهرّبه من السجن ويؤمّن له ملجأ يركن إليه في ألمانيا بعيداً عن أعين الخصوم في فرنسا. وهكذا تشرد الزوج بعيداً عن عائلته، وظلّت زوجته «لويز-مادلين» وحيدةً مع ابنتها ومع ابنها «هابيل» الذي ولد في العام ١٧٢٥، تعيش تحت كنف والدها الذي كان يعمل متعهداً للجيش الملكي ومورّداً له لمادة اللحوم. وقبل أن يغادر فرانسوا فرنسا إلى ألمانيا أوكل تربية ابنته «جان- أنطوانيت» البالغة من العمر وقتذاك ٥ سنوات إلى أحد الأديرة في باريس حيث قضت هناك حتى بلوغها ثماني سنوات طالبةً في دير «الإرساليات»، مُراد الفتيات النبيلات يومئذ، وملتقى الطبقة البورجوازية الغنية. غير أنها لم تكن تنعَم بلقب أرستقراطي ولا بثروة واسعة. جلّ ما هنالك أنها كانت جميلة إلى أبعد حدود الجمال. إذا خطرت وهي بعد في سنتها الثامنة شاع المرح على جانبيها. وإذا تكلمت سال كلامها ناعماً كأنه الموسيقى. ولطالما وقفت رفيقاتها ذاهلات يتأملن رأسها الصغير يتدفق ذكاءً، وبشرتها الناضرة تفيض حيويةً، ودلال قوامها تطفو على تمايله أروع معاني الأنوثة. أما رئيسة الدير فكانت لا تفتأ تمتدح اجتهادها وأناقتها ونبل أخلاقها. لقد كانت شعلة من الذكاء وآية في الجمال،

وهما موهبتـــان قلّما اجتمعتا في فتاة، لذلـــك أطلقت عليها رفيقاتهـــا في الصـــف اســـم «رينيـــت» أي الملكة الصغيرة. وكانت أمها أيضـــاً من أجمل نساء باريـــس وأكثرهن حظاً. وقـــد أحاطـــت طفليهـــا بكل عنايتهـــا واهتمامها، وسهرت على تنشئـــة الصغيرة الحلوة على أحضان الـــدلال، فارشةً دروبها بالهناء. وبفضل سخاء والدهـــا استطاعـــت لويـــز - مادلـــين أن تستعيـــد شيئاً من قدرتهـــا التي انهـــارت بسبب غياب الزوج، بعـــد أن أورثها والدهـــا عقـــاراتٍ درّت عليها مـــالاً وفـــيراً. وهكذا استطاعـــت أن تدخل بقـــوة إلى عالم المال وتحصـــل على أصدقاء ينتمـــون إلى هذا الوســـط الاجتماعي. وفي منزلها استطاعت أن تلتقي بالأدباء الكبار: مونتيسكيـــو، ماريفـــو، فولتـــير، جان جاك روســـو، دالمبير...إلخ. وهذا ما ساعد في أن تلّقن ابنتها جـــان - أنطوانيت ثقافةً واسعةً بفضل التعاقد مـــع أساتذة مشهورين قاموا بتدريسها أنواع العلوم كافةً من أدب وفلسفة وفن ورياضيات.

وفي أحد الأيام قادتهـــا أمها إلى عرّافة بارعـــة لتقـــرأ مستقبلها، فكانـــت البشرى سعيدة جداً. تأملت العرّافة هنيهةً، ثم قالت لها: إن ابنتك «جان» ستصبح صديقة الملك الكبرى.

مضت الأيام حيـــث أكبّت الصغيرة على دراسة الفنون الجميلـــة، فتعلمت الخطابة والتمثيل والتصويـــر، وساعدها لين قامتها علـــى أن تبلـــغ القمـــة في الرقصـــ. كمـــا ساعدها سحر بشرتهـــا ورقة صوتها في أن تجيد الغناء. وتعلّمت العزف حتى أصبحت

من أمهر عازفات «الكمان». وتدرّبت على ركوب الخيل فأصبحت فارسة لا يشق لها غبار، وتيسّر لها أن تقود بسهولة عجلة ذات جوادين. عندئذ عمدت أمها إلى إدخالها في بيوتات باريس. هكذا راحت الفتاة تضحك للدنيا والدنيا تضحك لها حتى بلغت العشرين من العمر، فتعلق بها «شارل دو تورنهايم» نجل وزير المالية العام في فرنسا. وشارل هذا شابٌ في الرابعة والعشرين، قصير القامة، قبيح الطلعة، ولكنه عاطفي، أنيس العشرة، قريب من القلب وتطفو على مجمل شخصه بوادر النبل والهيبة. وينعم، فضلاً عن ذلك، بثروة لا يُستهان بها، كما ينعم بلقب «فارس شرف». لذلك رحبت السيدة «بواسون» بزواجه من ابنتها، غير أن أباه ظل قلقاً لا يركن لزواجه من فتاة أبوها محكوم عليه بالإعدام، وأمها محطّ الألسن من الكلام رغم طيبتها وكياستها.

وبعد أيام صدر قرار ملكي يقضي بتحرير الزوج المشرّد فرانسوا، فعاد هذا إلى منزله بعد غياب خمس عشرة سنة لينعم في عائلته بمشاهدة فتاه يافعاً قوياً، وجان-أنطوانيت آيةً في الجمال والثقافة، فلم يتوانَ عن الموافقة على الزواج الذي تم في آذار سنة ١٧٤١. وفي هذه الأثناء، كان الزوج شارل يملك منزلاً ريفياً في غابة «ايتيول» بالقرب من القصر الملكي في فرساي، فعُرفت امرأته باسم «سيدة ايتيول». هكذا تكشف الحياة عن أجمل وجوهها للزوجين الجديدين في المرحلة الأولى من الزواج، غير أن حرارة الحب في قلب الزوج كانت أشدّ منها في قلب المرأة. ولا غرَو في ذلك فهو سريع الإحساس، مرهف التأثر، وهي رصينة، متزنة، منزّهة عن ميوعة العواطف. ولكنها تستعيض عن الهيام الشديد بكونها ربة بيت من الطراز الأول. لم يكن في الواقع زواجاً ناجماً عن الحب، إلّا أن جان أنطوانيت عملت كل ما في وسعها لأن تجعل زواجها سعيداً. وقد طلبت يوماً من أحد أقربائها المقربين من الملك أن يلتمس من الملك دعماً لزوجها. وكان هذا القريب هو البارون «دو مارشيه» الذي كان يعمل فرّاشاً في غرفة ولي العهد.

بعد أكثر من سنة على زواجهما، بدأت شهرة السيدة «ايتيول» تمتد إلى مجتمعات باريس كافة. فتسابق الأدباء إلى دعوتها وزيارتها من «كريبيلون» إلى «كريسي» إلى «مونتيسكيو» إلى «فولتير»، هذا الأخير الذي طالما نعتها «بربّة ايتيول»، وأطرى أناقتها وجمالها ومواهبها الفنية. فولجت جميع القاعات واستولت على جميع القلوب. وصدف مرة أن التقت رئيس القضاة «هينو» فأذهله جمالها وكتب عنها يقول: «إنها من

أجمل ما تقع عليه العين». وها هي الصورة التي رسمها لها في ذلك العهد أحد ضباط الصيد في حاشية الملك تقول: «إن سيدة ايتيول طويلة قليلاً، طيّعة، أنيقة، رشيقة القوام، وجهها بيضوي الشكل، شعرها كستنائي لامع، أنفها متناسق التركيب حتى الروعة، فمها شديد الفتنة، أسنانها بيضاء جميلة كعقد من اللؤلؤ المنضود، والأجمل من هذا كله ابتسامتها الساحرة. فضلاً عن أن لون بشرتها يساهم أروع المساهمة في إبراز مفاتن قسماتها. أما عيناها الكبيرتان اللتان يزينهما حاجبان بلون شعرها، فلهما حدة إشعاع العيون السود، حنو ورخاوة العيون الزرق، والأناقة التي تتجلى في العيون الشهل، أما إيحاء وجهها فمتنوع إلى آخر حدود التنوع، غير أن قسماتها متناسقة كل التناسق في التعبير عن الخلجات الداخلية، مما يدل على أنها بلغت الحد الأعلى في السيطرة على نفسها، وكل حركاتها متناسقة مع مجمل طلعتها حتى إن كل ما في شخصها يكون همزة الوصل بين آخر درجات الأناقة وأول درجات النبل».

وتشاء الصدف أن تظهر أمام حفل من النخبة الباريسية مواهبها في الموسيقى والتمثيل الهزلي. وكان الدوق «دو ريشيليو» المقرب جداً من الملك لويس الخامس عشر بين الحضور، فصفق لها طويلاً وامتدحها في بلاط الملك وفي حضرة الملك. ظلت «سيدة ايتيول» من خيرة الزوجات في سنوات زواجها الأولى، فوضعت لزوجها طفلين: ذكر مات في المهد، وفتاة اسمتها «ألكسندرين».

لم تبعدها متاعب الحمل والولادة عن نظرات المتهافتين على جمالها وأخذت تتهرب منهم دون أن تسيء إليهم. وفي هذه الغمرة من التسابق إلى طلب رضاها ألمحت إلى المقربين منها بما يلي: «ما من أحد يستطيع أن يلامس قلبي إلا الملك». ثم أسرّت إلى صديقها «فولتير» بأنها تشعر بميل ملحاح إلى لويس الخامس عشر. أهي دعابة أم حب وليد؟ من يعلم إلى أين ستقود العواطف هذه المرأة الجميلة؟

الملك! الملك! كيف الوصول إلى الملك، وليس لها منفذ إلى البلاط؟ فالملك، كجميع أسلافه «آل البوربون»، مولع بالصيد، وميدان صيده الأحب غابة «سينار» في جوار «ايتيول» حيث تقيم. إذاً لِمَ لا تعترض طريقه؟ المسألة في غاية البساطة، طلبت إلى أحد الضباط في حاشية الصيد الملكية أن يجعلها في جماعة مرافقي الملك، فكان لها ما أرادت. وراحت تخطر على جنبات الحاشية ذهاباً وإياباً. حيناً تمتطي جواداً أنيقاً، وحيناً تقود ببراعة عربة ذات جوادين. وجلّ

همها أن يراها الملك وأن تعترض طريقه في بعض المنعطفات. ولم يتأخر لويس الخامس عشر عن ملاحظة هذه الفارسة الجميلة التي تملأ جو الحاشية حركةً وبهاءً. فسأل من تكون؟ فقيل له «سيدة ايتيول»، فصمت قليلاً ولعلّه قال في نفسه: إذن هذه هي التي طالما أشاد بذكرها الدوق «دو ريشيليو»، هذا الاختصاصي الكبير باكتشاف النساء الجميلات. وصدف مرة أن رآها الملك عن كثب، فلم يترك الغابة إلا بعد أن أهدى إليها أرنباً برياً من صيده الخاص: هدية كان يخصّ بها عادة نساء البلاط الملكي.

لقد كان الملك لويس الخامس عشر يومئذ في الرابعة والثلاثين. شعر أسود حالك، وعينان تحيط بهما سمرة مخملية، وفمٌ صغير أنيق النحت، يخبئ أسناناً بلون الفرح، ويظهر ابتسامة بلون النعيم. كل ذلك يضفي على مشيته شموخاً ومهابة، وفي مظهره مسحة من الحزم يزينها ترفّع عن العجرفة، فعيناه تطفحان ببريق من العطف فريد، يجذب إليه قلوب جميع محدثيه، ذلك لأنه ميال إلى الإرضاء، مما جعل خدمته متعةً للمقربين إليه، ونعمةً تحل عليهم. ففي سنته الخامسة عشرة تزوج «بماري ليكزنسكي» ابنة ملك بولونيا. ومنذ الليلة الأولى للزواج أعطى البرهان القاطع على حمية جسدية فائقة. وبعد عشر سنوات، والحال على هذا المنوال، أنعم الزوج الممتاز على زوجته بعشرة أولاد قبض الله أربعة منهم في المهد. فما كان من تتابع الولادات إلا أن أرهق جسد الملكة وامتص نضارة محياها. فاعتمدت الاعتدال في تلبية رغائب الملك، خصوصاً وهي تكبره بسبع سنوات.

فعندما بلغ هو الثلاثين، راحت هي تنوء بالسابعة والثلاثين مجعدة القسمات كأنها في أطراف الكهولة. عندئذ ذرّ الخلاف واضطربت أسس العلاقة الزوجية. ولطالما تذمرت بقولها: «ماذا؟ دائماً مضاجعة، دائماً حَبَل، دائماً وَضْع!» وبالتالي أغرقت في التمنع على لويس الخامس عشر، وأرغمته على كبح شهوته طويلاً مدعية أنه بحاجة إلى استعادة قواه. لهذه الأسباب كلها رأى لويس الخامس عشر أن ينزاح عن مخدع زوجته مستعيضاً عنها بأولى خليلاته «دو شاتورو». وكانت هذه عديمة الإغواء، ضخمة القامة جافية النظرات، قبيحة المظهر، فلم يشفع لها إلا تهالك جسدها على اللذة.

في ربيع ١٧٤٤ ذاع الخبر بأن الإمبراطور البروسي يهدد منطقة الألزاس. عندئذ سلك الملك طريق «ستراسبورغ» وما أن بلغ «ميتز» حتى داهمته حمى خبيثة هدّت قواه في بضعة أيام، وأشرفت به على هاوية

الموت. فنزل على نصائح مرشده الروحي وصرف خليلته «دوشاتورو» استعداداً لمقابلة ربّه. وتفشى نبأ مرضه في فرنسا، وتعالت الصلوات من أعماق القلوب طالبةً إلى ربها حتى يشفي الملك... واستجاب الله الدعاء، فشفي الملك.

بعد زوال الخطر، عاد لويس الخامس عشر إلى فرساي، وهنا تذّكر الخليلة الحبيبة فصمم على استرجاعها. ولكن «الدوقة دي شاتورو» لم تنعم بالعودة المرجوة. فعندما بلغتها الدعوة فاجأتها القشعريرة وارتفعت حرارتها ثم انطفأت سريعاً في ٨ كانون الأول ١٧٤٤، وظلت أسباب وفاتها سراً من الأسرار. لذلك زعم البعض أنها ماتت مسمومة. ومهما يكن من أمر، فإن الملك حزن عليها حزناً شديداً، ولكن لوعته لم تستمر طويلاً وخصوصاً وهو في نضارة الشباب مكلل بالأمجاد، وأجمل الرجال، وكبير الملوك، و قلبه لا يزال ينبض بحب خليلة جديدة.

فبعد مضي خمسة عشر يوماً خطب ولي العهد ابنه ملك اسبانيا، فأحيا البلاط سهرة عارمة بهذه المناسبة دُعي إليها نبلاء وأكارم مدينة باريس ومن بينهم سيدة إيتول.

وفيما كان الملك يتفقد الضيوف والمدعوين وقف أمام حوريته سافرةً تتنفس الهواء الطلق. وكانت، عندئذ، في أجمل ساعاتها؛ شعرها مبعثر على أناقة، ولون خديها، تحت وطأة الحر والتأثر، يراوح بين حمرة الورد وحمرة الزنبق، وصدرها يخفق خفقات ناعمة، وابتسامتها لا أحلى ولا أعذب. فما كان من الملك إلا أن راح يغدق عليها من أعماقه عبارات الحب والعذوبة والجمال.

وعند انقضاء السهرة سأل الملك جميلته قائلاً: «إلى أين تريدين أن أقودك؟». فأجابت على الفور: «إلى منزل أمي». فهي حريصة على إقناع مخاطبها بأنها ليست روضةً سهلة الأكناف، ولم يجد الملك بداً من قيادتها في عربته التي يقودها سائسه إلى منزل أمها، وإذا العجلة تترنح والليل يحنو على حبيبين. الملك يضم سيدة ايتيول إلى صدره من دون أن يأبه لوجود سائسه.

أودع الملك رفيقته في ذراعي أمها، فتلقت الأم ابنتها على أشد ما يكون من الفرح. أما الملك فقد بلغ فرساي عند الساعة الثامنة صباحاً.

ما مضت بضعة أيام، حتى ضجّ البلاط بنبأ دخول مدام دوبومبادور إلى أكناف الملك. وبدأت الألسن تتناقل هذا الخبر بنوع من الاستهجان فما كان من الملك إلا أن أصرّ على المضي في طريقه، ضارباً بجميع

الاعتراضات عرض الحائط بعد أن سحره جمالها على الفور فانجذب إليها بقوة، ولاسيما في هذا العام ١٧٤٥ الذي شهدت بداياته انتصار فرنسا على بروسيا في معركة «فونتينوا» وخاصة بفضل وجود الملك نفسه على رأس قواته، وهذا ما شكل بدايةً لغزو هولندا من قبل فرنسا لاحقاً.

وفي ٣١ آذار سنة ١٧٤٥، دعا صديقته الجديدة إلى فرساي لتشاهد إحدى روايات الكاتب الروائي «رامو». ولأول مرة ظهرت سيدة «ايتيول» سافرةً في البلاط، فأدهشت بروعتها الناظرين. فسحرت بأناقتها وذوقها جميع الحاضرين، ومنذ ذلك الحين راحت سيدة ايتيول تغشى مخدع الملك علانيةً. غير أن سراً من الأسرار ظلّ يحيط بعلاقتهما. ولا عجبَ فإن لها بعلاً، فكيف تتملص منه وتتصرف على هداها؟ لقد أسرّت إلى مربيها «دو تورنهايم» بأن يبذل جميع وسائله الخاصة ليفصلها عن زوجها.

ولم يتأخر هذا الأخير في إبلاغ زوجها «شارل ديتيول» بأن امرأته لم تستطع مقاومة ميلها العنيف إلى الملك، ثم نصحه بأن يرضخ وينفصل عنها دونما هياج للانفصال المحتوم. وقع النبأ كالصاعقة على الزوج، وكاد أن ينطرح مغمى عليه. وعندما استعاد قليلاً من هدوئه راح يرسل الشتائم علناً، مهدداً بأنه سيثأر لنفسه بنفسه، منتزعاً الخائنة من ذراعي جلالة الملك. وبلغ وعيده سمع امرأته، فرأت الفرصة مناسبة للدخول نهائياً في حوزة الملك. فدلفت إليه ودموعها تنهمر بغزارة فيزيدها البكاء جمالاً. وما لبثت أن استرسلت في وصف شقائها، مجسمة للملك تضحيتها بعائلة كانت تعبدها، لكي تنغمس في شهواتها. فلان الملك، وهو بطبيعته رؤوف، وقرر أن يحمي سيدة «ايتيول» من غضب زوجها ويرفع رتبتها الاجتماعية. أي لقب يليق بها؟ أهو «المركيزة دو بومبادور»، ولكن دَخَلُ هذا اللقب السنوي يبلغ اثني عشر ألف فرنك، وهكذا تحولت العلاقة، التي اعتبرت في البدء دعابةً، إلى هيام متبادل لا يزيده كرّ الأيام إلا ضراماً على ضرام. أما الزوج المسكين فقد قرر السيد «دو تورنهايم» أن يبعده عن باريس ليقيم في الجنوب الفرنسي سنةً كاملة حيث بدأ يستشعر على أثرها نسيان امرأته الطائشة، فعاد إلى باريس، وكان القضاة، في أثناء غيابه، قد حكموا بانفصال الزوجين، وأمنوا للمرأة حماية القانون في عهدها الغرامي الجديد. عندئذ تهافت عليها المادحون من كل جانب وعلى رأسهم الأدباء الذين حيوا بإعجاب كلي ظهور هذه المعبودة النادرة. فها هو فولتير يكتب إليها ما يأتي: «إنني حريص

على سعادتك أكثر ممـا تتصورين. وما من أحدٍ في باريـس يهتم بك بمقدار اهتمامي. وإنني لا أكلمك كمداعب قديم يهمه إطراء الجميلات، بل كمواطن صميم. فهل تتلطفي وتمنحيني شرف مقابلتك في «ايتيول»، فأنا أحب أن أحدثك في بعض الشؤون، أنا، يا سيدتي، بكل احترام وتواضع خادم عينيك ووجهك وروحك».

في السادس من أيار سنة ١٧٤٥ توجه الملك لويس الخامس عشر برفقة ابنه لويس ولي العهد إلى منطقة الفلاندر التي استطاع جيشه ضمها إلى التاج الملكي الفرنسي. وفي هذه الأثناء كان يتحف دوبومبادور برسالة غرامية موسومة بالطابع التالي: «مودة وهيام». فاستفاد فولتير من هذه المناسبة لينشئ المقطوعة التالية:

بارع في الحب، بارع في الحرب
إنها مثله صافية.
ومثله تجمع القوة والنعومة.
أنها تبهج العين وتسحر القلب.

غير أن فولتير، على بوادر إخلاصه، متملق يهمه الوصول إلى أهدافه. لذلك تراه متنقلاً من إطراء إلى إطراء للملك والملكة. ولم تتعامَ المركيزة عن آماله، فسرعان ما أنعمت عليه مجاناً برتبة «نبيل في رفقة الملك» التي يبلغ ثمنها ستين ألف فرنك. ولم تكتفِ بذلك، بل رفعته إلى منصب «مؤرخ الملك» وخصته بمرتب قدره ألفا فرنك.

وفي السابع من أيلول من العام نفسه دخل لويس الخامس عشر وولي العهد إلى باريس مكللين بغار النصر. فأُقيم على شرفهما في قاعة «الأوتيل دو ڤيل» حفل عشاء عامر، ورفعت فيه الأنخاب على صحة الملك وبسالة جيشه.

وفي الليلة التالية دلف الملك إلى المركيزة وتناول العشاء إلى جانبها. انحنت المركيزة ثلاثاً في حضرة الملكة ماري ليكزنسكا، ثم نزعت كفها الأيمن وهمت بتسلّم معطف الملكة لتقبيله، فسحبت الملكة ذيلها. وعندما رفعت المركيزة رأسها لمحت لأول مرة عن كثب امرأة لويس الخامس عشر. كل ما في وجهها يدل على هدوء تام. فلا الغضب يلوح على قسماتها، ولا الأسى يحطم جفون عينيها. لقد عاركت صروف الزمان فتعلمت أن تصبر. هكذا ولجت «جان- أنطوانيت بواسون» بلاط فرنسا، واستقرت في قصر فرساي، وطلب الملك من الرسامين لديه كالرسام الشهير «بوشير» الذي يُعَد الرسام الأول للملك أن يعمل على رسم لوحة لها بعد أخذ موافقتها. وقد رسمها في لوحته «شروق الشمس وغروبها». وفي هذه اللوحة تبدو مدام دو بومبادور على شكل حورية

وهـي ترحب بعـودة الشمـس (أي الملك). وتظهـر وهي واقفة وسط الطبيعة والزهور تنمو عند قدميها بينما تبدو البراعم الرقيقة منعكسـة على فستانهـا الحريري المزركش باللون الزهري. وتبـدو السيدة مرتاحة في هذا الجزء من الطبيعة، بينما أسندت يدها بطريقة طبيعية على قاعدة تمثال، وأمسكت بالأخرى مروحة وهي تشير إلى كلبها الصغير الذي يجلس بوفاء. والرسالة هنا موجهة إلى الملـك: إنها وفية له بمثـل وفاء الكلب. كان الملـك يدخل إليها منـذ الصباح الباكر فلا يغادرها حتى الساعة السادسة مساءً.

ومع مرور السنتـين سئمت المركيزة من هـذه العلاقة الحميمة القائمـة على اللذة والمتعـة معه بسبب ما أصـاب جسدها من إنهـاك وإعياء. إنها تحرص على استمرار علاقتهـا بالملـك دون أن تستمـر في بذل مفاتنها وملاشاة قواها. عليها إذاً أن تناضل لأجل هـذه الغاية. الملك بـدأ يشعر ببرودة خليلتـه وميلها إلى مقاومـة اللذة الغريزية التـي لا تجيد توفيرها، ولا تـذوق منها إلا الألم والإرهاق. ولهـذا السبب أراد ريشيليو أن يستغل الظرف من أجل إخفاق شأن مدام دو بومبـادور عند الملـك. فعندما رجع من حصـار «جنوى»، أعلن عزمه على الحد من سيطرة المركيزة بكل الوسائل، فهي لا تفارق الملك أبداً حتى في مجالس العمل حيث كثيراً مـا تقطع مجرى الأحاديـث الهامة وتصدر الأوامر للوزراء بقولها «يجب... وأريد».

ولقد لاحظت المركيزة أخيراً، تلذذ الملك بمجالسـة بناته الأمـيرات الفاتنات. لهذه الأسبـاب تحاشت المركيزة الصدمة وقررت أن تخلي كنفها قبل أن يطلب منها إخلاؤها وأن تحتفـظ بالملك كصديـق، وتثابر على علاقتها الحميمة به، وتظل في نظر الناس، خليلته. والملك مـن جهته بدا قليل الدخول عليها، وإذا به ينظـر نظرات الإعجاب إلى سواها مـن النساء مثـل «المركيزة» و«مدام دوكواسلان». وهكذا بعد خمس سنوات من الحب الصافي، أخلت مكانها لمحظيات جدد للملـك. لكنها بقيت مستمـرة في علاقتها الحميمة مـع الملك لا بل شريـكاً له في كل نزواتـه وملذاته، مما حدا بها إلى أن تجعل من فنـدق «بـارك أويسر» مكانـاً للقاءات السرية بـين الملك وفتيـات كواعب أطلقت عليه فيما بعد تسمية «حديقة الغزلان».

ها هي بعد عطفها علـى فولتير تتعهد الفيلسوف جان جاك روسو وتحوطه بعناية كليـة. وكانـت روايته «عـراف القرية» قد انتشرت في الأوساط وأثارت إعجاب الكثيرين لدرجة أن الملك طلب بأن يحضر إلى فرساي لمقابلته حتـى يخصه بمرتب يليق بمواهبه.

لم يستطع روسو أن يصمد طويلاً تحت وطأة الوساوس في شعوره المريض جرّاء مقابلة الملك المرتقبة التي شوشت ذهنه وتفكيره. فقد تخونه قواه ويقع مغمى عليه، وقد تبدر منه بعض البوادر السيئة التي يفضل عليها الموت. ثم كيف به أمام جلالة الملك الذي يغدق عليه عبارات العطف والثناء؟ كيف يجيبه محافظاً على نبرته القاسية إحدى شروط الرصانة الفلسفية؟ وماذا يقول عنه مناوئوه إذا قبل مرتباً وهو الذي يحتقر الجاه والمال؟ هذا إذا كان فعلاً سيحصل على مرتب. فعمد إلى الهرب مخلفاً وراءه الجاه والمال والملك والخليفة معاً. ولم تقتصر المركيزة على علاقتها بفولتير وروسو، بل كانت أيضاً صديقة «مونتيسكيو» و«بوفون» و«دالمبير» و«مارمونتيل» و«بيرون» وسواهم. وقد دافعت عن «دائرة المعارف» بذكاء وشجاعة.

أما الملك لويس الخامس عشر فكان قليل الإعجاب بالأدباء والفلاسفة لاعتباره إياهم عناصر هدامة. فهو يعتز بأن يشهد في عهده ازدهار عبقرية فولتير، ولكنه لا يحبه بل يخشاه، وفي أحد الأيام قال الملك: «لقد أحسنت معاملته كما أحسن لويس الرابع عشر معاملة راسين وبوالو. فجعلته نبيلاً في رفقتي وخصصته بمرتبات مالية».

ثم عرضت مسرحية «عراف القرية» وكانت المركيزة لا تستهدف من إعادة هذه الرواية التي أطربت الملك إلا إرواء خدمة لجان جاك روسو، فهي تحب الأدباء حباً عميقاً. تحبهم لأنها تذكر شبابها بذكر مجالسهم، وتتملص من ضجر البلاط حين تتنقّل في أجوائهم. ولشد ما عملت لرفع منزلتهم في نظر الأرستقراطية المتعجرفة التي تتنكر لهم وتوغل في احتقارهم. ولا عجب، فهي منهم ولهم.

وقد استفادت المركيزة من الهبات السخية للملك التي كان يوزعها عليها مثل قصر بومبادور في منطقة كوريزا، وفندق «ايفرو» في باريس الذي يحمل اليوم اسم قصر «الإليزيه» الرئاسي. وفي كل هذه المنازل كانت هي الملكة، يتردد عليها أكبر سادة فرنسا الذين يرتدون المعاطف المتوائمة مع ألوان رياشها، والملك يزورها ويتناول معها العشاء وينعم باللقاء معها.

وعندما زارها والدها في فونتينبلو قابلته، على فظاظته، خير مقابلة، واغتنمت الفرصة فقدمته إلى الملك. كما أنها حملت لويس الخامس عشر على تعيين مربيها السيد تورنهايم مديراً عاماً للمباني الملكية، وأمنت وراثة هذه الوظيفة لأخيها هابيل

بواسون الذي أدخلته إلى البلاط باسم السيد دي فانديير.

وكان الملك شديد العطف على أمها، حتى إنه قبل حلول اليوم الأول من سنة ١٧٤٦ هيّأ لها هدية رائعة، هي كناية عن علبة تبغ من الذهب الملون مزودة بساعة صغيرة يشملها إطار من الماس. لكنها لم تنعم بهذه التحفة إذ انطفأت فجأة يوم الرابع والعشرين من كانون الأول سنة ١٧٤٥ في السادسة والأربعين من عمرها. والجدير بالذكر أنه عندما ماتت أمها بكت عليها بكاءً مراً، حتى إن الملك نفسه اغرورقت عيناه ساعة شهد الدموع تتساقط على وجهها الجميل، وقرر مشاركتها في الحداد.

أما على الصعيد العاطفي فقد أحست المركيزة بأن سنوات الحب الجميلة تمر كل ذلك وهي لم تتجاوز الثلاثين، وها هو قلبها يخفق على غير انتظام، وأعضاؤها تستسلم لكسل التراخي. لقد فرضت على الجميع نوعاً من الطاعة. ولم تقف عند هذا، بل رفعت منزلة أهلها، وأنقذت أباها من حكم الموت، وجعلت أخيها مركيزاً وقربته فضلاً عن الأموال التي غنمتها وتصرفت بها.

وبالنسبة للطفلة ألكسندرين التي تتلقن العلوم في بعض الأديرة، فالمركيزة تحبها لأنها صورة طفولتها. وإذا بها تفكر في مستقبلها وتفكر في زواجها، ترى أي زوج تنتقي لها؟ إنها تحلم بالكونت «دو لوك» الذي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره. والكونت هذا ثمرة سفاح لويس الخامس عشر مع خليلته الأولى السيدة دوشارترو. وأنه يشبهه كل الشبه بطلعته وحركاته وتصرفاته. مثلما تشبه ألكسندرين المركيزة دو بومبادور. ثم قادته مع ألكسندرين إلى بستان التين الذي قرر الملك أن يزوره. أما المركيزة فقد أشارت بحنو إلى الولدين وقالت: يا لهما من «زوج رائع»! ولكن أمل المركيزة لم يتحقق. فها هو المرض يداهم ألكسندرين في حزيران سنة ١٧٥٤ بعد تناولها دواءً مطهراً للأمعاء، مما جعلها تصاب بارتفاع في درجة حرارة جسمها، صاحبه إقياء شديد. وعلى الفور اتصلت راهبات الدير بالأم لإبلاغها الأمر، التي اتصلت بدورها بالملك الذي أمر طبيبه الخاص «سيناك» بأن يذهب لمعاينة الصغيرة ويعلمه النتيجة على الفور. وما أن وصل الطبيب حتى وجد ألكسندرين تحتضر وهي فاقدة الوعي. يا للمسكينة! فهي لم تصمد تحت وطأة المرض إلا نهاراً واحداً، ثم توفيت ودفنت في سرداب كنيسة «الكبوشيين» الواقع اليوم بالقرب من ساحة «الفاندوم» بباريس. عندئذ أسودت الدنيا في وجه المركيزة، ولبثت أياماً على اضطراب

عنيـف كاد أن يودي بحياتها لاعتقادها بأن ابنتهـا الجميلة الساحرة التـي رسمت لها مستقبلاً رائعاً قد ماتت بالسم نتيجة دسائس البلاط والحساد الذين كانوا ناقمين عليها. وبعد أيـام وفي حزيران نفسه أي بعد مرور عشرة أيام على وفاة ألكسندرين ذهب أبوها ضحية مـوت حفيدته، فبكتـه حتى تفطر قلبهـا، وشعرت بعده بهـول الفراغ المطبق. وقـد تأثر الملـك لتأثرهـا فحـاول مراراً زيارتهـا بحثاً عن الطريقـة التي من شأنها تقديم العـزاء لصديقته الغالية التي توالت عليها نوائـب الدهـر. وإذا حياتها تستمر بين الأشواك والتملقـات والكذب ومتاعب الجسد والروح. فليس لهـا بعد الآن إلا أن تناضل استمـراراً للحفاظ علـى منزلتها، لذلك شوهـدت المركيزة تجنـح إلى التوبة شيئاً فشيئاً. وها هي تسمع القداس كل يوم وتمتنع عـن أكل الدسم نهار الجمعة حسب تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، ولطالما شوهدت تزور كنيسة الراهبات الكبوشيات، ثم ترتمي هناك على قـبر ألكسندريـن وتسترسل في البكاء والصلاة. فمـا كان من جنوحها إلى التوبة إلا أن أثر في نفس الملكة التي أخذت تظن بأن توبـة المركيزة ستكون طريق الملك إلى الخلاص. كيـف لا والندامة الحقيقية تقضي على الخليلة بأن تغادر البلاط؟ لأن وجودهـا فيه -حتى كصديقة- من شأنه أن يستمر في إثارة الأقاويـل والظنون السيئة. غير أن المركيزة لم تفكر بعد بمغادرة البلاط لأنها تعتبر أن الصداقة لا تتنافى مع النوايا المخلصـة. ووافقها لويـس الخامس عشر علـى هذا الاعتبار. فبعـد أن شرّفها بلقب دوقة سنة ١٧٥٢ أنعم عليها سنة ١٧٥٦ بأن تظـلّ في البـلاط كرفيقة للملكـة. غير أن ماري ليكزنسكا رفضت أن تتقبل خدماتها، متذرّعةً بأن العلاقة الدينية تفرض عليها أن تعود إلى زوجها. فكان رفضها شديد الوطأة على المركيـزة. لذلك استشـارت الأب دي ساسي في الأمـر، فأعلمها أنه لا يحلها من خطاياها إلا إذا رجعت إلى المنزل الزوجي. وكان يعلم أن زوجها يحيا حياة هنيئة برفقة الآنسـة «ريم» إحـدى راقصـات الأوبرا، وأنه لن يتخلى عنهـا مطلقاً ليسترد زوجته الخائنة. فإذا رفض الزوج فلا حرج بعد على المركيزة. لذلك أقنعها بأن تكتب رسالةً إليه طالبـةً منه أن يصفح عن سيئاتها ويدعوها إليـه. ثم أوفد إلى الـزوج «لي نورمان»، من يحيطه علماً بـأن رسالة المركيزة ليست إلا مجرد حيلة، فإذا أجاب طلبها بالقبول فإنه حتماً سيثير غضب الملك.

وحـررت المركيزة الرسالة التالية: «إنني أقر بذنبي، وأريد أن أكفر عنه. إن خطيئتي

اليوم قد زالت بزوال علاقتي مع الملك، فلم يبقَ عليَّ إلا أن أصون مظاهر حياتي، وهذا ما أتمناه من كل قلبي. وإنني معتمدة على أن أمحو خيانتي الماضية بوفائي المقبل، فاستردّني إليك. وإنني سأعمل جهدي على استعادة عطف الناس بحياتي معك، بعد أن نقموا عليّ لانفصالي عنك». وهكذا بعد خمس سنوات من الحب الصافي، أخلت مكانها لمحظيات جدد للملك. ففي بعض الأمسيات من سنة ١٧٥٧ ضجّ البلاط بحدث لم يكن في الحسبان. هو أن أحد الحراس «داميان» يعتدي على الملك... داميان ذلك المتعصب المجنون يطعن الملك بخنجر... وخيّم الوجوم وتعالى الصراخ... ثم نقل لويس الخامس عشر إلى غرفته وهو يردد: «يا للسفاح! لقد قتلني..!». وراح الملك يئن كالمحتضرين... إنه يخاف الموت ويرى شبحه محدقاً به... بينما المركيزة المتروكة في الطابق الأسفل تجهش وتتلوّى في قبضة الدوار المحموم... وما لبث الملك أن شفي تماماً بعد مرور ثلاثة أيام على هذه الفاجعة، لكن الأسى لازمه عدة أيام بعد شفائه، فكان يقول مشيراً على رأسه: الجسد صحيح، ولكن هذا عليل، ومحال أن يشفى. وقصده في ذلك التلميح إلى خوفه من الموت أو إلى قلقه من حالة الشعب الذي بدأ ينقلب عليه وخاصة بعد الهزيمة العسكرية التي مُني بها في معركة روسباخ يوم ٥ تشرين الأول ١٧٥٧ على يد البروسيين، وهذا ما جعل الإمبراطور البروسي فريدريك الثاني يطلق على كلبه اسم «بومبادور». بعد هذه الهزيمة وكل ما حصل مع الملك من مآسٍ سقطت المركيزة مريضة حيث بدأ نَفَسها يضيق بسبب إصابتها بنزلة تنفسية. ولاتمضي أيام حتى تعود إليها قواها، فتطلب الانتقال إلى فرساي. فإذا الأدباء والفنانون يتبارون في تهنئتها دون كل الناس، ذلك لأن نظرتهم فيها لا تتعدى عطفها عليهم إلى أخلاقها وسياستها، وعبثها بأموال الخزينة، وتأثيرها السلبي على الملك الذي أدى إلى إلحاق الهزيمة بجيشه، وإلى ضياع كل المستعمرات الفرنسية في الهند وكندا إرضاءً لأهوائها الشخصية. لكن شفاءها لم يكن إلا وهماً. فإذا بها تصاب من جديد وتشعر. هذه المرة، أن لا مردّ لحكم الله. وراح الملك يعودها تباعاً. وفي ليل الخامس عشر من نيسان ١٧٦٤ تهيأت وطلبت مشاهدة زوجها. غير أن هذا لم يأبه برؤيتها على فراش الموت، فرفض الطلب مدعياً أنه مريض... وأطل الفجر حزيناً على فرساي... هو فجر عيد الشعانين، عيد الفرح والطفولة... ما أجمله خاتمة لأيام الشقاء وإكليلاً لتوبة الخاطئين!

كان الملـك لا يـزال ساهـراً في غرفته في حـين كانت المركيزة في تلـك الأثناء ترقب، بعينين فاترتـين، تسلل الضياء إلى غرفتها. وكانت قد كتبت وصيتها، وأدلت إلى معاونها «كولان» بكل التعليمات حول طريقة دفنها. وفي الساعـة السابعـة والنصـف ولجـت عتبـة العالم المجهـول تاركـةً وراءها اثنتين وأربعـين سنة من حلاوة الدنيـا ومرارتها. وعمـلاً بوصيتها قرر دفنها في كنيسة الآباء الكبوشيين إلى جانب ألكسندرين الواقعة في ساحة فاندوم بباريس. وفي السابع عشر من نيسان ١٧٦٤ عنـد الساعة السادسة مساءً، نُقـل جثمانها إلى المدفـن الأخير في موكب في غاية البساطـة. وكان الليل يلف المكان، والمطر ينهمـر، والعواصف تهـب... بينما الملـك على شرفته ينتظـر غير مبال بجنون الطبيعـة... وعندما مـرّ الموكب الجنائزي تبعـه بنظراته حتى غـاب وراء المنعطفات. ثم دلـف مثقلاً إلى غرفتـه وذرف دمعتين كبيرتـين وهـو يقـول: «هذا هـو الواجب الوحيد الـذي استطعت القيام به». وخلال مراسـم الجنـازة التي لم يستطـع المشاركة فيهـا تمتم وهو يرنـو إلى الموكب الجنائزي من إحدى النوافذ قائلاً: «إن رحلة المركيزة الطويلـة يواجهها مناخ سيِّئ وطقس رمادي كالح!!. وهكذا نامت المركيزة نومها الأبدي في جوار ابنتهـا ألكسندرين». وبهذا انتهت هذه القصـة الرومانسية التي كانت بطلتها مدام دو بومبادور خليلة الملك لويس الخامس عشر الذي آثر بعـد رحيلها إلى دار الأبدية البحث عـن السلـوى لـدى كونتيسة «دي بـاري» في قصر تريانون الذي كان قد شيده للإقامة مع مدام دو بومبادور، وذلك ليقتل حبه القديم للمركيزة بحب جديد يداوي به قلبه الجريح.كما وانتهـت قصة هذه المرأة التي حمت الأدبـاء والفنانين طوال إقامتها ببلاط الملك الفرنسي لويس الخامس عشر الذي وافته المنية في العـام ١٧٧٤، أي بعد وفاتها بعشر سنوات.

المراجع

١- كتاب: «المركيزة دومبادور» تأليف خليل يونس، منشورات دار المكشوف، بيروت.
٢- موسوعة «لاروس الكبرى» الفرنسية: طبعة ٢٠٠٣.
٣- كتاب «خليلات الملوك» على الإنترنت.
٤- كتاب «المركيزة دومبادور» للكاتب موريس كانتان دولاتور.
٥- جريدة «البيان» الإماراتية: تاريخ ٢٠٠٥/٣/٢٨.
٦- موقع «دار الندوة» على الإنترنت، تاريخ ٢٠٠٤/٩/٦.

آفاق المعرفة

التوحيدي وسؤال الصداقة

رزاق كريمة

يقــول جيل دولوز «إن مسألة الصداقة والصديق توجد في قلب الفلسفة ولا يمكن معرفة ماهي الفلسفة من دون عيش هذه المسألة الغامضة والإجابة عنها حتى لو كان الأمر صعبا».

فلمــاذا الصداقة على وجه خاص؟؟ هــل سبق أن تساءلنا عن الصديق؟ مــن يكون الصديق؟ هل نملك أصدقاء؟ وكيف نحدد الصديق؟؟و الأهم هل سبق أن تساءلنا ماهي الصداقة من منظور ثقافي أو من زاوية فكرية؟؟

أستاذة بجامعة حسيبة بن بوعلي- ولاية شلف- الجزائر.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

لا أعتقد أن سؤالا كهذا قد شغل تفكيرنا، إنه بديهي لدرجة أننا لا نملك أي فكرة عنه ففكرتنا عن الصداقة قد لا تتجاوز ما نقرأه في بعض الكتب الأدبية أو المجلات المبعثرة لكن أن نعالج الصداقة من منظور ثقافي، أو أن نسأل ما الصداقة من زاوية فكرية أي أن تطرح الصداقة كإشكال مفاهيمي في الخطاب الفلسفي العربي بالشكل وبالقوة التي طرحت بها في الخطاب الفلسفي الغربي بدءاً من أفلاطون، أرسطو وشيشرون والقديس أوغسطين إلى ماسكولو ومونتاني وبلانشو ودريدا.. هذا ما يكاد يكون خارج مجال فضائنا الفكري والثقافي ربما لأن الأمر بالنسبة لنا أمر هامشي، وربما قد فاتنا أن الفلسفة اليوم أصبحت تبحث فيما هو حياتي، في ما هو يومي، وفي ما هو هامشي أيضا وأن الصداقة اليوم تشكل أحد مواضيعها الأساسية.

إن موضوع الصداقة يكاد يغيب في الثقافة العربية وإن وجد فهو لا يتجاوز بعض الفصول والأبيات الشعرية التي خصها بها شعراء وأدباء على نحو متفاوت كالجاحظ وابن المقفع والمتنبي وأبي حيان التوحيدي الذي أفرد لها كتاباً خاصاً بعنوان الصداقة والصديق وهو الذي أخذناه كنموذج ندرس من خلاله مشكلة الصداقة في الفلسفة العربية الإسلامية، فهو يشكل عصارة عقل وانعكاس لعصر، إنه تجسيد لثقافة وعقلية عاشتا وسادتا في القرن ٤هـ/١٠م، إذ يهمنا كيف نظر المجتمع لهذه الرابطة وكيف فهمها وهل تجسدت كسلوك..؟؟

إن التوحيدي الذي عاش منعزلا ومنفردا آمن في أعماقه أن الإنسان «لا يمكنه أن يعيش وحده ولا يستوي له أن يأوي إلى المقابر ولابد له من أسباب بها يحيى وبأعمالها يعيش، فبالضرورة ما يلزمه أن يعاشر الناس ثم بالضرورة ما يصير له بهذه المعايشة بعضهم صديقا وبعضهم عدوا وبعضهم منافقا، وبعضهم نافعا وبعضهم ضارا ثم بالضرورة يجب عليه أن يقابل كل واحد منهم بما يكون له مرد من دين أو عقل أو فتوة أو نجدة ويستفيد «هو» من ذلك كله ما يكون خاصا به وعائدا عليه بحسن العقبى عليه إما في العاجل وإما في الآجل».[1]

وما يؤكد ذلك أن الإنسان مدني بطبعه ولا يمكنه العيش بمعزل عن الجماعة، وكأن الطبيعة هيئته للحياة الاجتماعية أكثر من أي شيء آخر فهولا يمكن أن يعيش إلا مجتمعا إنه دائما عضو في جمعية ما بحاجة إلى أن يتفاعل مع غيره يؤثر في أبناء جنسه ويؤثرون فيه، يحبهم ويشاركهم الآمال والآلام بشكل يجعل كل ما بينهم مشتركاً ومشاعاً فالإنسان

يسكن إلى غيره من الناس يأنس بهم فتذهب بذلك وحشته من هنا كان الأنيس مرادفا للمؤانس وهو يصدق على كل من يميل وينزع للحياة الاجتماعية، فيأنس بصحبة غيره من أبناء جنسه ويفرح بمعاشرتهم، وهو بذلك يؤسس علاقات اجتماعية متينة، وحول هذه الفكرة كتب ابن خلدون فقال:«إن التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتآنس..»[٢]، من هنا كان الإنسان يأنس بغيره وبالعشيرة ويبحث عن سبل التعايش معهم وكان التعايش ضرورة يستطيع من خلالها الأشخاص تأليف مجتمع يصيرون فيه عضواً واحداً. وهذا ما يؤكد أن الصداقة (موضوع حديثنا) ليست موضوعا شخصيا بالشكل الذي نتخيله فدورها لا ينحصر على المستوى الأخلاقي للفرد وللجماعة، بل يتجاوز ذلك للمستوى السياسي في المدينة المؤلفة من هذا التجمع البشري فهي «اختيار حر للعيش معا وهذا الاختيار هو الذي يشكل التجمع السياسي للمدينة».[٣]

و لا يختلف أرسطو عن التوحيدي في اعتبار الصداقة فضيلة ضرورية للحياة الجماعية أو المشتركة «فالإنسان ناقص بالحاجة، تام بالطلب»[٤] مما يعني أن الإنسان ناقص ولا يتحقق له الكمال إلا بإتحاده والتحامه مع الآخرين، وأن إنسانية الإنسان لا يمكن أن تتحقق أو تكون إلا بالاجتماع. أي إن الاجتماع ليس غاية ذاته بل وسيلة لكماله وسعادته. ولما كانت سعادة

الإنسان تزيد وتنقص بمقدار مشاركة الغير له، كانت الصداقة كعلاقة تجمعنا بالآخر ضرورية، وهي تنتقل من مستوى العلاقة بين شخصين، إلى مستوى العلاقة بين أفراد الأسرة، إلى العلاقة بين أفراد المدينة ككل، مولدة بذلك نوعاً من الوفاق الاجتماعي..

ولقد شغل موضوع الصداقة حيزاً كبيراً من تفكير التوحيدي، الذي كان مدفوعاً بحكم مزاجه وتركيبته النفسية وظروفه المعيشية من جهة، والآليات الاجتماعية كفقدان الأمن والفقر، والفشل في الحياة الاجتماعية من جهة ثانية للبحث عنها، فعندما يستبد بالإنسان هذا الشعور الكئيب بانعزاله تبرز حاجته الماسة لذات أخرى أو للأنت صديقا يتوحد معه وينعكس فيه انعكاساً صادقاً يؤكد وجوده، ومن هنا تساءل التوحيدي عن الصداقة وفتش عنها في ذاته وعند الآخرين وحملت لنا إجاباته صورة حية لمجتمع القرن ٤هـ في علاقاته الاجتماعية والإنسانية في أشكالها المضطربة.

لقد كان اهتمام التوحيدي بموضوع الصداقة اهتماما بالإنسان في محاولة لفهمه ويمكن القول أنه: «استقراً الإنسان من خلال ذاته، وأشكل عليه الإنسان من علاقته المتشعبة بالآخرين»[٥] فلم يكن اهتمامه بها من باب الإشادة بها وتحديد أنواعها، وإنما من باب التساؤل عن وجودها وإمكانية تحققها على أرض الواقع.

واستطاعت الرسالة أن تعكس مزاج التوحيدي ونوازعه الوجدانية والعاطفية، وترصد صوراً حية للمجتمع وأحواله المتناقضة، إذ شملت كل ما يتعلق «بالصداقة والصديق وما يتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعبث والرضا والمذق والإخلاص والرياء والنفاق والحيلة والخداع والاستقامة والالتواء والاعتذار»[٦]. وإذا كانت في عمومها لا تؤمن بالصداقة والصديق فإن هذا أمر طبيعي، كونه استجاب فيها لطبيعته وتجاربه وما مر به من وقائع وأحداث ولأجل ذلك كانت الرسالة تعبيراً صادقاً عن جانبه الوجداني والعاطفي وخير دال على تلك الحالة التي ألف فيها هذه الأسطر إذ يقول: «ومن العجب والبديع أنّا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ والكمد والومد..»[٧]، وهو في كل ذلك لم يكن شاذاً في رؤاه عن مفاهيم عصره.

وقد بدأ تأليفها في سن الشباب وبيضها في أواخر حياته حيث كان يعاني من متاعب الشيخوخة والغربة وشظف العيش لهذا نلمس في الرسالة وبشكل خاص في مقدمتها نبرة تشاؤمية نابعة من روح كئيبة قضت حياتها

لا تجـد «صديقا مخلصـا وصاحبا شفيقا فأمسى غريب الحـال غريب اللفظ غريب النحلـة، غريب الخلـق، مستأنسا بالوحشة قانعـا بالوحـدة، معتادا للصمـت، مجتنفا على الحيرة محتملا الأذى، يائسا من جميع من ترى»[٨]، مما دفعـه إلى إنكار الصداقة بمفهومهـا المثالي كما حدده أرسطو، معتبراً أن الصديق والصاحب والأنيس والنديم وما شابه ذلك، أنماطا نادرا ما تتجسد على أرض الواقع في شخصيات محسوسة.

إن الصداقـة علاقـة عطـف ومحبـة ومودة بين الأشخاص تتأسس على الاختيار والتفضيـل منبعها التعاطـف والمشاركة في الميولات، وعمادها المساواة والألفة، ويعتبرها التوحيـدي «عاطفـة اصطفائيـة وفضيلة إنسانيـة يصعب تحقيقها في الغالب..و هي مرتبطة بصميـم الحيـاة الشعورية تتفرع عنها جملة من الفضائل الخلقية والسلوكية تضمن لها البقاء والنماء «كالعشرة والمؤاخاة والألفة وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفـاء والمساعـدة والنصيحـة والبـذل والمواساة والجود والكرم».[٩]

والصداقـة علاقة تتـم في إطار كل ما يمكـن وصفـه «بالمتبـادل» أي في إطار من المعرفة المتبادلة، الاحترام المتبادل، العاطفة المتبادلـة، القبول المتبادل، الـولاء المتبادل أخذين بعين الاعتبـار أن التبادل هنا يكون مـن أجل صالح الطرف الآخر ومنفعته قبل منفعـة النفس فالصديق يطلـب لذاته أولاً وقبـل كل شـيء وبهذا لا يمكـن أن توجد الصداقة إلا مجتمعة مع غيرها من الفضائل الأخلاقية والإنسانية.

ويكشف التوحيدي عن ماهية الصداقة فيعتبرها رابطة عامة ورئيسية تتميز بطابع الاختيار الشخصـي المقصور على شخص معـين دون غـيره أي إن الصديـق ينتقى من بين الآخرين ويميز مـن دون باعث إنه فهو اختيار عفوي لشخص ننطلق وإياه من الأهداف نفسها ننفعل معا لنفس الاهتمامات ونعمل معا بالحماسـة نفسها فهي تقتضي «ممازجة نفسيـة وصداقة عقلية ومساعدة طبيعية ومواتـاة خلقية حتى إذا ما اتحدت هذه العناصر الأربعة أوجدت الثقة المتبادلة التي تخلق بدورهـا طمأنينة وسكونا ثابتين لايضعفان ولا يحولان مع الدهر».[١٠]

بهـذا يكـون التفاهم وتبـادل الثقة في الصداقـة هما ثمرتا توافق طبيعي..كذلك تقتضـي توافقاً وتناغماً نفسيـاً واستعداداً روحيـا فهي حسبـه لا تكـون إلا بالمشاكلة والتشابـه فالصداقة التـي لا تتأسس على المشاكلة تكـون صداقة عرضية، لغرض من الأغراض تزول عنـد انقضائه وتضمحل،

ومع ذلــك فهي تستلزم نوعــا من الخلاف شريطة أن لا يكون خلاف الضد للضد، بل خلاف الشكل للشــكل وهو خلاف سطحي عرضي بعيد عن جوهر الصداقة «فالصديق كالرقعــة في الثوب فإن كان مشاكلا لم ينب عنــه الطّــرف، وإن كان غير مشــاكل كان الفضوح».[11]

الصداقــة تصهر الروحــين أو النفسين معاً وتمزجهمــا بشكل تتمحي معه كل معالم الاختلاف، فتتحد بذلك إرادتهما وتتلاشى في بعضها البعض لتصبح إرادة واحدة فلا تترك مجــالا للخصوصية بينهما، إنه اتحاد كامــل يجعل الصديقين أشبــه بروح واحدة في جسدين، فتكــون الصداقة ثمرة ارتباط روحي غير محدد بزمــان أو مكان إنه أشبه ما يكون باتحاد روحــين أو ذاتين تجتمعان صدفــة، تتعرفــان على بعضهمــا، تجلان بعضهما ولكنهما تظلان حرتين، وهو المعنى نفسه الذي أكده أرسطو في قوله: «الصديق هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك».[12]

والصداقــة الحقيقية هي شيء خير في ذاتــه يهب فيهــا الصديق نفســه لصديقه كاملا غير مجــزأ فلا يبقى له شيء للقسمة فالصديق مــن كان بكله لك، وكانت أقصى غايات الصداقة من شــاركك بنفسه وماله لغــير سبب أو غاية وآثــرك على من سواك فكنت أنت غايته، وهنا كانت الصداقة شيئاً أكثر من الاتحاد والإتفاق.. ولما كان معروفاً لدينــا أن محبــة الإنسان لذاتــه أو لنفسه، لاتزيد عندما يقدم على فعل حسن لنفسه، ولا يكلفه ذلــك أي شكر أو شعور بالامتنان والعرفــان وجب أن ندرك أنه في الصداقة الحقيقيــة لا يمكــن أن نعــثر علــى معاني الكلمات، التي تدل على التمييز بين الصديق وصديقــه مثل الرجــاء والإلــزام والفضل والشكــر والعرفــان.لأن كل شــيء أصبــح مشــتركا بينهما، فقد اشــتركا في الإرادات والأفــكار والآراء. والميولات والرغبات وفي الحيــاة أيضا. من هنا كانت علاقة الإنسان الفاضــل بصديقه مشابهــة لعلاقته بذاته. وبهــذا المعنى يكون الصديــق شخصا آخر هــو أنت وهذا ما يشير إليــه التوحيدي في قوله: «بئس الصديق صديق تحتاج معه إلى المداراة وبئس الصديق صديق تحتاج إلى أن تقول له أذكــرني في دعائك وبئس الصديق صديق يلجئك إلى الاعتذار».[13]

ويؤكد التوحيدي مــا ذهب إليه أرسطو حينما اعتبر الصداقة فضيلة أخلاقية، لا يمكن أن تنشــأ إلا بين الأفراد الفاضلين أو الذين يشتركون في الفضيلة.. وبذلك تصبح العلاقــات الاجتماعية مؤسســة على مبدأ الفضيلة فتجمعهم المحبــة وتزول عوارض

الخــلاف ومتى حدث ذلك لن يحتاج الناس إلى العدالــة، وعندمــا تتحقــق العدالة في المجتمــع تصبح الصداقة نعمة وفضلاً وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحيدا بلا أصدقــاء، فلا بد أن لا يبالغ في عددهم كي لا يفقدهم، لأنه ليس في مقدوره بل يستحيل عليــه أن يــوزع قلبــه بينهــم، ولا يستطيع اختبارهم كلهم، فالصداقة الحقيقية تعني قلة الأصحــاب لا كثرتهم، وعليه من امتلك أصدقاء كثيرين في الواقع لا صديق له، وقد قيل لفيلسوف «من تحب أن تصادق؟ فقال: أمــا في الدهــر الصالح فالحبيــب اللبيب الأديب، فإنك تستفيد من حسبه كرما ومن أدبــه علما ومــن لبه رأيا، وأمــا في الزمان الســوء فأرض بالمكاشر الذي يعطيك بعضه بالحياء وبعضه بالنفاق ويمتعك ظاهره وإن ســاءك باطنه ولكل زمــان حكم ولكل ظهر عكم».[١٤]

وهذا يثبــت أن الناس علــى اختلافهم وتباينهم في حاجة دائمــة للجماعة، للغير، للصديــق ذلــك أن الوحدة المطلقــة تلغي الصداقة التي هي مشتركة ووحدة جماعية وتعبــير عــن «إمكانيــة العيش معــا». وفي سيــاق الحديث عن الصداقة –دائماً– نجد التوحيدي في موضع آخر يتبنى رأيا مخالفاً بعيداً عن النظرة المعيارية، فهو لما يتكلم عن الصداقة يضع لها شروطاً يستحيل توفرها ممــا يجعل إمكانيــة إيجــاد الصديق أمراً نادراً إذ يذكر ســؤالا لفيلسوف:«من أطول الناس سفــرا؟؟ فقال: مــن سافر في طلب الصديق».[١٥]

ويعود التوحيــدي لمناقشة عبارة أرسطو «الصديق هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك» فيرى أن هذا التعريف قد تطلب إيجاد نوع مــن التوافــق والتناغم النفســي وإن توفر شيء من هذا التوافق يحقق الصداقة، وإن تعذر ذلــك كان الخلاف والهجر، مما يعني أن التناغــم والتوافق النفســي أساس تبنى عليــه الصداقة وهذا الشــرط نفسه ينفي وجودهــا ويجعــل تحققهــا مستحيلا، لأن التوافق مع الآخريــن قلما يحدث وهذا ما تؤكده التجارب الاجتماعية..

إذ يؤكــد التوحيدي أن الإنسان جبل من طبائــع مختلفة وهذا ما يجعلــه ينقلب من حال إلى حال فيصبــح من الصعوبة بمكان أن يحقــق هذا الانسجام والتوافق مع نفسه فكيــف إذا كان الأمــر بينه وبــين الغير..!! «فكل واحد مختلــف بمزاجه وخلقه وطبعه وشكله ونظره وفكره وعادته فالناس في أصل حياتهم وبدء خلقهم قــد افترقوا مجتمعين واجتمعــوا متفرقــين واختلفــوا مؤتلفــين وائتلفــوا مختلفــين وأحاسيسهــم متوقدة

وظنونهم جوالة وعقولهم متفاوتة وأذهانهم عاملة وآراءهم سائحة»[١٦]، إذاً ليس هناك طبيعة بشرية واحدة، بل طبائع متعددة مما دفعه للإقرار بأن الصداقة لفظ بلا معنى ومعنى ذلك أن الصديق شيء نادر «ولشدة عزته كأنه غير موجود».[١٧]

وكأن أرسطو يحضر من جديد بكلمته التأسيسية: «آه، أيها الأصدقاء لم يعد هناك صديق» حاملة معها منطق الندرة والاستثناء، فكانت الصداقة محكومة بالندرة وكان الإعلان عنها لا يتم إلا بالانطلاق من جملة تذكرنا دائما بعدم وجود الأصدقاء والأصحاب كون الصداقة الكاملة مستحيلة إلا بين الفضلاء، كما أنه يستحيل على الإنسان أن يصادق ناسا كثيرين. وإن كان في كلامه (أرسطو) تجريديا فهو لا يشير لأي علامة تدل بأنه قد عانى تجربة معينة يصعب معها على الإنسان الاحتفاظ باتزان عقله مما يعني أن، كل ما قاله يبقى معقولا، لكنه لا يعلو على الآراء أو الجانب النظري مما يضفي على معنى الصداقة شيئا من الفتور. وقد برر التوحيدي جمعه للأقوال التي تنفي الصداقة والأخرى التي تؤكدها بقوله: «الإنسان مدني بالطبع وبيان هذا أنه لابد له من الإعانة والاستعانة، لأنه لايكمل وحده لجميع مصالحه ولا يستقل بجميع حوائجه وهذا ظاهر وإذا كان مدنيا بالطبع فبالواجب ما يعرض في أضعاف ذلك من الأخذ والعطاء والمجاورة والمحاورة والمخالطة والمعاشرة ما يكون سببا لنظام الحال وأن يكون لانتشار الأمر ولا محالة أن هذه وأشباهها مفيضة بالناس إلى جملة ما نعتهم هؤلاء الذين روينا نظمهم ونثرهم وكتبنا جورهم وإنصافهم..». [١٨]

إن ما يلفت الانتباه في الصداقة هو أنها تشكل مجال تعارف نقطة التقاء، إنها ثابتة ومستمرة وليس بمقدورنا شراؤها فهي مجانية بشكل من الأشكال هي لا تنكر الملذات والمنفعة وإن كانت تسعى وتهدف إلى شيء آخر، لقد كان تحليل التوحيدي للصداقة محاولة لفهم طبيعة الإنسان أو تلك الطبيعة البشرية المعقدة وأيا كان موقفه من مسألة الصداقة، فإنه قد استطاع من خلالها تحليل السلوك الأخلاقي ونقده في محاولة لإعادة بنائه على أسس سليمة.

ولربما كان التوحيدي من الفلاسفة الذين يلجؤون إلى الرمز، ويكتفون بالصمت، في بعض الحالات حينما يكون هذا الأخير أحسن ناقل ومعبر عن حقيقة معينة تأبى الظهور علنا وبهذا المعنى اعتبر كتابه في الصداقة:« ..سؤالا عميقا، وصمتا من نوع خاص، يرسم من خلاله ملامح العلاقات

الاجتماعيــة والإنسانيــة في القرن ٤هـ في صورها المضطربة».[١٩]

أي نعم.. إن منحى الكتاب يميل إلى عدم الاعتراف بوجود الصداقة وهو يمثل نظرة متشائمة وموقفاً جامعاً بين اليأس والتمرد. إلا أنه يأس ناتج عن إحساس عميق بالغربة الاجتماعية وسيتطــور هذا الشعور ويتعمق أكثر ليصبح إحساســا بغربة وجودية تيقظ خلالهــا إحساس التوحيــدي بالذنب ومن عمق إحساسه بالذنب أدار وجهه إلى ملكوت الله طالبــا عنده الأنس ليجد في القرب من الله نوعاً مــن الطمأنينة وربما صداقة من نــوع آخر فانظــر إليه حين يقــول: «أوحى الله إلى بعضــ أنبيائه معاشر المتوجهين إليّ لمحبتي ما ضركم مــن عاداكم إذا كنت لكم سلما وما ضركم ما فاتكم من الدنيا إذا كان لكم حظا، كيف يفتقر من أكون حظه وكيف يستوحشــ من أكون أنيســه وكيف يذل من أكون عونه».[٢٠]

وكأنــه يؤسس لعلاقــة صداقة مع الله فــإذا كانت صداقتنا لما يحيــط بنا تشعرنا بمعنــى الجمــال، وكانت صداقتنــا للناس تشعرنــا بمعنى القــوة، فــإن صداقتنا لله تشعرنا بمعنى الحق.

لقد كانت غربة التوحيدي غربة الإنسان بين أبناء جنســه، والإحساس بالغربة عامل أساسي ينبه إلى عدم التوازن بينه وبين نفسه وبينــه وبين مجتمعه، أمــا إذا توافق الوعي الذاتي مع الوعــي الاجتماعي فهو الشعور بالذات المتجاوبة مع الشعور بالآخرين وهذا ما يشهد على أنه اجتماعي في عمق طبيعته، يعيش في مجتمعه ويعايشه وهذا ما تضمنه الصداقة، فتتغلب الأنا بذلك على عزلتها.

لم يختلــف مفهوم التوحيــدي للصداقة كثيراً عن مفهوم معاصريه، فهو لما يتكلم عن ندرة الصداقة يلتقــي مع إخوان الصفا في اعتبارهم الصداقة نوعا من الأخوة وصفاء المــودة في عمومهــا لا تتحقق عنــد عامة الناس بل في جماعتهم فقط «لأن صداقتهم خارجة من ذاتهم وذلك أن كل صداقة تكون لسبــب ما.. إلا صداقة إخوان الصفاء، فإن صداقتهــم قرابة رحم، ورحمهــم أن يعيش بعضهــم لبعض ويرث بعضهــم بعض ذلك أنهم يرون ويعتقــدون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة، فكيفما تغيرت حال الأجساد بحقيقتها فالنفس لا تتغير ولا تتبدل».[٢١]

إن الصداقة نفس صادقة تعرف معنى أن تحب حبا هادئا، تعــرف معنى أن تكون محلا لثقة الغير، تعرف كيف تروض نفسها علــى معرفــة الوفاء والالتزام بــه بقدر ما تستطيع.

والملاحــظ أن إخوان الصفاء قد نظروا

للصداقة من زاوية أخلاقية دينية فهم لا يعنون بالأصدقاء لغير معنى إلا لله، إضافة إلى ربطها بالنصيحة بمعناها الديني كفرض أو كتنبيه فهم يؤمنون أن «ليس من جماعة يجتمعون على المعاونة في أمر من أُمور الدين والدنيا أشد من نصيحة بعضهم لبعض، ولا أحسن من معاملة إخوان الصفاء: ذلك أن كل واحد منهم يرى ويعتقد أنه لا يتم له ما يريده من إعلاء الدين إلا بمعاونة أخيه وكل واحد منهم يريد ويحب لأخيه ما يحب ويريد لنفسه، وكذلك يكره له ما يكره لنفسه»[٢٢]، وبهذا فهم يخضعون الصداقة لقيم أخلاقية متعالية كالخير والشر... إنها صداقة تكتسي طابع الأخوة الدينية، وترتبط بالواجب الديني أكثر مما تطرح كفضيلة مدنية بشكل خاص، إذ من واجب المؤمن «أن لا يكذب..ولا يخدع ولا ينخدع وينصح ولا يخون ويثق ولا يتهم ويتودد ولا يتحاسد ويتحاب ولا يتباغض ويوافق ولا يخالف ويتفق ولا يختلف..يتعاون على صلاح الدين ويكونوا (الأخوان الأصدقاء) كرجل واحد ونفس واحدة تتكافأ دماؤهم وأموالهم».[٢٣]

وبهذا يتضح أن الخطاب الإسلامي في عمومه يتكلم عن علاقة المؤمن بأخيه المؤمن لا عن علاقة الصديق بصديقه أو عن علاقة الصداقة بشكل عام، فمفهوم هذه الرابطة كعلاقة مدنية مازال غائباً أو مغيباً عن خطابنا، ففي الوقت الذي استطاعت فيه الفلسفات الكبرى ربط موضوع الصداقة بالعقل، والعدالة والسياسة وحتى الديمقراطية لا تزال هذه النقاط مبهمة ومغيبة في خطاباتنا ولعلّ السبب يكمن في أن الإسلام اهتم أكثر بعلاقة العبد بربه أي مسألة العبودية لله وعلاقة العبد بغيره ضمن ما يعرف بالأخوة في الله أو الأخوة الدينية، مما حصر الصداقة كقيمة مدنية في حدود الهامش.

وأما التوحيدي فقد نظر إلى الصداقة من منظور أخلاقي عملي، ولم تكن مرجعيته في ذلك مرجعية دينية لاهوتية محضة بقدر ما كانت فلسفية أدبية، فقد ربط بين حب الذات وحب الغير وربط الاثنين بالصداقة حينما قال إن الصديق هو آخر أنت ومن هنا تطرح مسألة العلاقة بين حب الذات وحب الغير إذ الأنا في المفهوم العام والمتداول للحب تتجرد من ذاتيتها لتنشد الغير أو الآخر، وليس الصديق سوى أنا آخر. وهكذا تكون هذه المحبة أبعد ما تكون عن التعالي والتمركز الذاتي كونها تعبر عن علاقة تقتصر كل المسافات بين الذوات.

إن الصداقة التي «كانت فضيلة أو على

الأقل مصحوبة بالفضيلة»[٢٤]، تراجعت في عصرنا الحديث فاقدة بذلك أهميتها القديمة، وإذا انعدمت الصداقة في المجتمع اليوم فلا شك أن السبب هو عدم تفسير معنى الصداقة، وما يتوقف عليها من أبعاد روحية تمكن الإنسان من التعرف على هويته الإنسانية وتمنحه مجالا يتجاوز فيه ومن خلاله ذاتيته، فالإنسان ليس في مقدوره تجاوز فرديته إلا بالتحامه مع الآخرين لأنه في جوهره وطبيعته ألفة وتواصل وبهذا المعنى تكون الصداقة في جوهرها تواصلاً وجدانياً عليه تتأسس علاقات الأنا بالغير فهي قبل أن تكون اشتراكاً واقتساماً لمعطيات الوجود هي أيضاً نوع من الالتزام يمنح فيه الصديق مسؤوليته اتجاه صديقه الأولوية على مسؤوليته تجاه نفسه وذاته وإن لم تكن المشاركة والاقتسام مبررا للصداقة فلا ضرورة لوجود الصديق.

وهنا نميز بين صداقة تكون عبارة عن توافق وملاءمة تلعب الصدفة دوراً كبيراً في إيجادها وبين صداقة نموذجية تحمل طابعاً استثنائياً وتشكل تزاوجا ومزيجا كونيا بين طرفين اثنين كتلك التي جمعت بين مونتاني وديولا بويسي: «إذا تمّ الإلحاح علي لقول لم أحببه، فإني أحس بأنه أمر لا يمكن التعبير عنه إلا بالجواب التالي: لأنه هو ولأنني أنا».

أما جاك دريدا فالصداقة عنده تمر بين الحي والميت.. إنها مسألة شهيق وزفير أي الحضور والغياب وبتعبير آخر حين يكون الحضور غيابا، والغياب حضورا، فالصديق بشكل ما يهبني موته كي أحافظ على البقاء باسمه، وإذا انطلقنا من عبارة التوحيدي الصديق آخر هو أنت فإن موت الصديق يعني موت الآخر.

لكن الصداقة التي تقوم على المشاركة في كل شيء لدرجة يكون كل شيء فيها مشاعا ستتحول في نهاية الأمر إلى ما يشبه الطغيان والاستبداد، إذ إن الصداقة والسياسة غالباً ما تتعرضان للخيانة والفشل الذي يحول دون تحققها فيصبح الصديق في هذه الحالة عدواً عنيداً، إن عبارة «العدو الصديق» كانت أطروحة نيتشه فقد انطلق من عبارة أرسطو: «أيها الأصدقاء لم يعد هناك صديق» ليصل إلى عبارة: «أيها الأعداء لم يعد هناك عدو» وهنا تتداخل وتتشابك المتناقضات...الصداقة/ العداوة..فيظهر لنا مفهوم الصداقة متميزا بالمغايرة والاختلاف..بعد أن كان عند أرسطو نموذجا للمماثلة والتشابه يسعى لتحقيق المساواة، والعدالة وهذا ما اعتبره

-نيتشه- وهماً زائفاً في محاولة تأسيس مغايرة تستند على الاختلاف في مكان الوحدة، لقد تساءل نيتشه من جديد عن الصديق؟؟ وكيف يمكن للشيء أن يتولد من ضده ونقيضه ومن هنا كان رفضه لفكرة الشبيه والماثل.. لقد ثار على التقسيم الميتافيزيقي للصداقة لأنه رأى فيها نوعا من المسكوت عنه وكبتاً للصراحة فإذا كان لابد للصديق أن يتعلم لغة الصمت لكي يظل صديقاً، فمن أين لنا بصديق صامت؟؟ إن هذا السؤال هو جوهر نداء زرادشت «إن المرأة غير قادرة على الاضطلاع بالصداقة، ولكن قولوا لي أنتم الرجال من منا قادر على الصداقة..؟؟».[٢٥]

هكذا أصبح سؤال الصداقة من الموضوعات الرئيسه في الفلسفة المعاصرة، فقد تطرق له جاك دريدا في «سياسات الصداقة»، وميشال فوكو في «الجنون والمرض والعقاب»، وجيل دولوز الذي اعتبر الصداقة مسألة جوهرية في الفلسفة، هذه الأخيرة التي لم تبق محبة للحكمة بل صداقة للمفهوم.

إن هذا الانتقال من الحكمة إلى المفهوم ومن الحب إلى الصداقة هو في جوهره تعبير عن فعل نقدي يرفض رؤية المفاهيم من منظار «مع» أو «ضد»، يعبر عن هذا وبشكل متميز إيمانويل ليفيناس من خلال نقده لفكرة الشبيه التي تأسست عليها الصداقة في الطرح الغربي، حيث اعتبر تحويل الذات إلى موضوع أو التعامل مع الآخر كموضوع عملاً تعسفياً، لأننا بتحويله إلى موضوع لا نحرمه الحق في العيش، بل نحرمه الحق في الحياة.

لقد آمن أن الأخلاق الفعلية هي تلك التي لا تسعى لامتلاك الآخر أو السيطرة عليه لأن كل معرفة -حسبه- هي سيطرة، كما نادى بضرورة تأسيس الأخلاق على الآخر بل وأكثر من ذلك أن تتأسس الأخلاق على المسؤولية تجاه الآخر وبتعبير ليفيناس -نفسه-على علاقة وجه- وجه وليس كتف- كتف، التي تعم المجتمعات الإخواتية وهي الفكرة ذاتها التي اشتغل عليها جاك دريدا محاولاً تفكيكها ومعتبراً إياها خطرا على «الديمقراطية القادمة» متسائلاً: ماذا نقصد بكلمة «الأخ»؟؟ أو عندما ننادي أحدا «بأخ» وعندما نختصر أو نلغي بهذه الكلمة كل الاختلافات مع الغير كآخر مختلف؟؟ ويضيف محذرا «إنه لا خطر على الديمقراطية القادمة، إلا من حيث يوجد الأخ، ليست بالضبط الأخوة كما نعرفها، ولكن حيث تصنع الأخوة القانون وتسود الدكتاتورية السياسية باسم الأخوة».(٢٦)

ممـا يعني أن الدعوة إلى الأخوة العالمية قد تلغي معها الغيرية، وقد تلغي معها الحق في امتـلاك الآخر، إن دريدا لم ينفك يصرح أنه إذا كانت هناك أخلاق خالصة، فهي تلك الأخلاق التي لا تبغي امتلاك الآخر وذلك هو جوهر التصور الذي حمله التوحيدي في رسالته حول الصداقة والصديق..

ولأن الحديث عـن الصداقة هو حديث عن المؤاخاة والاحترام والمجاورة، وهو كذلك في اللقـاء أو السفـر إذا أخذنـاه بمنطلق انزيـاح الذات ونزوعهـا للالتقاء مع الآخر والاقـتراب منه بشكل يجعلها تحاوره وتقبل به كمـا هو والصداقة في كل ذلك تلمس ما يطرأ مـن تحولات مـن أشـكال الإقصاء والنفي. أو أشكال الترحاب والضيافة وبذلك وجـب التفكير في كيفية إدماج الآخر ككيان ثقافي مغـير ومختلف؟ ولا نعني بذلك إدراج هذا الآخـر في النصوص الثقافية بقدر ما نتسـاءل عن مدى قدرة هذه النصوص على استيعابـه واستقباله خالقـة بذلك شروطاً للضيافة والتواصل؟؟ وباختصار كيف يمكن أن تتحقق من خلال الصداقة إمكانية العيش معا؟؟ هي نفسهـا الصداقة التي رأى فيها أرسطو من قبل ميـزة للحياة المشتركة ومع أفلاطون كان أفضل الأصحاب أو الأصدقاء هم طلاب الحقيقة.. ولكن ماذا عن نظرتنا نحن للصداقة.. ألم يحن الوقت بعد للتفكير في الصداقة؟؟.

الهوامش والمراجع

١- أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، فقرة «١٣ب»

٢- أبـو زيد عبد الرحمن بـن خلدون- مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديـوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجـم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق كاترمير، القاهرة، المطبعة المصرية، ج ١، ص٥٧.

3- Aristote -Politique , Edition Flammarion- Paris2001- livre3 chapitreA.

٤- أبـو حيـان التوحيدي، المقابسـات، تحقيق وتقديم محمد توفيـق حسن، مطبعة الإرشـاد، بغداد ١٩٧٠، ص٤٧٣.

٥- عطـاء الله زرارقة، تجليات النزعة الإنسانية في الفكر العربي، أبو حيان التوحيدي، ط١، المطبعة العربية غرداية، الجزائر، (دت)، ص١١٦.

٦- الصداقة والصديق، طبعة القاهرة، ص٢/١.

٧- إبراهيم الكيلاني، مقدمة الصداقة والصديق، ص١٩.

٨- المصدر نفسه والصفحة.

٩- أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، إبراهيم الكيلاني، ط٢، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٩٩٨، فقرة ٢١.

١٠- المصدر نفسه، ص٢٣.

١١- أبو حيان التوحيدي، المقابسات، مصدر سابق، ص٣٥٩.

١٢- أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، مصدر سابق، فقرة (١١أ).

١٣- المصدر نفسه، فقرة (١ب).

١٤- المصدر نفسه، فقرة (٧ب).

١٥- المصدر نفسه، فقرة.

١٦- المقابسات، ص٨٩.

١٧- الصداقة والصديق، فقرة (ب٢٤).

١٨- الصداقة والصديق، فقرة (١٢٥أ).

١٩- عطاء الله زرارقة، تجليات النزعة الإنسانية في الفكر العربي، ص٦٩.

٢٠- التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، مج٢، مكتبة الأطلس، دمشق، ص١٥٩.

٢١- إخوان الصفا، الرسائل، ج٤، ص٤٦.

٢٢- إخوان الصفا، الرسائل، ص١٠٩.

٢٣- إخوان الصفا، ص١٠٠.

24- Aristote –Ethique de Nicomaque „ P 207.

٢٥- فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ص٨٣.

26- Jacque Derrida – Politique de l'amitié – Edition galilée – 1994– p76.

آفاق المعرفة

النابغة الشيباني... حياته وشعره

د. نزار عوني

ديــوان «النابغة الشيبــاني» من الدواوين الشعرية التــي تأخر تحقيقها، ففــي تراثنا العربــي كثير من الكنوز الدفينة التي تحتــاج إلى بحث ودراسة وتحقيق لتخرج بصورة علمية واضحــة يستفيد منها القارئ والدارس. فما كان معروفــاً عن النابغة الشيباني قبل سنين لم يكن يتعدى قصائد مبثوثة في بطون كتب التراث.

ففي عام ١٩٣٢ نشر أول كتاب يحوي قصائد وقد نشره الباحث المصري الشنقيطــي، ولكنــه كان غير واضح المعالم ودون شــرح وافٍ. وفي عام ١٩٨٠

❁ ناقد سوري.

العمل الفني: الفنان عماد كسحوت.

كان شعر الشيباني وحياته موضع دراسة مستفيضة تقدم بها الباحث العربي السوري عبد الكريم إبراهيم يعقوب إلى جامعة الإسكندرية ونال بها درجة الدكتوراه فأعاد الاهتمام بهذا الشعر وذلك الشاعر.

من هو النابغة الشيباني؟

هو عبد الله بن المخارق الشيباني. ولد سنة٣٥هـ. وكانت وفاته سنة١٢٦هـ. فهو شاعر من شعراء العراق وهو أشعر من ظهر من الشعراء في قبيلة «شيبان»ولذلك أطلق عليه لقب «النابغة» لتفوقه في الشعر على معاصريه من الشعراء في زمنه. وربما يعود سبب تسميته «النابغة» أن قبيلته كانت أقل شعراً من غيرها من القبائل مما جعله موضع حفاوة وتقدير. وقد تناقل شعر النابغة الشيباني كثيرون من الرواة في زمنه منهم: حماد الرواية وأبو عمر الشيباني وحماد بن اسحق والعقبي وابن أبي الأزهر.

وكان الشيباني يكثر من التردد على الشام لمدح الخلفاء الأمويين بقصد التكسب، وشعره في مدحهم واضح الصنعة، غير أن الشيباني اشتهر بشعره الغزلي وشعره في الحكمة.

شعره الغزلي:

يستهل الشاعر قصائده بالغزل. ويبدو أنه كان عاشقاً متيماً، أضناه الهوى وآلمه الغرام، فقد أحب امرأة تدعى «سلمى» أو «سليمى» لفترة طويلة ثم أحب امرأة اسمها «أميمة» ولكن لفترة قصيرة لأن اسمها لا يتكرر إلا نادراً في شعره على العكس من «سلمى» التي تكاد لا تخلو قصيدة له من ذكرها ووصف محاسنها.

ففي قصيدته الطويلة التي تتصدر ديوانه وتتخذ حرف القاف قافية لها، يتقطع الشاعر شوقاً لحبيبته، فما أقل ما تعطف عليه وما أكثر ما تبتعد عنه، فهي تكتم حبها ولا تدري ماذا تفعل بسبب ذلك الحب، فهي مثله تعاني وتكتوي بنار الشوق يقول:

أرقتُ وشُرُ الداء همَ مؤرقُ
كأني أسيرُ جانب النوم موثقُ
وأعجب سلمى أن سلمى كأنها
من الحسن حوراء المدامع مُرشقُ
تعطفُ أحياناً عليه وتارة
تكاد -ولم تغفل- من الوجد تخرقُ

ويصف الشاعر مفاتن سلمى وصفاً فيه عذوبة وشفافية، فهي عندما تتبسم تظهر أسنانها وكأنها صف من الأقحوان في حقل جميل، أما ريقها فهو مسك وعنبر ممزوج بالخمر، وهي تمنع العاشق الولهان أن يمس ذلك العنبر وذلك الخمر في فمها ولو أدى الأمر إلى موت العاشق شوقاً لها.. قد يحزن

الحمام لحالة ذلك العاشق لكنها هي لا تأبه لذلك أبداً:

وتبسمُ عن غرّ رواء كأنها
أقاح بريان من الروض مُشرقُ
كأن رضاب المسك فوق لثاتها
وكافورُ داري وراحاً تُصفقُ
حمته من الصادي فليس تُنيله
وإن مات ما غنى الحمامُ المُطوقُ

ويذكر في إحدى قصائده أسماء نساء تعلق قلبه بهن، وهؤلاء لهن نهود بارزة تتدلى بوقار كما تتدلى عناقيد التمر من النخلة، وهن يرتدين الحرير الناعم، الفاخر، وثياب حمر ويزين الوشم وجوههن.

أما عيونهن فهي واسعة كعيون المها، وحُسنهن كحسن الدمى أما نظراتهن فتأخذ الألباب. يقول:

ألا هاج قلبي ظُعنٌ بواكرُ
كما هاج مسحوراً إلى الشوق ساحرُ
سليمى وهند والربابُ وزينبُ
وأروى وليلى صدنني وتماضرُ
كواعب أتراب كأن حمولها
من النخل عمريَ النخيل المواقرُ
تعلق ديباجٌ عليهن باجل
وعقل ورقم يملأ العين فاخرُ
لهن عيونُ العين في صور الدمى
وطرفٌ ضعيفٌ يستبي العقل فاترُ

ويبدو لنا من خلال دراسة شعره أنه قلما كان يتواصل مع حبيبته، فهي كما يقول، لا تجود له باللقاء، كما أنها لا تجود عليه بالحديث إذا ما التقاها، فهي تشير إلى ما تريد بكلمات قليلة.. وهي تبتعد ما استطاعت عن الفحشاء لأنها نبيلة الخلق، كريمة الأصل:

اتصرمُ أم تواصلك النجودُ
وليس لها وإن وصلتك جودُ
إذا لاينتها مطلتْ ولانت
وفيها حين تنزرُها صلودُ
تشير إلى الحديث بحسن دل
عن الفحشاء مُعرضة حيودُ

ثم ينتقل الشاعر الشيباني بعد هذه الأبيات للحديث عن جمال حبيبته الذي لا مثيل له فيصف هذا الجمال وصفاً حسياً، فلها المهابة والجمال وشعرها مسدول على كتفيها عن يمين وعن شمال، أما عيناها فهما كعيني بقرة وحشية لشدة اتساعهما، وتزين عنقها ونحرها قلادة رائعة:

لها وجه كصحن البدر فخمُ
ومنسجر على المتنين سودُ
وعينا برغز خرق غرير
وزان النحر واللبات جيدُ

ويصف لنا الشاعر لقاءه بحبيبته «سلمى» ويبدو أن لقاءه بها كان نادر الحصول. فقد

التقاها ذات مــرة وهي موشحة بالحرير الفاخر، وقد نعــم بهذا اللقاء.. واستمتع بمرأى هذه المــرأة الجميلة، فهي جميلة إذا جلست وجميلة إذا وقفت فالعين لم تر جمالاً كهذا أبداً:

لقد واصلتُ سلمى في ليالٍ
وأيـــام وعيـش غير عشٍّ
لقد هازلتها في يوم دجن
على عُتق من الديباجِ فرش

ويذكــر الشاعر الشيبــاني زيارته إلى مدينــة «بعلبــك» في بلاد الشــام، وهنا يذكر شوقه لامرأة تدعى «أميمة».. حيث يقول:

أرقــتُ وصاحبـاي ببعلبكّ
وأرقـني الهموم مع التشكيّ
وهيّج شــوق محــزون عميدٍ
خيال من أميمة هاج ضحكي

ويعترف الشاعر أن أميمة لم تبادله الحب لهذا فهو محزون مهموم فلقد رمته بسهامها. أما هو فلــم يصبها بسهمه.. فتركت الحزن والأسى والذكرى له:

أضحت أُميمةُ لا ينالُ زمانها
واعتاد نفسكَ ذكرُها وسقامُها
ورأت سهامك لم تصدها فالتوتْ
واختلّ قلبُك إذ رمتك سهامُها

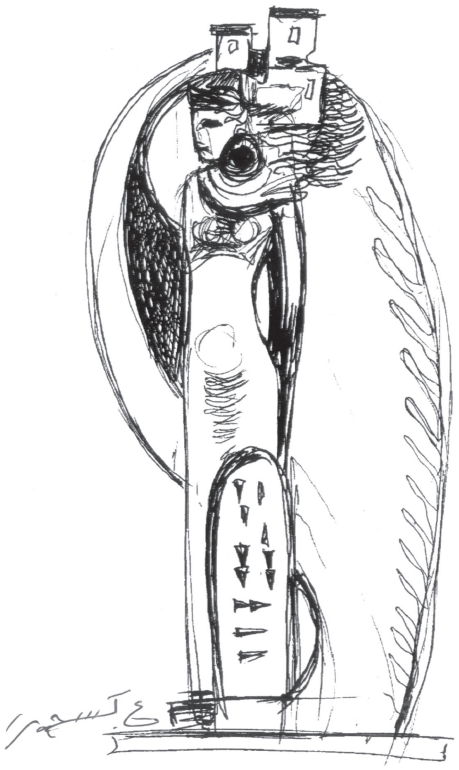

فاشتقتُ إذ شطّتْ وهاج كآبتي
ذكــرى ونفسي شفني تهامُها

الحكمة في شعر الشيباني

تروي المصادر أن النابغة الشيباني لم يقل شعراً حتى بلغ الخمسين من عمره، أو ربما لم يشتهر أمــره كشاعر حتى بلغ هذه السن. ونرى كثيراً من الحكم في شعره فهو يرى أن الدهــر يغيّر الإنسان ولكــن الدهر لا يتغيّر إذ لا أحــد يستطيع إيقــاف الزمن أو يغيّر مساره.. يقول:

يبلىَ الشباب وينفي الشيبُ بهجتَه
والدهر ذو العوص يأتي بالأعاجيب
ما يطلب الدهر تدركه مخالبه
والدهر بالوتر ناج غير مطلوب

وعلى المرء ألا يمتدح أحداً أو يذمّ أحداً إلا بعد أن يجرّبه ويتأكد من طباعه:

لا تحمدن أمراً حتى تجرّبه
ولا تذمّنه من غير تجريب

وقد جاءت قصائد الشاعر في الحكمة والموعظة في المرحلة الأخيرة من حياته حيث عاش عمراً مديداً جاوز التسعين عاماً. فهو يرى أن على المرء أن يبتعد عن لهو الشباب عندما يبلغ مرحلة الكهولة ويعلو الشيب رأسه. فإذا لم يقلع عن ملذات الشباب فهو مفرط في اللهو والجري وراء المتع:

ذر الشباب فلا تتبع لذاذته
إن الذي يتبع اللذات مقترفُ
إن الشباب جنونُ شرخ باطل
يقيم غضاً زماناً ثم ينكشفُ
من يعله الشيبُ لم يُحدث له عظةً
فذاك من سوسه الإفراط والعنفُ

ويقول في النصح بعدم الإطمئنان إلى التمام:

ولا تتقنّ بالتمام فيما
حباك من النصيحة في الخلاء
وايقن أن ما أفضى إليه
من الأسرار منكشف الغطاء

ذلك هو النابغة الشيباني شاعر كبير من شعراء العصر الأموي وقد خرج ديوانه بعدما لغة النسيان زمناً طويلاً، تتنوّع أغراضه الشعرية، غير أن شعره الغزلي وشعره في الحكمة يفوق ما عداه.

الهوامش

١- الحوراء: التي اشتد بياض عينها وسواد سوادها -المرشق: الظبية عندما تنظر - تخرق: تتحير فلا تدري ماذا تفعل.
٢- الغرّ: جمع غرّاء والمراد الأسنان -الرواء: حسنة المنظر المرتوية.- الرضاب: الفتات. الداري: العطار - الصادي: الظمآن.
٣- ظعن: جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج -كواعب: ثداياها بارزان- الرقم: الوشم.
٤- أتصرم: ابتعد- النجود: المرأة العاقلة.
٥- الفخم: الامتلاء والمهابة -المنسجر: المسدول -البرغز: ولد البقرة الوحشية.
٦- عش: دقيق -عتق- كرام
٧- العوص: الصعب.

المصادر والمراجع

١- تاج العروس- محبّ الدين أبو الفيض.
٢- معجم البلدان- ياقوت الحموي.
٣- تاريخ الأدب العربي -العصر العباسي، د. شوقي ضيف.

آفاق المعرفة

الذكرى الخامسة والسبعون لرحيل الموسيقار والملحن الأرمني كوميداس

د. نورا أريسيان ❁

«الشعب هو أكبر مبدع، اذهبوا وتعلموا منه. نحن نعرف الأرياف بجهلها ولكنهـا تتمثل أمام عيني كمكان مقدّس للفن الأرمني، فأرى هناك الأغنية الأرمنيـة على شفـاه القرويات. فالمحراث والمنجل والأحجـار كلها مقدسة بالنسبة لي».

بهـذه القناعة انطلق كوميداس في ظروف صعبة وجال لأكثر من عشرين عاماً في العديد من القرى في أرمينيا وجمع أكثر من ثلاثة آلاف أغنية شعبية من أفواه القرويين.

❁ باحثة ومترجمة سورية.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

ولد صوغومون صوغومونيان في كوتاهيا (غرب تركيا) عام ١٨٦٩ في عائلة تُعنى بالموسيقى. توفت والدته وهو لم يكمل السنة، وفقد والده عندما بلغ الحادية عشرة من عمره، فعاش في كنف جدته ولم يتحدث إلا باللغة التركية.

في عام ١٨٨١ وبفضل موهبته الغنائية، اختاره مطران القرية من بين /٢٠/ طفلاً يتيماً لإيفاده إلى «إيتشميادزين» -أو كاثوليكوسية عموم الأرمن أي مقر الكنيسة الأرثوذكسية الأرمنية في أرمينيا-.

رغم أن هذا الصغير لم يكن يتقن الأرمنية، إلا أنه كان قد تعلم الغناء وخاصة الألحان الدينية بالأرمنية في البيت من والده وأعمامه. وعندما خاطبه الكاثوليكوس (وهو رأس الكنيسة الأرمنية) لم يفهم هذا الصغير القروي والبائس، فغضب الكاثوليكوس وكاد أن يرفض المرشح الذي لا يتقن الأرمنية. لكن صوغومون أجابه: «أنا لا أتقن الأرمنية لكنني أغني بالأرمنية». وبدأ بالغناء فاستمع إليه الكاثوليكوس وتأثر بصوته فبكى.

تعلم هذا الصبي الموهوب خلال عام واحد اللغة الأرمنية وكذلك الأرمنية القديمة الـ«كرابار»، وتابع كل الدورات والدروس في معهد «كيفوركيان» التابع للكاثوليكوسية في ايتشميادزين، والذي يعتبر أهم مؤسسة تعليمية لرجال الدين في علوم اللاهوت والأدب والموسيقى وغيرها.

نصِّب كاهناً عام ١٨٩٤، وسمي باسم «كوميداس» على اسم كاثوليكوس أرمني في القرن السابع، كان شاعراً وموسيقاراً. لفت كوميداس الانتباه، وسطع اسمه عندما أسس عدة جوقات غنائية. وبعد تخرجه من المعهد، تم تعيينه أستاذاً في ذات المعهد، وقائداً للجوقة في الكنيسة.

وفي الحقيقة لم تشكل الموسيقى الأرمنية في منتصف القرن التاسع عشر، وبدأت تتطور وفق مبادئ الموسيقى الروسية مع إغفال اللغة الموسيقية الوطنية الأرمنية. فكانت الموسيقى والأغنية الشعبية الأرمنية «متعددة الأصوات» هي الوحيدة القادرة على خلق لغة الموسيقى الأرمنية وأسلوبها الفريد. فقد كانت الأغنية الأرمنية الشعبية منها والكنسية «أحادية الصوت» منذ قرون طويلة. وأول من جعلها متعددة الأصوات هو «كارا مورزا». وقد أتى إلى معهد كيفوركيان وأسس فرقة ولم يحجب عن ناظريه موهبة صوغومون الذي ضمه إلى مجموعته وجعله مساعداً له[1].

لقد كتب الكثير عن فترة بقاء كوميداس في المعهد، وكيف كان بعكس زملائه الذين يذهبون في العطلة إلى القرى، بينما كان

كوميداس ينتظر الزوار في المعهد لكي يستمع إلى أغانيهم وصلواتهم ويسجلها.

ويذكر أنه لم يكن يشارك في التدريبات الرياضية والركض الذي يمارس الطلاب، بل كان يردد صوته النوتات الأرمنية: «خو، نيه، با، بو،...»، وثم الأوروبية: «دو، ري، مي، فا، صول،...».

كانوا يطلقون عليه تسمية الـ«نوتجي» عندما كان يأخذ بمداد قلمه ويسجل الألحان المغناة من حوله. كان يبقى وحيداً في غرفته الفارغة، إلا من طاولة وكرسي عادي، أما سريره، فكان عبارة عن خشبة وأغطية بسيطة. كان يعيش حالة من الحلم بين تدفق الأنغام وعذوبة الأصوات.

كان لديه موهبة في تعليم الأغاني «متعددة الأصوات» بسرعة كبيرة. وهكذا درّس تلاميذه خلال أسبوعين «القداس» الذي قام بتوزيعه.

وبعد فترة تم إيفاد كوميداس إلى برلين عام ١٨٩٦ ليدرس الموسيقى في معهد البروفسور «ريتشارد شميت» وأكمل دراسته في التاريخ والفلسفة في جامعة «كايسر فريدريخ ويلهلم». وفي نهاية الفترة الدراسية، كتب بحثاً في الموسيقى الكردية.

كان كوميداس مولعاً بدراسة موسيقى الشعوب، فقد درس الموسيقى الجيورجية والإيرانية والعربية والبيزنطية. وعند تواجده في أوروبة تعرف إلى الموسيقى الفرنسية والألمانية والروسية.

قدم بحثه إلى «المجمع الدولي للموسيقى»، ونال إعجاب المختصين، وكان أول موسيقي غير أوروبي ينضم إلى عضوية المجمع وكان يشارك في اجتماعاتهم، ويلقي محاضرات، ويغني بنفسه.

عاد إلى أرمينيا بعد حصوله على الدكتوراه في علوم الموسيقى. ومن هنا بدأت مسيرته في جمع وتسجيل الأغاني، حيث لم يتوقف عند حاجز كونه رجل دين، فكيف بكاهن يتنقل بين الأرياف ويجلس مع القرويين ويستمع إلى أغانيهم. ووجد الحل بالتخفي والاستماع إلى أغاني القرويين الشعبية من خلف الجدران، ومن أسطح منازلهم حيث كان يسجل ما يسمعه.

وهكذا جمع أكثر من ثلاثة آلاف أغنية ارمنية، وصاغها وقدمها بشكلها النهائي، فكانت متناغمة من خلال الغناء المنفرد والغناء الجماعي وبتعدد الأصوات. في الحقيقة، قام كوميداس بتنقية الموسيقى الأرمنية من ما يشوبها ليجعلها ذات طابع متميز. طبعاً لم يكن همه في ذلك جمع الأغاني فقط، بل دراستها حيث وجد قواعد الأغنية الأرمنية. إذ وجد أن الموسيقى الأرمنية لا

تشبه الموسيقى الأوروبية، وجزم بأن الموسيقى الأرمنية مبنية على البعد (ذو الأربع) وليس على طريقة (ذو الثمانية). فحسب كوميداس أن كل أغنية أرمنية كنسية أو شعبية تكون مكتوبة على مبدأ البعد ذو الأربع (tetrachord).

كما أنه وجد قاعدة أخرى وهي بخصوص الأوزان. فالأوزان الأرمنية تتعلق بنبرة الكلمات، ونبرة القصيدة والمعنى. وبذلك ليست محددة بمقاييس الأوزان الأوروبية، فهي حرة، ما يعطيها غنىّ أكبر. كان هدف كوميداس أيضاً إيقاظ الوعي لدى الأرمن من خلال جمع الموسيقى والألحان الأرمنية الشعبية وصياغتها في قالب وطني، ونشر جمالية الموسيقى الأرمنية لدى الشعوب الأخرى.

لقد تناول في العديد من مقالاته التي سطرها هوية الموسيقى الأرمنية، ما يجعله متأسفاً بأن التاريخ لم يكتب الكثير عن الألحان الأرمنية الروحية ولا عن النوتات. وينسب انطلاق الألحان الكنيسة الأرمنية القديمة إلى «القديس ساهاك» في فترة اكتشاف الأحرف الأبجدية الأرمنية. فقد أدى اكتشاف الأحرف في القرن الخامس الميلادي وترجمة الكتاب المقدس إلى ولادة أغاني دينية، ومع تطور الكنيسة ومراسم القداديس ظهر عدد من المنشدين الذين لحنوا التراتيل والأناشيد الدينية بهدف تبسيط معاني الأعياد المقدسة والطقوس الدينية. وهكذا غناءً المزامير مهد لألحان التراتيل.[٢]

ونقتبس الأسطر التالية من مقالة

كتبها كوميداس صدرت في ١٨ أيلول ١٩١٣ في جريدة «أزادامارد» الصادرة في القسطنطينية: «لقد قمت بتدوين مواد تاريخية وقعت بين يدي من مصادر أجنبية وأرمنية، ولكنني لم أدرسها. لقد كان محور دراستي واهتمامي المقامات الأرمنية القديمة التي شكلت فكرة عنها من خلال جمع وترتيب وتدقيق المواد خلال عشرين عاماً لوحدي. وقد قمت بهذا العمل من خلال التعمق في معاني المقامات بهدف وحيد وهو أن أتمكن من إظهار الألحان القديمة الأرمنية من المخطوطات، وملاءمتها مع المتطلبات الحديثة من أجل تدعيم الموسيقى الكنسية، وأما الموسيقى الدنيوية فهي تعيش بفضل القرويين. وعندما نتملك من الموسيقى الكنسية والدنيوية نكون قد شكلنا فكرة أعمق عن الموسيقى الوطنية بشكلها الكامل».

من أهم أعمال كوميداس المنشورة: «الموسيقى القروية الأرمنية» و«أغاني شعبية وكنيسة أرمنية» اللتان تلقيان الضوء على النظريات الخاطئة بشأن الموسيقى الأرمنية. وفي عام ١٩٠٦ صدر في باريس بجهود أصدقائه باكورة أعماله بعنوان (الغناء الأرمني) مجموعة «أغاني قروية» كما له العديد من الأعمال الهامة التي تطرقت إلى دراسة الموسيقى الدينية الأرمنية حيث أثبت أنه هناك علاقة وطيدة بين الأغاني التراثية والدينية.

ومن أهم أعمال كوميداس هي صياغته للأصوات المتعددة في الأغاني التراثية التي تأتي من عمق الموسيقى الوطنية. وبفضل كوميداس، تم وضع أشكال جديدة للأصوات المتعددة في الأغاني الأرمنية مما ميزها عن أغاني الشعوب الشرقية الأخرى.

وظهرت قيمة أعمال كوميداس، عندما قام العديد من الباحثين من خلال دراسة أغانيه بالمقارنة مع أغاني شعوب أخرى. وكذلك عند إجراء مقارنات بين أشكال عديدة من الأغاني في مناطق مختلفة في أرمينية وأريافها.

يعتبر بعض الباحثين أن الفترة ما بين ١٨٩٩-١٩٠٥ كانت أكثر الفترات ثراء، حيث كان كوميداس يتابع عدة مجالات في الثقافة الموسيقية في وقت واحد، فكان قائداً للجوقة في المعهد، ويقوم بتأليف وتحضير كتباً دراسية للموسيقى، ويؤلف كلمات أغاني شعبية، ويلحن، ويحضر دراسات للمجمع الدولي للموسيقى.

من أعماله أيضاً جمعه وتسجيله لأكثر من ثلاثة آلاف لحن أرمني، وكردي وإيراني وعربي، وعشرات الدفاتر التي تحوي

نظريات تحويل النوتات الأرمنية، وأعمال حول دراسة الأغاني الشعبية، ومسودات أغاني وغيرها.

وما يعرف الآن من أعمال لكوميداس هو جزء من تلك الأعمال الضخمة والذي يشكل أساس علم الموسيقى الشعبية الأرمنية.

كان كوميداس يسعى إلى إظهار الأغنية، كونها حياة القروي، وتجسيد فني لمشاعره وعمله. ولذلك يعتبر كوميداس باحث في الدراسات التراثية، وظاهرة فريدة في الثقافة الأرمنية الحديثة.

كان كوميداس حريصاً على الاحتكاك بالعالم الغربي، ونجح في تعريف الموسيقى الأرمنية أمام كبار الموسيقيين الأوروبيين. حيث كانت له مشاركة ناجحة في المؤتمر الدولي للموسيقى الكنسية في برلين عام ١٩٠١. وبعدها أطل على الفرنسيين بعد تمكنه من مشروعه في تأسيس جوقة. فدخل «معهد الدراسات الاجتماعية العليا» للتعرف على علوم الموسيقى الفرنسية، ودأب على دراسة أعمال الموسيقار كلود دوبوسيه وعزفها، وتعرّف على أعمال العديد من المؤلفين الكبار الفرنسيين أمثال: موريس رافيل وكابرييل فوريه وغيرهم.

استطاع كوميداس أن يجمع جوقة مؤلفة من مغنين أرمن وفرنسيين، ودربهم على الأغاني الشعبية، والأغاني الدينية الأرمنية. وبعد أن تمكن من إتقان اللغة الفرنسية، وكانت فرقته قد انتهت من التدريبات وأصبحت جاهزة، قرر تقديم الحفلة المنتظرة في باريس، لتكون أول تجربة لتقديم الأغنية الأرمنية التراثية أمام النخبة من الجمهور الفرنسي عام ١٩٠٦. وبعد العرض يتقدم كلود دوبوسيه نحو كوميداس وينحني أمامه قائلاً له: «أيها الأب كوميداس، أنا أنحني أمام براعة الموسيقى الأرمنية». وقال للجمهور: «كان يكفي لكوميداس أن يكتب أغنية «أندوني» فقط، لكي يكون من الموسيقيين العظماء في العالم».

وفي عام ١٩١٠ انتقل إلى القسطنطينية وأسس جوقة الغناء «كوسان» المؤلفة من ثلاثمئة شخص. وبعد أن ارتفعت الأصوات بالأغنية الأرمنية، راح يؤسس فرقاً غنائية في كل المدن التي زارها مثل: برلين، وباريس، وجنيف، والإسكندرية، والقاهرة، وتبليسي، وباكو، حيث كانت تلك الفرق تنشد الأغنية الأرمنية الشعبية منها والكنسية.

لقد أبدى كوميداس خلال حياته الموسيقية اهتماماً بالغاً بالموسيقى الأرمنية الشعبية، ودراسة الموسيقى الدينية على حدٍّ سواء، معتبراً إياهما أخاً وأختاً ولدا من ذات الجذور.

كان يقلقه وضع الموسيقى الكنسية بشكل عام، وقد بحث عن طرق جديدة لتنقية الموسيقى الدينية وأساليب تطورها. حيث قدم من خلال كتاباته مشروعه موضحاً فيه أفكاره في إعادة إحياء وتطوير الموسيقى الدينية. حيث أخذ بعين الاعتبار الوضع المتردي للموسيقى الدينية، وبناء على الدراسات النظرية التي استكملها أقدم كوميداس على تأليف «القداس».

ويتصدر «القداس» قمة أعماله التي ما زالت تُنشد حتى يومنا هذا أثناء الطقوس الدينية في الكنيسة الأرمنية. وقد اعتمد فيها المبادئ التالية: التخلص من التنغيمات الأجنبية، وخلق انسجام بين الاحتمالات التي أوجدها، واختيار ما هو الأقرب إلى روح الموسيقى الكنسية الأرمنية، وملاءمة نظم الشعر بمعنى الكلمات، والاستفادة من المقامات القديمة عند تغيير اللحن. وقد تم تسجيل «القداس» أول مرة في باريس عام ١٩٣٣. والتي تعتبر من أهم الأعمال «متعددة الأصوات» التي ألفها كوميداس في إطار موسيقى الكنيسة الأرمنية.

لقد صاغها من خلال جمع الألحان من كهنة «إيتشميادزين»، وكهنة قرويين، وألحان تراثية قديمة انتقاها، لأنها تحمل الطابع الأرمني[٣].

من النادر جداً إيجاد فنان أو نحات أو رسام أرمني لم يتأثر بكوميداس وفنه. فقد أضحى كوميداس مادة دسمة للفنون الأخرى، كالفنون التشكيلية، والأفلام الوثائقية، والمسرحيات وغيرها. كما اندرج بين أعمال وإبداعات كبار وعمالقة الأدب الأرمني.

فقد تناول الشاعر المعروف بارويير سيفاك عام ١٩٥٩ في قمة أعماله الملحمية «الناقوس الذي لا يصمت» حياة الموسيقار كوميداس ومصيره، وتتجلى فيها رؤيته وأفكاره، إذ إن الكتابة عن كوميداس تعني الكتابة عن الشعب الأرمني بأكمله، بأغانيه، ودموعه، بماضيه ومستقبله. ومن خلال صوره الشاعرية عالج فكرة الوطن المسلوب، والقهر المستمر، وتشكل هذه الملحمة في بنيتها وخصوصية تعبيرها الشعري ظاهرة فريدة في الشعر الأرمني.

وقال عنه الموسيقار آرام خاتشادوريان: «موسيقى كوميداس هي صافية كتدفق ينبوع جبلي. فإذا أراد الملحنون الأرمن المعاصرون –وينبغي عليهم ذلك– المشاركة في تكوين المدرسة الموسيقية الأرمنية، فيجب عليهم التعرف على كوميداس من صميم قلوبهم».

إن الأسلوب الخاص لتعدد الأصوات الذي اعتمده كوميداس أثرى الأغنية

الأرمنيــة. ويمكن ذكر بعضــ الأغاني التي تبرز التعبــير الصادق عــن خلجاته وحزنه ومنها: (كارونا) أي «إنــه الربيع»، و«شجرة المشمشــ» و«آه حبيبتي مــارال» و(أندوني) -أي المشرد في بيتــه-، والتي تصور عذاب الإنسان الأرمني المهجر من بيته.

أما أغنية «طائر الرهو» التي تحتل مكانة خاصة في قلوب الشعب الأرمني، فهي تمثل الحنين إلى الوطــن، وقد ظهرت في القرون الوسطــى عندمــا كان الأرمنــي يتغرب في أي مدينة خــارج وطنه. وعندما وصلت إلى كوميداس نفض الغبار عنها، وألف لها لحناً خاصــاً، بمرافقة موسيقيــة شفافة إلى أن أضحت نشيداً لكل أرمني يحن إلى وطنه.

إضافــة إلى الأغاني، بــرز كوميداس في الجوقــة الكنسية أو التراثيــة، والتي كانت توزع بنمط تعدد الأصوات من أجل أصوات مختلطة. فقد لحن القداس للصوت الذكوري حصراً.

ومن الأغاني الجماعية نذكر: «صونا يار» (حبيبتي صونا)، ١٧٤أغنية المزارع»، «سلسلة من أغاني الأعراس» وغيرها. وتتفرد أغنية «أيتها اللغة المدهشة» التي ألفها في استنبول عام ١٩١٣ بمناسبة الذكرى ١٥٠٠ لاكتشاف اللغــة الأرمنية والذكــرى ٤٠٠ لطباعة أول كتاب باللغة الأرمنية.

على كل حال يمكن حصر أعماله المنشورة من المقــالات كالتــالي: «فصــول الكنيسة الأرمنيــة»، و«مواضيع مــن تاريخ الموسيقى الأرمنية في القرن التاسع عشر»، و«مقالات نقديــة»، وغيرها. أما مجموعــات الأغاني فهــي كالتالي: «ألف لعبــة ولعبة»، و«ألحان كردية» و«(الغنــاء الأرمني) مجموعة أغاني قرويــة»، و«أغاني شعبية أرمنيــة»، وأغاني دينية أرمنية»، «علم النوتات»، «كتب دراسية للموسيقى»، «أغــاني أجنبية بلغات غربية»، دراسة عــن الموسيقى الكنسيــة الأرمنية»، «الغناء الأرمني»[٤].

لا يمكن إغفال دور كوميداس في التربية الموسيقية، فبالإضافــة إلى الإرث الموسيقي الــذي في التربية الموسيقية، فبالإضافة إلى الإرث الموسيقــي الذي خلفّه، قام كوميداس برعايــة وتنشئــة جيــل مــن تلامذته، من منشدين ومغنين، الذيــن تدربوا على يديه، ونشروا رسالته في أنحاء العالم، خلال حياته وبعد رحيله الأليم.

يمكــن أن نستخلص من هذا بأن أعمال كوميداســ في الغناء الجماعــي والإفرادي تنقســم إلى قسمين: إبداعــات مبنية على مصــادر موسيقية شعبيــة ودينية. وأعمال تشمل مشاهد موسيقية.

فالموسيقــار كوميداســ كان يُعنى أكثر

بأعماله التي تتعلق بالغناء الإفرادي والجماعي والتوزيع. فهي بحق أعمال تأسر القلوب، وتلامس جميع المواضيع مثل: الحوار الذاتي، والنشيد، وطبيعة الوطن، والمناظر الطبيعية، والأعراس إلخ.

وهنا تظهر براعة كوميداس في التناغم، وأسلوبه الحساس في اعتماد تعدد الأصوات (البوليفوني)، وكذلك الأسلوب الجديد الذي اعتمده بالتنسيق بين خصائص الموسيقى الشعبية وأساليب علم الموسيقى التي كان يعتمدها المؤلفون في أوروبة.

لقد فتحت إبداعات كوميداس وأسلوبه في التأليف والتلحين آفاقاً جديدة أمام تطور فن الموسيقى الأرمني، ووضعها في إطار تطور الموسيقى العالمية، كما كان لها أثرها الكبير على موسيقى الشعوب الشرقية.

تتمثل الأغاني القروية الأرمنية التي جعلها كوميداس كأنطولوجيا لفنّ الغناء لدى الشعب الأرمني، وفي النظريات التي تطرق لها كوميداس، أظهر أسس الموسيقى الشعبية، ووصف تطور تكوين الأغنية، وقام بتحليل أشكال الأغنية الأرمنية الشعبية وخصائص تأليفها، ووصف قيمتها الفنية. ومن المهم أيضاً ما كشفه عن حقيقة خصائص الأغنية الدينية، وتلاقي أسس الموسيقى الشعبية والدينية. أما المقالات التي كتبها حول النوتات فهي تسهم في دراسة الموسيقى في القرون الوسطى.

تكمن قيمة الفن الذي قام كوميداس بتقديمه ليس فقط في الموسيقى الأرمنية بل في تطور موسيقى الشعوب الأخرى في الشرق. بل يمكن القول إنه من الأمور التي تتمتع بمكانة خاصة، هي الأطياف التي تتناول موقع الأغنية في حياة الشعوب. حيث كان كوميداس يصف عملية خلق الأغنية الشعبية مدركاً عمق حياة ونفسية القروي الأرمني، فيأخذ المتلقي إلى ميدان إبداع الشعب.

يملك كوميداس عدداً كبيراً من الأغاني (الفردية والجماعية) المبنية على أساس الأغاني الراقصة. فمن المعروف أن الأغاني الراقصة الشعبية القصيرة التي وزعها كوميداس منتشرة بين الشباب القرويين الأرمن. فخطوط الرقص تحمل روح الدعابة وأجواء الفرحة، فتشكلت سلسلة من الأغاني المميزة وهي: «الحبيبة شوغير»، و«خومار خاركي»، «اذهبي اذهبي»، و«لا يمكنني اللعب»..

فمما يميزها جميعاً: الرقة، وتناغم الحركة، رغم اختلاف بنيتها فهذه الأغاني تتلاقى في التناغم وفق طبيعة الرقصة.

فاستطاع كوميداس أن يعيد تأثير الآلات الإيقاعية الشعبية بشكل ساحر.

وهناك أيضاً أغنية «حبيبتي صونا» التي لها مكانة خاصة بين الأغاني من حيث انفرادها بطابعها كنشيد في حلقة رقص جماعية. ليس بسبب موضوع الأغنية الشعبية فقط، بل لأن الصورة الحقيقية باتت أغنى وأثرى بفضل فانتازية كوميداس، وخياله الواسع للتعبير عن الطرب الشعبي والرجولة. فهذه الأغنية الجماعية المعقدة التي تشكلت من ثمانية أغاني جماعية وأغنيتين منفردتين، سوبرانو وتينور، حيكت على موضوع بسيط لأغنية راقصة شعبية.

إن الإرث الموسيقي الذي خلفه الراهب كوميداس غني ومتنوع، وهو يشمل تقريباً مجالات الفن الموسيقي كافة بدءاً من التأليف، والغناء، والقيادة، وجمع الأغاني الشعبية، وتنقية الأغاني من التأثيرات الغربية، والدراسة الموسيقية، وأعمال لا تنتهي.

وأما عن الأغاني التي كتبها، وقام بتوزيعها، فهي تشمل أغاني قروية، وأغاني جماعية تتكلم عن الحب والشوق، وأغاني الغربة، وأغاني عن العمل، مثل الأناشيد، وأغاني خاصة بالحصاد، وأغاني طقسية تُعنى بأغاني الأعراس، وكذلك أغاني وطنية، وأخيراً أغاني، وترتيل دينية من القرون الوسطى، تم توزيعها بحس مرهف، وفن راقي. إضافة إلى ذلك يتمثل القداس الكوميداسي بالأصوات المتعددة كقيمة حقيقية يمكن أن تنافس أعمال موسيقيين عالميين.

فقد قال عنه ديمتري شوسداكوفيتش: «إن أعمال كوميداس في الموسيقى الأرمنية عظيمة جداً. لقد خرجت إبداعاته الجميلة عن حدود أرمينيا، وأضحت فخراً للثقافة الموسيقية العالمية. كوميداس ليس فقط مؤلفاً كبيراً، بل هو موسيقار معروف، وباحث في التراث ومن الصعب تقييم أعماله في هذا المجال. إن الموسيقيين ومتذوقي الموسيقى والشعب السوفييتي يحترمون ويقدسون ذكرى كوميداس. إن المؤلفين السوفييت الأرمن يتبعون في أعمالهم على خطى كوميداس العظيم. إن موسيقاه تعيش وستعيش إلى الأبد مع الموسيقى السوفيتية العظمى».

نجا كوميداس من الاعتقال والترحيل بفضل تدخل الأتراك. ولكن ما رآه من عذابات الأرمن خلال التهجير جعل توازنه النفسي يختل. فأمضى بقية حياته في المشافي في استنبول، وثم نقل إلى باريس عام ١٩١٩ حيث توفي عام ١٩٣٥، وبعد عام نقل

رفاته إلى يريفـــان ليرقد في مدفن العظماء «البانتيون».

في العـــام الماضي، احتفل العالم بالذكرى ال١٤٠ لـــولادة الموسيقـــار والملحن والقائد الموسيقـــي الأرمنـــي كوميداس، كمـــا أحيا عـــالم الموسيقيين هـــذا العـــام الذكرى ٧٥ لرحيله. وحرص الأرمن لإطلاق اسمه على مدارس وشـــوارع في يريفان، وهناك متحف خاص باسمه، كما يوجد تمثال له في إحدى الحدائق العامة في يريفـــان، مواجه المعهد العـــالي للموسيقى في يريفـــان الذي يسمى أيضاً باسمه.

«كوميداس»، اسم يرمز إلى شعب بأكمله بثقافته الغنية ومصيره الحزين. لقد اكتشف كوميداســـ الموسيقـــى والأغنيـــة التقليدية ونشرهـــا في أوروبة. فقد استطاع من خلال دراسة الأغنية الشعبيـــة الأرمنية والألحان الكنسية، واكتشـــاف المقام الأرمني ونظرية الأصوات، أن يبرهن وبشكل علمي وتحليلي أن الموسيقى الأرمنية لها هوية خاصة بها.

كمـــا تمكن مـــن إزاحـــة مـــا أشيع عن الموسيقى الأرمنية بأنها حزينة وباكية دائماً. بل أثبـــت أنها حيوية وفي داخلها هناك روح وفلسفة الشعب الأرمني.

لقد أدرك أن الموسيقى هي صدى لحياة الشعب وما بداخله، وهي عنصر فعال على طريـــق الوعـــي الوطني. وبفضـــل الخامة الصوتية التي كان يتمتع بها، أوصل فن أداء الأغنية الأرمنيـــة إلى مستوى عالي. وبذلك يمكن اعتباره مؤسس مدرسة الغناء الأرمنية. فصوته يوحي بكل ملامح شخصيته وملامح الأرمني في آن معاً، ففي تقلبات صوته يمكن الاستماع والإحساس بتاريخ الشعب الأرمني على مرّ القرون.

لقد أثبت كوميداس أن الموسيقى والأغنية الأرمنية لها نفس خصائص اللغة الأرمنية. ولذلـــك نجـــح في جمـــع الأغـــاني الريفية والتراثيـــة وصاغهـــا حيث تشـــكل الكلمات والألحان والموسيقى وحدة متكاملة.

ونختم بما قاله كوميداس في الموسيقى: «إن الموسيقـــى لهـــي ضرب مـــن الحركية، كالضـــوء والحـــرارة والكهربـــاء إلخ. وهذا أمر بسيط جداً، لأنـــه الموسيقى تتكون من الأصـــوات التي ليســـت إلا حركات أتت من الجـــو. ولذلك يجب أن نـــرى في الأغنية أو اللحـــن الحركية أولاً. وتلك الحركية تتوافق مع حركيـــة العـــالم الداخلـــي، أي المشاعر والاضطرابـــات. فحركات العـــالم الداخلي للإنسان هي نتيجة لحركات العالم الخارجي. وهكذا، تعدد البيئة يولد تعدد المشاعر وبما أن الموسيقى انعكاس للمشاعر فتظهر أمامنا بحزن وسعادة وسمو، وفق البيئة التي يعيش ويشعر وينتج فيها هذا الشعب».

الهوامش والمراجع

١- فارتانيان فارتان، «المسافر إلى الأبد»، بيروت، ١٩٩١، ص٢٨.
٢- كيفوركيان هرانت، «العيش مع كوميداس»، حلب، ١٩٩٣، ص١٥٣.
٣- سافاريان خاتشيك، «المبدع كوميداس»، يريفان، ١٩٩٩، ص١٢٢.
٤- كيفوركيان هرانت، «العيش مع كوميداس»، حلب، ١٩٩٣، ص١٤٨.

آفاق المعرفة

حلب في سيرة الملك الظاهر بِيبَرْس(١)

د. أحمد فوزي الهيب

كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن التراث اللامادي بعامة، وعن الأدب الشعبي بخاصة، ولقد أسعد الكثيرين ذلك، وهو – أي الأدب الشعبي الذي سنقصر حديثنا في هذا البحث عليه – الذي قد أبدعه مبدعون كثيرون في أزمنة وأمكنة كثيرة، وعبّروا به عن روح الشعب وأصالته وحيواته المتعددة وما يصبو إليه من الآمال والأماني.

أستاذ جامعي وباحث عربي سوري.

العمل الفني: الفنان عماد كسحوت.

وعلى الرغم من أنه – أي الأدب الشعبي – قد أشرع أجنحته في عوالم الخيال الفسيحة اللامتناهية، فحلقت في سماواته كما شاءت بلا قيود ولا حدود، فقد انطلق من حيوات الشعب وما فيها من أحداث ووقائع، وما انطلاقته في عوالم الخيال سوى تعبير عن رغبته في إعادة رسم التاريخ ورجالاته وصانعيه وأحداثه وصراعاته كما كانت تودّ طبقات الشعب العادية أن تكون، وهي التي اكتوت بنار تلك الأحداث والصراعات أكثر من غيرها، وسوى تعبير أيضًا عن رغبتها في انتصار الحق على الباطل، واندحار الشر أمام جحافل الخير، وفي أن يسود العدل والأمن ولو في الخيال طالما عزَّ تحققه في أرض الواقع.

لذلك من الضروري جدًا أن ندرس تاريخ الشخصية التاريخية، وهي هنا الملك الظاهر بيبرس، والتي انطلق منها الأدب الشعبي وصورها قبل الحديث عن السيرة نفسها، وذلك حتى نستطيع فهمها بعمق وشمول، ونصل إلى الغايات التي أراد رواتها وسامعوها أن يصلوا إليها.

ونجد ذلك في ما كتبته كتب التاريخ عنه مثل النجوم الزاهرة والبداية والنهاية وغيرهما، فهو السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس سلطان الديار المصرية والشامية والحجازية[٢]. وُلد عام ٦٢٠هـ[٣]، في صحراء القبجاق[٤]، والقبجاق قبيلة تركية عظيمة، طلبت عام ٦٤٠هـ من ملك أولان التركماني أن يجيرها من التتار الذين هددوها، ولكنه غدر بها فأغار عليها وقتل وسبى الكثير منها، وكان بيبرس فيمن أُسر، فبيع ونقل إلى بلاد السلطنة الأيوبية حيث اشتراه الأمير علاء الدين البندقدار، ثم انتقلت ملكيته إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤٤هـ[٥]، فجعله من مماليكه البحرية[٦]، وسرعان ما ظهرت مواهبه[٧]، فترقى في المناصب الرسمية واستمر في ذلك حتى غدا من كبار الأمراء[٨]، ومما يدل على ذلك أنه لما دخل القاهرة قبيل موقعة عين جالوت ركب السلطان الملك المظفر قطز لاستقباله، وأنزله في دار الوزارة وأقطعه قصبة قليوب[٩].

كان بيبرس شجاعًا طموحًا جدًا، وقد جعله ذلك يشارك في كثير من الأحداث المهمة وفي الحروب التي كانت تشبّ بين المماليك أنفسهم من جهة، وبينهم وبين أعدائهم من جهة أخرى[١٠]، فصار له شأن عظيم، وكان آخر هذه الأحداث المهمة التي أسهم فيها إسهامًا كبيرًا قبل أن يصل إلى السلطنة هو اشتراكه مع المظفر قطز في معركة عين جالوت في ٢٥ من رمضان

عام ٦٥٨هـ، والتي هُزم فيها المغول لأول مرة، وانتصر فيها المماليك عليهم انتصارًا كاسحًا[١١].

كان السلطان المظفر قطز قد وعد بيبرس من قبل أن يعيّنه نائبًا على حلب، ولكنه لم يفِ بوعده له خوفًا من اشتداد نفوذه، فحقد عليه بيبرس[١٢]، واتفق على قتله مع بعض أمراء المماليك، وسنحت له فرصة تحقيق ذلك قبل عودتهم مع جيشهم المنتصر إلى القاهرة[١٣]. وكانت هذه النقطةَ السوداءَ الوحيدةَ في تاريخه، ولكن الرجال والأمم لا يقاسون بالنقاط السوداء التي اقترفوها، وإنما يقاسون بالنقاط البيضاء التي صنعوها، ولقد حاول بيبرس أن يمحوها بأعماله الجليلة التي قام بها خير قيام بعد ذلك.

ومن البديهي بعد مقتل قطز أن تؤول السلطنة إلى قاتله ركن الدين بيبرس تبعًا للأعراف المملوكية السائدة آنذاك، وصعد إلى قلعة الجبل لتتم مراسيم استلامه للسلطنة رسميًا في ١٧ من ذي القعدة عام ٦٥٨هـ[١٤].

وعلى الرغم من أن بيبرس رابع سلاطين الدولة المملوكية الأولى[١٥] يُعد المؤسس الحقيقي لها، وذلك لما فعله من أعمال عظيمة في مختلف النواحي خلال مدة سلطنته التي امتدت قرابة عشرين عامًا[١٦] حتى وفاته في ٢٨ من المحرم عام ٦٧٦هـ بدمشق[١٧]، الأمر الذي جعله واحدًا من أعظم سلاطين المماليك قاطبة[١٨].

ولقد فصّل المؤرخون في القديم وفي الحديث من عرب وأجانب تأريخ أعماله العظيمة وملؤوا في ذلك الصفحات الكثيرة، الأمر الذي يدل على جدارته بالسلطنة، وعلى سبقه لكثير من سابقيه ولاحقيه من السلاطين المماليك، ويكفي الآن أن نشير إلى أنه استطاع أن يقضي على أعدائه في الداخل والخارج، أو أن يخمدهم بجيشه الذي عُني به عناية كبرى جعلته قويًا ومكنته من الانتصار على أعدائه، وأنه أقام علاقات طيبة مع معظم الدول المجاورة، وتميّز من جميع سلاطين عصره بحمايته للحرمين الشريفين، وبإحيائه للخلافة العباسية التي نقلها إلى القاهرة بعدما قضى عليها المغول في بغداد عام ٦٥٦هـ، وبأنه قد أصلح أحوال البلاد الاقتصادية والعلمية والأمنية، وبأن حدود سلطنته قد اتسعت حتى امتدت من أقصى بلاد النوبة جنوبًا حتى بلاد الشام شمالًا، ومن برقة غربًا حتى العراق شرقًا[١٩].

ولقد رسم الأدب صورة مشرقة له ولأعماله وإصلاحاته وانتصاراته في قصائد

كثيرة قالها أكبر شعراء عصره الذين أتوه من كل حدب وصوب مثل شهاب الدين محمود وعبد الله بن عمر الأنصاري ومحيي الدين بن عبد الظاهر وناصر الدين حسن بن النقيب الكناني وبدر الدين يوسف المهمندار ومحمد بن رضوان الناسخ وشمس الدين بن دانيال وأبو الحسين بن الجزار وغيرهم[٢٠].

ولم يكتف الأدب بما قال الشعراء في الملك الظاهر باللغة العربية الفصحى كما فعل مع غيره من الأبطال، وإنما أضاف إليه سيرة ملحمية نسجها الشعب باللغة المحكية تعبيرًا عن حبه له وإعجابه به، وسماها سيرة الملك الظاهر، وتعدُّ درةً كبرى في عقد الأدب الشعبي، أسهم فيها رواة شعبيون كثيرون، لم يحفظ التاريخ أسماءهم، ولكنهم عبروا بصدق عن ضمير الشعب الذي أحبّ الملك الظاهر حبًّا جمًّا، فتغنى بانتصاراته في مجالسه بالمقاهي والديوانيات وغيرها في المدن والقرى مازجًا بين الحقيقة والخيال، الأمر الذي جعل الظاهر بطلًا شعبيًّا أسطوريًّا قدوةً فضلًا عن أنه بطل تاريخيّ حقيقيّ، ولذلك اختلفت سيرته هذه

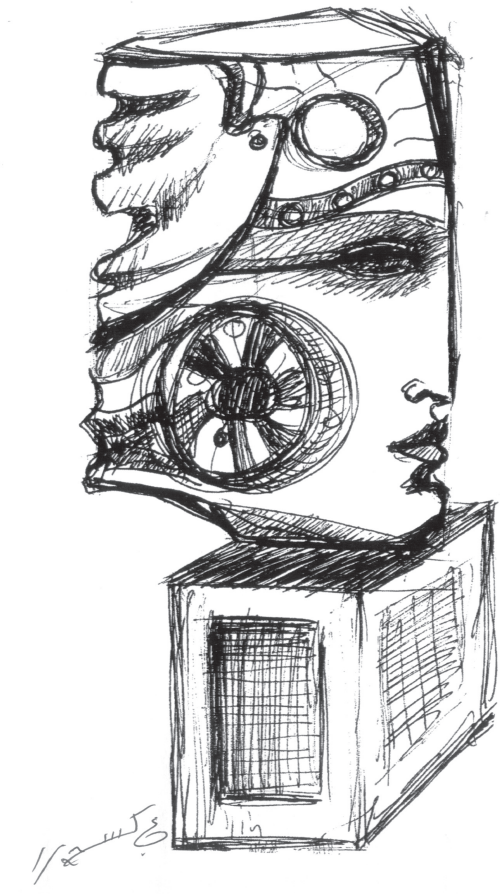

من قطر إلى قطر من حيث الحوادث ورسم الشخصيات والإيجاز والتفصيل وغير ذلك، إذ كان كل راوٍ من رواتها يضفي عليها كثيرًا من روحه ويضيف إليها كثيرًا من فنه[٢١].

وتعدُّ سيرة الملك الظاهر من أبرز السّير التي لما تزل راسخة في الذاكرة الشعبية العربية، وآخر ملاحمنا العربية الشعبية إبداعًا، وليس من اليسير تلخيصها لأنها

حلقات كثيرة تتزاحم فيها الوقائع والأحداث والمواقف والحروب والرجال والنساء في بلاد كثيرة واسعة قريبة وبعيدة. ومع ذلك فإنها تتسم بخصيصة هامة هي: سيرة بطل تاريخي ملحمي، هو: الظاهر بيبرس، يشاركه أبطال، يواجهون جميعاً عدواً جباراً يعاونه أنصاره، وقد تمثل بشخصية شريرة، هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، هي شخصية (جوان)[٢٢]. فالمعارك كلها إذن تقوم بين فريقين: الأول فريق العرب والمسلمين يتزعمه بيبرس من جهة، والثاني فريق الفرنج يتزعمه (جوان) ثم فريق المغول بقيادة (هلاوون) من جهة أخرى.

والسيرة تبدأ بالدولة الأيوبية، وتتوسع في أخبار الملك الصالح أيوب، لأنه الذي استقدم بيبرس الذي تسترسل السيرة في رسم خطوط صورته منذ نشأته، وتروى تآخيه مع الفداوية، ورضى الأولياء عنه، وتبنّي السيد البدويِّ له، وتظل تتعقبه جاعلة إياه محور الحوادث في مناصبه التي تولاها، وفي إيثاره للعدل والخير كما ينبغي أن يكون الحاكم في تصور الشعب، حتى استقر له الأمر في مصر والشام. والأحداث بعد ذلك كرٌّ وفرٌّ بين العرب والمسلمين من ناحية، والفرنج والمغول من ناحية أخرى، يتخللها منازعات بين الوحدات التي يتألف منها هذا الفريق أو ذاك، والنصر غالباً للعرب والمسلمين.

وقد طبعت سيرة الظاهر طبعات عدة، اطلعت على أربع منها، هي:

١- طبعة مصرية، صاحبها عبد الحميد أحمد حنفي بلا تاريخ، وهي في خمسة أجزاء.

٢- طبعة مصرية أخرى، صادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧، وهي مصورة عن نسخة قديمة قاهرية، طبعها عبد الرحمن محمد عام ١٩٢٦، وهي في خمسة أجزاء.

٣- طبعة دمشقية صادرة عن دار كرم بلا تاريخ، وهي موجزة في جزء واحد.

٤- طبعة دمشقية صادرة عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، تح: بوهاس وزخريا ٢٠٠٠-٢٠٠٣م في أربعة أجزاء[٢٣].

إن جوانب سيرة الملك الظاهر التي يمكن الحديث عنها كثيرة ثرية متنوعة، لا يمكن تناولها في بحث واحد، لذلك سنكتفي بالحديث عن جانب واحد منها، هو حلب الشهباء في سيرة الملك الظاهر بيبرس.

ولعل من الضروري قبل الحديث عن حلب في السيرة أن نشير إلى أنها كانت في الزمن الذي دارت فيه حوادث سيرة الملك الظاهر

بيبرس والذي بدأ بالملك الناصر صلاح الدين الأيوبي أمَّ البلاد مشحونة بالعلماء كما وصفها ابن خَلِّكان عندما زارها[٢٤]، ومما يدل على أهميتها قول صلاح الدين الأيوبي عندما فتحها: ما سررت بفتح قلعة أعظم سروراً من فتح مدينة حلب[٢٥].

جعل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر غازي ملكاً على حلب، فجدد عمارة قلعتها وحصن أسوارها، وضم إليه اللاذقية وجبلة، وساعد غيره من الملوك الأيوبيين في التصدي للصليبيين، كما عُني أيضاً بالإصلاحات الاقتصادية والعمرانية، واستقدم العلماء وبنى المدارس، الأمر الذي جعل حلب قبلة استقطبت أعلام الفكر والأدب والشعر من أنحاء العالم الإسلامي، فزادوها مع أمثالهم من أبنائها تألقاً وازدهارًا، ثم تابع مسيرته ابنه الملك العزيز محمد، ثم حفيده الملك الناصر يوسف الذي استطاع أن يضم إلى ملك حلب حمص ودمشق زمن سلطنة الملكة المملوكية شجر الدر في القاهرة، وكاد أن يستولي على مصر ويضمها إلى مملكته في حلب، ثم استقر الصلح بين الطرفين الأيوبي والمملوكي عام ٦٥١هـ على أن يكون نهر الأردن فاصلاً بينهما ، وبذلك كانت البداية الفعلية للدولة المملوكية[٢٦].

واستمرت أهمية حلب هذه زمن الملك الظاهر بيبرس في العصر المملوكي، وإن تراجعت قليلاً بسبب تحولها من مملكة أيوبية إلى نيابة تابعة للعاصمة القاهرة في مصر، ولكنها بقيت أكبر النيابات وأهمها، إذ اشتملت على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل في غيرها، وازدهرت فيها الحياة الاقتصادية (التجارية والصناعية والزراعية) والعمرانية (العسكرية والدينية والمدنية) والعلمية والأدبية، فجذبت كثيراً من أعلام العصر وعلمائه، فأتوها واتخذوها مستقراً ومقامًا[٢٧]. ولا شك في أن من عوامل النشاط الفكري والأدبي المهمة في حلب وجود أسر حلبية علمية توارث أبناؤها العلم والأدب جيلًا بعد جيل، مثل بني العديم وبني الشحنة وبني الخشاب وبني الحنبلي وغيرهم[٢٨].

وأما حلب في سيرة الملك الظاهر فنجدها - كما هي في الواقع - مدينة كبيرة حصينة ذات موقع استراتيجي مهم متميز تجاريًّا في السلم، ومتميز حربيًّا في أزمنة الحروب، الأمر الذي جعلها أهم مدن الثغور الصامدة الصابرة، هاجمها الأعداء من مغول وفرنجة كثيرًا، فصمدت في أكثر الأحيان، ودقت ناقوس الخطر وأنذرت العاصمة القاهرة وطلبت منها المدد والعون، فكانت بذلك خط الدفاع الأول للسلطنة

المملوكية من ناحيتها الشمالية الشرقية، لذلك ورد ذكرها كثيرًا ومطوّلًا مرات كثيرة في سيرة الملك الظاهر، كما اعترفت السيرة أيضًا بتميزها وبكبير حقها، وجعلتها سيدة المدن متسامية على عرش عزها التليد السعيد، وجعلت بقية المدن إماءً لها، فكثيرًا ما كانت السيرة تورد هذين البيتين من الشعر لدى ذكر حلب وعند وصول كتب نائبها إلى السلطان المملوكي، وهما:

حلب الشهباء قالت:
سائر المدْن عبيدي
أنا في تخت عزّي
بين سعد وسعيد

ولن نستطيع في هذا المقام أن نقف أو نشير إلى جميع المواطن التي ذكرت سيرة الملك الظاهر حلب لكثرتها، لذلك سنكتفي بذكر بعضها فقط على سبيل المثال لاالحصر.

- أراد ملك الموصل أيبك التركماني، وكان سيّئ السيرة والذكر، أن يستولي على القاهرة، فقاد جيشًا كبيرًا اتجه به إلى حلب البوابة الشمالية الشرقية للسلطنة، فلما اقترب من حلب حاصرها وأراد أن يستبيحها، فأغلقت أبوابها ودافعت عن نفسها وعن السلطنة وصمدت أمام جحافله، فلم يستطع أن يدخلها، وتدخلت قوى الغيب في الدفاع عنها، فابتُلي ملك الموصل بمرض عضال أعجز الأطباء، وفي الوقت نفسه أرسل نائب حلب عماد الدين أبو الخيش[٢٩] كتاباً يحمله رسول على جناح السرعة إلى السلطان بالقاهرة، وكان آنذاك السلطان الأيوبي الملك الصالح أيوب، يعلمه فيه بالأمر ليأخذ حذره ولينجده. ولعلنا إذا اطلعنا على مضمون الكتاب ندرك منزلة حلب في السيرة وما قامت به من دور مهم في ذلك الوقت العصيب، وهذا المقطع يوضح ذلك:

((قال الملك الصالح: من أنت؟ قال له: سيّار وحامل كتاب. قال له: ومن أين وإلى أين؟ قال له:

حلب الشهباء قالت
سائر المدْن عبيدي
أنا في تخت عزّي
بين سعد وسعيد

قال الملك: ما معك من الأخبار؟ أخرج كتاباً - ومما جاء فيه- ... من عند نائب حلب إلى بين أيادي أمير المؤمنين، اعلم يا أمير المؤمنين أننا مقيمون يوم تاريخ الكتاب وإذا بملك يقال له أيبك التركماني من أرض الموصل حطَّ على الأرض والبلاد فأغلقنا الأبواب في وجهه... فأرسلنا أربعة جواسيس يكشفوا[٣٠] لنا على الأخبار، فغابوا وعادوا

إلينا وقالوا: إنه يريد أرض مصر والشام، ومرامه السلطان وسائر بلاد الإسلام، فما استقر له النزول حتى خصّه الله بداء مهول، وابتلاه بمرض لا يعلم له دواء، وإنه الآن على حياض الموت، واشتد عليه المرض حتى إنه حارت فيه الأطباء، ثم سطّرنا لك هذا الكتاب، وأعلمناك بما كان من الخطاب... أرسل لنا جواب كافٍ نعتمد عليه من فضلك. والسلام على نبيٍّ تظلّله الغمام))[٣١].

- وأراد الملك المغولي القان (هلاوون بن منكتمر) الاعتداء على السلطنة الأيوبية، فأتى بجيش جرار يبلغ عدده اثنين وثمانين ألف مقاتل إلى حلب، فأغلق نائبها[٣٢] أبوابها ورماهم جندها بالمدافع وصمدوا إلى أن تأتيهم النجدة التي أرسلوا يطلبونها مع رسول من السلطان الأيوبي، فأنجدها بجيش يقوده بيبرس وانتصر على المغول بمعونة الفداوية الذين كان يقودهم المُقدَّم سليمان الجاموس.

- عاد المغول ثانية إلى حلب، فأنذرت العاصمة واستنجدت بها، ولكن المغول استطاعوا أن يدخلوها ويدخلوا حماة وحمص ودمشق، وأن يصلوا إلى غزة وهددوا مصر، فاجتمع المماليك بقيادة كبيرهم (قطز)، واستطاعوا أن ينتصروا عليهم انتصارًا مظفرًا في موقعة عين جالوت الشهيرة، وأن يحرروا حلب وغيرها من المدن، وأن يردوهم مدحورين من حيث أتوا.

- وبعد المعركة قتل بيبرسُ قطز لأنه لم يفِ له بوعد كان قد وعده به من قبل، وهو إعطاؤه نيابة حلب كما سبق ذكره، واختيار بيبرس لها ليكون نائبًا عليها دليل آخر على أهميتها وتفوّقها على غيرها من البلاد. ولكن السيرة الشعبية لم تذكر كيفية مقتله ولا من قتله واكتفت بإشارة عجلى وذكرٍ مقتضبٍ لمقتله، وذلك لأنها لم تشأ أن تعكر الصورة البيضاء الناصعة لبيبرس بطل السيرة.

- عاد هلاوون إلى حلب مرة أخرى يقود جيشاً عرمرمًا، بلغ تعداده مئة ألف بتحريض من (جوان) الذي ادعى أنه ترك النصرانية واعتنق المجوسية وعبادة النار، فأغلق نائب حلب الأبواب ونصب المنجنيقات وأرسل كتاباً إلى السلطان يعلمه ويستنجده، وفي الوقت نفسه رد على كتاب (هلاوون) الذي هدده وطلب منه أن يسلمه المدينة، نقول: رد عليه بكتاب أقوى منه، جاء فيه:

((من نائب أمير المؤمنين الملك الظاهر إلى (هلاوون) المغرور. اعلم أنك إذا عملت بآراء (جوان) فإن عاقبتك وخيمة جدًّا، وستعود جميع الأضرار على عساكرك، وبعدها خراب بلادك. أمّا أن نفتح لك

حلب فهذا بعيد عنك بُعد الأرض عن السماء، فإن أسوار حلب منيعة والمؤن فيها كثيرة، ومياهها غزيرة ورجالها موصوفون بالشجاعة والبطولة، فارجع إلى بلادك ولا ترم برجالك في حرب لا طاقة لكم بها. وقد أُعذَر من أنذر)).

وبدأت الحرب واشتدت، وأبلى جيش حلب وأهلوها البلاء الحسن، وكبّدوا العدو الخسائر الفادحة بالأرواح والأموال مدة عشرة أيام فتراجع الأعداء، ولكن المغول علموا باقتراب جيش الظاهر ففاجؤوه واستطاعوا أن يلحقوا به ضررًا كبيرًا، فارتدّ إلى معرّة النعمان وطلب النجدات من القاهرة ومن القبائل البدوية، كما أرسل إلى حلب يوصيها بالصمود، فصمدت حتى عاد إليها بالنجدات، وانتصر على ((هلاوون)) وقتله وأخذ الجزية من أبنائه، وبقي في حلب أسبوعين يحتفل بالنصر ويوزع الغنائم[٣٣].

- وأهمية حلب وتميزها جعلاها مطمعًا للغزاة، فلم يأتوا إليها من جهة الشرق فقط كما تقدم، وإنما أتوها أيضًا من جهات أخرى، فغزاها ((كرفوس)) ابن ملك أنطاكية الفرنجي ((الفرتماكوس)) بجيش جرار، فقاتله جيشها وأهلوها قتال الأبطال، وصمدوا صموداً قويًّا، وطلبوا النجدة من السلطان بيبرس، فأنجدهم بجيش جرار بسرعة فائقة جدًّا خوفًا من أن تسقط حلب، لأنها خط الدفاع الأول للسلطنة، وجرت معركة حامية الوطيس أمام أسوارها المنيعة انتهت بالانتصار المبين ومقتل قائد المعتدين ((كرفوس)) .

- وأتاها أيضاً ((عرنوس))[٣٤] وأمر جيشه بالنزول ونصب خيامه أمامها، فأمر نائبها عماد الدين جندها بالاستعداد، وأغلق أبوابها وحصن أبراجها ونصب المنجنيقات على أسوارها، وأرسل كتابًا إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس يحذره ويستنجده، وردَّ على كتاب ((عرنوس)) الذي قال فيه: ((اعلم أنني قاصد حرب السلطان، فإن انتصرت عليه تبق أنت على ما أنت عليه، وإن أسرني وغلبني أكن تحت حكمه. فالرأي عندي أن تفتح البلد وتدع الناس تبيع لعساكري وتشتري منهم، وأنا مسؤول وملزوم بكل شيء يفقد وأقوم بالتعويض حتى يأتي السلطان. فانظر ما ترى وأرسل إليَّ الجواب)).

فردّ عليه نائبها عماد الدين قائلاً: ((هذا لن يكون أبدًا، وإن هذا المكر والاحتيال لا يمشي على مثلي، فإن أردت القتال فنحن مستعدون، وإن أردت الرواح فارحل بسلام)).

إنه رد حاسم قوي سريع. ولم يقف الأمر على المراسلة والتهديد، وإنما كانت

ثمة معارك بين جيش حلب والغزاة منعت اقترابهم من أسوار حلب حتى وصل السلطان وجيوشه. وهذا إذا دل على شجاعة نائب حلب وقوته وإدراكه للمسؤولية وإخلاصه للسلطان الظاهر بيبرس، فإنه يدل في الوقت نفسه على قوة حلب ومنعتها وقوة جيشها وشجاعة أهلها التي اعتمد عليها النائب في رده هذا. ثم كانت حرب ضروس أمام أسوار حلب بين الطرفين أسفرت عن انتصار بيبرس انتصارًا مبينًا انتهى بأن عرف عرنوس أباه المقدم ((معروف)) وقصته مع أمه مريم بنت ملك جنوة التي أسلمت ثم سرقها الفرنجة وهي حامل في القدس، وكيف تمت إعادتها إلى بلادها وولادتها له وإخفاؤها له في دير العرانيس. وبعد ذلك أعلن عرنوس إسلامه ودخل معظم قواده وجيشه في الإسلام، وقد احتفل السلطان بنصره هذا في حلب وأقام فيها سبعة أيام، وبعد ذلك توجه الجميع إلى القاهرة[٣٥].

- هاجم عرنوس حلب ثانية على رأس جيش جرار يقوده سبعة ملوك، وساعده فيه ملك روما، وذلك بعدما اختلف مع بيبرس لأسباب يضيق المجال عن ذكرها الآن، فأغلق نائب حلب عماد الدين أبوابها ونصب على أسوارها المنجنيقات، وأرسل كتاباً إلى السلطان يخبره فيه بذلك، فأمر السلطان جيوشه بالتوجه إلى حلب لقتال الفرنجة، فسارت بهمة عالية للجهاد، وقد وصل خبر عصيان عرنوس إلى أبيه معروف، فقال: ((اللهم لا كفر بعد إيمان ولا ضلال بعد الهدى...))، ثم سار المقدم معروف إلى حلب[٣٦]...

- وهاجم حلب الملك رومان الأزرق ومعه جوان على رأس جيش كبير من الفرنجة، فثبتت حتى أنجدها بيبرس بجيش استطاع أن ينتصر عليهم في معركة عظيمة أمام أسوار حلب ويردهم خاسئين[٣٧].

- وكانت حلب المكان الذي اختاره مقدم عيّاق الفرنجة ((عزائير اليغروي)) الذي كانت تهابه جميع ملوك الفرنجة ليتحدى فيه السلطان بيبرس بتحريض من ((جوان)). والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا كانت حلب دون غيرها من المدن المملوكية مسرحاً لهذا التحدي وما بعده من معارك؟ نعتقد أنه أراد بذلك أن يُكسِب هذا التحدي أهمية وجلالاً وعظمة يستمدها مما تملكه حلب من هذه الصفات[٣٨].

- ولم تأت أهمية حلب من كونها خط الدفاع الشمالي الشرقي الأول للسلطنة فقط، وإنما أتت هذه الأهمية لأنها أيضاً محل استراتيجي مناسب لتجمع جيوش السلطنة الكثيرة العدد والعدة، والتي تحتاج

إلى مـكان واسع منبسط قادر على أن يؤمن لها الحماية اللازمة لها واحتياجاتها الكثيرة المتنوعة من طعام وعتاد وخيول وغير ذلك، وقد كانـت حلب مؤهلة لتقـوم بهذا الدور وتلبي هذه الاحتياجـات. لذلك أمر بيبرس جيوشـه أن تجتمع في أراضيهـا المنبسطة الواسعـة الغنية جيوشه الذاهبة لقتال ملك الانجبار[٣٩].

– صورت السيرةُ حلـبَ بوابةً للسلطنة المملوكية، وهي كذلـك تاريخيًّا، إذ صمدت أمام الأعـداء وحمت مـا وراءها من مدن السلطنـة مثـل حمـاة وحمص ودمشق والقدس وغزة ومصـر، وإذا استطاع العدو أن يكسرها سقطت باقـي نيابات السلطنة والسلطنة نفسهـا. ويبدو ذلك في حوار دار بـين عرنوس وجـوان عندما ظهـرت لهما مآذن حلـب الشامخة وأسوارها المنيعة، قال عرنوس: ما هذه المدينة؟ فأجابه جوان: إنها حلب الشهباء، إن أخذتها تأخذ بعدها حماة وحمص والشام والقدس وغزة وتملك مصر وأقطارهـا. وهذا يؤكد مـا ذهبنا إليه من أهميتها وقوتها[٤٠].

– ولهـذه الأهمية الكبرى لحلب نجد أن الملك الظاهر بيبرس كان حريصاً أشد الحرص علـى إصلاح أبراجهـا وأسوارها وصهاريج مياههـا وتعميق خندقهـا، وإقامة الأرصاد مسافـة ثلاثة أيام حولهـا، وملء حواصلها بالمؤن مهما بلغـت تكاليفها، والقضاء على اللصوص وتأمين الطـرق وإقامة العدل في أهلها، وعلى توصيـة شيوخ القبائل البدوية ليكونـوا مستعدين الاستعداد التام لنجدتها والدفـاع عنها حتى تصمد أمـام الأعداء، وذلك لأنها خط الدفاع الأول للسلطنة[٤١].

– ومن البديهـي أيضاً ألا تغيب منزلة حلب عـن القبائـل البدوية، فلمـا علمت شيوخها في الجزيرة والصحراء هجوم ملوك الفرنج بقيادة عرنوس عليها قالوا: ((يجب أن ننتصر لحلب ونخلصها من هذا الحصار ونساعد الملك الظاهر))، واتجهوا بجموعهم نحوهـا بأقصـى سرعة، وقامـوا بدورهم في تحقيق النصـر أفضل قيـام، فكافأهم السلطان على ذلـك وأعطاهم حصتهم من الغنائم، وأوصاهم أن يكونوا مستعدين دوماً لنجدتها[٤٢].

– ومثلما تجلّت أهمية حلب الاستراتيجية في السيرة زمن الحـروب، تجلت أيضاً زمن السلـم، إذ كانت مركزاً تجارياً مهمًا تمرُّ به القوافل المحملة بالبضائع المتنوعة والرقيق وغيره، وكان، ممـن مرّ بها، مملوكٌ مريض ضعيـف اسمه محمود، تنبأ لـه نائب حلب بمستقبل عظيـم، لأنه أفضـل رفاقه رغم مرضه وضعفه من جهـة وصحتهم وقوتهم

من جهة أخرى، هذا المملوك هو نفسه الذي غدا فيما بعد الملك الظاهر بيبرس صاحب هذه السيرة التي خلدته.

- وكذلك عندما بعث ملك المغول أبرهة بن هلاوون بالهدايا والجزية التي حمَلَها مئةُ بغل وحرَسَها خمسمئة فارس، وقفوا في حلب، لأنها بوابة السلطنة المملوكية، فاستضافهم نائبها عماد الدين وأرسل كتاباً إلى السلطان يعلمه بذلك، فأرسل إليهم من يأتي بهم إليه في القاهرة.

كلُّ ما تقدم من ذكرٍ متكرر لحلب في سيرة الملك الظاهر يدل على تميزها وأهميتها في كل من الحرب والسلم على حد سواء، وهذان أمران لم تخترعهما السيرة اختراعاً، وإنما استمدتهما من الواقع التاريخي لحلب في ذلك العصر، كما استمدت من التاريخ الواقعي أيضاً كثيراً من الحوادث والشخصيات مثل بيبرس وقطز والملك الصالح أيوب ومعروف الذي لما تزل ((كلته[٤٣])) معلقة على قنطرة باب أنطاكية الذي استشهد قربه وهو يدافع عنه بشجاعة أسطورية، ولما يزل قبره في مسجد قريب من مكان استشهاده يقع فيما يسمى اليوم بسوق الزرب بين باب أنطاكية والقلعة. ومن البديهي ألا ينفي هذا تطوير الخيال الشعبي لهذه الشخصيات والحوادث واختراع شخصيات وحوادث وأمكنة جديدة، وقد أدى هذا المزج بين الحقيقة والخيال أو بين الواقع والأسطورة إلى إعطاء السيرة الشعبية خصوصيتها وجمالياتها وأهدافها الثقافية والقومية والترفيهية وغيرها.

وأخيرًا إذا قال الأدب العربي الفصيح عن حلب على لسان أعظم شعرائه في الماضي المتنبي:

كلّما رحّبتْ بنا الروضُ قلنا:
حلبٌ قصْدُنا وأنتِ السبيلُ

وقال على لسان شاعر من أعظم شعرائه في العصر الحديث، هو الأخطل الصغير[٤٤]:

نفيتُ عنكَ العُلى والظرْف والأدبا
- وإنْ خُلِقتَ لها - إنْ لمْ تزرْ حلبا
لو ألّف المجد سِفْرًا عن مفاخره
لَراحَ يكتبُ في عنوانِه حبا

فقد قال الأدب الشعبي عنها في أعظم سِيَره وآخرها، وهي سيرة الملك الظاهر بيبرس:

حلبُ الشهباءُ قالت:
سائرُ المُدْن عبيدي
أنا في تَخْتِ عِزّي
بين سعد وسعيدِ

الهوامش

١- بكسر الباء الأولى وسكون الياء وفتح الباء الثانية وسكون الراء والسين، ومعناه بالتركية: أمير فهد. (النجوم الزاهرة ٩٤/٧ وتاج العروس ظ هـ ر). كما ضُبط بفتح الباء الأولى في الأعلام ودائرة المعارف الإسلامية من غير إشارة إلى مصدر. لذلك نرجح الضبط الأول.

٢- النجوم الزاهرة ٩٤/٧

٣- العبر في أخبار من غبر ٣٠٨/٥.

٤- تقع شمال بحر قزوين.

٥- النجوم الزاهرة ٩٥/٧-٩٦.

٦- نسبة إلى بحر النيل. (العصر المماليكي٥).

٧- دائرة المعارف الإسلامية ٤٨٦/٨.

٨- سمط النجوم العوالي ١٨/٤.

٩- النجوم الزاهرة ١٠١/٧.

١٠- دائرة المعارف الإسلامية ٤٨٦/٨-٤٨٧.

١١- البداية والنهاية ٢٣٤/٧.

١٢- دولة الظاهر بيبرس في مصر ٤١.

١٣- النجوم الزاهرة ١٠١/٧-١٠٢

١٤- المصدر السابق ١٠٢.

١٥- بدائع الزهور ٣٠٨/١.

١٦- النجوم الزاهرة ١٧٧/٧.

١٧- العبر في خبر من غبر ٣٠٨/٥.

١٨- تاريخ المماليك البحرية ٤٨.

١٩- يُنظر على سبيل المثال النجوم الزاهرة ١٩٠/٧ ودائرة المعارف الإسلامية ٤٨٧/٨ وما بعدها وكتاب دولة الملك الظاهر بيبرس في مصر.

٢٠- يُنظر بحثا المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. المجلد ٧٥ عام ٢٠٠٠ الجزء ٢ ص ٢٥٩-٢٩٠.

٢١- وذلك لأن السّيرة الشعبية في أصلها ليست قصة تُقرأ على انفراد، وإنما هي رواية طويلة تؤدى في مجالس كثيرة، وهذا الأداء له تقاليده التي تتوافق مع التقاليد الفنية للجماعة الشعبية، ولهذا تتنوع صور الأداء وفق تباين أحوال المجتمعات الشعبية العربية، ومن ثم نجد صورًا عدة من الأداء ترتكز على الإلقاء المسرحي، بينما تضيف صور ثانية من الأداء العزف على الرباب والغناء المنفرد، وتتوسع ثالثة في العزف والغناء مكوّنة فرقة متعددة الآلات والأدوار. وهذا يرجع إلى وجود محترفين متفرغين لعملية الأداء، كانوا يلقون السّير الشعبية على الناس، وأُطلق على الواحد منهم اسم الحكواتي أو المحدّث أو الشاعر، ويبدو أنهم كانوا يقرؤون من كتب بعامة، أو على الأقل يرجعون إليها، ولم يكن هؤلاء الرواة المنشدون لهذه السير مغنين ملهمين فحسب، بل كانوا أيضا معلمين ملهمين للشعب مدركين لدورهم ولواجباتهم في تعليم

الطبقات الشعبية، وفي تجميل وتحسين حال الإنسان الشعبي بإعادة بناء الحياة ذاتها، ولو خياليًّا أو فنيًّا، كما يتمنى أن تكون، شأنهم في ذلك شأن معلمي النخبة أو الصفوة وفنانيها.

٢٢- أكبر الشخصيات الشريرة في السيرة، جاسوس للصليبيين ومعين لهم بدهائه ومكره وعلمه وتعصبه الأعمى الذي لا يرتوي إلا بإشعال الفتن والحروب وإلحاق الهزيمة بالمسلمين، وقد تتكر حينًا بشخصية قاضٍ مسلم اسمه صلاح الدين، وتقابله في جانب الخير شخصية الظاهر بيبرس التي تمثل المعادل الموضوعي أمامها. (أضواء على السير الشعبية ٩٠-٩١).

٢٣- على الرغم من أن الطبعات الثلاث الأولى تختلف عن الرابعة بأنها شعبية، إلا أنها- أي الطبعات الأربع جميعها- تشترك معاً في أنها لا تحقيق فيها على الإطلاق، ولا تمحيص للأخبار والأحداث والأعلام، ولكنها مع ذلك مهمة لأنها الوحيدة من جهة، ولأنها تعطي صورة صادقة للأدب الشعبي من جهة أخرى.

٢٤- وفيات الأعيان ٤٨/٧.

٢٥- البداية والنهاية ٣٣٥/١٢.

٢٦- يُنظر كتابنا الحركة الشعرية في حلب زمن الأيوبيين ٢١وما بعدها.

٢٧- يُنظر كتابنا الحركة الشعرية في حلب زمن المماليك ٢٧ وما بعدها.

٢٨- المرجع السابق ١٥.

٢٩- نقول: لعله أبو الجيش.

٣٠- كذا ورد. وحافظنا على النص بما فيه من أخطاء نحوية، وذلك لأنه باللهجة العامية، ولن نشير إلى ذلك ثانية.

٣١- سيرة الملك الظاهر ، الطبعة المصرية ١/ ٥٠- ٥١.

٣٢- تسميه السيرة أحيانًا: الباشا.

٣٣- سيرة الملك الظاهر،الطبعة الدمشقية ص٣١٣- ٣١٦.

٣٤- هو ابن المقدم معروف الجمري من امرأته مريم بنت ملك جنوة، ولكنه لم يعرف ذلك في بداية الأمر، وكان يعتقد أنه ابن مغلوين الفرنجي ملك البرتغال

٣٥- سيرة الملك الظاهر،الطبعة الدمشقية ص٢٢٠- ١٢٦.

٣٦- سيرة الملك الظاهر،الطبعة الدمشقية ص ٢٥٤-٢٦٠.

٣٧- سيرة الملك الظاهر،الطبعة الدمشقية ص٣٠٥.

٣٨- سيرة الملك الظاهر،الطبعة الدمشقية ص٢٩٨.

٣٩- سيرة الملك الظاهر،الطبعة الدمشقية ص١٨٣.

٤٠- سيرة الملك الظاهر،الطبعة الدمشقية ص٢١٩.

٤١- سيرة الملك الظاهر،الطبعة الدمشقية ص٢٦٠.

٤٢- سيرة الملك الظاهر،الطبعة الدمشقية ص٢٧٠.

٤٣- هي كرة كبيرة ثقيلة من الحديد، تتصل بها سلاسل تنتهي كل منها بكرة حديدية أصغر، وتتصل الكرة الكبيرة بسلسلة حديدية قوية، كان يقاتل بها القائد البطل المقدم معروف الجمري، ولا يستطيع ذلك غيره لثقلها ولقوته.

٤٤- بشارة الخوري ت ١٩٦٨.

المصادر والمراجع

- أضواء على السير الشعبية. فاروق خورشيد. المكتبة الثقافية. مصر ١٩٦٤.
- البداية والنهاية. ابن كثير. تح أبو ملحم ورفاقه. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٥.
- بدائـــع الزهور في وقائع الدهور. ابن إياس. تح محمـــد مصطفى. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٢.
- تاريخ المماليك البحرية. علي إبراهيم حسن. مكتبة النهضة المصرية. مصر ١٩٦٧.
- دائرة المعارف الإسلامية. إعداد خورشيد وزميليه. القاهرة. طبعة دار الشعب.
- دولة الملك الظاهر بيبرس في مصر. محمد حمال الدين سرور. دار الفكر العربي. مصر ١٩٦٠.
- الحركة الشعرية في حلب زمن الأيوبيين. أحمد فوزي الهيب. جامعة حلب ٢٠٠٦.
- الحركة الشعرية في حلب زمن الأيوبيين. أحمد فوزي الهيب. جامعة حلب ٢٠٠٦.
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. العصامي. المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٨٠هـ.
- سيرة الملك الظاهر بيبرس. ولها عدة طبعات، منها:

١- طبعة مصرية. صاحبها عبد الحميد أحمد حنفي بلا تاريخ، وهي في خمسة أجزاء.

٢- طبعة دمشقية صادرة عن دار كرم بلا تاريخ، وهي موجزة في جزء واحد.

- العبر في خبر من غبر. الذهبي. تحص لاج الدين المنجد. وزارة الإرشاد. الكويت ١٩٦٦.
- العصر المماليكي في مصر والشام. سعيد عبد الفتاح عاشور. دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٧٦.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ابن تغري بردي. وزارة الثقافة. القاهرة ١٩٦٣.
- وفيات الأعيان. ابن خلكان. تح إحسان عباس. دار صادر. بيروت ١٩٦٨.

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. المجلد ٧٥ عام ٢٠٠٠ الجزء ٢.

آفاق المعرفة

هل العلم يخدم العدالة

المحامي هائل منيب اليوسفي

بتاريخ ١٩٩٧/٩/٢٥ حاول رجال الموساد الإسرائيلي اغتيال رئيس المكتب السياسي في حركة حماس المجاهد خالد مشعل وسط شوارع عمان عن طريق اعتراضه وحقنه بعقار كيميائي غامض ولاذوا بالفرار وتركوا وراءهم خالد مشعل يتخبط في حشرجة الموت وكان من المؤكد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة من دون أن يعلم به أحد لولا عناية المولى ومسارعة بعض مرافقيه إلى إسعافه عن طريق إعطائه المصل المضاد (الترياق) الذي كان سراً كيميائياً

عضو الرابطة السورية للطب الشرعي.

أيضــاً ولا يعرفه إلا الذيــن يعرفون العقار الأول وكان للملك حسين وقتها الدور الكبير في إجبار سلطات الاحتلال الإسرائيلية على فكك رموز العقار الذي حقنوه به من ضمن صفقــة سياسية كبــيرة لا مجال للخوض في تفاصيلها الآن.

وعلى غــرار ما فعله (الموساد) مع خالد مشعل هناك من يقول إن طريقة وفاة ياسر عرفات ليســت بعيدة عن أسلــوب الموساد بوسائل كيميائية لا تــترك أثراً وراءها يدل على فاعلها لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار قــدرة جهاز الموساد علــى الاختراق الأمني الذي راح ضحيته العشرات من الشهداء كان في عدادهم على سبيل المثال وليس الحصر الشيــخ أحمد ياسين، جهــاد جبريل، يحيى عياش... وآخرون من حيث اعتماد العقاقير أو اعتماد أسلوب التفجير.

ومنذ أيــام قليلــة شغلت العــالم بأسره قضيــة محمــود المبحوح الذي بــدت وفاته طبيعيــة من دون مداخلة جرمية لولا يقظة بعض مرافقيه للشهيــد المبحوح وانفجرت علــى أثرهــا فضيحة أمنية كــبرى لا تزال أصداؤها تصــم الآذان في كل مكان وما إن بدأت تهدأ موجات فضيحة الشهيد المبحوح حتى انفجرت فضيحة أخــرى أكبر وأوسع وأبعــد أثراً مــن كل الفضائح الأخرى وهي ارتكاب الجرائم بأحدث التقنيات عبر أجهزة الهاتف الخليوي سواء من حيث التنصت أو زرع الأرقام في أجهــزة هواتف الآخرين أو تفجيرها... أمور لا تصدق.

وعــلَ أبرز مثــال في استخدام التقنيات الحديثة المتطــورة في ارتكاب الجريمة كان مقتل رفيــق الحريري ولم يحســم التحقيق أمره بعد في معرفة وسائل ارتكاب الجريمة حتى الآن. تارة يقولون سيارة مفخخة وتارة أخــرى عبوة ناسفة تحــت الأرض وآخر ما سمعنــاه هــو ما نشرتــه إحــدى الصحف الروسية المعروفة باتزانها وقربها من صناع القــرار مــن أن قتل الحريــري تم بواسطة صاروخ موجه جو –أرض متطور جداً تملكه دولتان في العالم ألمانيا وإسرائيل فقط.

المهم في هــذا الاستطراد هو ما سمعناه شخصياً من أحد الشهود [1] في ملف الحريري والذي وقع في قبضة الفريق المحقق (ديتلف ميليس) وأعوانه في منتجع (مونت فيردي)[2] حــين طلب منه الإدلاء بالإفادة التي لقنوها له وهددوه إذا امتنع أنهم سيحقنوه بالعقاقير التــي تجعله أن يقول مــا يريدونه وبتحمل تبعات كل النتائج الطبية السيئة وما تلحقه به مــن هذيان وضعف أعصــاب، ثم تمكن هذا الشاهد الشهم من الهرب من قبضتهم ودخل الحدود السورية آمناً وبقية الأحداث معروفة.

إذاً التقنيات المتطورة بما فيها العقاقير

والمستحضرات الكيميائية تصنع الشهود.. تصنع الإفادات.. تقيم الأدلة.. تطمس الأدلة، تغير مجرى التحقيق وبالتالي تصنع الجريمة وتصنع النتائج أيضاً سواء كانت براءة أو إدانة.. هذا أمر مخيف حقاً.

لأبدأ الحديث عن العقاقير تاريخياً وأن يكون للحديث امتداد وصلة إن قصة العقاقير المؤثرة على العقل والإرادة قصة قديمة، لعل الكحول من أقدم أنواعها، وقد قال الرومان قديماً تكمن الحقيقة في الخمر.

وإلى جانب المواد الكحولية توجد المخدرات المختلفة كالحشيش والكوكايين والمسكالين وإذا كانت هذه العقاقير قد أريد بها لأحيان كثيرة أن تؤدي إلى كشف خبايا النفوس، فإن التعبير الملفت للنظر «مصل الحقيقة» لم يسمع لأول مرة إلا في سنة ١٩٣٢ عندما استعمل كالفين جودارد عقار السكوبولامين من مشتقات الأتروبين كمهدئ في حالة الوضع.[٢]

وقد سبق للدكتور هاوس في سنة ١٩١٦ أن لفت النظر إلى خواص هذا العقار إذ كان يستعمله في حالة ولادة وطلب شيئاً من الزوج فردت الزوجة وأخبرته بمكانه على الرغم أنها كانت تحت تأثير المخدر لم تعرف الوضع قد تم.

وقال إنه يحصل بعد ذلك في الحالات المماثلة على إجابات صحيحة أدت به إلى الاعتقاد بأن هذا المخدر يفقد القدرة على الاختلاق وتغيير الحقيقة.

ولكن علماء آخرين لم يشاركوا هاوس تأكيده وأشاروا إلى حالات كذب وعلى أنه إذا كان من السهل الحصول على اعترافات تافهة فإن مقاومة النائم تظل شديدة إزاء الاعترافات الهامة وإن كان الأمر يختلف باختلاف الشخصية.

ثم جاء استعمال الباربيتورات في التخدير، ومنها الأمتيال والإفيبان والمعروف أن كمية بسيطة منها تؤدي إلى التهدئة وأن كمية أكبر تحدث التخدير، في حين تؤدي الكميات الكبيرة إلى الغيبوبة والموت.

وتستعمل هذه المواد في التحليل النفسي بدل الالتجاء إلى الطريقة المطولة في التحليل وهي طريقة تداعي المعاني، وخاصة بالنسبة للصدمات النفسية كالتي تحدث للجنود في ميدان القتال، ومن ثم أجريت التجارب لاستعمالها في التحقيقات، واختلفت نتائج التجارب اختلافاً كبيراً، فبينما يذهب البعض إلى أنه حصل على اعترافات كاملة يذهب بعض آخر إلى أن الشخص الذي يصمم على عدم الافضاء لايفضي تحت تأثير المخدر ولعل هذا الاختلاف مرجعه اختلاف أثر العقار باختلاف الأشخاص واختلاف الظروف.

ولكن القدر المتيقن في هذا الخصوص

هو أن هذه العقاقير تؤثر على تحكم الإنسان في إرادته قليلاً أو كثيراً وتجعله أكثر قابلية للإيحاء والانقياد وأكثر رغبة في المصارحة والإفضاء، وإذا لم يأت الاعتراف صريحاً فإن الاستجواب خليق تحت تأثير المخدر بأن يوقع الشخص في التناقض والخلط.

وعلى أية حال فإن البنتوتال هو أشهر هذه العقاقير التي استعملت كمصل حقيقة، وقد استعمل في قضية هامة في فرنسا شغلت الأذهان وأثارت الجدل.

وكانت البداية في نوفمبر ١٩٤٥ عندما ألقي القبض على فرنسي بتهمة التعاون مع الأعداء أثناء الاحتلال الألماني، ولم ينطق المتهم بحرف منذ القبض عليه، ولما كان قد أصيب برصاصة في رأسه في سنة ١٩٤٣ فقد أحاله قاضي التحقيق للفحص الطبي الشرعي.

وفي ديسمبر ١٩٤٦ قرر الأطباء الثلاثة الذين فحصوه أنه مصاب بالبكم وليس متصنع، وفي عام ١٩٤٧ عاد قاضي التحقيق وانتدب الأساتذة هوير ولافاستين وجنيل بيران لفحصه للبت فيما إذا كان المتهم مصاباً بحالة بكم عضوية أو هيستيرية أو أنه متصنع وفي استطاعته الإجابة، واستعمل الخبراء الثلاثة عقار البنتوتال وسألوه وهو تحت تأثير العقار فأجاب بكلمة نعم، ثم أخذ يتكلم وإن كان ذلك في صعوبة ظاهرة، ولكنه بعد يومين كان يتكلم بوضوح كاف، وأقر بأنه كان يدرب نفسه على النطق منذ أشهر وهو في السجن ولكنه خشي أن يتكلم أمام قاضي التحقيق بطريقته غير الطبيعية حتى لا يتهم بالإدعاء، وعلى ذلك قرر الخبراء الثلاثة أن حالة البكم غير قائمة أو أنها قاربت الشفاء.

وقامت على الأثر ضجة كبرى في المحافل العلمية والقضائية وثارت ثائرة الصحافة والرأي العام.

وقرر مجلس نقابة المحامين في باريس أنه يعتبر استعمال التحليل العقاري سواء في الخبرة الشرعية أو لاستخلاص أقوال المتهم في أي إجراءات التحقيق انتهاكاً لحق الدفاع.

وقررت الأكاديمية الطبية الفرنسية عدم جواز الالتجاء إلى التحاليل العقاري في خبرة قضائية بقصد التشخيص أو لاستمداد المعلومات.

بل إن المتهم رفع دعوى جنحة مباشرة على الأطباء الثلاثة يتهمهم بإحداث جرح به عند (ثقب الإبرة لدى إعطائه المصل) وأنه أفشوا سر المهنة بنقل المعلومات التي أفضى بها قاضي التحقيق، ولكن محكمة السين /تحت رئاسة القاضي دور كايم/ قضت ببراءتهم على أساس أن الجرح التافه قد أجري بقصد التشخيص الطبي وأن

الأطباء لم يكونوا معالجين بل خبراء علهم أن يقدموا للقاضي المعلومات المتصلة بالمهمة الموكلة إليهم.

وقد أدت هذه الفضيحة إلى إحالة المتهم مرة ثالثة إلى لجنة من ثلاثة أطباء آخرين لإعادة فحصه، وقد قرروا أن حالة الأفيزيا تحسنت ولكن إصابة المتهم خطيرة بحيث تجعله عاجزاً عن الدفاع عن نفسه كما يجب ويتعين إخلاء سبيله طبياً، وفعلاً تأجلت المحاكمة إلى أجل غير مسمى وأطلق سراحه.

وقد كان التيار كله –سواء بين العلماء أو غيرهم– متجهاً إلى الثورة على هذه الوسيلة واستعمالها في التحقيق والاستجواب، حتى الأطباء الثلاثة (هوير ولافاستين وبيران) أعلنوا أنهم لا يقرون مطلقاً إباحة هذه الوسيلة في الاستجواب وأنهم ما التجؤوا إليها إلا كوسيلة تشخيص في خبرة طبية شرعية لا كوسيلة استجواب. وقد أثيرت للاستدلال على بطلان الالتجاء إلى التحليلي الدوائي في الاستجواب عبارات قانونية قوية، أولاها حق الإنسان الطبيعي المطلق في سلامة شخصه.. جسمه وعقله، وخاصة إزاء أي إجراء يقلل من تملكه لزمام إرادته وبطلان كاعتراف أو دليل يستمد عن طريق الإكراه بأي صورة من صوره، وحق المتهم في الصمت، أي حقه في أن لا يرغم على إدانة نفسه بالنطق حيث تستدعي مصلحته في الدفاع عن نفسه ألا يتكلم.

بل إن الأستاذ (جارسون) وتبعه الكثيرون وصف الوسيلة صراحة بأنها تعذيب يعود بنا إلى العصور الوسطى، وأننا إذا كنا لا نقبل اليوم إنزال العذاب بالمتهم حتى يقر، فإن (عقلية التعذيب) ما تزال قائمة ماثلة من وراء الالتجاء إلى هذه الوسيلة الجهنمية.

ومن حق الصمت تنشق حرية المتهم في الكذب، وقد لا نميل إلى القول بأن الكذب حق لأنه نقيضه من الوجهة الخلقية، ولكنه حرية فعلية أو رخصة للمتهم، ولا شك أن للمحقق.. بل عليه أن يعمل على كشف أكاذيب المتهم، ولكن إذا كان من حقه أن يفضح هذه الأكاذيب فليس من حقه أن يخنق قوة المتهم العقلية أو إرادته.

هذه الإرادة التي تستطيع ولا نقول يحق لها أن تكذب من دون أن ينالها القانون بشيء.

ولكن موضع الخلاف الحقيقي كان في شرعية استخدام التحليل العقاري والخبرة الطبية الشرعية، مثل تشخيص البكم كما في حالة الفرنسي السابق بيانها.

يذهب فريق إلى أن التحليل العقاري يجوز استعماله بقصد التشخيص ولمعرفة ما إذا كانت الحالة عضوية أو نفسية أو تصنعاً أو بقصد الحصول على أقوال

واعترافات، وإذا حدث من المتهم الإفضاء بشيء فإن الطبيب ملتزم بواجب المحافظة على أسرار المهنة ولا يستطيع أن ينقل شيئاً إلى القاضي فيما عدا ما يتصل بالحالة المراد تشخيصها، ويضيف هذا الفريق إلى ذلك أنه لا يحسن الالتجاء إلى هذه الوسيلة إلا عند الضرورة وبحال فشل كل وسيلة أخرى، وإن من حق المتهم دائماً أن يرفض هذه الوسيلة.

ولا يرى أنصار هذا الرأي أن التصنع حق الحرية للمتهم يتعين المحافظة عليها، فإن كان المتهم يلجأ أحياناً إلى أخبث الوسائل للتصنع والتضليل فليس من الإنصاف حرمان العدالة من الاستعانة بالخبرة لفضح تصنعه وتضليله، ولا يختلف الالتجاء إلى التحليل العقاري عندئذ عن الالتجاء إلى أخذ عينة من الدم لفحصها أو استعمال جهاز قياس الموجات الكهربائية للمخ أو الدق على الجسم لاختبار الأعصاب.

ولكن أغلب الرأي يتجه إلى عدم جواز استخدام التحليل العقاري في الطب الشرعي فالتصنع بادئ ذي بدء نوع من الكذب، كذب يتصل بحاله وهو حرية للمتهم أمام القاضي وأمام الخبير، وليس معنى ذلك أنه ليس للخبير أن يكتشف التصنع بالفحص والملاحظة، ولكن ليس له أن يهدم قدرة المتهم على التصنع، وعليه أن يقف عند حد العلاقات والدلالات، ولهذا فلا محل للمقارنة هنا مع فحص الانعكاسات العصبية أو تحليل الدم، إذ في هذه الحالات ومثلها يقف الفحص عند حدود العلامات من دون تجهم على إرادة المتهم أو محاولة تعطيلها.

هم يرون أن استخدام التحليل العقاري في الطب الشرعي جدير دائماً بأن ينزلق من التشخيص إلى انتزاع المعلومات والاعترافات، كما تؤكد ذلك القضية الفرنسية، وبهذا نصبح أمام «مصل الحقيقة» الذي يخل بكل حقوق الإنسان ألا يؤدي هذا الإجراء إلى إقرار المتهم بتصنعه؟ ألا يعني ذلك أنه تحت ستار تشخيص التصنع يتدخل الخبير لانتزاع اعتراف من المتهم بتصنعه.

أما المسألة الثانية التي ثار فيها النظر فهي حالة ما إذا وافق المتهم على تخديره واستجوابه تحت المخدر أو طلب ذلك.

ويرى بعضهم أنه لا يوجد مانع قانوني من تخدير المتهم واستجوابه إذا طلب هو ذلك لإظهار براءته، بل إنه من الظلم أن يرفض طلب للمتهم قد يحقق له فائدة، ويذكر بندر أن التحليل العقاري استعمل في إحدى القضايا إذ جمد فيها عند مرحلة تكافأت عندها كفتا البراءة والإدانة.

وكان المتهم مصراً على أنه كان بعيداً عن مكان الحادث ليلة وقوعه، ورأت النيابة

استجوابه تحت تأثير المخدر فوافق على ذلك، وظل تحت تأثير المخدر مصراً على أقواله، وترتب على ذلك حفظ القضية.

ونحن نرى أن يمتد حظر استخدام هذه الوسيلة مهما كان الغرض ومهما كانت الظروف، إن التخدير أخطر وسيلة يمكن أن تتسرب إلى قاعة التحقيق، والسماح بها مهما أحاطت بذلك الضمانات معناه التعرض لكل الآثار البليغة التي تنجم عن إساءة الاستعمال، إذا أبحنا استعمال التحليل العقاري بموافقة المتهم، أفلا يسيء إلى مركزه أن يرفض؟ أو لا يكون في ذلك إكراه جعله يخضع لهذه الوسيلة؟ وإذا اشتد حرصنا فحتمنا أن يكون ذلك بناء على طلبه، فما هو الخط الفاصل بين الموافقة والطلب؟ ألا يتصور عند ذلك التحايل والادعاء بأن المتهم هو الذي طلب، في حين أنه لم يصدر منه سوى الموافقة على ما طلب إليه؟ أما ما يقال من أن هناك تخديراً لمصلحة المتهم لا يجوز حرمانه منه فلا نظن أن هناك شيئاً من هذا، إن هناك دائماً احتمالاً أن يعترف المتهم أو يسيء إلى مركزه أو يشي بنفسه عن واقعة أخرى أو يختلط عليه الأمر فيمزج الحقيقة بالخيال وينطق بخرافة قد تؤخذ عليه.

ومن ناحية أخرى فإن هناك عدداً من الناس لا يتأثرون بهذا المخدر، فهل يكون في مصلحة العدالة أن يصروا على الإنكار وتخرج صحائفهم بيضاء في حين أنهم هم مذنبون.

لقد قلب العلم ميزان العدالة التي كانت تمسك به امرأة معصوبة العينين ووضعه في يد صانع التقنيات والعقاقير.

الهوامش

(٩) هسام هسام.

(٢) مركز البحوث الجنائية في القاهرة.

الفندق الذي اتخذته لجنة التحقيق مقراً لها في بيروت.

مصادر البحث:

١- الحقوق الجزائية العامة للدكتور عبد الوهاب حومد.
٢- مجلة المعهد القومي للبحوث الجنائية للدكتور أحمد محمد خليفة. القاهرة عام ١٩٥٨.
٣- ملف التحقيق في اغتيال الحريري وسماع أقوال الشهود (المحامي الوكيل).

آفاق المعرفة

الثورة المعرفية الكونية والصورة الافتراضية المترتبة عن مجتمع المعلوماتية

د. منير سويداني ❁

مما لاشك فيــه أن التغيرات الكبيرة والهائلة للثــورة المعرفية الكونية – العلمية والتقنية – والمتجددة يوما بعد يوم بسرعة كسرعة العمليات الرقمية أو التقنيات الرقمية الجديدة، أو بمعنى آخر سرعة الدخول إلى ذلك العصر الرقمــي، وما أفرزته ثــورة الاتصالات والمعلومات وما نتــج عنها من صور اجتزائيــة افتراضية تبرز حقيقة أبرز مفردات البنى التحتية لمظاهر مجتمع المعلوماتية والتقنيات والحاسبات الآلية والعصر الرقمي. وكان لتلك التغيرات

❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

أشد الأثر في النظام الدولي الجديد، وامتدت تأثيراتها على العالم ككل بعد ثورة الاتصالات والمعلومات سواء في مشهده ونظامه أو في قواه أو في مفاهيمه وأدواته ووسائطه.

ويوما بعد آخر تتعاظم أهمية الشبكة الدولية «الإنترنت» ودورها المتزايد في إحداث تغييرات جذرية في المعارف المكتسبة للأفراد والتي تنعكس بالضرورة على مفاصل الحياة في شتى صورها وحلقاتها ومستوياتها، فتبرز واضحة جلية في مفردات البنى التحتية لبعض مظاهر الوعي والتطور والارتقاء. ومما لاشك فيه أن الإنترنت تفتح لنا أبوابا وسياقات على الدنيا لا يمكن تصورها وتأطيرها للوهلة الأولى.. فهل تعلم أنك تستطيع وأنت تجلس أمام شاشة الكمبيوتر، وبعد أن يأوي كثير من الناس إلى فراشهم، أن تنظر إلى حصيلة زمنية تتجاوز آلاف السنين من التطوير العلمي والهندسي والمعلوماتي؟.. نعم، إنها الإنترنت توصلك إلى حيث لا تستطيع أن تصل في «تلك اللحظة»، وتقطع بك المسافة خلال ثوان، لن أطيل في هذا المجال فنحن بتنا في عصر التواصل الإنساني القائم على مجموعة من التحولات المتسارعة والمتنامية والمؤثرة على الأطر الهيكلية المتدفقة من ثورة المعلوماتية وتأثيراتها المشهودة في جميع المجالات وفي مختلف المراحل سواء ما تعلق منها بالزمان أو بالمعنى والهوية أو بالواقع والحقيقة أو بالعمل والتقنية.

وفي عصر متعدد اللغات والمجالات، متراكب الأنظمة والمستويات، إذ هو متسارع بقدر ما هو إلكتروني، وهو رقمي بقدر ما هو تقني وأخيرا وخاصة فهو كوكبي لأنه يصدع الحواجز بين الدول والمجتمعات، بقدر ما يفتح الحدود بين البشر، ليس فقط الاقتصادية والمالية، بل أيضا المعرفية والرمزية والخلقية والأمنية، الأمر الذي يحول الكرة الأرضية إلى سوق مالية واحدة وإلى قرية إعلامية مشتركة، ولاشك أيضا أن لهذا التغير في نمط الإنتاج والاتصال والتداول، كما يتمثل في الانتقال من الإنتاج الميكانيكي والسلع الثقيلة إلى الإنتاج الإلكتروني والسلع الافتراضية، إنما يترك أثره القوي على مختلف وجوده النشاط البشري كما على بنية الثقافة ومنتجاتها وعلى مكانة النخب الثقافية ومهماتها.

وفي ضوء هذا التغير في المشهد العالمي الذي يتحول بصورة جذرية وهائلة، وقد يمكن اعتبار العولمة مجرد إمبريالية معاصرة أو ليبرالية جديدة أو هيمنة أمريكية، وبالتالي الانتقال إلى تعظيم السوق بمختلف توجهاته أو تسليع الثقافة والعقول، وبالتالي

تفرض علينا متطلبات جديدة، تتراءى أمامنا حتمية التعامل مع العولمة مفردة وظاهرة، بصفتها ثمرة الطفرات والانفجارات والتحولات المتسارعة التي تضع المجتمعات البشرية أمام التحديات الجسيمة والخطيرة، ومواجهة أبرز التداعيات الناتجة عن ذلك النظام الدولي الجديد. والدخول إلى ذلك العصر الرقمي وفق متطلبات حاجتنا الوطنية الأساسية واستخلاص أبرز ما ينتج عن تلك التحولات الاقتصادية والتقنية وأبرز ما يتعلق بمجتمع المعلوماتية، والتوافق المنهجي المترافق مع جملة الأسس وطبيعة التغييرات لمسايرة ذلك التطور الحاصل من هذا الجانب والتي من أبرزها وما يهمنا في هذه المرحلة هو الاقتصاد المعرفي والسبل الكفيلة والمهيئة للانتقال إليه والاستفادة من جوانبه كافة.

ننتقل إلى جانب آخر وهو الدخول في العصر الإعلامي الجديد، حيث نشأت معطيات جديدة تغيرت معها صناعة الرأي العام بقدر ما تغير شكل المصداقية والمشروعية السياسية، حيث لم يعد الكتاب أو النواب وحدهم يصنعون الرأي العام أو يمثلونه، وإنما أصبح الإعلام المرئي بقنواته وشبكاته وبرامجه ورجالاته وصوره يسهم أيضا في صناعة المشهد وفي تشكيل الفضاء العمومي الذي لم يعد حكرا على الساسة والمثقفين والدعاة، إنما أصبح مجالا تداوليا، بوسع الفاعلين الاجتماعيين على اختلاف قطاعاتهم وحقول عملهم، أن يساهموا في تشكيله وتوسيعه بالمداخلات عبر المناظرات التلفزيونية والمناقشات العلنية التي تطور أسلوب التطلعات الديمقراطية القائمة في أي دولة في العالم.

وبالانتقال إلى ناحية تطوير التقنيات المعلوماتية الجديدة فإن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل لابد من حمايتها وصياغتها وفق رؤانا وما يناسبنا منها بشكل لا يتعارض مع خصوصيتنا وذاتيتنا ومواقفنا من هذا النظام الدولي وتأثيراته على اقتصادنا، من هنا يجب التطوير الدائم لأنظمة التقنيات المعلوماتية ومن ثم حمايتها والتي تتلخص في أبرز ما يلي:

- شبكات البيانات والمعلومات والاتصالات.
- أنظمة الشبكات الكهربائية.
- أنظمة الغاز الطبيعي والنفط والخزن الاستراتيجي.
- أنظمة المواصلات بمختلف أنواعها.
- أنظمة خدمات الطوارئ.
- أنظمة الخدمات الحكومية المختلفة.

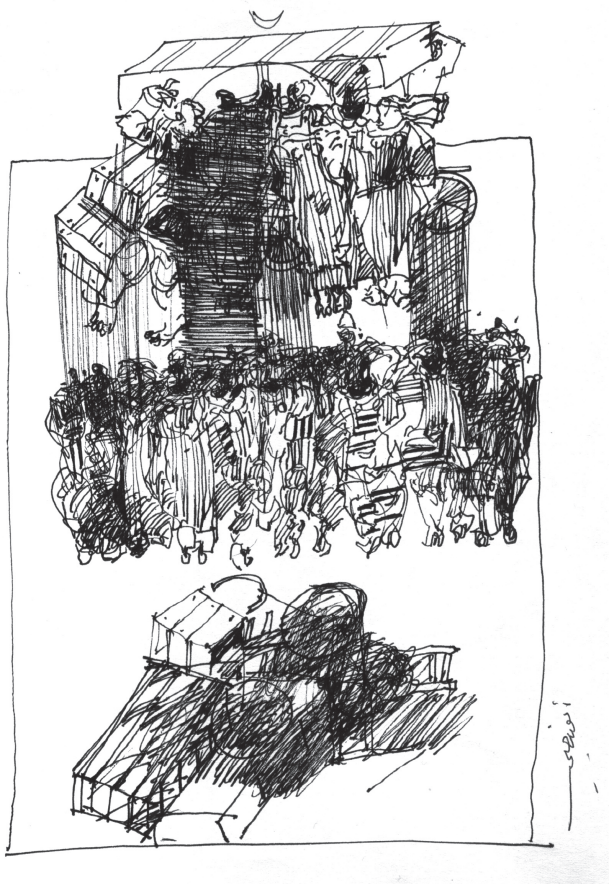

الاستيعاب الأيديولوجي

والسؤال المحوري الذي ينبغي طرحه بالنسبة لتكنولوجيات المعلوماتية والثورة المعرفية الكونية، المعاصرة والمستقبلية هو: هل تفتح هذه التكنولوجيات باب الفردوس أمام الإنسانية بأسرها؟، حيث يتاح للبشر لأول مرة الاتصال بين بعضهم البعض بطريقة مباشرة، دون حدود وقيود، وبغض النظر عن تنوع أعراقهم وأجناسهم ومعتقداتهم ومواقعهم وطبائعهم، وتعدد ثقافاتهم، بالإضافة إلى انفتاح أبوب المعرفة أمامهم بكل فروعها وقنواتها وأدواتها ؟.. أم إن هذه التكنولوجيات التي يشيع استخدمها في البلدان المتقدمة ستوسع الهوة بين الشمال والجنوب ؟.. بل وبين القادرين على الاتصال في المجتمع الواحد نفسه وغير القادرين، وتصبح بالتالي كما لو كانت جحيما مرفوضا. إن المتابع للتراث العلمي الخاص بعصر المعلوماتية الكوني من السهل عليه أن يرصد ظاهرة الاستيعاب الأيدلوجي - إن صح التعبير- بين المتفائلين والمتشائمين، وفيما يلي تلخيص مكثف للحجج التي يستندون إليها:

- يتوقع في عالم المستقبل أن يصبح بمثابة سوق للمعلومات يستطيع فيه الناس، من خلال حواسبهم الآلية، أن يشتروا وأن يبيعوا المعلومات، وأن يتشاركوا في الوصول إليها. وستتعدد الاستخدامات لهذه المعلومات في

مجالات التجـارة والصحة والتعليم والإدارة والأنشطة الحكوميـة، وفي مجالات الترفيه المتنوعة، مما سيؤثر على الأنشطة والمجتمع والتاريخ.

- إن سرعـة التطـور في تكنولوجيـا المعلومات والاتصال مـن شأنها أن تتحدى العقـل الإنساني لكي يفكـر بطريقة أفضل وأسـرع، لكـي يصبح أكثر معرفـة وفعالية وإنتاجية، وهـذا في حد ذاتـه سيؤدي إلى التوزيـع العادل للـثروة الكونيـة في سياق اقتصاد يقوم على الرخاء في القرن الجديد، حيث تربط تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المجتمعات ببعضها البعض، وبذلك ستختفي مشكلة مـن يملكون ومن لايملكون في مجال الثروة والاتصال والمعرفة معا.

- مثلما أدى تطور الطباعة في منتصف القـرن الخامـس عشر إلى إضفـاء الطابع الديمقراطي على المعرفة، فإن تكنولوجيات المعلومات والاتصالات ستسرع من سيطرتنا علـى المعرفـة، ذلـك أن الثـورة المعرفية الكونيـة، من خـلال هـذه التكنولوجيات، تحمل في طياتها الوعد بالقضاء على العزلة في العـالم، بفعل سيل المعلومـات وغزارتها، ومن شأنهـا أن تجعل البلدان النامية تحرق المراحـل المكلفة من عمليـة التنمية، وتركز جهود العقل الإنساني المعولم لحل المشكلات الحادة.

- ويمكن أن تصبح فكرة الحرية العالمية مـن خلال الاتصـال والحوار عـبر مشكلة الإنترنـت حقيقـة في المستقبـل. ذلـك أن الاتصالات بين الأفـراد المتباعدين مكانيا قد تحل محـل وسائل الإعـلام المسموعة، بالإضافـة إلى الإمكانيـات الهائلة لممارسة حريـة التفكير وحرية التعبـير. لقد أعطت تكنولوجيات المعلومـات والاتصالات القوة للناس، وهـم بالفعل يستخدمونها والشاهد على ذلك أن أجيال الشباب تستثمر بقوة في الإنترنت من غير أن يتوفر لهم تمويل ضخم، ولكنهم يعتمدون على المعرفة والإبداع.

- تقدم شبكة الإنترنت إمكانيات لنشوء ثقافة تقوم على التسامح، ولعلها أيضا تسهم في إشاعة الديمقراطية في المجتمعات، وإعادة قيمة الإحساس بالمشاركة في المجتمع. وفي الوقـت الذي تشاهد فيـه مجتمعات محلية تقليدية تتسم بالجمود، فإن ما يطلق عليها المجتمعـات المفترضـة والمجتمعات المتصلة ببعضهـا عن طريق شبكة الإنترنت في حالة نمو سريع.

- هنـاك توقعـات بـأن الديمقراطية ستتسع دوائرهـا في العقود القليلة القادمة وسيمارسها الناس علـى شتى اختلافاتهم.

ولا شك - في نظر المتفائلين - أن تكنولوجيات المعلوماتية والاتصالات لديها الإمكانية والقدرة على إعادة إحياء القيم الديمقراطية، وإضفائها على المؤسسات السياسية، ذلك أنها تستطيع أن تربط بين الناس وتزيد من تمكينهم داخل كل مجتمع على حدة، وعلى مستوى العالم أجمع كما لم يحدث من قبل، وهي تقدم إمكانيات الاتصال التفاعلي الخلاق لمصادر المعلومات ومراكز اتخاذ القرار، حيث يمكن المشاركة في المعلومات بغير تكاليف مالية، وكل هذا سيعطي الإمكانية لمعرفة المعلومات والبدائل المختلفة، مما سيحسن من عملية اتخاذ القرار. وهناك مؤشرات على أنه في المستقبل فإن فكرة النظام يمكن أن تتبع من النسق الاجتماعي ذاته.

- من شأن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أن تقضي على حواجز الزمان والمكان، ومن شأن ذلك أن يغير الطريقة التي نعيش بها، مما يرفع من مستوى الوعي الاجتماعي في العالم . وهناك توقعات بأن تكنولوجيات المعلومات والاتصالات ستنفذ إلى كل مجالات الحياة، وستصبح هي مع مرور الزمن الأداة الرئيسية للتغيير الاجتماعي.

- هناك نهضة الآن في مجال الترجمة الآلية، وفي ضوئها تستطيع تكنولوجيات المعلومات والاتصالات أن تقضي على الحواجز بين لغات العالم، وتشجع الحوار الثقافي بين الناس على مستوى العالم كله. أن من شأنها - يقول المتفائلون - أن تحسن من نوعية الحياة على المستوى الكوني، حيث سيتاح حتى للمناطق البعيدة أو الهامشية أن تصل لمراكز المعلومات الصحية والخدمية، وكذلك الاستفادة من شكل وسائل التعليم عن بعد، وحتى التمتع بإمكانيات الترويج ويستطيع الناس باستخدامهم شبكة الإنترنيت أن يعملوا وهم داخل بيوتهم لحساب أي مشروع أو شركة في العالم. وقد أصبحت هذه الممارسات واقعا بالفعل، أو على العكس قد تشجعهم على مغادرة المدن، والسكن في مناطق ريفية، ومعنى ذلك اتساع دائرة المراكز الريفية على حساب المراكز الحضرية.

مما سبق تلخيصا عن حجج المتفائلين بالإنجازات والمكاسب الخارقة التي ستقدمها تكنولوجيات المعلومات والاتصالات الجديدة. ولعله حان الآن إثارة السؤال الرئيسي: ما هي موضوعية هذه الحجج؟.. أول ملاحظة نقدية نقدمها أننا ضد المنطق الذي يذهب - في الموضوعات

المهمة الخلاقة – إلى إبراز كل الجوانب الإيجابية وإخفاء الجوانب السلبية. فهذا التحيز المسبق للتطور التكنولوجي المبهر الذي حدث في تكنولوجيات المعلومات والاتصالات من شأنه أن يخفي حقيقة السلبيات التي لا بد أن تصاحب أي تطور تكنولوجي جديد.

ولنأخذ على سبيل المثال ما يذهب إليه المتفائلون بأنه ستنشأ في المستقبل سوق عالمية للمعلومات يستطيع الناس من خلالها ممارسة البيع والشراء، والحصول على معلومات في مجالات الصحة والتعليم، ويمكن القول إن هناك مؤشرات على بداية تخلق السوق العالمية، لعل الإحصاءات الخاصة بالتزايد الضخم في معدلات التجارة الإلكترونية يؤكد ذلك، ولكن من هم المتعاملون في هذا المجال ؟ هم في الواقع الشركات التجارية ورجال الأعمال والاقتصاديون الذين لا يمثلون أي مجتمع سوى شريحة صغيرة، ولكن ماذا عن باقي الشرائح في المجتمع وخصوصا شرائح الطبقات المتوسطة والفقيرة، والذين لا يستطيعون حتى الآن – بحكم ضآلة الإمكانيات المالية والاقتصادية – استخدام التكنولوجيات الجديدة في مجال المعلومات والاتصالات؟..

وإذا نظرنا إلى الصورة الوردية التي يقدمها المتفائلون عن أن تكنولوجيات المعلومات والاتصالات ستؤدي إلى التوزيع العادل للثروة الكونية في سياق اقتصاد يقوم على الرخاء، فهي صورة أبعد ما تكون من الحقيقة. ذلك أن كل المؤشرات الاقتصادية تشير إلى أن العولمة – في ضوء ممارساتها الراهنة – قد أدت إلى اتساع دوائر الفقر وزيادة عدد الفقراء حتى في الدول المتقدمة ذاتها، وتبدو مشكلة الفقر في الوقت الراهن مشكلة عالمية، احتار في حلها خبراء الاقتصاد والاجتماع، وتعدد البرامج الدولية والإقليمية والمحلية لمواجهتها بطريقة فعالة، ومن ناحية أخرى، يمكن القول أن ما يذهب إليه المتفائلون من أن تكنولوجيات المعلومات والاتصالات الجديدة من شأنها أن تؤثر تأثيرا عميقا على المعرفة الإنسانية من حيث التعمق وسرعة تراكم المعرفة فهو صحيح تماما. ذلك أن الأبحاث التي أجريت على الإنترنت تؤكد أن شبكة المعلومات العالمية وما تقدمه من معلومات يمكن تحويلها إلى معرفة، ستخلق أنواعا جديدة من الباحثين ذوي العقلية الموسوعية، بحكم تعدد وتنوع مصادر المعرفة المختلفة التي تنتمي إلى فروع علمية شتى، ونشرها على شبكة الإنترنت، مما يسمح للباحث باكتساب

نظرة شاملة لدراسة الظواهر المختلفة. ومن شأنها هذا أن يقضي على الظاهرة السلبية المتعلقة بتفتت المعرفة، والتي أدى إليها تيار التخصص العلمي الدقيق.

وفي تقديرنا أيضا أن الصورة المتفائلة صحيحة فيما يتعلق بأن القرن الواحد والعشرين سيشهد أوسع حوار للحضارات شهده التاريخ الإنساني، فلأول مرة يتاح لكل ثقافات العالم أن تعرض نفسها على شبكة الانترنيت بأعماقها التاريخية وتنوعاتها وآدابها وفنونها ومعرفتها العلمية. ليس ذلك فقط بل أن المثقفين والباحثين الذين ينتمون إلى ثقافات متعددة يستطيعون لأول مرة أن يتصلوا ببعضهم البعض اتصالا مباشرا لا قيود فيه ولا حدود. ولا شك أن تطور برامج الترجمة الآلية للغات من شأنه أن يدفع حوار الحضارات إلى مسارات ثقافة غير مسبوقة.

آفاق المعرفة

الإبداع الفنّي.. وبناء التاريخ

اسكندر نعمة ❁

يفقد التاريخ معناه، من دون أن تندمج في مسيرته الكبرى، جزئيّات الحياة والفن معاً، لتصبحا كلاً مترابطاً ترابطاً عضويّاً، يكمّل أحدُهما الآخر. فالحياة من دون الفن هياكل محنطة، لا تحمل في طيّاتها رونقاً ولا عطاءً إنسانياً.. وكذلك فالتاريخ من دونهما مسيرة فارغة، تدخل في حساب التعداد والأرقام والتكرار من دون أن يكون لها مذاق فكريّ وجمالي يبعث النكهة في أوصالها..

❁ كاتب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

إنّ الحضارة بمختلف أعماقها وألوانها، والشعر والفنــون الجميلة والقصة والرواية والمسرح. إن هي إلاّ جزئيّات أساسيّة مكوّنة للفن في مشهده الواســع العريض. والحياة مــن دون أن تشتجــر فيها هــذه الجزئيّات تبقى بناءً خلبيّاً. وأخيراً لا يبقى للتاريخ الإنساني أيُّ معنىً من دون هذا كلّه.. فأيُّ مصير ينتظر الإنسان عندما ينزع عنه ذلك القناع الآدمي بألوانه الفنيّة والفكريّة؟!

هــل يمكن للإنســان المعاصــر أن يحيا مــن دون أدب وموسيقــى وفنــون جميلة؟؟ وأيُّ مطامــح تبقى له وقــد ترنّحت معظم الإيديولوجيات واختلطت في عالمها الأوراق وتبعثرت؟؟ أيُّ معنــىً يبقى للإنسان عندما يتحــوّل إلى آلــةٍ خرســاء مقطوعــة عــن كل مبــادرة فنيّــة وفكرية؟؟. ومــاذا ينفع الجماعات البشرية إذ تتحــوّل حسب رؤية نيتشه إلى قطعــان منزوعة الإرادة والتطلع والرغبة؟؟.

لقــد أصبح مــن المؤكد عــبر العصور التاريخية مهما أوغلت في القِدم وحتى اليوم. أن لا شيءَ يعبّر عن حقيقة الإنسان وجوهره الدّفــين أكثر مــن ممارسة ضــروب الفنون الجمالية والفكرية علــى مختلف صنوفها. فهي المساعــد الأوحد لتخليص الإنسان أيّاً كان وأينما كان مــن جهله وغبائه الفطري. وهي العامل الرئيس في نجــاة الإنسان من وطأة التعصّب والتّقهقر والعنصرية والعودة إلى الحالة الحيوانية.. كما أنها تشكّل عصا النجاة التي تتكئ عليها المجموعات البشرية للتطلّع إلى آفاق إنسانية أرحب، بما تهيّئهُ من ظروف إيجابيةٍ مواتية للحصول على دروس وحالات معرفيّــة مستمدة من التاريخ العام والخاصــ.. فتتعمّق آنــذاك إنسانيةُ الفرد التي تميّزه لينجو من ربقة قيود الأرقام التي تحدّد حياته، ومن عبث الكلمات الفظّة التي تنخر ضميره وأعصابه، ومن جميع الوسائل المدمِّرة التي تهدّد مصيرَه..

لأجــل ذلــك، فــإن جميــع دور النشر ومؤسّســات الثقافة والمعرفــة، مدعوّة إلى الاعتنــاء المعمّق في تكريس الناحية الفكرية الجماليــة والفنيّــة، كي لا تغــدو أعمالها أنشطــة باهتة محنّطة. بل عليها أن تخوض غمــار السّبــاق في نشر المعرفــة الإنسانية وإيصالها إلى الجماهير الواسعة، عبر وسائل الفن والجمال بكل سعته ومرادفاته..

على دور النشــر وكل مؤسّسات الثقافة أن تقدم لقرّائها وإلى كل أجيال الناشئة من طالبي المعرفة، ما يؤكد أهميّة الذوق الفني. كما عليهــا أن تسعى بعمــق وجدية لإحياء الثقافة والمعرفــة القديمة ضمن إطار الفن الحياتــي الواعد بمستقبــل أفضل. وذلك

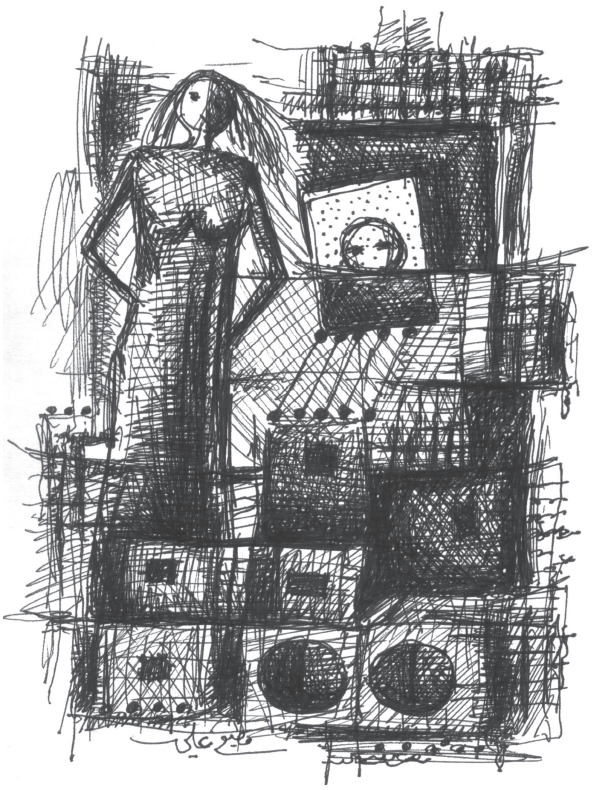

من خـــلال التأكيد على أن كل ثقافة ومعرفة لا ترتبط بمحور التاريـــخ وحركيّتـــه وصيرورته المتصاعـــدة، هي معرفة باطلة مـــن أساسها، وتعيش في الوهم والعدميّة، لأنّهـــا لا تنفع حياة الإنســـان ومسيرتـــه البنّاءة في قليل أو كثير. إذ ليس من منطق الفن بكل اتساعه وضروبه، ولا من منطـــق التاريـــخ ومسيرته أن يظل الفعـــل الثقافي نشاطاً منفصلاً عـــن أهداف الإنسان الـــذي يتوق أبـــداً إلى السعادة والاستقرار، وإلى تحقيق أفراح وهناء الجســـد والروح.. لذلك فإن تدريب الإنسان والناشئين خاصـــة على تـــذوّق المنجـــزات والعطاءات الإبداعية والفنية من خلال ربطها بمراحل التاريـــخ الكـــوني، هـــو ضرورة كبـــيرة جداً ونشاطٌ أساسي لابدَّ منه. وتظل هذه المهمة والمسألـــة الكبـــيرة في رأســـ قائمة حاجات الإنســـان الذي يبتغي دومـــاً المحافظة على كينونته الإنسانيـــة وفحواها الدّفين. وذلك بإخلاصـــه لذاته وانفتاحه بـــلا تردّد على تراث الشعوب القديمة وطروحات الشعوب المعاصرة، بكل ما تملك من مواقف وكيانات متباينة وهويّات حضارية مختلفة..

في عودة متأنية، ودراسة لبعض نصوص الأدب القـــديم، نقع علـــى نصوصٍ متميزة منطوية علـــى إحساس وذوق رفيع، سواء ما كان منهـــا ينبض بحياة مصر الفرعونية، أو حيـــاة مجتمعات سومر وآكاد وفارس. عبوراً إلى كتابات وأغاني الهند والصين. أو ما هو مـــن صميم التراث الإغريقي اللاتيني الذي شاع وانتشر قبل ميلاد السيد المسيح..

إن القــارئ والدارس لمثــل هذا التراث العالمــي القــديم يجــد نصوصــاً منسوبة إلى ملحمــة جلجامش، وزرادشــت، وبوذا، وكونفوشيوســ، وهوميروس، وهيراقليطس، وفيثاغورث، وأوفيــد.. كل هذه النصوص، وكثير غيرها، يرسم لنا الملامح لأهمِّ تحوّلات الفن الشعري القديم والتأمّل الكوني، حيث يتضــح للدّارس أن الفــن والأدب حمل في طيّاتــه ملامح الفوارق بين الشعوب. إذ عبّر كل أدب عــن سمات الشعب الذي أبدع هذا الأدب والفــن. ومن خلالــه نلمس الفوارق الاجتماعيــة والإنسانيــة بــين الفراعنــة والصينيــين والهنود والفرســ والإغريق.. ففــي كل أدب تــبرز الخصائصــ والميزات الخاصة بشعب أو أمة أو أي تكوين اجتماعي بشري. وهذا بــدوره مساهمــة مهمة جداً في بنــاء التاريخ وإعطائــه سماته المرحلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية..

إن مــن يغوص في أعماق تلك النصوص الفنية الجميلة، يتّضح لديه، أن لا سبيل إلى كل متوهّــج ومدهش وجميــل وعبقري، إلا إذا توفّرت الأصالــة الإبداعية التي تهدف أولاً وآخــراً إلى تكــريم الإنسان ووضعهِ في إطــار الحيــاة الكريمة، ونشله مــن أزماته الروحية والعقليــة والحياتية. ولا سبيل إلى حيــاة إنسانيــة حديثة، ولا سبيــل إلى بناء تاريخ كوني عامــر بالإيجابيّات، من غير أن تنفذ النصوصــ إلى جوهر الحياة والأشياء والكائنات لتؤسس بدايات الحياة الإنسانية ذات الخصائصــ الجماليــة والفكرية التي تلوّنُ حياة الصغــار والكبار على حدٍّ سواء، وهذا بدوره من جهــة أخرى يشكل عناصر صياغة التاريخ الإنساني وبنائه..

إن تلك الكتابات الإبداعية على اختلاف منابعهــا وتوجهاتها ما هي إلاّ تعبير خالص عن مواقف تأملية وتجارب فردية وجماعية. كما إنها الصورة الحافظة والمخلِّدَةَ لما ضاع وتشتّت من صنائع تاريخية عبر قرونٍ وأجيال متلاحقــة.. إن فعل الكتابة والإبداع الفني، أهمُّ إنجاز بشري في تاريخ الكون. وكل شيء لا ينســاب من أطراف عبــاءَة الكتابة يظلُّ هبــاءً منثوراً وأثراً ضائعــاً. وكلُّ حضارة لا تحدُّهــا الحروف والكلمــات التي تغزو بها عقل الإنسان، تظلّ بدورها ضحيّة الإهمال والتّلاشي..

إن الإبداع الحق ما هو إلا انفتاح معرفي إنساني، وغرسٍ ثقافي، على الرغم من عمق الفروقات والمتناقضات في التجارب البشرية. وهذا بدوره يدعونــا للاعتقاد الراسخ، أنه لا سبيــل إلى الإبداع الأصيــل إلا إذا وضع المبُدع الإنسانَ في خطّته وأهدافه. متسلحاً

بالصّـــدق الفني والإخلاص لـــرؤى الإنسان ومستقبلـــه، والتعبير بمهـــارة وحذقٍ عن كل ما يرتبـــط بالإنسان مـــن خواطر وتأملات وتطلّعات، ما يعترضه من مسائل اجتماعية وذاتية..

مـــن دون ذلك، لا يمكن للعمل الإبداعي والفني أن يغـــدو أصيلاً، بل يظل ضرباً من ضروب اللهـــو والعبث والتكـــرار المرفوض، وتقليداً فجّاً عاجزاً عـــن الدخول إلى قلب المجتمع وبناء التاريخ..

آفاق المعرفة

حقيقة الأكوان المتوازية

موسى ديب الخوري

سيناريوهات العوالم المتوازية

إن كوننـــا على اتساعه ليس سوى جزء بسيط من بنية كونية أكثر اتساعاً وتعقيـــداً، بـــل ليس ســـوى عينة من جمهرة مـــن العوالم الأخـــرى. ولم تنفك السينمـــا وأدب الخيـــال العلمي يعملان في استثمار هـــذه الأفكار الحديثة. لكـــن بعيداً عن الخيال العلمي، يبدو أن هذه الأفكار تصبح أكثر فأكثر جدية في الفيزيـــاء والكوزمولوجيا، مما ينعكس أيضاً علـــى الأفلام نفسها. فعلى

باحث ومترجم سوري

سبيل المثال، في الفيلم الفرنسي «تدخين/ عدم التدخين» للمخرج الفرنسي ألان رني Alain Resnais، ترتكز بداية القصة على قرار إحدى الشخصيات بالتدخين أو بعدمه. ويقترح كل جزء من جزئي الفيلم ست نهايات

محتملة لكل من هاتين البدايتين. لدينا بالتالي اثني عشر سيناريو في ١٢ كون مختلف، وكلها واقعية.

إن مفهوم الأكوان المتعددة يدفع بهذه الفكرة إلى اللانهاية. فكافة السيناريوهات تقع وتتحقق، وهي بالتالي واقعية بقدر السيناريو الوحيد المرصود في عالمنا، حيث ثمة مجرات ونجوم وأرض وبشر. في العالم الذي نستمع فيه إلى هذه المحاضرة كما وفي العالم الذي انتهت فيه هذه المحاضرة أو في العالم الذي لا تزال فيه قيد التحضير. بل وكذلك في العالم الذي لا توجد فيه نجوم ولا كواكب ولا مستمعين أو محاضرين! هذا ناهيك عن لانهاية من العوالم الأخرى.

إن فكرة العوالم اللانهائية فكرة ساحرة، لكن هل هي فكرة علمية؟ إنها ليست فكرة جديدة تماماً. فأناكسيمندر الميلي كان يدافع عنها منذ نحو ألفين وستمئة سنة. وفي عام ١٦٠٠ أدت فكرة «العوالم المتعددة» إلى حرق الفيلسوف الإيطالي جيوردانو برونو لأنها كانت تعارض الفكرة القائلة بأن الأرض تقع في مركز الكون. وقبل نحو ثلاثين سنة كانت النظريات التي تصف أكواناً أخرى غير كوننا تعتبر نظريات شاذة وميتافيزيائية وغير علمية!

أما اليوم، وعلى الرغم من بقاء الفرضية مثاراً للجدل، فقد وصلت إلى نطاق العلم البحت. بل ويبدو أنها محفزة جداً إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد العلماء ذوي الشهرة الذين يهتمون بها ويعملون عليها. ويشهد على ذلك الكتاب الذي صدر بعنوان «كون أم أكوان متعددة» لعالم الكونيات برنارد كار Bernard Carr من جامعة الملكة ماري في لندن، ناهيك عن العدد المتزايد من المؤتمرات المخصصة لمناقشة الأبحاث الجديدة حول هذا الموضوع.

الأكوان المتعددة عبر التاريخ

خلال السنوات القليلة المنصرمة أصبحت الأكوان المتعددة تشكل أداة عمل بالنسبة للباحثين لا يمكن الاستغناء عنها كما يقول تيبو دامور من معهد الدراسات العلمية العليا في فرنسا. لكن هناك علماء آخرون

لا يزالــون يعارضــون هذا الــرأي معتبرين أن هذه الفرضيــة لا يمكن أن تكون موضع اختبار وتحقق، مثل دافيد غروس David Gross الحائــز على جائــزة نوبل للفيزياء عام ٢٠٠٤.

يبقى أن نظريــات مختلفة في محاولتها لوصــف الكون تغطي في الحقيقــة أنماطاً مختلفــة من الأكوان المتعــددة. وهي بالتالي ليســت كلها من طبيعة واحدة ونمط واحد. الأمر الذي يؤدي أحياناً إلى نوع من الخلط بينهــا كمــا يقــول ماكس تغمــارك Max Tegmark من MIT، وقد اقترح تصنيفاً لهذه الأكــوان المتعددة في سبيــل التوضيح والتبسيــط. وسوف نعرضــ للفئات الأربع الأكثر تواتــراً في الأبحــاث. لكن قبل ذلك لنعرضــ بسرعة لفكرة الأكوان المتعددة عبر التاريخ.

كانــت الفكــرة الأولى حــول الأكــوان المتعددة قد طرحت من قبــل أناكسيماندر المفكر اليونــاني الذي عاش بين عامي ٦١٠ و ٥٤٦ قبــل الميلاد، وهي تعد أول فكرة عن الكون غير أسطورية، وتقول: إن العوالم تظهر عندما تختفي عوالم أخرى.

وجاء المفكر اليوناني ديمقريطس (٤٦٠- ٣٧٠ ق.م) ليقول إن عدد الذرات والعوالم غير محــدود. وإن كانت الأفكار الثابتة عن العالم قد سيطرت بعد ذلــك قرابة ألفي سنة مع فكرة الكــون المركزي حول الأرض وسموات بطلميوس السبع، لكن المفكر الألماني نيكولاس دو كوســ (١٤٠١- ١٤٦٥) جــاء ليقــول بتعددية العوالم التــي يتميز سكانها بسمات خاصــة. وبعده كانــت صرخــة الفيلسوف الإيطالي الشهــير جيوردانو برونو (١٥٤٨- ١٦٠٠) الذي أحرق بسبب قوله بوجود عوالم لانهائيــة متمايزة عن بعضهــا بعضاً. وكان لغوتفريد ويلهلم ليبنتز الفيلسوف والرياضي الألمــاني (١٦٤٦- ١٧١٦) مساهمتــه أيضاً عندما قال بوجود عوالم متعددة كثيرة ممكنة بحيــث يكون عالمنا هــو الأفضل من بينها. وكانت للفيلسوف الفرنسي في الفترة نفسها برنار لــو بوييه دو فونتنيل (١٦٥٧ -١٧٥٧) نقاشات شجاعة بالنسبة لذلك العصر حول تعدد العوالم.

عادت فكرة العــوالم المتعددة للظهور في القرن العشرين، من خــلال بعض المفكرين مثل نلســون غودمان (١٩٠٦- ١٩٩٨) الذي قال بعوالم متعددة حقيقية متواجدة في الوقت نفسه وتتخلق باستخدام الرموز! لكن الفكرة

الأكثر أصالة كانت للفيلسوف الأمريكي دافيد لويس (١٩٤١- ٢٠٠١) الذي قال إن كل ما أمكن أن يحصل أو ينتج في عالمنا ينتج فعلياً في عالم آخر. أما الذي أدخل فعلياً فكرة العوالم المتعددة أو تحديداً المتوازية إلى حقل العلوم البحتة عن طريق الميكانيك الكمومي فكان الرياضي الأمريكي هيوج إيفريت (١٩٣٠-١٩٨٢). وكان أول إدخال للعوالم المتعددة إلى مجال علم الكونيات مع سيناريو التضخم الكوني المستمر بلا توقف على يد الفيزيائي الأمريكي من أصل روسي أندرييه ليند في عام ١٩٤٨.

نموذج العوالم المتعددة الأكثر أولية (النموذج الأول)

ينتج النموذج الأول للعوالم المتعددة، وهو أبسط النماذج وأكثرها أولية، مباشرة من تطبيق النظرية النسبية العامة لأينشتين على الكون. إن الكون يشير إلى كل ما يحيط بنا. لكن بما أن سرعة الضوء محدودة فإن قدرتنا على الرصد محدودة أيضاً. إن حجماً معيناً فقط يقع ضمن إطار رصدنا. وفي نموذج الانفجار الكبير، إذا أخذنا بعين الاعتبار المسافة التي يقطعها الضوء منذ ١٣,٧ مليار سنة في الوقت الذي كان الكون يتوسع فيه ويكبر، فإن هذا الحجم يوافق حالياً كرة متمركزة افتراضياً حول الأرض ويصل نصف قطرها إلى نحو ٤٦ مليار سنة ضوئية. غير أن النسبية العامة تقول لنا أيضاً إنه إلى ما وراء هذا الأفق ثمة فضاء لانهائي يمكن أن يكون موجوداً فعلياً. وفي الأحوال كافة، فإن هذا الفراغ يوجد في التصور الذي يعتمد فضاء انحناؤه معدوم، أي ما يمثل الهندسة الأكثر بساطة بالاتفاق مع الأرصاد.

تشير الأكوان المتعددة في هذه الحالة إلى مجمل هذا الفضاء اللامتناهي حيث تشتمل المناطق الواقعة إلى ما وراء الحجم الذي نرصده على أكوان جديدة، مما يشكل أحجاماً أخرى لها الشكل نفسه بحيث تكون متراصفة وتمتد في الفراغ اللانهائي. ووفق هذا المنظور، فإننا نجد نحن البشر أنفسنا ببساطة في جزء من الأكوان المتعددة حيث اجتمعت الشروط الخاصة جداً والضرورية للصيرورة الطويلة التي أدت إلى انبثاق الحياة. وفي نموذج الأكوان المتعددة البسيط هذا تكون قوانين الفيزياء هي نفسها من كرة كونية إلى أخرى، لكن تختلف الشروط فيها وفقاً للآليات التي تم توزع المادة وفقها

خـــلال لحظـــة الانفجار الكبـــير في كل من هذه العوالم. ووفقاً لماكس تغمارك، يمكن أن توجد أكوان توائم مطابقة لكوننا، إنما ليس على مسافة أقل مـــن (١٠١٠)١١٥ متر من بعضهـــا بعضاً. ولهذا فإن حظوظ مصادفة ولقاء أقراننـــا معدومة. فالنموذج الأول من الأكوان المتعددة يشتمل بالتالي على تراصف بسيط لأكوان لا تنتهي.

أما الفئة الثانية فهي أكثر تعقيداً. وهي تنتـــج عن النمـــوذج الكوني الأكـــثر انتشاراً وقبـــولاً اليوم بـــين العلماء لوصـــف الكون الوليد، وهو ما يسمى بالتضخم الكوني.

التضخم الكوني (النموذج الثاني)

في الثمانينيات مـــن القرن الماضي طوّر عالم الكونيـــات الروســـي الأصـــل أندرييه ليند نمـــوذج الكون المتضخم بشكل مفصل. ووفق هـــذه النظرية فقد شهد كوننا مرحلة توســـع هائلة تمامـــاً بعد الانفجـــار الكبير: وتحديداً بعد ١٠-٣٥ ثانية من عمر الكون، حيث تضاعف حجـــم الكون الوليد والفائق السخونـــة والكثافة بشـــكل مفاجئ بمقدار ٥٠١٠ ضعفاً. ويسمح هـــذا التسارع الهائل بتفسير لماذا نشهد هـــذا التجانس في كوننا علـــى مستواه الكبير كما ويفسر ظهور البنى الكبرى فيه مثل الحشود المجرية كما ترصد اليـــوم. لكن نظرية ليند تذهب إلى أبعد من ذلـــك، فهي تفترض أن الزمكان هو في حالة تضخم مستمر. إنه التضخم الأبدي. وبشكل أدق، فإن بعض المناطق لا تزال تشهد مرحلة التضخم التي تقود أو تؤدي إلى نشوء الكثير الكثير مـــن الفقاعات المنفصلـــة والمتمايزة مما يعطي بالتـــالي لانهاية من الانفجارات الكبيرة. ويولد كل انفجـــار كبير منها كوناً. إن الفرضية مغرية جـــداً، لكن الأمر يتعلق هنـــا بكون متعدد مختلـــف تماماً عن الكون المتعدد السابق.

ومنذ بضعـــة سنوات فقـــط جاء تطور نظريـــة الأوتار الفائقة ليدعـــم هذا الكون المتعـــدد الفقاعـــة، وهـــي نظريـــة تحاول وصف التفاعـــلات الأساسيـــة في الفيزياء كافة: الكهرمغنطيسيـــة والقوتين النوويتين الشديدة والضعيفة إضافـــة إلى الجاذبية. إن هـــذه النظرية التي تحاول توحيد القوى الأساسيـــة والقوانـــين الفيزيائيـــة، حيـــث تظهر كافـــة الجسيمات فيهـــا كأنماط من اهتـــزاز وتر أولي، على غرار اهتزاز وتر آلة موسيقيـــة يمكن أن يـــؤدي إلى إنتاج نغمات السلم الموسيقـــي، لا تزال بعيدة عن تحقيق

هدفها حتى الآن. وهي بدلاً من أن تصل إلى نظرية واحـدة للأوتار توصلت إلى ٥٠٠١٠، بل إلى ١٠٠٠١٠ نظرية مختلفة!!

وهكذا، عندما نفكر في التضخم الأبدي في إطـار نظرية الأوتار، فـإن تنوع الأكوان المتعـددة الفقاعات ينفجـر إن صح التعبير أو يصـل إلى حد لا يمكن تخيله. وهذه هي الصورة التي يدافع عنها ليونارد سوسكيند، أحـد آباء نظرية الأوتـار، والذي يعمل هو أيضاً مع ليند في جامعة ستانفورد. إن هذا الكون المتعدد هو عبارة عن بنية متدحرجة مؤلفـة من لانهاية من الأكـوان الفقاعات، حيث كل كـون منها له قوانينـه الفيزيائية الخاصـة به، والذي يحتوي على لانهاية من الأكـوان الأولية فيه. وهنـا أيضاً، في هذا المشهد الـذي لا يمكن سبره أو الإحاطة به، فإننا نحن كبشر نوجد في إحدى هذه الجزر المتأقلمة ببساطة مع الحياة، أو تحديداً مع أحد أشكال الحياة.

الجاذبية الكونية ذات العُقد (النموذج الثالث)

غـير أن لي سمولـين ينتقـد بشدة هذا النمـط من الأكوان المتعـددة. فهو معروف بصرامته تجـاه سيطرة نظريـة الأوتار في الفيزياء النظرية. فهي تفلت من أية تجربة محتملة، طالما أن سوية الطاقات التي تدخل في مثل هـذه الظاهرات تقع ببساطة خارج أي إطـار قابـل للتجربة. ومع ذلـك، فإن نظريتـه الخاصة قادتـه إلى اقتراح مقاربة أخرى مختلفة تماماً في عام ١٩٩٢: ألا وهي فرضية «الاصطفـاء الطبيعي الكوني» التي تقود أيضاً وأيضاً إلى نمط ثالث من الأكوان المتعددة.

إن لي سمولين هو أحد مخترعي الجاذبية ذات العقـد، وهي نظرية كمومية للجاذبية. غير أن هذه النظريـة لا تتنبأ بنقطة فرادة مركزيـة للثقوب السوداء، هـذه النقطة أو الموضع حيث تكون الكثافة وانحناء الزمكان لانهائيين. ففي هذه الحالة، وقريباً جداً من مركز الثقب الأسود، تصبـح الثقالة دافعة بدلاً من جاذبة. وهكذا تجري الأمور كما لو كانت المادة تنضغط نحو المركز لتعود فتندفع وترتد عند أطرافهـا في مرحلة جديدة من التوسع. وعندهـا يولد كون جديد في حالة توسع في قلـب الثقب الأسود نفسه. وهكذا فإن كل ثقب أسود يتشكل يولّد هو نفسه كوناً جديداً. وبالتالي، فإن عالمنا الذي نعيش فيه يحتـوي أو يكون قد ولّـد على الأقل ١٨١٠

كوناً وليداً خلقوا عبر ثقوبه السوداء. وفي هذا الكون المتعدد المستلهم إلى حد كبير من نظرية التطور البيولوجية الداروينية، فإن كل كون ينقل إلى خلفائه قوانينه الفيزيائية الخاصة التي تتعدل بشكل طفيف من خلال التخلخلات الكوانتية في لحظة «الارتداد» في الثقب الأسود، مما يجنب الكون الوليد أن يكون مجرد نسخة منقولة. ومثل هذه الآلية التطورية تسهل بقاء القوانين التي توفر أقصى حد من ولادة الثقوب السوداء، أي أنها توفر إمكانية البقاء والتكاثر. إنه كون ساحر بلا شك، لكن هذا النموذج لم يتجاوز حالة الكينونة الجنينية. ويبقى أن نحدد فيه بشكل رئيسي آلية انتقال القوانين الفيزيائية. ولكن وفقاً لصاحب هذا الكون المتعدد، فإنه يتميز بأنه يمكن أن يقدم تنبؤات قابلة للتحقق والاختبار. وهو يحدد بين أشياء أخرى الكتلة الحدية العليا لنجم نيوتروني، وهي المرحلة الانتقالية بين انفجار نجم كبير الكتلة (سوبرنوفا) وتشكل ثقب أسود، وهي حوالي ١،٦ كتلة شمس.

كافة العوالم موجودة (النموذج الرابع)

وأخيراً تأتينا الفئة الرابعة من العوالم المتعددة المتوازية من أفق مختلف تماماً. فالأكوان السابقة كانت تنتج كلها من نظريات تصف الجاذبية، القوة العاملة على مستويات الكون الكبير. أما الفئة الأخيرة فتأتينا من الميكانيك الكمومي. وهو إطار نظري يفسر العالم اللامتناهي في الصغر. وقد اعتبر الميكانيك الكمومي طويلاً كمجال غريب، لكن الكون المتعدد الناجم عنه هو الكون المتعدد الأول علمياً من وجهة نظر تاريخية. ففي عام ١٩٥٧، اقترح الفيزيائي هيوج إفريت، وكان في برنستون آنذاك، تفسيراً ثورياً مخالفاً لكل الأفكار التي كانت سائدة آنذلك في النظرية الكمومية نفسها. فقد مضى إلى أقصى ما يمكن في مبدأ التراكب الكوانتي لحالات المادة التي تقول بها هذه النظرية. ووفق هذا المبدأ، فإن نظاماً كوانتياً يمكن أن يوجد في عدة حالات في آن واحد. وهكذا فإن قياسات هذه المنظومة يمكن أن تعطي نتائج مختلفة. وبالنسبة لإفريت، فإن هذا المبدأ ليس صحيحاً فقط على المستوى الدقيق للجسيمات بل وعلى المستوى الجهاري الكوني. وهكذا فإن النتائج المختلفة للقياسات الممكنة توجد في الوقت نفسه كوقائع متوازية: فكل العوالم موجودة!

العالم الذي ندخّن فيه والذي لا ندخّن فيه. وهما يتشعبان باستمرار في عوالم جديدة. فلماذا لا نرصد إذاً سوى كوننا؟ الجواب ببساطة لأننا لا نستطيع أن نرى سوى الكون الذي نوجد فيه.

وعلى الرغم من غرابة تفسير إفريت لكنه يصبح أكثر فأكثر قبولاً اليوم بين العلماء الفيزيائيين الجديين. وبالنسبة لتيبو دامور، «فهو التفسير الذي يفرض نفسه من الآن فصاعداً». وفي التصنيف الذي وضعه عالم الكونيات ماكس تغمارك تأتي الأكوان المتوازية لإفريت على المستوى نفسه مع الأكوان- الفقاعات التضخمية. لكنها تضيف وفقاً له المزيد والمزيد من النسخ التي يستحيل تمييزها. والأمر الذي كان يبدو أقرب إلى الميتافيزياء منذ فترة قريبة إذا به يدخل اليوم أدبيات العلم من أوسع أبوابها.

ردود الفعل على فرضية الأكوان المتعددة

إضافة إلى الأسماء التي ذكرناها ضمن أهم فئات الأكوان المتوازية أو المتعددة، ثمة أسماء علمية أخرى لا تقل أهمية وشهرة كان لها مواقف مختلفة من هذه الفرضية.

ويأتي في مقدمة مؤيدي هذه الفرضية ستيفن واينبرغ، الحائز على جائزة نوبل ومؤسس النموذج المعياري في فيزياء الجسيمات الدقيقة. وهو يعتقد أن هذه الفرضية تشكل تحولاً هاماً في طبيعة العلم نفسه. ويقول: «علينا أن نتعلم كيف نعيش في كون متعدد». كما نشير إلى البريطانيين مارتن ريس وستيفن هوكنغ، وإلى نظريي الأوتار الفائقة في برنستون إدوارد ويتن.

من جهة أخرى، وعلى طرف المعارضة، هناك من يرفض كلياً هذه الفرضية. ومنهم دافيد غروس الحائز على نوبل لعام ٢٠٠٤، الذي يرفض تماماً مشهد الأكوان المتعددة. وهو يعتقد أن علينا العثور على نظرية لكل شيء قادرة على تفسير الكون الذي نعيش فيه وفق قوانين رياضية محددة تماماً. أما بول ستاينهارت أحد نظريي التضخم الكوني في برنستون فيرفض الفكرة من أصلها ويقول: «إنها فكرة خطرة، لا أريد أبداً مواجهتها والتفكير بها»!

يبقى أن بين الفريقين المؤيد والمعارض هناك فريق من المتشككين، ومنهم جورج إلليس من جامعة الكاب في جنوب أفريقيا، الذي يرى أن فرضية الأكوان المتوازية هامة

بمـا تحمله من تفسـيرات لبعض الأرصاد، لكن الحجج المقدمـة لصالح هذه العوالم لا تـزال برأيه ذات طابع فلسفي وليس علمي. وهـو لا يريد الخلط بـين الفلسفة والعلم. من جهة أخرى يقـول بول ديفيس إنه يعتبر نفسه متشككاً حـول هذه الفرضية، خاصة وأنهـا تتطلب في النهاية القبول بسلسلة من القوانين التأملية دونما تفسير لها.

هـل كان لـدى الله الخيـار في خلقـه العالم؟

طرح أينشتين هذا السؤال الشهير الذي يصيغ تساؤلنـا عما إذا كان وجودنا يفرض قيوداً على مواصفات كوننا. إن هذه الفكرة التي تنعـت بـ«المبدأ الإنسـاني»، تلاقي ما يدعمها اليوم في نظريـات العوالم المتعددة. ووفقاً للنظرة النيوتونيـة للعالم، فإن الكون يعمل كما لـو كان آلة كبرى، غـير حساسة لوجود الحياة أو لأي شكل من أشكال الوعي. وبالتالي فإن قوانين الفيزياء وصفات الكون لا تتعلق بـأي شكل بوجود أحـد يرصدها أو لا.

وقد ظهـر مفهوم جديـد منذ نحو ٥٠ سنـة يرتكـز علـى أن سمات الكـون تبدو «منضبطـة» ومتوافقـة بشـكل خاص مع وجودنـا. يتعلق هذا التوافـق الدقيق جداً بالثوابت الجوهرية في الفيزياء كما وبعوامل عديـدة في علـم الكونيات. ومـن هنا هذه الفكـرة التي وفقها يمكن لبعض مواصفات الكـون أن تكون مرتبطـة بوجود المراقبين. وقد أطلق على هذه الفكرة «المبدأ الإنساني» من قبل الفيزيائـي النظري براندون كارتر Brandon Carter الـذي يعمل حالياً في مرصد باريس- مودون.

ينحـدر هذا المبـدأ نفسـه بطريقتين. توصف الأولى بـ«المبـدأ البشري الضعيف»، وهـي تقـول إن قوانين الطبيعـة والثوابت الفيزيائية ثابتة. وبالتالي فإن وجودنا يفرض قيـوداً عندما يتعلق الأمـر بالمكان والزمان اللذين نرصد الكون بدءاً منهما.

على سبيل المثال، لماذا للكون العمر الذي يميزه؟ إن المقاربة النيوتونية، أي الآلية التي تحدثنا عنهـا، لا ترى سبباً خاصاً في ذلك. فقـد بدأ كل شـيء ببساطة مـع الانفجار الكـوني الكبير منـذ نحو ١٥ مليـار سنة. والمصادفة هي التي تجعلنا نرصده الآن في هذه اللحظة بالذات من عمر الكون.

ظهور الحياة

لكـن ثمة إجابة أخرى على هذا السؤال

طرحت عـام ١٩٦١ من قبـل روبرت ديك Robert Dicke مـن جامعـة برنستون. فهو يذكرنا بـأن ثمة شرط أساسي لا يمكن الاستغنـاء عنـه لظهور الحيـاة وهو وجود الفحم. ويتم إنتاج هذا العنصر داخل النجوم وفق صـيرورة تتطلب نحو عشـرة مليارات سنة، وهي الفترة التي تنفجر النجوم بعدها بشكل مستعرات فائقة (سوبرنوفا). وهكذا يتحرر الفحم وعناصـر كيميائية أخرى في الفضاء، حيث يمكن لها المشاركة في تشكيل كواكب وفي ظهور الحياة.

مـن المعلوم من جهـة أخـرى أن عمر الكون لا يمكن أن يكون أكبر بكثير من عشرة مليـارات سنة، وإلا لكانت المادة التي تشكله قد تحولت بالكامل تقريباً إلى بقايا النجوم، مثـل الثقوب السوداء والأقـزام البيضاء أو النجـوم النيوترونية. وبمـا أن كل شكل من أشـكال الحياة يتطلب وجـود النجوم، فإن الحياة يمكن أن تنبثـق فقط في كون عمره عشرة مليـارات سنة أو أكثر بقليل. ولا شك أن هـذا الكون قد مـر بمراحل كثيرة، لكن ما كنا لنكـون فيه قبل مضي هذه المدة من عمره.

أمـا مؤيدو «المبـدأ الإنسـاني القوي»، فيذهبون في تأملاتهم إلى أبعد من ذلك. فهم يؤيدون فكرة أن وجود المراقبين يطرح قيوداً على الثوابت الفيزيائية نفسها. ويتعلق عدد لا بأس به من هذه القيود بـ«ثوابت البنية»، التـي تصف كثافة القـوى الأساسية الأربع في الفيزيـاء- الجاذبيـة والكهرمغنطيسية والضعيفة والشديدة.

كون بين أكوان

لقد نظر كثـير مـن الفيزيائيين لوقت طويـل إلى المبدأ الإنساني القـوي بازدراء، لأن المحاكمات المنطقيـة التي استند عليها كانـت مختلفة كثيراً عن الطريقة التي كانت الفيزيـاء الكلاسيكية تتوصـل بها إلى قيم الثوابـت. ولا شك أن ما دعـم ورسخ هذا الاحتقار تجاه هذا «المبدأ الإنساني القوي» هو واقـع أن بعض الأشخاص ذوي الميول الدينية الطابع كانوا يفسرون توافق الثوابت كبرهان على وجود الخالق.

مـع ذلك، أصبـح المبـدأ الإنساني -في معنـاه العام- أكثر شعبيـة وقبولاً منذ نحو عشر سنوات. ولم يكن ذلك بسبب أن الحجج تغيرت بشكل جذري. بـل جاء تغير الموقف هذا بالأحرى لأن علمـاء الكونيات توصلوا إلى أن كوننـا هذا لا يمكـن أن يكون سوى

مثال خاص من مجموعة واسعة من الأكوان «الموازيــة»، التي تشكل «كونــاً متعدداً». إن الآليات التــي أدت إلى نشوء كوننا يمكن أن تكون قــد أدت في الواقــع إلى ولادة أكوان عديدة أخرى.

لم تتــم صياغــة الفرضيــات المتعلقــة بالكــون المتعدد من أجــل تفسير التوافقات الناجمة عن المبــدأ الإنساني. لكن يبدو أن المفهومين أصبحا مرتبطــين ارتباطاً وثيقاً اليوم. فالوجود المحتمل لكون متعدد يطرح مسألــة معرفــة لماذا نعيشــ في هذا الكون بدلاً بالأحرى من العيشــ في كون آخر. إن مجموعــة واسعة من الأكــوان تسمح بكافة الاحتمــالات وبكافــة توافقــات الثوابــت الفيزيائيــة: ففي مكان آخــر، وبالمصادفة البحتة، يمكن لهذه الأخيرة أن تسمح تماماً بظهور الحياة. يمكننا أيضاً أن نقبل بسهولة أن وجودنا الخاص يفرض قيوداً على الكون الذي نرصده.

توافق الثوابت

بالمقابــل، كان لا بــد مــن الاستنتاج أن مفهوم الأكوان المتعددة نفسه يقلص من المبدأ الإنساني القوي إلى مبــدأ إنساني ضعيف. ومن أجــل ذلك ليســ إلا، فإن عــدداً من الفيزيائيــين يمكن أن يعتبروا وجود الأكوان المتعــددة علــى أنه التفســير الأكثر طبيعية لتوافق الثوابت. لأنــه، إذا لم يكن ثمة سوى كون واحد، فإن هذا التوافق يمكن أن يحرَّض من أجل تبرير وجود «الضابط» أو «الموافق»، أي ألوهة تكون هي أصل هذا الكون. ولهذا تمّ وصف الأكــوان المتعددة على أنها «الحل الأخير بالنسبة للملحد اليائس».

ظاهرات محلية

قبــل مناقشــة وتقييــم تفســير المبدأ الإنســاني عن طريق وجود الأكوان المتعددة، ثــم مسألة أساسيــة تتعلق بمعرفــة ما إذا كانت قيم الثوابت تتعلق بالسمات العشوائية للكــون، أو إذا كان يمكــن التنبؤ بهذه القيم بوساطة نظريــة فيزيائيــة أساسية. وهذه الظاهــرة تتعلق بشكل وثيق بالسؤال الشهير الــذي طرحه أينشتين: «هــل كان لدى الله الخيار عندما خلق الكون؟».

إذا كانــت الإجابــة بالنفي فــإن المبدأ الإنساني لا يعود قائماً على أي أساس ويكون توافــق الثوابت ناجماً عــن مصادفة بحتة. أمــا إذا كانت الإجابة بوجود خيار لدى الله عند خلقه للعالم، فإن المبدأ الإنساني يصبح بالمقابل متضمنــاً وأساسيــاً. وعندها فإن

ما نسميه قوانين الطبيعة يجب أن تعتبر كظاهرات محلية. وهكذا فإن المحاولات التي تسعى إلى التنبؤ بقيم الثوابت ستصبح بلا جدوى بمقدار ما كان حال الفلكي يوهانس كبلر الذي كان يحاول أن يتنبأ بالمسافات بين الكواكب بالارتكاز على الخصائص الهندسية لبعض متعددات السطوح. فلم يكن مكتوباً لهذا المشروع النجاح لأنه كان مبنياً على افتراضات ومسلمات خاطئة. مما لا شك فيه أن بعض العلماء يفضلون أن تكون الثوابت محددة بوساطة فيزياء أكثر جوهرية. لكن ضمن أية أطر ومسلمات يمكن لهذا أن يتحقق؟ حالياً، تعتبر النظرية M هي المرشح الأفضل لتمثل النظرية الجوهرية في الفيزياء، وقد صيغت منذ نحو ١٥ سنة. وتتضمن هذه النظرية وجود أحد عشر بعداً، حيث تنبثق الأبعاد الأربعة الزمكانية المألوفة بالنسبة لنا من انثناء الأبعاد الإضافية الأخرى على نفسها.

وعلى عكس النموذج المعياري في فيزياء الجسيمات الدقيقة، الذي لا يشتمل على قوة الجاذبية والذي يحتوي على نحو ثلاثين من المعاملات الحرة، فإن النظرية M قد أيقظت الأمل بإمكانية التنبؤ بقيمة الثوابت، مع طرحها للمسلمة الوحيدة بوجود هذه الأبعاد الأحد عشر. لكن أبحاثاً حديثة تفترض أن عدد الحلول لمعادلات النظرية M كبير جداً في الواقع، ويتجاوز رقماً فلكياً من رتبة ١٠٦٠٠! وتوافق هذه الحلول حالات طاقية ممكنة للفراغ الكمومي، وهي تشكل وفقاً لليونارد سوسكيند من جامعة ستانفورد «ممراً كونياً» لانهاية لاتساعه وتنوعه.

التوسع يتسارع

إن إحدى السمات الهامة لهذه الحالات الطاقية هي أنها مرتبطة بمعامل يوصف بأنه «ثابتة كونية». وكانت هذه الثابتة Λ قد أدخلت في عام ١٩١٦ من قبل أينشتين في معادلات النظرية النسبية. وكانت تسمح في ذلك الوقت بوصف نموذج كوني ستاتيكي، مستقر، غير متغير، بما يوافق معارف ذلك العصر. لكن أينشتين اضطر إلى التخلي عن هذه الثابتة بعد نحو ١٥ سنة بسبب اكتشاف توسع الكون الذي يتعارض مع كون مستقر.

وهكذا ظل العلماء يعتبرون طيلة عقود عديدة أن قيمة الثابتة لامدا Λ كانت معدومة، إنما دون أن يفهموا مع ذلك لماذا يجب أن تكون هذه القيمة معدومة. ويبدو أن ظاهرات كوانتية كانت تقود في الواقع

إلى قيمة غير معدومة -لا بل وكبيرة جداً- للثابتة Λ، حتى وإن كان الفيزيائيون لا يعرفون كيف يتم حسابها بطريقة صريحة. لكن الاكتشاف الذي تم عام ١٩٩٨ بأن التسارع الكوني يتسارع غيّر من هذا الواقع. فهذا التسارع يعود إلى تأثير ثابتة كونية قيمتها أصغر بـ١٢٠١٠ مرة من تلك التي يتنبأ بها الميكانيك الكمومي!

في إطار المشهد الكوني، وبالنسبة لكل كون مختلف، يجب أن تأخذ الثابتة Λ أية قيمة مهما كانت إنما تقع بين حدين، كبيرين جداً إنما أحدهما موجب والآخر سالب. غير أن القيمة الملاحظة في كوننا بعيدة جداً عن القيمة المتوسطة. وهي تبدو في هذه الحالة من وجهة نظر إحصائية فائقة الصغر إلى حد مدهش. وكما لاحظ ستيفن واينبرغ فإن قيمة الثابتة Λ خاضعة لتحديد المبدأ الإنساني، لأن المجرات (وبالتالي الحياة) لا يمكن أن توجد لو لم تكن هذه القيمة صغيرة أو لو كانت أكبر بكثير مما هي عليه. إن تطبيق الاعتبارات الإنسانية على كون متعدّد يملك طيفاً واسعاً من القيم للثابتة Λ يتطلب أن تكون القيمة التي نرصدها في كوننا أصغر بالضرورة من القيمة المتوسطة.

وإن كان ذلك يرضينا أو لا، فإن تصور المشهد الكوني يأتي ليدعم على هذا النحو المبدأ الإنساني.

طيف من الأكوان

هل يعني ذلك أن سمات كوننا يجب أن تعتبر كسمات «غير قياسية»؟ إن القائلين بالمبدأ الإنساني يؤيدون الإجابة بنعم، مقدرين أن أشكالاً مشابهة لحياتنا لا يمكن أن تظهر إلا في طيف محدود جداً من الأكوان. إن أشكالاً أخرى من الحياة ستكون ممكنة في طيف أوسع من الأكوان، لكن الحياة لن تستطيع بالتأكيد الظهور كيفما اتفق وأينما كان.

يعتقد لي سمولين Lee Smolin بالارتكاز على مبادئ كوبرنيكوس، عكس ذلك، أي إن غالبية الأكوان تملك خصائص مشابهة لكوننا، الذي يجب أن يعتبر بالتالي كنموذج للكون المتعدد. ووفق هذا النظري الكندي، فإن الثوابت الفيزيائية قد تطورت حتى اتخذت القيم التي نعرفها حالياً، وذلك عبر صيرورة تنتسب إلى التحول والتطور والاصطفاء الطبيعي. وفي إطار هذا السيناريو يلعب وجود الحياة دوراً تابعاً بالكامل وبالتالي لا يكون ثمة قيود ذات طبيعة إنسانية فيه.

وإذا كنا نفضل بالنسبة للمبدأ الإنساني فكرة توافق مرتبط بوجود المراقبين في الكون المتعـدد، فإن تفسيره يظل مع ذلك إشكالياً. فبأية آليات تكون التوافقات محددة؟ وبعبارة أخرى، ما الذي يحـدد مراقباً ما ويعرّفه؟ أوليس من الضرورة بالتالي وجود عتبة دنيا من الذكاء لتحقيق هذا التعريف؟

مبدأ الحياة

يجب أن نحدد هنا أن الحجج التي تقدم اليوم في إطار الأبحاث حول المبدأ الإنساني لا تتعلق كثيراً بالإنسان نفسه بشكل خاص. وقد قبل براندو كارتر نفسه بأن اختيار هذا المصطلح لم يكن موفقاً تماماً. وبعبارة أخرى، فإن الحجـج الإنسانية لا تشدد على ما هو خاص بالإنسان هنا، وهي بالأخص لا تؤكد أبداً الفكـرة الدينية القائلة بأن الكون خلق فقط لكي يكون مسخراً للإنسان.

بل سيكون أكثر منطقية أن نجمع القيود الإنسانيـة الطابـع بمـا سمـاه الفيزيائي البريطـاني بـول ديفيـس Paul Davies بـ«مبـدأ الحياة». كان العلم حتى فترة قريبة ينظـر إلى وجود الحيـاة كأمر ناتج ولاحق، وليس كسمة جوهرية من بنية الكون نفسه. وخلال القرن التاسع عشر، استخدم القانون الثاني مـن الترموديناميك على سبيل المثال للتأكيـد على أن الكـون يخضع لموت بطيء وذلـك مـا أن تبـدأ الحياة وكافـة أشكال المتعضيات بالتلف بشكل لا يمكن تعويضه. لكن تطورات علم الكونيات قادتنا إلى مقاربة مختلفـة بل ومعاكسـة. وفي الواقـع، وفقاً لنظرية الانفجار الكبير، يكشف تاريخ الكون عـن درجة من التنظيـم المتنامي، بالأحرى منه متراجعاً، حيث يمكن القول إن الفيزياء الحديثة قادرة تماماً على تفسيره دون كسر القانون الثاني في الترموديناميك.

إن التراتبيـة الناتجة عن هـذا التاريخ الكـوني توصـف أحياناً بـ«هـرم التعقيد». ويـرى برنار كار أن هذا الهرم لم يمكن له أن يتكون إلا وفقاً للمبدأ الإنساني، الذي يجب أن يفسر في هذه الحالة أنه مبدأ «التعقيد». وفي هـذه الحالة، فإن وجود المراقب يصبح هـو نفسه تالياً وتابعاً، حيـث يعكس وجود الوعـي شكلاً خاصاً فقط مـن التعقيد في قمة الهرم.

خاتمة

يقول أورليـان بارو إن هـذه الفرضية تبقى هامة جداً من عدة زوايا، ولعل أهمها اعتبـار ظهـور الحياة للمـرة الأولى كمبدأ

كوني. ويشير أيضاً إلى أنها المرة الأولى التي يقــود فيهــا المنطق العلمي كمــا يعتقد إلى وجود عوالم غير مرئية. وبعبارة أخرى، فإن هذه الفرضية، التي تعتبر برأيه علمية، تقود إلى وجــود أجسام أو أكــوان تتجاوز الإطار الدقيق للفكــر العلمي نفســه. وبهذا فهي تخلق جسوراً مع مناهــج أخرى، وتطلق ما يشبه أسطورة جديدة، وتجبرنا بالتالي على إعادة تحديد ما ننتظــره من الفيزياء ومن العلم. وهنا تكمن أهمية هذه الفكرة، حيث تفرض التفكر بالعلم بما هو «طريقة لصنع العــالم». إنها مراجعة لمــا وصلنا إليه اليوم، وعملية علينا القيام بهــا بكل ما أوتينا من انتبــاه وحذر وتحفظ، لأننــا نجتاز مناطق خطــرة فكرياً علــى الأقل ونحــن نتجاوز حدود الكون المرصود وحدود العلم الحالي.

لقــد كانــت الشجاعة في تاريــخ العلم أكثر إبداعــاً وإنتاجاً من الخوف من طرق أبواب المجهول. ولهذا فإن اعتماد المجازفة العلمية قد يتطلب إعادة النظر في المنظومة العلمية نفسهــا وفي المنهج العلمي. ومن جهة أخرى يشدد أورليان بارو على ضرورة عدم تحريف تفســيرات هذه الفرضيــة الجديدة لصالح أنســاق فكرية مسبقة كمــا حصل في كثير مــن الأحيان عبر تاريخ العلم. فما أن ينفتح العلم على مفاهيم غير علمية بالمعنى الذي يفهمه غير العلميين خصوصاً، يصبح خطر انحراف الفكــر العلمي كبيراً، لكن مع ذلك كانت المخاطر تستحق المجازفة دائماً وكانت النتائج تتجاوز بكثير الأفق المحدود لأنصار تحريف العلم.

حوار العدد

جيانا عيد: الفشل جعلها فنانة

إعـــداد : عادل أبو شنب

حوار العدد

جيانا عيد: الفشل جعلها فنانة

إعداد: عادل أبو شنب

وهي على مقعد الدراسة الثانوية جيء بها لتؤدي دوراً صعباً في خماسية «مبروكة» التي ألفتها أنا والمرحوم محمد الماغوط، تعترف أنها فشلت. لكن حلمها تحقق بانتسابها إلى معهد التمثيل العالي بسورية فقد حمّسها على النجاح، ومن نجاح إلى آخر، صارت نجمة مشهورة في عالم الفن والدراما السورية. إنها النجمة المتألقة جيانا عيد، التي تحكي في حوار هذا الشهر من

أديب وقاص سوري

«المعرفــة» قصة مشوارها الفني الطويل مع الفن التمثيلي، من الفشل إلى النجاح الكبير، والمستمر.

ابنة مشتى الحلو نجمة كبيرة

- المولد، النشأة والدراسة؟

• أنا في الأصل مــن قرية جميلة تدعى (مشتى الحلو) لكني مــن مواليد دمشق في الستينــات من القرن الماضــي، من أب كان ضابطــاً في الجيشــ العربي الســوري، وأم كانت تعمل مدرسة في مدارس بيروت حيث كانت تقيم مع أهلها، كنت البكر في إخوتي، ولــدي أخان: حســام وحنا وأخــت واحدة كارولــين، وقد درســت أنا وأخــي، الممثل المعروف حسام عيد، في المعهد العالي للفنون المسرحية قسم التمثيل في دمشق، وكنت من دفعــة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ وهو بعدي بسنة دفعة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤، وأخــي الثــاني درس الأدب الفرنسي ويعمل عازفــاً على آلة (الدرامز) وأختي درست الأدب العربي وتعمل مدرسة. عائلــة من الطبقة الوسطــى، العلم والأدب والأخلاق عنوانها، والمحبة هي لغة التواصل مع الآخــر، وصفة ملتصقــة لا تفارقها في كفاحها والتزامها بكل قضايا الحياة.

الفشل أوصلها إلى النجاح الكبير

- حدّثيني عن بداياتك في التمثيل؟

• كان للتلفزيون العربــي السوري الذي تزامنت نشأته مع طفولتي الأثر الأكبر في غرس حلــم أن أصبح ممثلة لأعــبر عن حضوري الإنساني وعن رغبتي في الارتقاء بمجتمعي ليكون مجتمعــاً دائم التطور على الرغم من قدمه في التاريخ وتوالي العصور والحضارات عليــه وخصوصيتــه التي تميــزه عن باقي المجتمعــات. والفن والثقافــة والإبداع هي المرايا الحقيقية التي تعكس صورة مجتمعنا وهي التي تعبر عــن تطورها ورقيها. لذلك كنــت دائمة المشاركــة في نشاطات المدرسة وفعالياتها الثقافية والفنية التي كنت أحسها تقود خطواتي لتقريب الحلم إلى واقع أحبه وأرغب رغبة كبيرة في الوصول إليه.

وأثناءهــا امتدحــت كثــيراً وأثني على أدائي عبر الأشكال الفنية التي مارستها من قبل المشرفين والمشرفــات وحتى الطالبات

في المدرسة، ووصفت بأنني موهوبة وقد عنى لي هذا الأمر كثيراً وصرت المميزة بين رفيقاتي بسبب الحضور الذي حققته في تلك الأنشطة. وجاء اليوم الذي كان للتلفزيون العربي السوري فيه الفضل علي فلم يكف أن زرع الحلم في روحي ومخيلتي بل كان آنذاك مشروعاً ثقافياً بكل معنى الكلمة، ففي ذلك الحين لم تكن هناك معاهد إبداعية أو فنية متخصصة ولا حتى مؤسسات ذات طابع أكاديمي محترف، فتبنى التلفزيون هذه المهمة وكان البديل وحاول تحقيق المشروع الثقافي الذي آمن به عبر المثقفين القائمين عليه من أدباء ومبدعين وفنانين وإداريين وحولوا العمل فيه من مجرد عمل إعلامي إلى ورشة عمل تبنت آليات عمل المشروع الثقافي المتكامل في كل ما قدم على شاشته من برامج ثقافية، واجتماعية، وسياسية، وفنية، ودرامية منوعة كلها كانت تكرس الرؤيا والهدف والإيمان بمسؤولية وتوازن وعمق وبساطة واحترام لعقلية المتابع لهذه الشاشة، وتبني لكل المواهب بكل ما تعنيه هذه الكلمة من احتواء ورعاية، وتوجيه وتقييم وتقويم. وأعود إلى فضله الذي أسبغه علي والذي شكل بدايتي الفنية ورسم أول خطوات الواقع لتحقيق ذلك الحلم الساحر الذي كان يملؤني، يومها تمَّ اختياري من المدرسة وكنت في الأول الثانوي، لأمثل خماسية من تأليف الكاتب النجم الكبير الأستاذ (عادل أبو شنب) والذي لن أنسى ما حييت أنه منحني الفرصة وشرف أن أجسد واحدة من شخصياته، وهيأ لي فرصة دخول العالم الذي أعشق عبر تلك الشخصية في مسلسله التاريخي (مبروكة) وهو خماسية تاريخية من العصر العباسي حملت اسم تلك الشخصية التي جسدتها والتي تحكي معاناة جارية في حب سيدها الذي عشقها أيضاً وتحريم المجتمع لتلك العلاقة آنذاك وكيف انتهت قصة العشق نهاية مأساوية أدمت قلوب كل من شاهدوها وكانت من إخراج المرحوم الأستاذ (محمد العقاد) الممثل الكبير الذي كان مشهوراً آنذاك بشخصية (أبو كاسم بائع الخيار) في

أعمـــال ذلك الزمـــن الكوميدية (وقد كانت الخماسية التي لعبـــت بطولتها أول أعماله في الإخـــراج وأظن أنهـــا لم تتكرر فيما بعد) وأيضاً لـــن أنسى فضله الأبـــوي وتبنيه لي ومساعدته إياي ماأمكن في تلك الخماسية، أذكر أنني كنت مفتونة ومسحورة بذلك العالم السحـــري الـــذي كان مرسومـــاً في مخيلتي وأصبـــح الآن واقعاً مدهشاً بكل أجوائه، من الاستديـــو والديكورات والأضواء والموسيقى والغنـــاء، ومن ثم الممثلـــين والممثلات نجوم كبار كنت أظنهم عمالقة وليسوا بشراً.

قسم إعادتي إلى التمثيل:

وكان معروفـــاً عني ومنذ طفولتي، أنني ورغـــم جرأتي وقـــوة شخصيتـــي إلا أنني كنت خجولة جـــداً، ولشدة خجلي ودهشتي أمضيت التصوير كله وأنا لا أستطيع النظر في عينـــي من يشاركـــوني التمثيل ولا النظر إلى وجوههـــم وكان رأســـي منكســـاً دائمـــاً وصوتـــي يكاد لا يسمـــع، فكانت النتيجة أن فشلت فشلاً ذريعـــاً في أدائي لذلك الدور، لكن ذلك الفشل كان محرضاً ومحفزاً لي بأن

أقسم بأنني لن أعود إلى التمثيل مرة أخرى إلا وقد تمكنت من أدواتي التعبيرية والفنية، ومن معرفتي المعرفة الكاملة لكل ما يحيط بهـــذه المهنة، وقـــد كان الله إلى جانبي كما هو دوماً وله الحمد بأننـــي أكملت دراستي الثانوية وعندما وصلت إلى البكالوريا الأدبية طبعاً فتلك كانت ميولي افتتح المعهد العالي للفنون المسرحيـــة بقسم التمثيل فقط، الآن تعددت فروعه طبعاً واستقبل الدفعة الأولى من طلابه، فاتضحت الصورة والهدف أمام ناظـــري وما عـــاد هناك هـــدف آخر سوى وجـــودي في هـــذا المعهـــد الأكاديمي وبذل قصـــار جهدي لأتفـــوق فيه وأتميـــز وأبدع

وأساهم مساهمة فعالة ومسؤولة في الارتقاء بمجتمعي وإنساني وأحقق الرسالة التي بها آمنت وبكل شرف وشفافية وإقناع وصدق.

وعندما حصلت على شهادتي الثانوية التي نجحت فيها بعلامات عالية خولتني لأسجل في كل الفروع الأدبية، إلا أنني وخوفاً من ألا أقبل في المعهد العالي للفنون المسرحية قسم التمثيل، سجلت في كلية الآداب قسم الأدب الفرنسي ثم تقدمت لامتحان القبول في المعهد العالي للفنون المسرحية، أذكر أنني ألفت المشهد الذي تقدمت فيه للفحص وأخرجته بنفسي وجسدته أمام إخوتي عشرات المرات قبل أن يحين موعد الامتحان المحدد لي، وأذكر أن موضوع المشهد كان المعاناة لامرأة فلسطينية، وهكذا تقدمت إلى الامتحان وأديت المشهد الذي هو أساسي في امتحان القبول وقد أعطيته كل ما أملك وقتها من إحساس وخوف ورغبة ودفق ودفاع مصيري لأقبل في هذا الامتحان وأمام لجنة كانت من كبار المبدعين والمثقفين أذكر منهم الأستاذ الأب الذي لا يمكن لي أن أنساه أنا وكل الطلبة الذين درسوا في المعهد العالي للفنون المسرحية وكان آنذاك عميده الرجل الرائع والمعلم الكبير والأب الحنون الأستاذ أديب اللجمي الذي احتوانا كأبنائه وساندنا وقدم لنا كل الدعم الممكن ابتداءً من امتحان القبول وإلى ما بعد تخرجنا من المعهد العالي للفنون المسرحية، والمرحوم يوسف حنا والأستاذ الرائع والمبدع الكبير أسعد فضة والمخرج الذي لن تنساه الحركة المسرحية والطلابية في ذلك الوقت الراحل فواز الساجر الذي ترك فراغاً كبيراً في مسرحنا، لجنة قبول كبيرة مؤلفة من رجال كبار معلمين حقيقيين، وعند صدور النتائج كنت الأولى من بين المقبولين في المعهد وكان عددهم حينذاك (٧٠٠) متقدم ومتقدمة وهكذا ابتدأت الرحلة الحقيقية في العمل والجهد والدراسة والإيمان والمسؤولية وتخرجت من المعهد وكنت الأولى على الدفعة وبدرجة جيد جداً.

الموهبة لا تكفي

ولا بد من الدراسة الأكاديمية

- هل تكفي الموهبة أم لا بد من الدراسة التخصصية؟

• نحــن في عصر التخصص والتطورات المذهلــة، ولم يعــد يكفــي في أي مجال من المجالات أن يكــون الإنسان موهوباً فحسب بل يجب وبديهــي أن تدعم وتصقل الموهبة بالمعرفة والدراسة المتخصصة، نعم دراستي في المعهد أفادتني ودعمتني وحققت لي من المعرفة ما لم يكن بإمكاني فردياً أن أحققه ليس في مجال عملي الإبداعي الاحترافي فحسب بل جعلــت نظرتي إلى العــالم وما يدور فيه وحولي أعمق وأكثر مسؤولية ووضعتني على الطريق الصحيح والأرض الصلبة التي منها انطلق للمسير بخطى واثقة معنية ومسؤولة ليكــون لدي رأي واضح وموقف واثق ومقنع وهذا برأيي أهم ما يميز الرسالة الإبداعية التــي نحملها علــى عاتقنــا كمبدعين أن يكــون لنا رأي نستطيع أن نجسد من خلاله مواقفنا التي يجــب أن تكون مؤثرة وفاعلة وتساهــم في التغيير والارتقاء بمعرفة واثقة نحو الأفضل والأسمى.

حلمي بأن أصبح ممثلة تحقق

- ما الذي وصلت إليه بعد الفشل الأول، ثم النجاح؟

• منــذ تخرجــي إلى الآن، رحلة طويلة وعمــر أصبــح الآن في التجربــة الإنسانية والإبداعيــة مــن المســرح إلى السينما إلى التلفزيــون إلى الإذاعــة وحتى في المساهمة بالتنمية والحراك الثقافي فقد كان لي شرف المشاركة في عدة لجان تحكيم في مهرجانات عربيــة ومحلية للمسرح المحــترف والهاوي والطلابي والشبيبي وقد كرمت والحمد لله في الكثير من المهرجانات السورية والعربية، ولا أستطيع أن أقول لك مع أي مخرج أو بأي عمل ارتحت بالتعامــل أكثر، فكل التجارب الإبداعية بحلوها ومرهــا هي التي شكلت مسيرتي وحضوري الفنــي والإبداعي وقد تعلمت من الفشــل مثلما تعلمت من النجاح والنجوميــة، كل ما أريد قوله أن المبدع كلما كــبرت تجربته أحس بأنــه صغير أمام العالم والحياة، وأن رحلة كفاحــه واجتهاده ودأبه وجهــده ما زالــت في البدايــة وأن الطريق

مــازال طويلاً والخطــوات كبــيرة وصعبة للوصول إلى نهايته.

التوازن بين حياتين العامة.. والخاصة

- هل يمكن للفنان أن يوازن بين حياته العملية في الفن وحياته الخاصة؟

• نعــم استطعــت التوفيق بــين حياتي الخاصة وعملي كممثلة لأنني بطبعي أحب الهدوء والتأمل، وزوجي يملك طباعاً مشابهة كثــيرة وهو صديقــي قبل أن يكــون زوجي والحــب والتفاهم والإيمــان بالآخر والثقة هم الرابط بيننــا والرغبة بإسعــاد أحدنا للآخر هو ما نعمل عليــه إضافة إلى المهنة التي تجمعنا فكمــا تعرف زوجي هو الممثل زياد سعد وقد كان زميلي في الدراسة وبنفس الدفعــة في المعهد العــالي للفنون المسرحية وغالباً مــا كنا نتنافس علــى المرتبة الأولى في الصفــوف الأربعة من دراستنا وبيتنا هو مسكن روحنا وهدوءنــا ودفئنا، صحيح أن الله لم يعطنا أولاداً إلا أننا لم نشعر بأي فراغ أو حاجة لأننا كلينــا يملؤنا الحب والرغبة في العطــاء بلا حــدود وكل الأطفال الذين يحيطون بنا مــن أقرباء وكل طفل في العالم هو ابن لنا.

الدراما السورية في الأوج

- ما رأيــك بحركــة الدرامــا في سورية الآن؟

• حركــة الدرامــا في سوريــة تبدو من الخارج حركة ملفتة ومميزة إلا أنني وبمنتهى المسؤولية والوعي أقول بأنها لاتملك مقومات الاستمرار بشكل تصاعدي، وتقودها التبعية والفوضى والعشوائية وغياب المنهج والرؤية. فالمهنة غير محصنة في الماهية والداخل، ولم تؤصل أو تجذر عبر خلــق تاريخي تراكمي يعــزز معايير تتطور باستمرار فنلغي ما كان سلبياً معيقــاً ونكرس ما هو إيجابي ويسهم في خلــق حركــة متطــورة تساهــم بارتقاء المستقبــل وهذا يعنــي إيجــاد آليات عمل ومنهــج ودراسة لكل المعطيات، مازلنا ورغم هذه الضجة والاكتساح للدراما السورية بكل مستوياتها وعلــى الصعد كافة نتخبط دون أن نعرف إلى أين، ودون أن نعترف لأي آخر بجهــده في تسليم الشعلــة للآخر، بل نتخذ

من الإلغاء إلغاء الآخر وجهده سمة للوجود. ما زالت المؤسسات الناظمة لشؤون الدراما والدراميين وكل المهن الإبداعية ومؤسساتها يحكمها الهم الذاتي والشخصي والجمعي الذي بسببه وجدت هذه المؤسسات الناظمة والمعنية بشؤون الإبداع والمبدع غائب ولا منهج ولا آليات عمل ولا معايير تبنى أو ترسم أو تفعيل لعمل مؤسساتي معني بالهم الجماعي يحكم هذه المؤسسات وهو ملغىً من حساباتها. لذلك وللأسف الشديد وبواقعية شديدة أراها إضافة إلى البطالة التي لحقت بـ٩٠ ٪ من الدراميين و١٠ ٪ منهم يعملون هي معرضة للانكسار والاختراق والتفريغ والانحسار والتوقف وتعرض الدراميين لكارثة أكبر في كل لحظة ومع أي ظرف وهذا ما يجب أن نعيه وألا نسكت عنه ونعمل على تغيير واقع هذه الدراما من الداخل أولاً وتغيير العقلية الضيقة التي تقودها والمصلحية الذاتية المخربة لصالح حركة حقيقية محصنة بمعايير موضوعية وفنية وإبداعية واستراتيجيات ومنهج لمصلحة الجميع وتفعيل دور المؤسسات الناظمة والتي تحفز الإبداع وتميز المبدع. بعيداً عن الزيف والقشور والمصلحة الذاتية العمياء.

- ماذا تركت النجومية في نفسيتك؟

• نعم أثرت النجومية بأن جعلتني أكثر حساسية وأكثر تأملاً وأكثر عمقاً وبساطة وأكثر رغبة في المعرفة والعمل الجاد والجهد والعطاء غير المحدود كي أساهم في الارتقاء وتغيير الواقع إلى واقع أجمل وأنبل كما حلمت وأحلم دائماً.

- ماذا تقولين للشبان الذين يريدون أن يمروا بتجربتك؟

• أقول للشباب أن الله خص المبدع بشيء من ماهيته المقدسة في الإبداع والخلق، فقدروا كم من المسؤولية وكم من العمل وكم من الجهد والثقافة والإيمان والأخلاق يجب أن نتحلى بها كي نكون أهلاً لهذه الميزة التي خصنا وحبانا بها الله عز وجل.

❁ ❁ ❁

شاءت الممثلة الكبيرة ابنة «مشتى الحلو» أن تكون إجاباتها، إنشائية، ومختصرة هذه

طريقتهـا في الإجابة، وأنـا أحترمها، لأنني أحترم هـذه الفنانة الكبيرة التي كان فشلها في أداء دور صعـب في «مبروكة» حافزاً لها لإثـراء تجربتها الفنيـة بالانضمام إلى أول دفعـة للتمثيـل في المعهد العـالي للفنون، لتتخرج أولى علـى هذه الدفعة التي ضمت المئـات، إن روح المثابـرة لتحقيق الحلم قد لاحقتها، وهكذا الفنان الملتزم بقضية فنه، يجعل من الفشل حافزاً ودافعاً، بدلاً من أن يقعـده عن تحقيق حلمـه. إنني أحيي هذه الفنانة الصديقة.

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

النسبيّة في الطبيعة

إعداد وتقديم: محمد سليمان حسن

آخر الكلام

الثقافة الكونية

رئيس التحرير

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين

المؤتمر السنوي التاسع لمجمع اللغة العربية:

برعايــة الدكتورة نجاح العطار نائب رئيــس الجمهورية بدأت في مكتبة الأســد الوطنية بدمشق فعاليات المؤتمر السنوي التاسع لمجمع اللغة العربية وذلك تحت عنوان: «الكتابة العلمية باللغة العربية».

وناقش المشاركــون في المؤتمر مجموعة من المحاور التي تركز على البعد الحضاري للكتابة العلمية باللغة العربيــة وخصائص الكتابة العلمية باللغة

أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

العربية، والكتابة العلمية باللغة العربية قديماً وحديثاً، ومشكلات ووسائل تنمية الكتابة العلمية باللغة العربية.

الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية: إن اللغة لا يمكن أن تكون بديلا عن المعرفة كونها أداة للوصول إلى المعرفة والفهم والإفهام وهي التي ترسم للفرد صفات العالم الذي يعيش فيه بما يسمح له بالمشاركة في تطوير مجتمعه، واستعرض مراحل من التاريخ العربي تمكن العرب خلالها الإفادة من علوم الحضارات الأخرى وتطبيقاتها التقنية المختلفة وقدرتهم على استيعاب المواد الثقافية في تلك الفترة وتدوينها باللغة العربية.

بدوره عرض الدكتور محمد مكي الحسني الجزائري أمين مجمع اللغة العربية تقريرا عن منجزات المجمع خلال الدورة المجمعية المنصرمة تطرق فيه إلى المشكلات التي تعاني منها اللغة العربية والتي تتمثل بشكل أساسي بتردي مستوى التعليم والأداء اللغوي واستخفاف المتعلمين بلغتنا الوطنية، واستعرض خلاصة أعمال لجان المجمع السادسة عشرة وما أنجزته لجنة اللغة العربية وعلومها التي اتخذت ٥٣ قرارا بشأن ألفاظ وتراكيب منوعة وأجابت عن مجموعة من الاستفسارات الواردة من جهات حكومية وخاصة من بعض المواطنين، مشيراً إلى ما أنجزته لجنة المصطلحات الزراعية من دراسة ٢٠٠٠ مصطلح ووضع المقابلات العربية والفرنسية والأصول اللاتينية لبعضها مشيراً إلى الجهود التي تبذلها لجان طب الأسنان والمصطلحات الرياضية والعلوم الكيميائية والفيزيائية والمصطلحات البريدية ومصطلحات الاستشعار عن بعد في وضع مجموعة من المصطلحات والمقابلات العلمية للمصطلحات المتخصصة بهذه المجالات.

وأوضح الدكتور أحمد حسن حامد رئيس المجمع الفلسطيني وممثل الباحثين المشاركين في المؤتمر أن اللغة العربية هي شخصيتنا القومية ووعاء فكرنا ومبعث أصالتنا وأصل مستقبلنا، لافتاً إلى أن اللغة العربية هي أوسع اللغات وأشرفها وأنها عرفت الاختصار والاستطراد والحذف والترادف والتضاد وفتحت صدرها للغات الأخرى فأخذت منها وأعطتها وأدخلت في ثناياها ألفاظا هذبتها واستعملتها في سياقها اللغوي المتجدد لافتا إلى ضرورة الدفاع عن اللغة العربية بطرق علمية منطقية مقنعة لأنها لغة واسعة قادرة على مجاراة الحياة في شتى العصور والأزمان.

وضمن محور البعد الحضاري للكتابة

العلمية باللغة العربية أشار الدكتور محمد هيثم الخياط إلى دور اللغة في ترسيخ الأصول الثابتة في نفس الإنسان وإيصال المعارف الأولى التي تعين على التواصل معتبرا أن ثقافة الأمة هي ذلك القدر المشترك من ثقافات أبنائها وهي مرآة جامعة في حيزها المحدود جوهرها اللغة ثم الحضارة التي هي المظهر المادي لهذه الثقافة بالاستفادة من معطيات العلم والتقانة لعمارة الأرض والارتقاء بالوضع المعيشي للإنسان.

وفي محور الكتابة العلمية والتعريب والتقدم العلمي، قدم الدكتور مكي الحسني الجزائري أمين مجمع اللغة العربية مداخلة أشار فيها إلى دور توطين العلم في التقدم العلمي للأمم والذي يقتضي تعزيز اللغة الوطنية وحمايتها وتدريس العلوم كلها باللغة الوطنية ونشر نتائج الأبحاث العلمية بها وإعداد كتب تدريسية ومراجع بهذه اللغة لتعزيز مكانة الكتابة باللغة العربية.

وتحدث الدكتور عيسى العاكوب عن أبعاد الذات والموضوع في الكتابة العلمية والأدبية معرفاً الذات بأنها الأنا الواعية المتهيئة للكتابة في الموضوعات العلمية أو الأدبية أي مجموع الملكات الإدراكية البشرية المسؤولة عن اقتراح الفكر وبلورتها وتنظيمها وإخراجها في بيانات تعبيرية لغوية موجهة إلى جمهور مقصود، ولفت إلى أن الموضوع مختلف في الكتابة الأدبية لأن الذات المنتجة للكتابة أو التأليف منشغلة انشغالاً تاماً بمعرفتها الحدسية التي محورها العام موضوع المعالجة منهمكة في إنشاء بيان تخيلي تصويري قادر على تصوير طاقاتها الإبداعية في ميدان التأليف من جهة.

وطرح الدكتور محمد الجوادي (عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة) تساؤلا حول إمكانية أن يحل المجاز مشكلة تعلق الأسماء بالمعاني أو أنها خلقت مشكلة جديدة كان يمكن تجاوزها لو أننا فرطنا في الحرص على الربط بين الاسم والمعنى بدلاً من أن نفرط في هذا الحرص، ولفت إلى أن عبقرية توظيف المجاز في صوغ المصطلح العلمي العربي تكمن في أنه يخلق مادة جديدة قابلة بذاتها لكل ما تتقبله الجذور القديمة من اشتقاق متعدد ونسب وتصغير ونحت وإضافة.

وناقشت بعض أوراق العمل المقدمة خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية قديماً وحديثاً، والكتابة للأطفال، والكتابة العلمية في المنظمات الدولية، حيث اعتبر الدكتور محمود السيد أن لغة العلم يجب أن تتسم بالوضوح الذي لا يحمل اللبس لأن الغرض الأساسي للغة العلم هو تفسير

ظاهرة أو شرح طريقة ولا يمكن تحقيق ذلك بلغة غير صريحة وواضحة أو بكلمات مبهمة غير محددة المعنى إضافة إلى مراعاة سلامة البنيان اللغوي والإنجاز عن طريق الرموز والمعادلات الرياضية والرسوم مع الانتباه إلى قضية المصطلحات.

وتحدث الدكتور عبد الإله نبهان عن خصائص الكتابة العلمية وتميزها عن الكتابات الأدبية لكونها تعنى بالأفكار والحقائق وبترتيبها ترتيبا معقولا على مقتضى المنطق الذي يتطلبه البحث وبتعبيرها عن تلك الحقائق بعبارات سهلة الفهم ومفردات دقيقة تعبر بالضبط عما يريده الكاتب، بينما اختارت الأديبة مريم خير بك أن تكون مداخلتها حول لغة الطفل العلمية والتي أشارت خلالها إلى ضرورة الاهتمام بلغة الطفل بشكل عام ولاسيما لغته العلمية لأن لغة الطفل كيان ينتمي إلى اللغة القومية لشعوبنا العربية.

وتحدثت الأديبة مريم خير بك عن حال لغة الطفل في هذا العصر فوجدت أنه يعيش ثنائية لغوية بين الفصحى والعامية وتظل الفصحى بعيدة عن مسمعه ولاسيما في سن ما قبل المدرسة، وتناولت خير بك مصادر هذه اللغة التي من المفترض أنها تخاطب الطفل بلغة علمية وهي التعليم والكتاب المدرسي العلمي والكتب والموسوعات، إضافة إلى وسائل الإعلام وخاصة برامج الأطفال العلمية التي تعاني من خطأ في النحو في كثير من الأحيان وركاكة الأسلوب وعدم وجود دقة علمية في المصطلحات وتناسب بين الفكرة واللغة وعمر الطفل والاعتماد على إبهار الصورة على حساب اللغة.

بدوره اختار الدكتور ممدوح خسارة كتاب المناظر لابن الهيثم نموذجاً للكتابة العلمية باللغة العربية قديماً، وتطرق إلى عناصر الكتابة العلمية في كتاب المناظر على مستوى الجملة الاسمية والفعلية والخبرية والإنشائية في الكتابة العلمية إضافة إلى الأداء اللغوي في الجملة ومصطلحات ابن الهيثم في البقاء والتغير وطرائقه في وضع المصطلح العلمي، واستعرض خسارة خصائص الكتابة العلمية عند ابن الهيثم والتي اتسمت بالوضوح والدقة والسهولة واليسر والتعبير المباشر وتجنب المحسنات اللفظية والاستعانة بالرسوم والأشكال إضافة إلى التبويب والتقسيم والإحصاء والإيجاز والنزعة العقلية.

وقدم الدكتور أحمد شيخ السروجية مداخلة بعنوان الكتاب المرجع والمؤلف والمترجم تحدث فيها عن فوائد نقل المعرفة بالترجمة التي تتمثل في حصول المترجم على

دراية جيـدة بالمصطلحات العلمية وتحسين معرفته وقدرتـه على الكتابة باللغة العربية وإتقانه لهـا إضافة إلى قدرته على التعامل مع اللغتـين العربية والأجنبية ما يمكنه من امتلاك القدرة على استخدام اللغة العربية بأسلوب علمي ميسر ورأى أن سبب افتقارنا للغة علمية جيدة يعود إلى قلة الممارسة وليس لقدرة اللغة العربية.

كما قـدم الدكتور قاسم سـارة مداخلة بعنوان الكتابة العلمية في المنظمات الدولية بدأها بتعريف للكتابة العلمية لفت فيها إلى أن القائمين على الكتابة العلمية للمنظمات الدولية يتسمون بالاطـلاع والإلمام باللغات الأخرى أكثر من نصيب غيرهم وأنهم يتوخون الدقة المشوبة بالحـذر للتعبير عن المفاهيم المستجـدة، وأوضح أن الكتابـة العلمية في المنظمات الدولية هي عمل جماعي ذو طابع مؤسسي يخضـع لمقاييس دوليـة ويتطلب اتخـاذ خطـوات إداريـة وتقنيـة متكاملة يحظى فيه ضمان الجودة بالأولوية المطلقة ويخضـع للتقييم الدائـم ويحرص الكتاب العلميـون فيه على الاستفـادة مما يتجمع فيه من معارف ومصادر لغوية متجددة من أجـل المحافظة على الاتسـاق في الأساليب اللغوية وفي المصطلحات مستخدمين أحدث مـا انتهت إليه التقنيات في الحوسبة وإدارة المعلومات ويحتل التوثيق فيه مكانة رفيعة.

وقدّمت ضمن فعاليـات المؤتمر طائفة غنيـة من المداخلات تناولـت وسائل تنمية الكتابة العلمية باللغة العربية، وسبل تطبيق المعايير العالميـة على التقاريـر المعلوماتية باللغة العربية وتنمية الكتابة العلمية باللغة العربية لطـلاب الهندسـة إضافة إلى دور التعريب في الكتابة العلميـة باللغة العربية ودور الترجمـة في الكتابـة العلميـة باللغة العربيـة، حيث أشـارت الدكتـورة غيداء الربداوي إلى أن العلوم الهندسية بمجالاتها المختلفة المعماريـة والميكانيكية والكهربائية من العلـوم الهامة في المجتمـع لأنها عماد هذه الثورة التقنية ومن أكثر العلوم الحديثة تأثيرا وتأثرا بها، كما أشارت الدكتورة أميمة الدكاك إلى تميز الهندسـة بتطور تقنياتها السريع وبـروز مصطلحات وطرائق وآليات حديثة تتطلـب من المهندس مواكبتها من جهـة ومواكبة دخول مفـردات تخصها من جهة أخرى، وتحدث الدكتور أحمد مطلوب حول دور التعريب في الكتابة العلمية باللغة العربية موضحاً أن التعريب يقوم على ثلاثة أمور لابد منهـا في الكتابة العلمية وغيرها وهي المصطلحات والترجمة والتأليف، ورأى الدكتور زهير إبراهيم أن المشكلة التي تواجه أقطـار الوطـن العربي هـي التخوف من

الترجمة أو التعريب في مجال الكتابة العلمية عند تعليم العلوم الطبيعية والدراسات التجريبية في الجامعات بحجة أن التعليم بالعربية يحرم المتخرج من متابعة الركب العلمي المتطور بسرعة ولأن الاعتماد على المراجع العربية أمر غير ميسور.[1]

وجه مضيء للتليسي:

تقديراً لدوره وإسهاماته الفكرية والثقافية نظم مجمع اللغة العربية بالجماهيرية الليبية ندوة حول حياة وآثار المؤرخ والأديب الليبي الراحل خليفة محمد التليسي بعنوان «التليسي في الذاكرة» وذلك بمشاركة عدد من الأدباء والمفكرين والمثقفين والباحثين من مختلف الجامعات الليبية، الذين قدموا خلالها قرابة ١٤ بحثاً تتناول سيرة ومواقف وحياة الأديب الراحل خليفة محمد التليسي.

واستهل أعمال الندوة نائب أمين عام مجمع اللغة العربية بورقة بحثية بليبيا بعنوان «التليسي مترجماً»، تناول بها دراسات التليسي لإنتاج وسير بعض أعلام الأدب الإيطاليين.. مبينة إبداعه في هذا المجال والذي تمثل في تأليف قاموسيه الإيطالي العربي- والعربي الإيطالي.

وقدمت بعد ذلك الورقة البحثية الثانية بعنوان «التليسي مؤرخاً»، ورصدت هذه الورقة في مقاربة أولية، بدايات تطور التدوين التاريخي في المكتبة الليبية إلى عصر الدكتور خليفة التليسي، وأشارت الورقة إلى مكانة التليسي كمثقف بين أبناء جيله في القرن العشرين، وإلى مدونته التاريخية التي ضمت ١٥ كتاباً رصدت التاريخ الوسيط والحديث المعاصر، وجمعه بين التأليف والترجمة.

وجاءت الورقة البحثية الثالثة تحت عنوان «التليسي الوجه المضيء في الأدب العربي الليبي»، بمثابة شهادة حول مكانة أدب الدكتور «التليسي»، وما قدمه من إسهامات كان لها أثر كبير في المشهد الثقافي الليبي خاصة وفي الوطن العربي بصفة عامة، وقالت الورقة «إن الجهود التي بذلها التليسي في ميدان البحث الأدبي كافية للدلالة على جدية صاحبها وتمكنه من تنوير بعض القضايا المهمة وارتياد مجالاتها البكر»، وأضافت أن الباحث التليس عمل بدأب للكشف عن جوانب خفية في تاريخنا، وأن جهوده في هذا المجال ستظل على الدوام مقرونة بحاجة ملحة إلى ضرورة الاهتمام بكل جوانب تاريخنا الوطني.

وتحت عنوان «ملامح الخصوصية في شخصية التليسي الثقافية» كانت الورقة البحثية الرابعة، وعرّفت هذه الورقة

القليسي بأنه أحد أقطاب الثقافة الليبية المتينة، وعُمدها الرصينة، وهو أحد أرحب الأبواب التي رأى خلالها العرب والغرب حقيقة ليبيا وعلو مستواها الثقافي والإبداعي، وحول الملامح والصفات التي غلفت شخصيته الثقافية، أوضحت الورقة أن الدكتور التليسي كان يتصف بالعصامية، والنزوع النقدي، والموسوعية، التي صنعت منه أديباً يُعد مفخرة لليبيا وأدبائها وعلمائها ومثقفيها.

وتناولت الأوراق البحثية الأخرى التي قدّمت خلال هذه الندوة نتاجات وإبداعات الأديب الراحل، وإسهاماته اللغوية، ونتاجاته التاريخية، ومنها كتابه «المؤشرات الدلالية في معجم معارك الجهاد في ليبيا «١٩١١-١٩٣٢»».

وحول إبداعات التليسي الشعرية، قدّم أحد الباحثين المشاركين في الندوة، الورقة البحثية الثالثة، بعنوان «التليسي شاعرا»، وأكدت هذه الورقة أن تميز ديوان التليسي ظهر بخصائص لغوية وبلاغية رمزية، وأنه كان صاحب رسالة شعرية هادفة، حيث تغنى بحب الوطن معبراً عن ذاته وتجربته الإبداعية الصادقة، وأضافت بأنه استطاع أن يبني لنفسه ثقافة واسعة، فيتسم أسلوبه الشعري بالرصانة والجزالة، وذلك ما كان انعكاساً طبيعيا لقراءاته في الأدبين العربي والغربي، ليجمع بين الأصالة والمعاصرة.[٢]

الفلسفة واستراتيجيات الحداثة:

أقام مركز الصحافة العالمية في مقرّ وكالة الاتصال الخارجي بالعاصمة التونسية ندوة حول الفلسفة والتنوّع الثقافي والتقارب بين الثقافات، وذلك في إطار فعاليات اليوم العالمي للفلسفة بمدينة العلوم في تونس بإشراف وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ووزارة التربية والتعليم ووزارة الثقافة والمحافظة على التراث.

وقد استهل الدكتور فتحي التريكي رئيس كرسي اليونسكو للفلسفة بجامعة تونس الندوة واضعا إياها في إطارها ومنوّها بجهود كلّ المساهمين في هذا الحدث الفكري والعلمي الذي اعتبره التريكي هاما على أساس أننا «في العالم العربي في حاجة إلى تطوير الفكر الفلسفي»، مشيداً بمكانة تونس على المستوى العالمي في مجال البحوث الفلسفية. وقد تمّ اختيار تونس لعدة اعتبارات، لعل أهمها حرص تونس على الإيفاء بالتزاماتها وانخراطها في توجهات المجتمع الدولي، واعتبارها من الدول العربية القليلة التي تعير اهتماماً كبيراً لتدريس الفلسفة «الثانوي والجامعي».

وقد قدّم الدكتور التريكي لمحة عن

ظروف نشأة هذا الهيكل المنبثق عن «اليونسكو» بالأساس، حيث أشار إلى الجهود الساعية إلى نشر السلام ونبذ الحروب تواصلت على مدى خمسين سنة أي منذ إنشاء منظمة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٩٥ عندما تمّ اعتماد إعلان باريس- بمشاركة خمسين فيلسوفا من مختلف أنحاء دول العالم- والذي تتلخص مبادئه في النقاط التالية:

١- الفلسفة في مواجهة المشكلات العالمية وتعزيز التعاون بين الشعوب.

٢- تعليم الفلسفة بكلّ مجالاتها «العلوم الإنسانية وترسيخ مبدأ التكافؤ الاجتماعي».

٣- توسيع نطاق التدريس والتوجّه إلى تشريك الشباب في هذه التوجّهات الفكرية.

وقد أكد الدكتور فتحي التريكي على استعداد كرسي الفلسفة للمشاركة في كل البرامج وعلى مواجهته للهجمة الشرسة التي أطلقت على الإسلام مما خلق نوعا من التصادم بين الحضارات في ظل حالة مفزعة يعيشها العالم اليوم على كل المستويات خصوصا تنامي العنصرية حتى وصلت إلى درجة أنها أصبحت سياسة دول. ويرى الدكتور التريكي أن الحلّ يكمن في الفكر وليس في السيف وأن يتمّ تحديد الأمور ثمّ التوضيح فالنقد مع تشخيص الأمراض ثم التنظير.

وأكدت الباحثة فاطمة الترهوني على دعم كرسي الفلسفة للحوار وتعليم الاتجاهات الفلسفية لبناء الفكر المستقلّ، مشيرة إلى مؤتمر الحوار العربي الآسيوي بشأن الفلسفة والذي سيعقد في مارس/ آذار ٢٠١١ المقبل، واعتبرت أن من أهداف تنظيم مثل هذه الحوارات تطوير الفكر الفلسفي التنويري داخل الوطن العربي، وهي محاولة في البحث في قضايا فلسفية شائكة وعلاقتها بالفكر، لذلك تعدّدت اللقاءات والمحاضرات في كلّ من المغرب والجزائر ومصر وبيروت وتهدف جميعها إلى تحريك الساحة الفكرية العربية، إذ يجب على الفكر العربي الفلسفي أن يساير الفكر العالمي ويوجد معه جنبا إلى جنب، وأشارت الترهوني إلى أن كرسي الفلسفة قد أصدر ٨ كتب إلى حدّ الآن بالتعامل مع دور نشر عالمية شهيرة وبلغات مختلفة كالفرنسية والألمانية والإنجليزية.

وفي إطار فعاليات هذه الندوة قدّم الباحث الجزائري عمر أزراج مداخلة قيّمة تركزت حول تأثير الكلونيالية على تشكيل نقد ليوتار وداريدا وفوكو للحداثة الغربية.[٣]

أبو ظبي للثقافة والتراث تبحث في تاريخ السيوف العربية:

أصدرت دار الكتب الوطنية في هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كتاب «سيوف عربية» الذي يعرض تاريخ السيوف ومراحل صناعتها، وذلك في إطار الاستراتيجية التي أطلقتها الهيئة لإغناء المكتبة العربية ومكتبة تراث جزيرة العرب، بما يعكس الاهتمام بتراث الأجداد، والحرص على جمع المصادر كافة المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي والعالم العربي عموماً، إيماناً منها بأهمية هذا الرمز العربي.

ويحكي الكتاب سيرة السيف الذي احتل المكانة الأولى في المجتمعات والحضارات القديمة، لاسيما العربية، فهو رفيق المحارب وخليل الفارس وأهم قطعة سلاح كانت تمتلكها الجيوش في الماضي، وهو ما يعطي لحامله الهيبة والاحترام والوقار، وقد تفنن صانعو السيوف منذ القدم بتقنيات صناعته مسخرين خامات متنوعة، على الرغم من كونها بدائية غير أنها باتت منارة يهتدي بها صانعو سيوف اليوم.

ويوضح الكتاب كيف أن السيف العربي لا يزال رمزاً لتاريخ طويل من الصناعة الدقيقة، والتقاليد الضاربة بجذورها في أعماق الثقافة العربية، منذ ما قبل الإسلام وحتى تاريخها القريب، وهو عند العرب رمزاً للشهامة والشرف، بل هو الرفيق الملازم في الحل والترحال، حتى أطلقوا عليه ما يقارب من ٣٠٠ اسم وأنشدوا فيه الشعر، فقد بلغ تعلقهم بالسيف حداً جعلهم يتوارثونه كالكنوز، ويحيكون حوله قصصاً وأمجاداً.

كما يحكي الكتاب أهمية السيف عند العرب فهو يعد أثراً تاريخياً وتحفة فنية فاتنة، تقتنيها المتاحف المتخصصة، ويتهافت على جمعها الهواة المتحمسون، الذين يعدون السيف العربي التجسيد الأمثل لما وصلت إليه تقنية صناعة السيوف عبر الأزمنة، لجمعه بين الفعالية القتالية والفن.

وفي هذا الكتاب يستطيع القارئ إلقاء الضوء على مكانة السيف العربي في الثقافة والتاريخ عبر سرد مختصر ومكثف في الوقت ذاته، إلى جانب القيمة الرمزية للسيف من خلال نظرة العرب الفلسفية إلى السيف كتعبير عن الرغبة في الوصول إلى الكمال عبر اتحاد الوظيفة الوجودية والمظهر الخارجي في هيئة عضوية واحدة.

وفي كلمة لهيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث عن هذا الإصدار جاء فيها «السيف أصل أصيل في حياة العربي، لا يمكنه التخلي عنه وإن زالت أسباب استعماله، شأنه في ذلك

شـأن مختلف عناصر البيئة العربية، ولم يكن السيف لدى العربي زينة يتحلى بها في حله وترحاله فحسب، بـل كان أداة حرب ورمزاً للعزة ومجالاً لإظهار الإبداع الفني والبراعة في الصنـع، حتى غـدا السيـف بأقسامه الأربعة «النصل، المقبض، الغمد والحمائل» مجالاً خصباً للإبداع والفن العربي».[٤]

متحف زايد الوطني:

أكد الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس دولة الإمـارات أن «متحـف زايد الوطني» سيكون منارة إشعاع تبرز رؤية مؤسس الدولة الوالـد الراحل الشيخ زايد بـن سلطان آل نهيان، وقال بمناسبة إزاحة الملكة إليزابيث الثانية ملكـة المملكة المتحدة والشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي في الساحة الغربية لفنـدق قصر الإمارات الستار عن التصميم الخاص بـ«متحـف زايد الوطنـي» المتوقع افتتاحه عـام ٢٠١٤ في جزيرة السعديات: «إن المتحـف يعكس الفكـر الثاقب لمؤسس دولة الاتحاد وإنجازاته العديدة وعلى رأسها توحيد أبناء الإمارات كافة تحت راية واحدة وبنـاء دولة قويـة ومزدهـرة.. ليبقى هذا الصرح الوطني الشامخ رمزاً لإرثنا الثقافي العريق وشاهـداً حياً للأجيال القادمة على الإنجـازات الكثيرة التـي تحققت في عهد الشيـخ زايد وحافـزاً لنا جميعـا لمواصلة بنـاء دولتنا الغالية بالنهج والعزيمة ذاتهما، مؤكداً أن متحف زايد الوطني سيكون نافذة يطل منها زوَّاره وضيوف دولة الإمارات على تراث شعب الإمارات وإرثه الثقافي ونهضته الاقتصادية والمعيشيـة والبيئية والتعليمية والصحية».

وأوضح الشيخ سعود بن صقر القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم رأس الخيمة أن المبادرة بإنشاء «متحـف زايد الوطني» يعدّ خطوة غير مسبوقـة وفريدة من نوعها وأن الهـدف من إنشائه يتمثل في تسليط الضوء على الجوانب المختلفة في حياة وفكر وأعمال الشيخ زايـد بن سلطان آل نهيان واستجلاء المعاني والقيم الكامنة فيه والتي من واجبنا أن نؤرخهـا في حياة شعب دولـة الإمارات لنحتفـي بمسيرة القائـد الأول الشيخ زايد الرمز الشامخ والتي اتسمت مسيرته بالعديد من الإنجـازات والوقائع التي ساهمت ببناء ورفعة دولة الإمارات واعتلاء المجد.

وأكـد الشيخ حمد بن محمـد الشرقي عضـو المجلـس الأعلى حاكـم الفجيرة أن المتحـف سيكون له دور كبير في اطلاع العالم علـى محطات عديـدة في حياتـه ومراحل الاتحاد منـذ توليه حكم (أبوظبي).. مرورا بتأسيـس الاتحـاد ووضع اللبنـات الأولى

لتجربة وحدويــة لا مثيل لها وأيضا جهوده الحثيثــة في لملمة الصــف الخليجي وجمع شتات الأمة العربية.

وبهذه المناسبة أكد الشيخ محمد بن زايد آل نهيــان ولي عهد (أبوظبــي) أن «متحف زايــد الوطنــي» تمّ تصميمه ليوثــق تاريخ دولــة الإمــارات ويكون شاهــدا على قدرة الشعوب على تحقيــق آمالها وتطلعاتها إذا مــا توفرت لها قيادة حكيمــة لديها الإرادة القويــة والبصيرة الثاقبة، وقــال إن الشيخ زايد بــن سلطان آل نهيــان كان أبا ومعلما وقائدا ملهما لشعــب الإمارات وللعديد من شعــوب العالم ومن هنا تكمن أهمية «متحف زايد الوطني ليس فقط كمرجع وشاهد على هــذه الإنجازات بل ليكون حافزا نحو مزيد مــن الازدهار والتقدم ليس لشعب الإمارات فقط بل لشعوب المنطقة والعالم، مضيفاً إن كل ركــن في هذا المتحف لا بــد وأن يحمل صفــات تلك الشخصية الفذة من قيم ومثل بمــا ألهمته للبشريــة في إنسانيته وتسامحه وسعة صــدره ومن إنجــازات أبهرت العالم فتحدى الزمان والمكان في كافة أعماله».[٥]

مركز ثقافي في مطار أنشون الدولي:

بهدف تعريف المسافريــن بتاريخ كوريا الجنوبية وثقافتها، أقامت الجهات الثقافية في مطــار أنشــون الدولي مركــزاً تجريبياً للثقافة الكورية التقليدية، يضم العديد من البرامج التثقيفية التــي تسلط الضوء على الفنون والثقافة الكورية الجنوبية.

والمركز الذي تشرف عليه مؤسسة كوريا للــتراث الثقافي يدعــو جميــع المسافرين الأجانب الذين ينتظرون إقلاع رحلاتهم إلى برامــج تعليمية مدتهــا ١٥ دقيقة يصنعون خلالها بأيديهم مشغــولات حرفية تقليدية مجانا مثل المراوح وعلب المجوهرات والأكياس وعلب الأقــلام، ويقــدم للمسافرين برامج تدريبية حول كيفية صنــع الأجراس وحلى الإكسسوار باستخدام قطع معدنية وشرابات بستــة ألوان كانت تستخــدم بشكل كبير في الماضي كهدية زفاف.

ويقــوم المشرفــون على ورشــات العمل وهم يتقنون الإنكليزية واليابانية والصينية بمساعدة المشاركين في البرامج بإنهاء العمل بالمشغــولات في الوقت الــذي يطلعون فيه المشارك على معلومات مفصلة حول خلفية وتاريخ كل مشغولة أو حرفة.

وقالت إحدى العاملات في المركز وتدعى لي يونغ جو لوكالة الأنباء الكويتية (كونا) إن هذه الأنشطة اليدوية تقام على مدار العام مبينــة أن ما يتراوح بين ٢٠٠ و٤٠٠ شخص يزور المركز.

وإضافــة إلى البرامج الثقافية يوجد في

المركز مسرح إذ بإمكان المسافر الاستمتاع بالموسيقى الكورية التقليدية ما يجعل زيارة المركز لزاما للمهتمين بالثقافة الكورية، ويقوم المركز كذلك ببيع المشغولات اليدوية مثل السيراميك والزجاج الملون والألبسة.

إلى جانب ذلك توجد لمؤسسة كوريا للتراث الثقافي مراكز أخرى في المطار تهدف إلى تعزيز ثقافة كوريا الغنية، وتتناول هذه المراكز تجربة الثقافة الكورية التقليدية إذ بإمكان المسافرين التعرف إلى الزي التقليدي والألعاب الكورية القديمة إضافة إلى عروض تقليدية مسرحية مجانية، وتمكين المسافرين من مشاهدة وتأمل معرض للمشغولات الكورية التقليدية يطلق عليه (بيت كوريا) وتعرض فيه مجموعة من القطع الثقافية ومشغولات تعود إلى تاريخ البلد منذ خمسة آلاف عام.[٦]

برلسكوني وجراحة التماثيل:

تعرض رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني لانتقاد جديد لسماحه لما وصف بـ«جراحة تجميلية» على اثنين من تماثيل الرخام الرومانية القديمة في إيطاليا، يمثل أحدهما إلهة الحب فينوس، والآخر إلهة الحرب القديمة، حيث أمر بيرلوسكوني باستبدال وإضافة أعضاء مقتطعة على تمثال إلهة الحرب القديمة، وكذلك يد تمثال فينوس، في محاولة انتقدها خبراء الفن، واعتبروها إجراء غير لائق وخطأ من الناحية الجمالية.

وأما ما أغضب محبي الفن هو أن هذا النوع من «التجميل»، الذي يكلف أكثر من٧٣ ألف يورو، تسبب في إتلاف العديد من التماثيل الرومانية واليونانية القديمة بدءاً من القرن السابع عشر، وقد بات موضوع التجميل حالياً عادة قديمة، وتعرض برلسكوني إلى انتقاد لعدم احترامه قواعد الترميم الإيطالية، والتي تقوم على عدم استكمال الأعمال الفنية القديمة، وعلى الرغم من أن أجزاء الجسم التي ستضاف «قابلة للإزالة»، فإن أحد النقاد الفنيين أشار إلى أن المرممين الإيطاليين، والذين تدفع لهم الحكومة لترميم الأعمال الفنية القديمة في الصين، يعلمون الصينيين عدم إخفاء الفرق بين القديم والجديد في التماثيل.

يشار إلى أن هذين التمثالين وجدا منذ قرابة المئة عام، ويعرضان في مقر إقامة برلسكوني، وقد احتفظ بالتمثالين سابقاً في متحف روما، وكان قد أمر بيرلوسكوني بتخفيضات هائلة إلى أكثر من ٤٠٪ في ميزانية إيطاليا للفنون الجميلة للعام المقبل كجزء من برنامج التقشف.

على صعيد آخر ذكرت وسائل الإعلام

أن دار نشـر مارسيليـو أصدرت كتاباً تحت عنـوان «الملك يضحـك، كل النـكات التي رواها برلوسكوني» للمؤلف الشاب سيموني باريللاري.

ويرصد الكتـاب ويحلل كل النكات التي رواها رئيـس الحكومة الإيطاليـة سيلفيو برلوسكـوني وكيـف يوظفهـا سياسياً، كما يقدم تحليلاً مفصـلاً لأساليب برلوسكوني في التواصل الساخر، ومـدى انعكاس ذلك علـى الحيـاة السياسيـة، حيـث يستخدم هـذا الأسلوب سلاحا ضـد المعارضة وأداء الحكومة.

يذكـر أن برلوسكوني أطلـق نكات عدة وتعليقـات ساخـرة في مواقـف ومناسبات مختلفة أثارت جدلاً كبيراً، مثل وصفه الرئيس الأميركـي بـاراك أوبامـا عقـب انتخابه بالشاب الأسمر الوسيـم ونكاته عن اليهود واليسـار الإيطالي، وحسـب تحليل المؤلف فإن برلوسكوني يستخـدم النكات كنوع من الحمايـة ضد النقـد، ويضيـف إنه يجيد استخدام النكتة للتورية، ليقول علناً ما يعنيه من دون الحاجة إلى تحمل العواقب.(٧)

الإسبانية ماتوتي تفوز بجائزة سرفانتيس:

فازت الروائية الإسبانية أنا ماريا ماتوتي بجائزة سرفانتيس التي تعـد أسمى جائزة أدبية للناطقين باللغة الإسبانية.

وتُعـد الروائيـة الإسبانية ثالـث امرأة تفـوز بالجائزة، وقالت الروائيـة التي تبلغ من العمـر ٨٥ عاما إنها «في غاية السعادة» لفوزها بالجائزة التي تبلغ قيمتها ١٢٥ ألف يورو.

وتعُـد ماتوتـي واحدة من بـين أحسن الأدبـاء الأسبان لمـا بعد الحـرب الأهلية الإسبانيـة التي تشكل محور معظم أعمالها، وهي كذلك ثالث امرأة تحصل على الجائزة منذ إنشائها عام، ١٩٧٥. حيث كانت الأديبة الإسبانية ماريا سامبرانو أول من فاز بها من النسـاء عام ١٩٨٨، وبعد ذلك بأربع سنوات حصلت الأديبة الكوبية دولسي ماريا لويناس على هذا التتويج الأدبي.

وقالـت ماتوتي خـلال مؤتمر صحافي: «أعتبر أنها إذا لم تكن اعترافا بقيمة أعمالي، فهي على الأقـل اعتراف بالمجهود والتفاني الذي بذلته للكتابة طيلة حياتي».

واشتهرت الروائيـة الإسبانية بأسلوبها الشاعري كما تعالـج رواياتها عالم الطفولة والمراهقـة، كمـا اشتهرت كذلـك بكتابتها للأطفـال وللفتيان. ومـن رواياتها في هذا المجال: الأطفال الأغبياء، والقصة الحقيقية للأميرة النائمة.

ومن بـين أهـم رواياتها التـي حظيت بشعبيـة كبيرة وترجمـت إلى ٢٣ لغة تُذكر

روايتي آل هابيل والجنود يبكون ليلا، والمكيدة، وكل أحداثها تجري إبان الحرب الأهلية الإسبانية لما بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩.

وقال ماريو بارغاس يوسا الفائز بجائزة نوبل لهذه السنة في تصريح للإذاعة العمومية الإسبانية: «إنها تستحق الفوز بهذه الجائزة منذ مدة، ولكن أن تكون منحت هذا التشريف متأخرة أفضل من لا شيء»، وأضاف الأديب البيروفي الفائز بجائزة سرفانتيس عام ١٩٩٤ قائلاً: «أنا متأكد أن الكثير من القراء عبر العالم سيسرون لهذا النبأ كما سررت».[٨]

مرور ١٢٠ عاماً على ميلاد اجاثا كريستي:

احتفلت الأوساط الثقافية والشعبية البريطانية بمرور مئة وعشرين عاما على ولادة الكاتبة البريطانية «اجاثا كريستي» التي ما تزال رواياتها البوليسية عن الجريمة وألغازها من بين الأكثر مبيعاً في العالم.

وقال القائمون على تنظيم معرض أعمال اجاثا كريستي في مباني مؤسسة السينما البريطانية في لندن: إن كتاباً أو شريطاً مصوراً أو مواد لها علاقة بالكاتبة أو أعمالها تباع في كل ثماني ثوان في مكان ما في العالم.

وقد اختارت مؤسسة السينما البريطانية الاحتفاء بالذكرى المئة والعشرين لميلاد الكاتبة بطريقة مبتكرة فقامت بنقل مقطورة من قطار «الاورينت اكسبرس» قطار الشرق السريع إلى باحة مجاورة لمركز عروض السينما، وفتحت المؤسسة بابه للمهتمين للتجوال في أروقته وتلمس جدرانه الخشبية والجلوس على مقاعده الفاخرة آملة في أن تمكنهم هذه التجربة من محاكاة الحقبة التي عاشتها الكاتبة خاصة وإنها كانت تستخدم القطار في ترحالها واختارت اسم القطار عنوانا لواحدة من أهم رواياتها «جريمة في قطار الشرق السريع»، حيث نقلت شركة اورينت اكسبرس مقطورة «زينا» وهو اسم محاربة اسكوتلاندية إلى منطقة «ساوث بانك» في وسط لندن لأنها تتميز بمعالمها الأصلية، وقد بنيت المقطورة في عام ١٩٢٩ من القرن الماضي أي خلال الفترة التي قامت اغاثا كريستي برحلاتها في القطار ونشرت عقبها روايتها الشهيرة «جريمة في قطار الشرق السريع» وقامت كبرى شركات السينما العالمية بإنتاج أكثر من فيلم صور معظمها في القطار.

يذكر أن كريستي حازت شهرة عالمية، وجذبت اهتمام ملايين القراء من جميع الثقافات واللغات، وقد نشرت ثمانين رواية

أثبتت فيها أن القدرة على فهم الجريمة ومرتكبيها لا يعني إعجاباً بها بل تعني أن عقول البشر في حالة تأهب دائم لحل الألغاز.[٩]

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»

WWW. SANA. ORG.

٢- وكالة الأنباء الليبية «جاما»

WWW.JAMAHIRIYANEWS.COM.

٣- وكالة الأنباء التونسية

WWW.AKHBAR.TN.

٤- موقع العرب أونلاين

WW.ARABONLINE.CO.

٥- وكالة أنباء الإمارات

.WWW.WAM.ORG.AE

٦- وكالة الأنباء الكويتية «كونا»

WWW. KUNA. NET.

٧- وكالة رويترز

WWW.REUTERS.COM.

٨- شبكة المعلومات العربية المحيط

WWW.MOHEET.COM.

٩- موقع ميدل ايست أن لاين

WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

كتاب الشهر

النسبة في الطبيعة

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن

قد يبدو للوهلة الأولى أن النظر إلى الطبيعة في مجموعها الكلي كموجود مادي وما ينتج عن ذلك من حركة لها تستتبع بالضرورة جملة من التغيرات، يستدعي منا الوقوف على ماهية هذا الوجود في حراكه وسكونه. ولربما أيضاً يستدعي منا دراسة الطبيعة في مكونات تواجدها وعلائقها في توازن نسبي صحيح، وماذا يعني وجود الخلل في هذا التوازن؟ ماهية النسبة

باحث سوري.

والنسبيــة في الوجــود الطبيعــاني. جــدل العلاقــة بين مكونــات الوجــود الطبيعاني والعلاقة بينهمــا؟. هذا مايحــاول المؤلف الإجابة عليه. الكتاب تحت عنوان: «النسبة في الطبيعة» لمؤلفه الباحث «كمال القنطار». الكتاب صــادر عــن وزارة الثقافة بدمشق للعام ٢٠١٠. يقع الكتاب في /٣٠٠/ صفحة من القطع الكبير. نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

❁ ❁ ❁

الفصل الأول: سقالات البناء.

يبسط الإيقاع النسبي ظلاله على الوجود الكــوني كله، بما جهر من إيقاعات المجرات الجليلــة في الفضاء السحيــق، تتناغم فيه النسب الموقعة، فتنتظم البنى المادية، وتضبط حركاتهــا. وتتصدر صفحــات ذلك السفر مجموعة من الأعداد، دعيت: ثوابت الطبيعة الرئيسة، لم يلحظ، حتى الآن، أي تبدل ملموس في قيمها، وهي تختزل إيقاعات نسبية ذات شأن خطير في المنظومة الكونية. تأتي سرعة الضوء في مقدمة تلك المجموعة، وهي تمثل النسبة الثابتة بين المسافة التي يقطعها شعاع ضوئي في الخــلاء، والزمن الذي تستغرقه. ويتبعها ثابت الثقالة وهو المعبر عن التناسب الطردي بين قوة التجاذب الثقالي لجسمين ماديين، وكتلتيهمــا، والتناسب العكسي بين تلك القــوة ومربع المسافة بــين الجسمين. ويغوصــ ثابت بلانك في عمق عالم الصغائر الذي يحكمه ميكانيك الكم، كاشفاً عن ثبات النسبة بين تردد الموجة الضوئية وطاقة الكم المرتبطة بالموجة. أما ثابت بولتسمان فيخرج إيقاع النسبة مــن عالم الجسيمات الدقيقة، لينقذه مــن شبهات الارتيــاب، ويوظفه في رصد التناسبــات بين درجة الحرارة وحجم الغاز المثالي وضغطه، في حين يفصح العدد (١٨٣٦) عن النسبة الثابتة بين كتلة البروتون والإلكترون، يتبعه ثابتــان آخران هما: كتلة السكون للإلكترون وشحنته. إن هذه الثوابت تقوم بدور سقــالات البناء التي تقام حولها نظريات الفيزياء وتحــدد بنية الكون الذي نعيش فيه. ونحــن نصادفها حيثما اتجهنا في مناحي علــوم الطبيعــة. إلا أن هاجساً يعرضــ لبعض فيزيائي العصر: ما سر هذه الثوابــت؟ وقد يفضي تتبع ذلــك الأثر إلى أفكار وتصورات تفوق مــا ينسجه الخيال. فأبــرز النظريات التي تقــدم نفسها اليوم، كأساس لذلك، هو نظريــة الأوتار الفائقة.

لتزعــم أن للكون عدداً أكــبر من الأبعاد، لا يقــل عن سبعة، وقد يبلــغ أحد عشر بعداً. وقد خفيت الأبعــاد الإضافية عن الحواس لسبب ما. ويستدعي الغريب، فتقول نظرية الأوتار بأن ما ندعوه بثوابت الطبيعة الأساس قد لاتكــون ثوابــت أساسية حقــة، أي أن الإيقاعات التي تمثلها هذه الثوابت، ليست وليــدة خصائص جوهريــة في بنية الوجود الكوني، وإنما نتجت عن طارئ عشوائي في سياق السيرورة التي ولــدت الكون، وتقترح كثرة من العوالم المتباينة. ولكل من هذه العوالم منظومــة مــن القوانين تتسق فيمــا بينها، وتختلف بين عــالم وآخر، تسبح في فضاء لا نهاية له. لقد عكست الثوابت، في معظمها، الأبعاد الإيقاعية لقوانين الطبيعة. ولم يفتن جدل التضاد الفنون البصرية فحسب. وإنما أثار مخيلــة الشاعر أيضاً، فترجم جماليات ذلك الجدل إلى لغــة اللسان، فيقول (كعب بن جبيل):

ثوت نصف شهر تحسب الشهر ليلة

ناغي غــزالاً ساجي الطرف أحــور

أمــا (ذو الرمة) فيقــوم بتركيب نسبتين اثنتــين: الدعج والبَرَج في إيقــاع واحد، ثم يقف متأملاً:

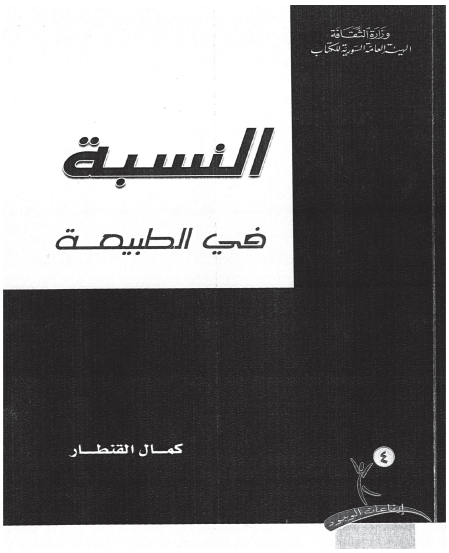

كحلاء في دعج، صفراء في برج

كأنها فضة قد شابها ذهب

ومــاذا يقول الفكر في ذلك؟ يقلب الآراء فيخرج منها حائــراً كما دخل. ولكم أضنته مثنوية (الخير والشر) فلا تنفع هذه القسمة في تسكــين هواجسه، فيفــيء إلى التوحيد ليرفــع الخير إلهــاً واحــداً، ويخفض الشر شيطاناً. وأياً كانت الإجابة من هذا التساؤل، فــإن أي تعديل، أو اغناء، لمفهوم الثقالة، لن يخمــد الإيقاع الــذي تتأثر وفقــه، ثقالياً، أشكال المــادة والطاقــة، وتنشئ منظومات بالغة الاتساق والانضباط، محكومة بقانون التجاذب الثقالي.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني: في رحاب العدد.

فتنت الدائرة الإنسان منذ القدم، وعدها الإغريق أجمل المنحنيات وأكملها. واعتقد بعضهم أن الكواكب السيارة ترسم مسارات دائرية دون زيغ. لأن عقولاً إلهية تسكنها، وليس للآلهة أن تختار، غير الدائرة مثلاً للكمال. ولئن صُحح هذا الاعتقاد على يد (كبلر) إذ بين أن مسارات الكواكب ليست دائرية تماماً، وإنما قطعية ناقصية (اهليلجية) إلا أن الدائرة لم تفقد جمالها. وتساءل محبو الدائرة، المشتغلون بالهندسة، منذ الحضارات القديمة: إن الدوائر تضيق وتتسع، ولكنها تظل متمثلة، فهل من سر يكمن خلف ذلك؟ وجرب بعضهم أن يقطع الخيط الدائري فيبسطه، ثم يقيسه، فيحصل على طول محيط الدائرة. وقام بعضهم بقياس المسافة بين نقطتين متناظرتين على الدائرة. لكن قلّة من الناس تلك التي تملك الحدس الذي يلتقط ومضة فيقوم بنسبة محيط الدائرة إلى قطرها، ليكتشف أن تلك النسبة تبقى ثابتة لا تتغير.

ها هي ذي تتراقص أمام بصر (المتنبي) أقراصاً من شظايا النور المتسلل عبر فرجات الأيك في شعب (بوان):

وألقى الشرق منها في ثيابي
دنانير تفر من البنان.

رغم ذلك، غص (اينشتاين) على العدد متعته الإيقاعية العتيقة، كنسبة ثابتة بين محيط الدائرة وقطرها، فهذه النسبة لم تعد ثابتة على نحو مطلق، ولا تساوي العدد على الدوام. وليس للقارئ الكريم أن ينتظر منقذاً في الهندسة المنبسطة، حيث تتساوى كثافة المادة الكونية والقيمة الحرجة، فإن قسمة الكون في هذه الحال سوف تكون التمدد الأبدي أيضاً، ولكن وفق إيقاع أبطأ بكثير من سابقه. نردد ما قاله (طرفة بن العبد):

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأنباء من لم تزود.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث: خواطر كونية.

إن ما يبدو لنا من ابتعاد للمجرات عنا ليس ناتجاً، في الحقيقة، عن حركة تلك المجرات بقدر ما هو ناشئ عن تمدد الفضاء الكوني. هو ظاهرة مشتقة من نظرية (النسبية

العامة) التي تراعي توسع الكون، فالمجرات تبث ضوءاً يكاد يكون جميعه بنفس طول الموجة وفي جميع الاتجاهات. لأن الفضاء يتوسع. ولا يجري ذلك التوسع في الفضاء على نحو عشوائي، فثمة ضابط إيقاعي له. لكن من الآراء ما يذهب إلى أن الانفجار الأعظم ليس سوى نقطة تحول، أو نقلة جدلية، واحدة في التاريخ الحقيقي للوجود الكوني الشامل. ويبدو أن عالمنا الكوني لمّا يقرع باب الشيخوخة، وإنما يعيش النقلة من الشباب إلى الكهولة. ومن حسن حظ الشعر أن (لبيداً) شاعر الجاهلية، قد توفي قبل إطلاق القمر الصناعي بزمن بعيد، فلو أن لبيداً قد وقف على ذلك الزمن الهائل الذي يمثل عمر الكون، لأمسك عن القول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها

وسؤال هذا الناس: كيف لبيد.

وفي صراع الجبابرة، هزت نظرية الانفجار الأعظم الصورة الكونية التي رسمها الفلكيون، وعصفت بالمعتقدات الشائعة عن نشوء الكون. إن ذلك الانفجار Biq Banq قد زود المادة البكر المنطلقة من قمقمها السحري، بطاقة حركية جبارة، أدت إلى تولد أشكال متمايزة من المادة، وإلى تحول في تلك الأشكال مازال مستمراً دون نفاذ. مازالت البيانات الرصدية إذاً تذهب إلى أن الكون ممعن في تمدده خلال هذه الحقبة من تاريخه. ومازال السؤال مطروحاً أمام الكوسمولوجيا: هل يستمر هذا التمدد إلى الأبد، أم يعتريه تحوّل إلى التقلص في لحظة مجازية؟ وإذا تواصل التمدد، كيف سيكون إيقاعه: ثابتاً، أم متسارعاً، أم متباطئاً، وما هي حال هذا الإيقاع في عصرنا؟ إن التوليفات المتعلقة بحواس الإنسان هي مزيج متراكب من جدليات الذات والموضوع. وهي لذلك ذات طابع نسبي فلكل فرد خاصيته، ولكل مجتمع تناسباته، ولكل عصر معاييره. أما التوليفات التي نتحراها في الوجود الكوني الشامل، فهي تألفات موضوعية. وإن كانت نسبية بالمقاييس الكونية زماناً ومكاناً. ويمكن النظر إلى النظم الحية على أنها نتاج توليف معياري بين الأشكال الملموسة للمادة الكونية، ومستوى ملائمة من الطاقة المتوافرة في حقبة زمانية محددة.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع: وداعاً للفيزياء.

يعرف الوزن بأنه القوة التي تجذب الجسم إلى الأرض. ولا ترجع هذه القوة الثقالية إلى الجسم ذاته فحسب، وإنما تتعلق بالمكان أيضاً، «فوزن جسم عند القطب مثلاً، يزيد عن وزنه عند خط الاستواء بمقدار (٥ , ٠٪)». وإذا رحلنا، بذلك الجسم، إلى القمر، فإن وزنه القمري سيقل بنحو ست مرات. لكن الوزن يتمتع بصفة تدعو إلى التأمل، على أن النسبة بين وزني جسمين تبقى ثابتة أينما تمت الموازنة بينهما. وسواء جرى القياس على سطح الأرض، أم على أي جرم سماوي آخر. وتتيح تلك النسبة الثابتة بين وزني الجسمين أن نقارن وزن الجسم المفرد بوحدة عيارية، بما يكشف عن صيغة جديدة للجسم هي الكتلة، وهذه الكتلة هي السبب في ثبات النسبة بين وزني جسمين، وهي إحدى الثوابت الكمية للجسم المادي، والمعبرة عن تلك الخاصية الطبيعية العميقة للأجسام كافة، خاصية التناسب الوزني، التي تمنح مفهوم (الكتلة) صفتها الإبداعية. وتعكس هذه العلاقة كسواها من القوانين ذات الإيقاعات النسبية، عمق الصلة بين القوى والكتل في التوازن الديناميكي الكوني. وفي هذا التوازن يؤدي إيقاع النسبة دوره المرموق في حفظ المنظومات المستقرة (نسبياً) وإخضاع العشوائية إلى قيود النظام.

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس: أيتها الكيمياء.

طالما تألق الشاعر الفرنسي (رامبو) إلى الاستحواذ على (كيمياء الكلمة)، ملتمساً ذلك التخاطر المكنون بين الكلمات والكيمياء، فالكيمياء تركيب وتحليل، وفن الكلمة كذلك. وفي متناول أيدينا، أنفس ما أنتجته الكيمياء من مركبات: إنه الماء، ومن ذا الذي يملك، كالماء، ذلك الطيف الغني من الإيقاعات. وقد التمسه (مجنون ليلى) فمزج به الخمر ليستحيل رضاباً في ثغر ليلاه:

كأن على أنيابها الخمر شجها
بماء الندى من آخر الليل عاتق

لكن (لافوازيه) في المختبر، حطم نظرية (الإنارة). فأثبت أن الاحتراق على اختلاف أشكاله، هو نوع من الأكسدة ينشأ عن اتحاد الأوكسجين بالمادة القابلة للاحتراق. وأيضاً إثباته العلمي لقانون مصونية المادة، وبالتالي

لا شيء يخلق من عدم. وتصنف المركبات العضوية، في العادة، في مجموعات وفقاً لتركيبها، ويتسم هذا التركيب في الغالب، بنمط إيقاعي نسبي يميز كل مجموعة.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس: إيقاعات حيّة.

للتسمية شأن عظيم في توقيع ذلك المنعطف الكبير في سيرورة الحياة: ظهور الكائنات الهوائية، عبر عملية التركيب الضوئي، مما هيأ لتغيرات جذرية في مسار التطور. ويبدو أن تدفق الأوكسجين المتحرر إلى الغلاف الجوي، قد انتهى إلى حال متوازنة تقريباً. وتختزل هذه النسبة شرطاً رئيساً لأنماط الحياة الراهنة. وإن أي خلل يطرأ على تلك النسبة سوف ينجم عنه رد فعل عضوي، قد يكون بالغ الضرر أحياناً. كما أن الزيادة المفرطة في نسبة الأوكسجين تؤدي بدورها إلى ضرر مقابل. وهكذا، فإن التفاعل المتبادل بين البيئة والكائنات الدنيا الأولى، والذي أطلق سراح الأوكسجين حراً في الجو، قد أخذ يؤثر عميقاً في التوازن البيئي البديئي، هيأت لابتكار مناح أخرى في سيرورة الحياة. ويدخل إيقاع النسبة وسيطاً للتعبير عن إحدى الظواهر الدالة على التآزر بين صفات الكائن الحي وشروط بيئته. وهكذا، فإن دينامية التناسب، كآلية داخلية في الطبيعة، تمارس فعلها التلقائي في اتجاه إحداث التوازن بين الكائن الفرد وموئله البيئي، وبين النوع ومحيطه الطبيعي، بما يهيء الشروط لإيفاء الكائن، في نزوعه إلى البقاء.

❁ ❁ ❁

الفصل السابع: إيقاعات الشخصية الإنسانية.

جاء في رسائل (إخوان الصفا) أن جميع ما على الأرض من معادن ونبات وحيوان، إنما يتكون من أركان الوجود الأربعة: النار والهواء والماء والتراب. وهي تأتلف، على تناقض طبائعها. في نسب متفاوتة. وليس اختلاف بني الإنسان في صورهم وطباعهم سوى تجسيد للنسبة بين (الأخلاط) الأربعة التي يتركب فيها جسم الإنسان وهي الدم والبلغم والمرة السوداء والمرة الصفراء. وما تعارض الأمزجة بين الناس سوى اختلال في النسبة بين تلك الأخلاط، أو ما يقابلها من الطبائع الأربع. وإذا كانت مقولة (الأركان

الأربعة) وما يقوم عليها من أمزجة وعلم فراسة، تبدو اليوم أفكاراً ساذجة تخطاها العلم، فإنها تشير إلى منحىً هام في تاريخ المعرفة، هو النزوع (التوحيدي) الذي يرجع الكائنات، جميعاً، إلى أصول مادية واحدة، ويبحث في أسباب التباين بين أنماط الشخصيات والأمزجة على أساس واقعي محسوس. إن شخصية الإنسان، واختلاف أنماطها مازالا محفوفين بالأسرار العلمية، على الرغم من المكتشفات الهامة في خريطة المورثات، التي وضعت اليد على أعداد من الجينات المسؤولة عن هذه الفعالية الحيوية أو تلك. والتي تؤثر في رسم ملامح الشخصية.

الثقافة الكونية

رئيس التحرير

التسليم بصحة القول الشائع عالمياً، من أن العالم يؤلف قرية واحدة كبيرة، أصبح من الأمور التي لا نقاش حولها، نظراً للتطورات والتغيرات التي طرأت على وسائل وأساليب وتكنولوجيا الاتصال والمعلومات، وهذا الأمر يزداد شدّة وقوة وتقدّماً مع مرور الشهور والسنوات..

إن عصرنا، هو عصر علم في المحل الأول، ليس بمعنى التقدم الهائل الذي تمّ إنجازه في مجال العلوم الطبيعية والبيولوجية وما إليها، بقدر ما يعني

سيطرة وسيادة التفكير العلمي القائم على التجربة المحسوسة، وتحكّم التفكير العلمي الدقيق في السلوك وتوجيهه للعلاقات الإنسانية وما يترتب على ذلك من تراجع وانكماش في التفكير الغيبي القائم على مسلمات لايوجد دليل قاطع على صحتها ويصعب البرهنة عليها عقلياً وعلمياً.

إن تقدم تكنولوجيا الاتصال جعل من الميسور الانفتاح على ثقافات العالم في شتى أصقاع الأرض، وانتشار التعليم بمختلف درجاته وأنواعه على نطاق واسع في الوطن العربي، بشكل لم يكن معهوداً من قبل، والإقبال الشديد على التعليم الجامعي والعالي، واعتباره مطلباً اجتماعياً، وليس مطلباً شخصياً، أتاح الفرصة لأعداد كبيرة من الناس للاتصال بالثقافات الأجنبية من ناحية، وإعادة النظر في كثير من الأمور الحياتية والاجتماعية والثقافية، وهذا سوف يشكّل في القادم من السنوات مشروعاً مفتوحاً لبناء معرفة ثقافية عربية متقدمة، من منطلق تاريخ هذه الثقافة التي كانت دائماً، بحكم مقوماتها وإنجازاتها على صلة مستمرة بالثقافات الأخرى ولم تكن بعيدة في أي وقت من الأوقات عن التأثيرات الخارجية.

كثيرون يقولون، كيف يمكن أن يتحقق ذلك، ونحن نشهد اليوم نوعاً من التسوّل والاستنساخ لثقافة الآخرين، وليس إنتاجاً لثقافة ذات خصوصية خاصة، الأمر الذي يؤدي إلى خلل في الميزان الثقافي ويشكل في المستقبل أزمة ثقافية، لأن المزيد من التمادي على هذا المنوال يفقدنا التراث والأصالة اللذين ميّزا ثقافتنا وحصناها لحقبات تاريخية مضت، ومن دون أن يغيب عن بالنا أهمية التثاقف والانفتاح محصين بذلك التراث وتلك الأصالة، نؤثر ونتأثر، نتمسك بهما من غير تحجّر ونرفدهما بما يلائم من الحداثة من غير تعقّد وتبعية.

الثقافة الكونية، تحاول بشتى السبل والوسائل فرض نمط استهلاكي وقولبة الثقافات المحلية المختلفة وبدرجات متفاوتة، ومصادرة تراثها وتفكيك ركائزها من خلال تهميشها والتقليل من أهميتها وعدم صلاحيتها لمواكبة العصر، وهي كما يقول عنها الزميل الدكتور مسعود ضاهر: «ثقافة عالمية عابرة للقوميات والجنسيات، وتسعى إلى تدمير التقاليد والعادات الموروثة في المجتمعات التقليدية أو تلك التي ولجت باب الحداثة

ومابعد الحداثة من باب استيراد إنتاج العلم والتكنولوجيا، لامن باب تصنيع ذلك الإنتاج والتفاعل معه محلياً».

وهذا يعني أن المجتمعات النامية تعاني في زمن «الثقافة والقرية الكونية من انكفاء في القيم وتعرض لمشكلات عديدة، والعيش في حالة من التقهقر الثقافي وما يترتب عنه من مخاطر التبعية والاندثار.. وهنا يبرز خطر غياب الإبداع على المدى الطويل، لأن الثقافة النقلية التي يجترها الوطن العربي لا تكفي لمقاومة الثقافة العقلية التي ينتجها الغرب، ويحضر في الذاكرة التساؤل الذي طرحه «ابن خلدون» حول تقهقر الحضارة العربية في الأندلس، فيرجع سبب هبوط المستوى العام بفعل رحيل العرب عن الأندلس، ليس لأن العرب عرب، بل لأن العرب كانوا يشكلون ما نسميه البنية الفوقية للمجتمع، أي إنهم كانوا يضمّون أهل العلم والمعرفة والمال، لذلك عني رحيلهم رحيل الأساس البشري لعملية الازدهار، كما أنه عني استبدال حركة الازدهار بحركة تقهقر.. وبذلك أعطى «ابن خلدون» تحليل الثقافة والمعرفة بعداً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، فأمام ذلك المجد والتراث والحضارة الذي تركناه في بلاد الأندلس، ألا يدفعنا ذلك أن نستفيق اليوم، لنبحث فيما آلت إليه أوضاعنا، في الأسباب والنتائج؟!.